

یوری کولیسنیکوف

اصطلاحات



أرض  
البيمار



یوری  
کولیسنیکوف

# الغبار

روایة

دارالتقدم موسكو

ترجمة : ابو بكر يوسف

Ю. Колесников  
ЗЕМЛЯ ОБЕТОВАННАЯ  
На арабском языке

يروى مؤلف الكتاب قصة شاب يهودى يدعى حاييم فولديتير ، هاجر قبيل الحرب العالمية الثانية الى «ارض الميعاد» فلسطين متأثرا بالدعاية الصهيونية . وعندما اصطدم بالواقع تبددت احلامه ، ككثير غيره من المهاجرين اليهود .  
ويولى الكاتب فى هذه الرواية اهتماما كبيرا بفضح جوهر الصهيونية ، وقرابتها الروحية مع الفاشية .

© دار روسيا السوفيتية

© الترجمة الى اللغة العربية - دار التقدم ، ١٩٧٩

طبع فى الاتحاد السوفيتى

K  $\frac{11104-464}{014(01)-79}$  607-79 0804000000

في ساعة متأخرة من الليل استدعى طبيب السفينة للكشف على الراكب المريض . وبعد ان فحصه لم يتفوه بكلمة وتوجه الى القبطان . وكانت السفينة «ترانسلفانيا» المكتظة بالمهاجرين من اوربا ، قد جاوزت مضيق سكارينتو وخرجت الى عرض البحر الابيض المتوسط متجهة الى شواطئ فلسطين . ولم يكن قد تبقى الا يوم او اكثر على الوصول ، عندما مالت «ترانسلفانيا» على جانبها الايسر قليلا وتحولت فجأة عن خط سيرها . فقد قرر القبطان ان يترك الراكب المريض قبل حلول الفجر في اقرب ميناء قبل ان ينتشر خبر اندلاع الوباء على ظهر السفينة . اذ كان القبطان يدرك ما معنى تفشى الذعر بين الركاب . وبالإضافة الى ذلك فلو حدث وباء لما استطاعت «ترانسلفانيا» ان تدخل ميناء حيفا قبل انتهاء فترة الحجر الصحي ، ولاختل نظام رحلات السفينة . وربما كان هذا اخشى ما يخشاه القبطان وخاصة الشركة التي تملك السفينة .

ونقل المريض حاييم فولديتير الى قمرة ضيقة جدا في مؤخرة السفينة ، كانت تستخدم حسب الضرورة تارة كمعزل صحي وتارة اخرى كمشرفة .

ولاحت تباشير النور عندما ظهرت بعيدا وراء خط الافق البنفسجي الداكن ملامح ذرى الصخور الشاطئية الحادة . وكانت الخضرة تتناثر عليها هنا وهناك وتبدت اشباح المنازل الحجرية البيضاء للمدينة الممتدة في الجزء الجنوبي الشرقي من قبرص .

والقت «ترانسلفانيا» مرساتها على بعد ميل من المجرى الملاحي ، ورفعت على ساريتها علم الاشارة «نطلب معونة طبية عاجلة!» .

وكان سطح السفينة لا يزال خاليا من الركاب عندما انزلت نقالة تحمل المريض المغطى ببطانية حتى راسه الى زورق حراسة بريطاني رسا الى جنب السفينة .

ونقل حاييم فولديتير الى مبنى ميناء ليماسول المتواضع .

وكان مكتوبا في شهادة المريض الرسمية «السرטיפيكات» ان «المتطوع حاييم بن اسراييل فولديتير الذى ادى «الاكشارا» \* يحق له دخول فلسطين» ، وعلى الوجه الآخر للوثيقة خاتم بيضاوى ازرق يؤكد صحة توقيع القنصل البريطانى الذى اعطى تأشيرة الاقامة في الاراضى الخاضعة للانتداب البريطانى . وعند اطلاق السلطات المعتمدة في ليماسول على هذه الوثيقة لم تضع اية عوائق في وجه المريض الاجنبى وامرت بتسليمه لرئيس الطائفة اليهودية المحلية .  
وحملوا حاييم على عربة جر بعجلتين الى الحاخام بن صهيون هاجرا . وقالت الحكمة التى استدعاها الحاخام بعد ان فحصت المريض :

- تيفوس . . .

وجحظت عينا بن صهيون هاجرا البارزتان المحمرتان بالدم ، ووضع على بطنه يديه بأصابعهما الطويلة المصفرة كصفرة الموت ودمدم بعض الصلوات بفزع :

- شما اسراييل ادوناي الوهينو ادوناي احوذ ! . . . \*

كان منزل الحاخام غاصا بالاطفال ، فنقلوا الضيف الثقيل فورا الى مبنى تداعى من القدم ويجمعه مع الحظيرة سقف واحد ولا يفصله عنها سوى حاجز متهالك . وتطوعت الحكمة التى كانت طبيبا منزليا في أسرة هاجرا لرعاية المريض . وكانوا يدعونها في بيت الحاخام العمة بيتيا .

ومنع الحاخام الاطفال من الاقتراب من «الجناح» وامرهم ان يعلقوا على صدورهم اكياسا تحوى فلفل اسود وثوما مقشرا واعشابا ما وكافورا ، الامر الذى كان ينبغى في نظره ان يحميهم من العدوى . وامر خادمته اويًا التى كانت تعنى بالدار ان تطفى الجدران بالجير وتغسل عتبة الدار والارضية بحامض الكربوليك .

\* التدريب العملى الذى كان الصهاينة ينظمونه خارج فلسطين وعلى اساسه يمنح المهاجرون حق دخول «ارض الميعاد» . هذه الملاحظة والملاحظات التالية للمؤلف .

\*\* اسمع يا اسراييل ، الرب الهنا رب واحد ! . . .



وكان الشماس ، خادم الهيكل ، يسهر الليالي بقرب فراش المريض . وكان من الممكن ان تتعرف على هذا العجوز الاحول الملتحي من بعيد وذلك من منظر «الكسكتة» المائلة على احدى اذنيه ومن قفطانه الطويل الاسود المبقع . كان ياتي الى هنا في ساعة متأخرة من الليل وينصرف قبيل الصبح ، ففي الصباح والمساء يكون الشماس مشغولا في المعبد بالاعداد للصلاة . وكان هذا العجوز يحب ان يذكر الناس بانه هو بالذات الذي يعتبر في المدينة كبير الـ«حيفرا قديشو» \* وان من مسئولياته غسل الموتى وتكفينهم حسب الطقوس . بالطبع الرجال فقط . . . وعموما فليس هذا بالشيء الهين !

وفي مساء اليوم الثاني تدهورت حالة حاييم ، اما العجوز فقد استدعى لسوء الحظ لاقامة طقوس الدفن لاحد افراد اسرة موسرة ، وكان الشماس يامل طبعا في الفوز ببقشيش طيب . . . وبقيت العمة بيتيا الى جوار المريض طوال الليل . وفي الفجر اخبرت خادم الهيكل الذي وصل بان الشاب في حالة سيئة جدا وليس من المحتمل ان يظل حيا حتى المساء .

اقترب الشماس من المريض ورفع جفنه ، وعندما تاكد من ان الحكمة مصيبة ، مضى يهمس بالصلوات ويتنهد مصدرا صغيرا ، اذ كان فمه يخلو من سنتين اماميتين . وفي الوقت نفسه راح يقدر بعين خبيرة كم يبلغ طول الشاب .

وسرعان ما انصرف الشماس ، فقد كان المعبد في هذا اليوم يحفل بنشاط غير عادي ، اذ لم يتبق على «الروش -جا-شانا» \* سوى يومين اثنين . والامر لا يحتمل المزاح هنا . خاصة اذا راعينا انه في هذه «الايام الرهيبة» تتقرر في السماء مصائر سكان الارض ! . . وفي الصباح الباكر ، بعد صلاة الغفران الليلية ، اتجه الشماس وزميله الاعرج الى المقابر ، حاملا جاروفا ومعزقة . وليس من السهل ان تحفر قبرا في تربة جافة حجرية ، زد على ضرورة

\* واخوان الدفن .  
\* \* العام الجديد .

الاسراع ، فقبيل العام الجديد يحرم الدفن من الظهر ، واما بعد العيد - لسوء الحظ - فسيكون يوم سبت ! الدفن ايضا محرم .. ولكن حرارة الجو لا تسمح بتأجيل الدفن .  
ودمدم زميل الشماس وهو يسوى ظهره المحنى ويرتكز على المعزقة :

- اذا كان العلي القدير قد قرر الا يسمح بعودة الشخص الى ارض الميعاد فلن تنفعه اذن السرتيفيكات او الشيفس-كارت او التأشيرة ، او حتى الشباب ! . . . لقد كان الشاب على عتبة الجنة تقريبا ، ولكنه انتزع منه حياته . . . اليس هو القادر على كل شيء؟ ولم يرد الشماس الا بعد فترة :

- ايه ، عندما لا يكون مكتوبا للانسان السعادة فلن تساعد بشيء . لقد لاحظت ذلك منذ زمن بعيد . فليغفر لي الله اذا قلت انه يبدو قد اصابه في الايام الاخيرة مس . . . فهو يحصد من لاداعي لموتهم ! هلا قبض اليه روح حاخامنا ، الا فلتخطفه النار . . . وانتعش الاعرج ، فقد كان مثل هذا الحديث يلقي استجابة في نفسه :

- ها - ها ! حاخامنا ؟ انه قوى كالفحل . . . التيفوس لا يؤثر فيه . . .

- ليس في الدنيا شيء خالد ! فلنأمل في عون الله . . . وظل الحفاران يحفران القبر طويلا وهما يعزيان نفسيهما بالامل في انهما سيتمكنان بعون الله من حفر قبر للحاخام .  
وعاد الشماس الى دار الحاخام بن صهيون هاجرا قبل غروب الشمس بفترة طويلة وتوجه على الفور الى المريض في الحظيرة . ولكنه لدهشته وجد هناك ، بدلا من الحكيمة ، الفتاة الشابة اويًا الخادم اليونانية لدى الحاخام ، وهي تغسل الجدران الخشبية بعناية بالماء الساخن والصابون .

ودمدم الشماس وهو يقترب من المريض :

- عينا ما تفعلين . . .

ونظر الى المريض ثم هز راسه ومد يده ليرفع جفن المريض

ليتاكد هل بقى له الكثير . ولكن اويًا انقضت فجأة على العجوز  
ودفعته جانبا . ونظر الشمساس الى الفتاة بخوف وسارع بالانصراف .

وجن جنون الحاخام عندما علم بان اويًا تعنى بالمريض :  
- من الذى اذن لهذه الحمقاء بدخول الحظيرة ؟ هل تريد ان  
تعدينا جميعا ؟ اياكم ان اراها هنا ثانية !

وكانت العمة بيتيا قد عادت من الصيدلية . وافقت بخنوع على  
ما قاله الحاخام ولكنها قالت :

- ما كان كان . . . ومهما يكن فالمرضى بحاجة الى من  
يرعاه . . . انه ما زال حيا ! اما انا ، فصدقنى ، لا اكاد اقف على  
قدمى . . .

وشيئا فشيئا هدات ثائرة بن صهيون ، فقال موافقا :  
- سيسلم المتطوع روحه قريبا . . . فلتبق معه . ولكن

اياها ان تجرؤ على الاقتراب من دارنا ! هل تسمعين ؟ !  
واكدت العمة بيتيا للحاخام انها ستعنى بذلك حتما . لم يكن  
هناك احد يعامل اويًا بمودة وعطف مثل العمة بيتيا . وعندما كانت  
تتذكرها كان قلبها يتفطر الما عليها . وتقول فى نفسها :

«لقد وهبها الله كل شىء ، الذكاء ، والجمال ، والقلب  
الطيب . ولكن ما اغلى الثمن الذى دفعته المسكينة مقابل ذلك . . .»  
كانت اويًا صماء بكماء . وقد ولدت ، كما يؤكدون ، فى  
فماجوستا . وشبت هناك يتيمة ، فقد خرج ابوها البحار فى سفينة  
صيد الى البحر ولم يعد . ومن يومها واويًا تنظر بفرح الى البحر .  
ومر الوقت ، وذات مرة عادت امها فى المساء الى البيت بصحبة بحار  
طويل جميل . وضمت الفتاة الى صدرها بقوة وقبلتها ، ومسحت على  
راسها طويلا وهى تحدىق بالم فى وجهها الاسمر الصغير . وفى  
الصباح ، عندما استيقظت اويًا ، وجدت الغرفة خاوية . وقفزت  
الفتاة من السرير وركضت الى الفناء . واشارت العجوز التى كانت  
الام تستاجر منها الغرفة الى البحر ، فرأت اويًا فى ضباب الصباح  
الازرق سفينة بيضاء تمضى مبتعدة . . . وبقيت الفتاة لدى العجوز  
تساعدها فى شئون المنزل وتجلب الماء وترعى العنزة ، ولم تدخل

المدرسة بسبب عجزها ، وكانت تنظر دائما بالم ورجاء الى السفن  
البيضاء الكبيرة التي تصل الى الميناء . . . .  
وقد التحقت اويًا باسرة الحاخام في فماجوستا ، وعندما انتقلت  
الاسرة الى ليماسول اخذت زوجة الحاخام المريضة معها هذه الخادم  
المفيدة . فقد كانت اويًا مثابرة ومطبعة .  
وبعد ان تنهى اويًا اعمالها فى المساء فتعتنى بهندامها كانت  
تبدو حسناء رائعة الجمال . وكانت الجارات اليونانيات يقلن ان الله  
قد حرم الفتاة النطق لانه وهبها كل هذا الجمال .  
وفى ليماسول كان ينزل على الحاخام كثيرا الشرطى المتقاعد  
الرقيب ستيفانوس الذى كان شريكا للحاخام فى ملكية حانة وبيت  
دعارة قرب عنبر الميناء . وفى كل مرة يرى فيها الفتاة كان هذا  
البدن يتملأها بنهم من قمة رأسها الى اخصص قدميها وهو يمسد  
شاربه . . . . ويتهامس طويلا مع الحاخام .  
وحدث ذلك فى الربيع الماضى . فذات يوم قبل عيد الفصح ،  
عندما اوشك الاستعداد للعيد فى بيت الحاخام على الانتهاء ، اعلن بن  
صهيون هاجرا فجأة انه من غير المسموح به طوال اسبوع الفصح  
وجود شخص ذى عقيدة مخالفة فى منزلهم . . . . واضاف قائلا ان كل  
شئ ، ابتداء بالطعام وانتهاء بالاوعية ، ينبغى حسب قوانين الفصح  
المقدسة ، ان يكون طاهرا ، وبالطبع يهوديا خالصا . والمخ بن  
صهيون الى انه سيضطر ولو مؤقتا الى الحاق الفتاة بستيفانوس .  
وعندما عرفت اويًا انهم سيلحقونها بالحانة هزت رأسها بشدة  
وغطت وجهها بيديها وهربت . وظلت طوال الاسبوع مختفية فى  
الجناح الذى كان يهدى فيه حايم فولديتير بحمى التيفوس . وكان  
الجميع ، ما عدا بن صهيون وابنته تسيليا يعرفون اين تختفى  
الفتاة . وراحوا يحملون لها الطعام خفية عن الحاخام ويطيبون  
خاطرهما ويعطفون عليها . ولكن ماذا كان بوسع الابناء ان يفعلوا  
وقد ارهبهم ابوهم . فلم يكن بحق لاي منهم ان يعارض الاب سوى  
تسيليا ، تلك الحسناء الرشيقة ، ذات الصدر النافر والعينين  
العسليتين ، محبوبة والدها . اما بقية الابناء : الابنة الكبرى الحدباء

لايئا ، بل وحتى الابن يوينى ، فكان عليهم ان يدعنوا فى صمت  
لمشيئة الاب .

ولم يعد حايم فولديتير الى وعيه الا قبيل العام الجديد  
بقليل . وعندما ميز بالكاد الفتاة النحيلة الصامتا الجالسة بجواره ،  
ادار راسه نحوها بصعوبة وطلب ماء .

وانحنت الفتاة على المريض وهى تتطلع بعينيها السوداوين  
كالفحم الى وجهه المعذب ، وعلى الفور قربت من قم حايم بمهارة  
كوب ماء .

كانت الشمس قد اشرقت عندما جاءت العمه بيتيا . وقاست  
حرارة المريض ثم تنهدت بارتياح : الحمد لله القدير . لقد مرت  
الازمة . لا بد من اخبار الحاخام بذلك فورا ، فليفرح اذ تلتف الله  
واطال فى عمر هذا الشاب . ولكنها اصطدمت عند الباب بالشماس  
العجوز وزميله الاعرج . وكان احدهما يحمل فى يديه ملاءة سوداء  
مطوية وهى التى يغطى بها الموتى ، والآخر يحمل شمعدانا  
وشموعا .

ومن فرط السعادة لم تستقبل الحكيمة «اخوان الدفن» بالتحية  
العادية ، بل صاحت بفرح والدموع تترقرق فى عينيها :  
- خلاص ! خلاص ! اتسمعان ؟ !

فسالها الشماس مندهشا وقد امال راسه جانبا :  
- ولم الفرحة هكذا ؟ انا نفسى كنت اعرف ان المسكين لن  
يعمر حتى الصباح . . . هيا . . . ينبغى ان نسرع ! علينا قبل  
منتصف النهار ان نحمل الجسد الى المكان المقدس . . . الا ترين اين  
بلغت الشمس ؟ قريبا يحل العام الجديد . - و اشار العجوز الى  
السماء .

وصاحت الحكيمة وقد فطنت الآن فقط الى الغرض من مجيء  
«اخوان الدفن» :

- هل جننتما ؟ ماذا تفعلان ! . . لقد مرت الازمة بسلام . . .  
هل تفهمان هذا ؟ المريض يتماثل للشفاء . . . سوف يعيش ا  
فقال الاعرج بخيبة امل وهو يمد يده بالشمعدان لاراديا :  
- لقد كنا نظن . . .

فانقضت عليه المرأة وهي تهز قبضتيها وتواصل تقريره :  
- من الذى طلب منكما هذا يا للشطارة . . . تحفران  
القبر للانسان وهو بعد حى ؟ يا للفظاعة ! . . .  
واحس الشماس بالاهانة ، فقال ساخطا عندما خرج مع زميله  
الى الفناء :

- ما معنى ان تنقض علينا بقبضتيها ؟ كما لو كنا نريد  
موت الشاب ! وتصيح «يا للفظاعة !» . . . يا سلام . . . وهل هي  
تعرف ان هناك طقوسا ؟ طبعا لا يهمها ذلك فى شىء ! حسنا ، لنفرض  
ان الشاب مع ذلك مات . ما العمل اذن ؟ هل هي فكرت ان العيد  
غدا ؟ وبعد غد سبت ؟ ايضا ممنوع الدفن ! . . . فلتحاول اذن ان  
تجلس هذه الايام فى هذا الحر مع جسد يتعفن . . . هه . . . تظن  
ان الشماس يصبر على كل شىء . . . هذه العجوز الشمطاء ، عليها  
اللعنة ! كأنما ليس لدى واجبات اهم من ذلك ! ملات الدنيا صياحا  
وكأنما اردنا ان نقتل الرجل . . .

فقال زميله الاعرج مقاطعا هذه الشكوى :

- لا بأس ، لا بأس ، ليكن الامر كذلك ، او غير ذلك . . .  
لكن اريد ان اسالك يا حضرة الشماس المحترم لماذا كان علينا ان  
نحفر القبر فى هذا الحر ، ونحفره عميقا ؟ الم اقل لك كفى ! ولكنك  
كنت تقول : لا ، لنحفر اكثر ! كل ذلك قليل . . .  
- وماذا هناك ، ماذا ؟ لخشى انه سيبقى خاويا ؟  
- هذا مفهوم ، نعم ، ومع ذلك كان ينبغى ان نردمه . . .  
الامر محرج . ثم ان النظام يفرض ذلك . . . اعتقد انى اعرف . . .  
- ممكن طبعا ان نردمه ، - قال الشماس موافقا دون  
رغبة . - واذا لم نفعل فماذا ؟ آه ! هذه المصائب تهون لو لم  
تزد . . . سنحتاج الى القبر . . . على اى حال . . .

عندما فتح حاييم عينيه كان الوقت فى الصباح الباكر . جدران  
خشبية مطلية بالجير حديثا ، وارضية ترابية مكنوسة بعناية ،  
ونافذة صغيرة تلوح منها سماء زرقاء ساطعة لم يبهت لونها بفعل  
الحر بعد . اين هو ؟ وعلى الفور تذكر السفينة «ترانسلفانيا» ،

والايام الاخيرة قبل الرحيل ، والاضطراب ووداع الاصدقاء . نعم ، لقد كان ذاهبا الى فلسطين . ثم مرض بعد ذلك فيما يبدو . . . نعم ، نعم مرض فانزلوه من السفينة . ولكن اين ؟ على العموم يبدو ان الحظ حالفه ، فقد تلقفه اناس طيبون واعتنوا به حتى شفى .

وطاف حاييم بعينيه على الحظيرة من جديد ، فرأى على المقعد بجوار راسه كوبا مغطى بخرقة نظيفة ويبدو ان به ماء ، وادوية ما : اذن فقد كان هناك احد يعنى به . وهداه هذا الاحساس ، بل افرحه ، وتواردت افكاره باطمئنان وتؤدة . وخيل اليه ان كل ما هو فظيع قد اصبح وراء ظهره ، ولا ينتظره في الامام سوى السعادة . وطلت على سطح الذاكرة مدينة رومانية صغيرة خضراء ، مدينة طفولته : بولجراد . . . الشوارع الضيقة الهادئة والحدائق الغارقة في الشمس ، ومبنى مدرسة البنين الثانوية الحجري حيث درس حاييم واصدقاؤه . وعموما فلم يكن الجميع اصدقاء . كان ايليا توموف صديقا حقيقيا . . ايليوشكا الحبيب الذكي المخلص . ذات مرة كانا يقلبان في غرفة السطح المهجورة فعثرا على رزم كتب وصحف ومنشورات مخبأة بعناية ، واتضح انها مطبوعات بلشفية متنوعة نجت بأعجوبة منذ ايام الثورة في بيسارابيا .

وراح حاييم يحضر معه الى الصف منشورا تارة ، وبيانا تارة اخرى ، وصحيفة تارة تالفة . وكان التلاميذ يقرأونها بنهم ويتناقشون فيها بحرارة . وكان انشط الجميع زميلاء في الصف ايليا توموف وفالتر آدمي . ولكن الشرطة حاصروا ذات ليلة حي السوق ، ووضعوا مدفعا رشاشا امام منزل فولديتير . واقتحم عملاء المباحث المنزل وقتشوه . واخذوا حاييم معهم والقوا به في «قبو» الشرطة . وانتشرت في المدينة شائعات مذهلة . وظهر مفوضو الشرطة في المدرسة الثانوية ، واخذ عملاء المباحث يجوبون دهاليزها .

واطلقوا سراح حاييم فولديتير بعد فترة . كان حليق الشعر تماما ، شاحبا وهزيلا كأنما تعرض لمرض شديد ، فاستقبله اصدقاءه استقبال الابطال . فبرغم التعذيب الشديد لم يرشد المباحث الى احد ، ولكنه عرف اسم الواشي . كان ذلك احد التلاميذ ، ابن ثري محلي يملك مطاحن ومعاصر زيتون ومخازن .

واصبح اسم الخائن امثولة على السنة التلاميذ . وظهرت على الجدران عبارات تدين يهوذا . وكان الحراس يمسحون العبارات المكتوبة بالطباشير فتظهر اخرى مكتوبة بالطلاء والقطران وصبغ الاشجار . واخيرا اضطر مدير المدرسة ان يطلب من اولياء امر الواشى ان ينقلوا ابنهم الى مدرسة في مدينة اخرى . وكان الثرى قادرا على كل شىء اما حايم فولديتير فقد اغلقت في وجهه ابواب جميع مدارس البلاد الى الابد . وهكذا اصبح يعمل في حانوت بيع الكيروسين التابع لعمه . نعم ، مر زمن طويل على ذلك . . . . انقضت الطفولة ، واطهرت لهما الحياة جانبها القاسى . كان ذلك بالنسبة لحاييم ولايليا . لقد التقى بايليا منذ قريب ، في كونستانسا ، قبيل سفره . وكان ايليا يتسلم في الميناء سيارات شحن «شيفروليه» مرسلة من امريكا الى جراج «ليونيد وشركاه» الذى كان ايليا يعمل فيه .

وسأله توموف :

«سمعت انك مسافر؟»

فاجاب حايم متنهدا :

«نعم ، مسافر» .

«والى اين ، اذا لم يكن سرا؟»

«الى اين ؟ لا ادري ، - وهز كتفيه كعادته وقال بصوت حزين -

يقولون انه هناك خلف البحار الزرقاء يجرى العسل انهارا ، وها انذا ذاهب لكى اتذوقه . ولكنى خائف ان شئت الصراحة ، اخشى يا اليوشا ان اجد ذلك العسل حنظلا . . . . اى والله ! ولكن ماذا افعل اذا كان هتلر يبتلع البلد تلو البلد دون ان ينزل به عقاب ، وينوى كما يقال ان يصل الى هنا ؟ انت نفسك تدرك ان فى ذلك نهايتى !» - وشد حايم الى اعلى بطريقة معبرة رباط عنقه الباهت الملفوف حول رقبته .

لزم توموف الصمت طويلا وهو يتطلع الى حايم ، الى سترته الرمادية البالية المتهدلة على كتفيه النحيلتين وكأنها موضوعة على مشجب ، والى شعره الصلب النافر كموجة نارية ، والى هيئته كلها البائسة المضحكة والمؤثرة معا . . . . واخذ يفكر . . . . فيم كان ايليا



توموف يفكر ساعتها ؟ بالطبع كان يعز عليه ان يفارق صديقا ،  
وبالطبع كان يشفق عليه ، على حايميم ، فقد كانت بينهما صداقة  
متينة وخطط كثيرة لم تتحقق .

وقال له توموف آنذاك :

«لا تتعجل الرحيل يا حايميم . سنجد لك هنا عملا ما ، انك

لست وحيدا !»

وحدثه توموف عن عمله في بوخارست وعن اصدقائه ، و اشار  
اشارة عابرة الى زكريا اليبيسكو ، الميكانيكى بجراج «ليونيد  
وشركاه» .

ومضى توموف يقول باصرار وهو يرى تردد صديقه :

«انصحك بالبقاء يا حايميم . سنرجو هذا الميكانيكى وانا واثق

من انه سيساعدنا وسيجد عملا لا بأس به . وبعدها ستجد ان

رجالنا من وراء نهر الدنيستر سيقولون كلمتهم القاطعة !»

وانتعث حايميم على الفور وسأله :

«تقصد طبعا السوفييت ؟»

فاجاب توموف وكان ذلك امر مسلم به :

«ومن غيرهم ؟ الوضع لا يمكن ان يستمر هكذا طويلا . انهم

صامتون وصابرون حتى الآن ، ولكن صبرهم سينفد .»

فامن حايميم على قوله :

«هذا صحيح يا اليوشا ، وربما كنت على حق ، - ومضى يقول

كانما يبرر تصرفه - اننى ساذج . ولكن خبرنى ماذا افعل ؟ ماذا لو

جاء هتلر الى هنا حقا ؟ لو بقيت في رومانيا فسوف اُشنق او اُعدم

بالطبع ، او اُعذب حتى الموت . وليس هناك فرق كبير كما تعلم

ان كان هذا سيفعله النازيون ذور القمصان البنية ام الفاشست ذور

القمصان الخضراء . اننى يهودى وفي هذا كل شيء . ليس لى هنا

مكان . ولهذا فانا ذاهب يا اليوشا بحثا عن السعادة . اتفهم ؟ ورغم

انى لا اعلق آمالا على الدولة اليهودية ذات الملايين العديدة كما

يجمع الصهاينة ، ولا اصدق ان هناك جنة على الارض ، ولكنسى

أمل ، أمل جدا ان ابقى على قيد الحياة في هذا الزمن الرهيب الذى

يزحف علينا . اريد فقط ان ابقى حيا - ، وقلب حايميم الصحيفة

المفضنة في يديه بانفعال - ولا تنظر الى هكذا بتأنيب واسى . ربما  
اكون شخصا ضعيفا ، لست مثلك . لست بطلا ، بل لست حتى  
مناضلا . احيانا يستولى على الفزع ، واتخيل بوضوح كيف يقبض على  
ذوو القمصان الخضراء . سوف يسحقوننى كما تسحق ذبابة ، وذلك  
حتى قبل ان اتمكن من الصراخ ، ناهيك عن فعل شىء مفيد . . . الى  
المانيا يتوجه «الفولكس دويتش» (الالمان) ، اما نحن «الفولكس  
يودن» (اليهود) فنرحل الى فلسطين . . .»

وحاول توموف ان يثنى صديقه عن هذه الرحلة الطويلة  
الخطرة ، ولكن حايمم اجابه بان الوقت قد فات ، اذ قد حصل على  
تأشيرة القنصل البريطاني بدخول فلسطين الخاضعة للانتداب  
البريطاني . وفجأة تلفت حوالياه وسأل :

«اسمع يا اليوشا ، الا تعرف اين يمكن ان اشترى مسدسا

هنا ؟»

ونظر توموف الى صديقه في سخرية .

فمضى حايمم يقول :

«لم تنظر الى هكذا ؟ اتعتقد اننا لا نملك سلاحا ؟ اذن فانت  
مخطى\* ! . . لقد ابتلع هتلر تشيكوسلوفاكيا وكان لدى  
التشيكوسلوفاكيين مصانع اسلحة ممتازة . والآن تتجول هذه  
الاسلحة في اوربا كلها تقريبا . يقال ان التشيك هم الذين وزعوها  
حتى لا تقع في ايدي النازيين . . حسنا ما فعلوه ! ولكن الدنيا  
فيها ايضا صهاينة ، وقد ابتلعوا الطعم بالطبع اى راحوا يشترون  
هذه الاسلحة . . اى والله ! لقد اشترينا مدفع رشاش جديدا من  
طراز «ZB» . اتدرى ما معنى «ZB» ؟ بسيطة جدا . . «Z» تعنى  
«زبروينو» (مصنع سلاح) و «B» تعنى مدينة برنو ! . . اما اذا  
عرفت اين اشترينا هذا المدفع يا اليوشا فستموت من الضحك .  
هل اقول لك ؟»

ولم يقل توموف شيئا بل اشاح مباحدا بين يديه .

فقال حايمم بزهو :

«حسنا ، ساخبرك . اشترينا المدفع هنا ، في كونستانسا ، في  
بيت دعارة هنا بجوار الميناء . . . اننى اسالك ما معنى هذا في

رايك ؟ لو انك تصورت للحظة ان حاييم فولديتير من بيسارايبا  
قد اشترى من المومسات الرومانيات ليهود فلسطين وبنقود  
الصهاينة الامريكيين مدفعا رشاشا من انتاج مصنع تشيكي اصبح  
ملكا للالمان . . هه ؟ اليست هذه اضحوة ؟»

فاجاب توموف شاردا :

«قد تكون اضحوة ، ولكنها ليست مضحكة مع ذلك . . .»

فتساءل حاييم :

«ليست مضحكة ؟ حسنا ، حسنا . . انها دامية يا اليوشا . .  
دامية اتسمع ؟ واصارحك اننى اشفق ان اريق دمي ، اذ ربما  
اصبحت له فائدة بعد ذلك . . هل تذكر المنشورات في غرفة  
السطح بيتنا ؟ ولهذا ينبغي ان اسافر اردت ذلك او لم ارد . .  
وداعا يا اليوشا ! . . اكتب لى : تل اييب لشباك البريد . . .»  
وهكذا افترقا آنذاك في كونستانسنا . وعندما بلغ حاييم تقاطع  
الطريق التفت خلفه . . . كان ايليا توموف لا يزال واقفا في مكانه  
يتطلع في اثره . . طويلا ، قويا ، غير هياب . . ترى اين هو الآن ؟  
ماذا حدث له ؟ وشعر حاييم بالصداع من هذه الافكار المقلقة ،  
واحس بالظما ومد يده ولكنه لم يستطع ان يبلغ الكوب . وغامت  
الدنيا في عينيه من شدة ضعفه ، وتشبع الهواء بنور ازرق رنان . .  
وفي هذا السراب ظهرت فتاة . . قد يكون ذلك خيالا او ربما حقيقة .

حل المساء . وفي مبنى الهيكل الضيق الذى استوعب بالكاد  
جميع المؤمنين كان الجو خانقا لا يطاق ، وانتشرت رائحة العرق  
والشموع المحترقة . وكانت الشموع الموضوعة على حوامل عتيقة  
او المغروسة ببساطة ، في علب من الصفيح مملوءة بالرمل ، هذه  
الشموع المختلفة الانواع والقيمة ، ابتداء بالشموع المصنوعة يدويا  
وانتهاء بتلك التحف التى تنتجها الشركات العالمية المشهورة . .  
كانت دليلا واضحا على القدرات العالية لاصحابها . ولكن بغض النظر عن  
ذلك كانت الشموع اما ترسل لها منتظما وساطعا ، واما تسيل  
شمعا مصهورا وتميل وتتقلص وتحترق . مثل البشر . . .

وكان الحاخام بن صهيون هاجرا يقف امام ستارة مخملية تحفظ خلفها التوراة المقدسة في اغلفة من الحرير المطرز والقטיפفة . وعلى كلا جانبي طاولته التي كان عليها كتاب الترانيم السميك ، ارتفعت شمعدانات فضية ضخمة . وكان في كل واحد منها سبع شمعات مشتعلة في صف واحد ، وذلك حسب تعاليم التلمود الذي اكد ان الله قد خلق العالم في سبعة ايام .

وفي الصمت المهيب المطبق حسب النظام القديم «من يرفع صوته فهو لا يؤمن في قوة الصلاة» راح بن صهيون هاجرا يرتل بتحفظ ولكن بعظمة كما يليق بالحاخام وبصوت منغم مختارات خاصة للعام الجديد من صلاة «اميدا» . وكان المصلون يرددون بين الحين والحين «آمين» . لقد حل عام جديد ، عام خمسة آلاف وستمائة وتسعة وتسعون . . .

وعلى مقربة من الحاخام وقف شماس الهيكل متسر بلا «بالطالس» \* من قمة رأسه ، وهو يتمايل على وقع الترتيل ويصلي باستغراق تام . وحسب وصايا الاجداد العلماء انهك تماما في الصلاة المقدسة وهو يرفع العبرات بوقار ويمجد الاله القدير الجبار العلي القدوس . . . وفجأة احس بانه يختنق وكأنما يضغط احد ما على رقبته ، ودق قلبه بقوة ثم توقف . ورفع عن رأسه الطالس المصفر بفعل الزمن وملاً صدره في حذر بالهواء المكتوم ، ولكن الالم الحاد تحت صفحة كتفه لم يتوقف . عندئذ شق طريقه الى الاريكة وتهالك عليها بتثاقل .

واتجه اليه زميله الاعرج وتطلع الى وجهه باستفهام فقال الشماس وهو يشير الى صفحة كتفه اليسرى :  
- هنا شيء ما . . .

وفي هذه اللحظة دوى صوت «الشوفارة» \* \* المهيب فتزلزل الهيكل بأصوات المصلين . ولم يعر زميل الشماس الاعرج اهتماما بذلك ، وحمل العجوز من تحت مرفقه وجره الى باب الخروج ، واجلسه على اريكة في الفناء .

\* ملاءة بيضاء بخطوط سوداء واهداب صوفية في الاطراف .  
\* \* المزمار ، آلة موسيقية نحاسية قديمة .

وقال حفار القبور الاعرج وهو يومي براسه الى الهيكل :  
- الجو خائق لحد الموت . . لا بد ان ذلك بسبب دخان  
الشموع المصنوعة منزليا . هل تشعر بالم ؟ ترى ما السبب ؟  
فقال الشماس بصعوبة وهو يلهث :

- وما ادرانى ؟

- ما راىك فى ان احضر لك قليلا من الماء ؟

- وما ادرانى ؟

وجاءه الاعرج بقدر ماء فشرب الشماس جرعة واخرى ، واعتدل  
جالسا وتنهى بعرق وقال :

- يبدو انى احسن قليلا . . . - وفجأة بدا يميل على جنبه .  
وتجمع الناس وراحوا يبحثون فى الحشد عن طبيب ، ولكن العمة  
بيتيا اقتربت منه وقالت انه ليس فى وسع احد ان يقدم معونة  
للميت . . .

وحملوا جسد الشماس الى غرفة ضيقة وخواوية تقريبا فى الفناء  
الخلفى للهيكل حيث كان يعيش كراهب معتزل ووضعوه على الارض  
وصلوا عليه صلاة قصيرة وغطوه بالرداء الاسود الذى كان قد  
لغه بعناية من اجل الشاب الوافد .

وتمدد الميت الليل وطوال النهار التالى ، اول ايام العام الجديد ،  
ثم طوال يوم السبت ، ولم يحملوا الشماس الى المقبرة الا فى النصف  
الثانى من نهار الاحد . . ووضع حفار القبور الاعرج شقفة فخارية  
على كل عين وشقفة ثالثة اكبر على فمه ، حسبما تتطلب الطقوس :  
فى العالم الآخر يتطهر الانسان من الآثام الملتصقة به وهو على  
الارض . . من عينيه الجشعتين الحسودتين ، ومن فمه النهم  
البذى .

وبعد ذلك فقط غطوا جسد الشماس بالالواح وادعوه ذلك  
القبر الذى حفره لغيره بجد واستعجال . . ولدهشة الحاضرين قرا  
الحاخام بنفسه صلاة الوداع الاخير عند القبر الحديث . وكذلك  
قداس الميت اذ لم يكن عند الميت الاولاد . وفى طريق العودة راح  
الحاخام يقص على المحيطين به فى تائر ذكرياته عن الشماس ويقول  
انه كان اكثر خدم الهيكل غيرة على الدين ، ويردد انه ، هو الحاخام

بن صهيون هاجرا ، كان يعامله دائما بسماحة وعدل . ومن يدري هل كان الهاخام سيتمدح المتوفى بهذه الصورة لو علم بحلمه في ان يشهد جنازة الهاخام ويتشفى فيه جزاء على كل ما تحمل الشمس من بن صهيون طوال سنوات خدمته في الهيكل .

اما حفار القبور الاعرج ، الذي اصبح شماسا الآن بقرار من الهاخام ، فقال بحزن وهو يمط الكلمات :

- وهل هذه حياة ؟ لقد كان العجوز رجلا طيبا ، فليغفر الله له ذنوبه . . كان كادحا شريفا ، طيب الله ثراه . كان تقيا جدا . عليه الف رحمة . . كم بذل من جهد في حفر القبر ، اتسمع يا حاخام ؟ كم كان مهتما بان يكون القبر عميقا ، وما دار بباله انه هو الذي سيرقد فيه الى الابد ، المسكين ، عليه الف رحمة . حسنا ، اننى اسألك هل هذه حياة ؟ هه ؟ !

## ٢

قهر الشباب المرض ، وراح حايم يتمائل للشفاء ، ويستعيد قواه ببطء . وافكاره عن ابيه واخته ، اللذين تركهما في رومانيا وعن صديقه ايليا توموف الذى يضرب هائما في شوارع بوخارست ، لم تعد تبدو له سوداء بلا امل . لقد صبغت فرحة العودة الى الحياة كل شىء بلون الامل الساطع غير المألوف لدى حايم . واخذ ينتظر اياما افضل ويؤمل في قواه وعناده ، ويحلم بان يستدعى اياه واخته بمجرد ان يستقر فى الموطن الجديد ، وبانهم جميعا سيحيون حياة رائعة . ولسبب ما كانت اويا تتسلل الى هذه الاحلام الوردية الهشة . وعندئذ كان حايم يغمض عينيه فيرى ابتسامتها الرقيقة الخجلى ورموشها الطويلة المنتشرة كالمروحة على خديها الاسمرين . ومر شهر ، واصبح حايم يسير بمفرده دون الاعتماد على اويًا . واكتسى رأسه الحليق بشعر احمر نارى غزير وصلب كالفرشاة . وكان يقول مازحا :

- ما اعجب الاحوال . . كنت راحلا لتخشوشن يداى من العمل فاخشوشن جنباي من الرقاد . . الى متى اظل عالة على الآخرين ؟

وعادت اويًا الى واجباتها المنزلية ، فمضت الايام طويلة مملة  
بالنسبة لحاييم . واخذ يفكر في الرحيل كثيرا .  
وكان يقول بينما عيناه الرماديتان تلمعان بمرح :  
- انهم في فلسطين لن ينتظروني . . ماذا لو انهم شيدوا  
مناك الجنة . . ما الذي يتبقى لي اذن ؟ !  
وفي اسرة الحاخام لم يعودوا يخشون «المريض بالتيفوس» .  
واصبح بن صهيون هاجرا نفسه يدعو الى بيته . ولم يكن اهتمامه  
بهذا الشاب المجهول القادم من بيسارابيا البعيدة عفويا . فلم  
يدر بذهن حاييم انه غزا قلب ابنة الحاخام النزقة المدللة ببساطته  
وبراءته وسرعة بديهته . لقد بدت تسيليا الضخمة الجسم والجميلة  
جذابة في نظر حاييم ، ولكن اعجابها المستمر بنفسها واحتقارها  
للمحيطين بها ورغبتها في اصدار الاوامر لهم والسيطرة عليهم ،  
واخيرا اعتدادها المبالغ فيه بالنفس . . كل ذلك كان ينفره منها  
ويستثيره .

وذات مساء ممطر اقترح الحاخام على حاييم ان ينتقل من  
الخطيرة الى البيت .  
فشكره حاييم وقال متهربا :  
- آمل اننى لن ازعجكم طويلا . . الى متى اثقل عليكم واستغل  
صبركم ؟ !

- دعك من هذا ! لقد الفك اولادى جدا . ستتخلى لك تسيليا  
عن ركنها ، بجوار الصوان . . فقلبيها رقيق جدا .  
واسرعت تسيليا تقول وهى تتضرع :  
- يمكن ان نضع هناك سريرا !

وشكرهم حاييم مرة ثانية واعتذر من جديد . كان يشعر  
بالحرية اكثر في الجناح-الخطيرة ، ولكن لم تكن الحرية وحدها هى  
التي حببت اليه الجناح ، بل زيارات اويًا له هناك . لقد الفتته ، وفي  
لحظات راحتها القصيرة كانت تحديق بتوتر في عينيه الرماديتين  
الذكيتين برموشهما الشهباء . واذا حدث ان ادار وجهه استحياء ،  
كانت اويًا تغضب ، وتمسك راسه بيديها الصغيرتين وتدير وجهه  
نحوها . كانت تريد ان تعرف هل هو مخلص لها ، وهل سيبقى

هنا دائما ام سيقلع في البحر المترامى المخيف ، الذي سلبها يوما  
ما اباهما وامها .

وذات مرة اثناء العشاء ارادت اسرة الحاخام ان تسمع حكايات  
من حايميم . كان افرادها يتهامسون : «انه درس في الثانوى !  
ويتحدث بالفرنسية والرومانية ، بل وحتى بالروسية ! ويروى  
الحكايات فلا تمل السماع» . وبالفعل كان حايميم راويا لا تنفذ جعبته  
من شتى القصص عن الحوادث والحكايات المضحكة . واستجاب عن  
طيب خاطر لرغبة بنات الحاخام وراح يروى بحزن ودعابة ذكريات  
عن طفولته . وبالطبع كان ذلك في غيبة الحاخام .  
وقال حايميم :

- كان ابى يرغب في ان ادرس في مدرسة التلمود ، ولكنى  
لم ارغب ! كنت اهوى الركض في الشوارع . . . ولكن اذا كان  
احد يرغب في شىء والآخر يرغب في شىء آخر ، فلن ينتج عن ذلك في  
النهاية اى شىء مفيد . . . وهذا ما كان . . . كانت المرحومة امى  
تاخذنى الى المدرسة وتقول : «اذهب يا بنى واطع المعلم  
اتسمعنى ؟» فاقول ليا «نعم ، طبعا» . وتنصرف امى المسكينة وهى  
تظن ان ولدها حايميم جالس الآن في الصف ، اما انا فكنت اعود الى  
بوابة المدرسة واختبي منتظرا حتى تنعطف امى عند ناحية الشارع ،  
وعندئذ انطلق هاربا بكل ما لدى من قوة . . .  
وتنهال اسئلة بنات الحاخام :

- ولماذا ؟

- كيف ، لا تدخل المدرسة ؟ !

- والى اين اذن ؟

فيستطرد حايميم بمرح :

- الى اين ؟ اوه . . . كان لدينا هناك ما نذهب اليه . . . انها  
مدينة ممتازة لو كس ! اولا كان عندنا بحيرة ، اى بوسعنا ان  
نستحم . وثانيا كان يمكن ان نتفرج على الصيادين ، وعلى الزوارق ،  
ويمكننا ان نترى في الحديقة الاميرية ونتقلب على العشب . . . وهو  
هناك طويل يصل الى الخصر . . . وعموما ما اكثر ما يمكن عمله . . .  
انا مثلا كنت اهوى التسكع في سوق الخيل . يا لها من متعة ! الخيول



من جميع الانواع والاسماء . . . خيول الجر والامهر الصغيرة . تقف هناك وتتفرج على المشترين وهم يفحصونها ، والخيول ترفس . . . . . وكنت احب ان اتفرج عندما يتأملون اوجه الخيل ويتفقدون اسنانها . . . . . فهكذا يحددون عمر الحصان ! اما اذا حدث حريق او جنازة فى المدينة لا قدر الله ، فانا اول الحاضرين ! وبالطبع لم اكن اذهب الى المدرسة . . . . .

وسالت ابنة الحاخام الكبرى بدهشة :

- وكيف كان الحال فى البيت ؟ الم يكن والداك يزجراك ؟  
- فى البيت ؟ لم يكن احد فى البيت يدري شيئا . . . . . فعندما يعود التلاميذ من المدرسة كنت اعود الى البيت . . . . . وفى المساء اتظاهر باننى احضر الدروس بينما ارسم منازل محترقة وخيولا ترفس . . . . . وعندما يعود ابنى من العمل اكون قد نمت . اما والدتى فتقول باعجاب وهى سعيدة بتحضيرى للدروس : «ولدى سيصبح دكتورا ! يا حاييم ستكون دكتورا اليس كذلك ؟» فكنت اجيبها : «نعم» ولا اذهب الى المدرسة . . . . .

وتقهقه الفتيات بصوت رنان . اما يوينى فيهز راسه متحسرا .  
وتتطلع تسيليا الى نفسها فى المرأة وتبتسم بتحفظ وهى تعجب بجمالها .

واستطرد حاييم :

- واستمر الحال كذلك حتى يوم سبت مشهود . ذهب والدى فى الصباح الى الهيكل . وهناك قابل معلمى اسحق الذى كنا نسميه ببساطة اتسك . كان مرا كالحنظل . وعموما فبسببه كنت لا احب الذهاب الى المدرسة . كنت اخافه . كان لا يفلت المسطرة من يديه اثناء الدرس ، وما ان يتحرك احد ما قليلا فى مجلسه حتى ينهال اتسك بالمسطرة على راسه . وسأل المعلم ابنى : «ماذا حدث ؟ هل ابنكم مرض لا قدر الله ؟» فاجاب ابنى : «كلا ، انه بخير والحمد لله . . . . . ولماذا تسأل هكذا ؟» فقال المعلم بغضب : «انت تسألنى لماذا اسأل هكذا ؟ انا اسأل هكذا لان ابنكم لم يحضر الى المدرسة منذ ثلاثة اسابيع !»

ومضى حاييم يروى بحماس وقد شجعه ضحك الفتيات

الجماعى :

- كان لدى ابي حزام . . من الجلد ! ويا له من حزام ويا له من ابزيم نحاسى كان فيه . . فى ذلك اليوم احسست بهما جيدا فى جميع الاجزاء الطرية من جسمى . . .  
فقال يوينى بدهشة :

- ياه ! ياه ! اسمح ابوك بذلك يوم السبت؟ ياه ، ياه . . كيف يمكن ان يضرب طفل يوم السبت ؟ ! اوه . . يوم السبت ؟  
- لان اليوم كان السبت لذلك بقى ابي فى البيت وضربنى علقه حتى اننى ظلمت اسبوعا لا استطيع ان امشى باتزان . . . ومنذ ذلك اليوم كان يصاحبنى بنفسه الى المدرسة حتى باب الصف . وتصوروا اننى كنت اجلس فى الفصل . ولكن كيف كنت اجلس ، اه لو تعلمون ؟ ! لم يكن هناك عذاب اشد من هذا . كان فصلنا صغيرا وعلى كل مقعد يجلس ثلاثة او اربعة تلاميذ ، بينما كان ينبغى ان يجلس اثنان . . فكيف لا تشعر بالزحام ؟ وكان هذا التلميذ او ذاك يسقط بقعة حبر على دفتر زميله ، وجاره يلوثها بكوعه فيدوى صياح ممطوط : «يا حضرة المعلم . . انه دفعنى !» . وهذا بالضبط ما ينتظره اتسك . فينهال بالمسطرة حتى تظل تحلم شهرا بانها معلقة فوق رأسك ! اما المقاعد فكانت لا تصلح الا كوقود . . . كانت دائما تصدر صريرا ، تتمايل ثم تتكسر فنسقط نحن ونصاب بالرضوض فنصرح ونعول . وماذا تظنون النتيجة ؟ ضربات من مسطرة المعلم اتسك . . وهل كان ذلك ذنبنا ؟ ولكن لا تظنوا انه كان يضرب الجميع ! لا . . لم يكن يمس اولاد الاغنياء . . اوه يا له من معلم ! كان يشعر بمتعة خاصة وهو يسحبنا من آذاننا . كان يأتى من الخلف ويقبض على الاذن وويجبرك على النهوض . وتقف بطول قامتك ، بل تشب على اطراف قدميك وهو لا يزال يشد الى اعلى ، الى اعلى حتى يكاد يصل الى السقف . ويخيل اليك ان جلدك سينسلخ الآن عن رأسك ، بينما هذا الجزار لا يزال يشد . . .

وتعلمت الفتيات خوفا وهن يصغين الى حاييم بافواه مغمورة .

وجاءت الحكيمة . وكان حاييم يروي قصة مضحكة وقعت له فضحكت  
الفتيات من قلوبهن .

وقالت العمة بيتيا وهى تتطلع الى حاييم باعجاب :

- ممثل حقيقى !

وفجأة قالت تسيليا :

- انظروا ، الآن ستظهر الخرساء عند النافذة ! ما ان نجتمع

حتى تحشر نفسها .

ونظر الجميع لاراديا الى النافذة المفتوحة . وبالفعل ظهرت

اويًا فى فجوة النافذة المظلمة .

فهتفت تسيليا بانتصار :

- انظروا ، الم اقل لكم ؟

وضحك الجميع . وغضت اويًا بصرها بخجل ، وخفضت

راسها ، ولكنها لم تبتعد عن النافذة .

وشعر حاييم بالدماء تندفع الى وجهه وكانما تلقى صفعة .

وضبط نفسه حتى لا يقول عبارة حادة ، واقترب من النافذة فى

صمت وابتسم لاويًا ، وتناول يدها بلطف .

وانقطع الضحك فوراً . وظهرت على وجه تسيليا بقع حمراء ،

ولمعت عيناها ببريق غاضب . واقتربت الحكيمة من اويًا ومسدت

راسها . وعندما خرج حاييم الى الفناء دون ان يتفوه بكلمة واخذ

الفتاة بعيداً عن النافذة ، قالت العمة بيتيا :

- لا داعى للضحك على مصائب الناس . . الله يرى كل

شئ . انها هى ايضا انسان . . .

وتظاهر الحاخام بانه لم يلقى بالا لتصرف حاييم ، ثم قال :

- اى حب ؟ حب هذه الشحاذة ؟ لقد كانت ترعاه وتغسل له

ملابسه ، ولهذا احس نحوها بالشفقة . . حسنا وماذا فى ذلك ؟

كان بن صهيون هاجرا يقول شيئا ويفكر ويقوم بعمل شئ آخر

اذا كان ذلك فى مصالحه .

وفى اليوم التالى استدعى الحكيمة لزيارة الهيكل . وبدأ يتحدث

فى الموضوع ولكن من بعيد :

- انت يا عمة بيتيا ساعدت المرحومة زوجتى عند ولادة

تسيليا ، ثم اشرفت على علاجها من الحمى القرمزية ، اللهم لا تنزل  
بدارى شرا كهذا . . .  
وهزت الحكيمة رأسها فى صمت وتنهدت بعمق . لقد تائرت  
بهذه الكلمات .

- اننى اعرف انك تحبين تسيليا ، ولذا ارجوك ان تجدى  
لها عريسا مناسباً . . .  
فقال العجوز بدهشة :

- هل تظن يا حاخام اننى استطيع ان اكون خاطبة ؟

فرد بن صهيون بنبرة لا تقل دهشة :

- ولم لا ؟ اليس هذا مما يشرفك ؟

- لا اقصد ذلك يا حاخام . . ولكنك تعنى بالطبع حايم ؟

- طبعاً !

- حسناً يا حاخام ، اذا كنت تعتقد ذلك . . . يمكن بالطبع

ان احاول .

وقبيل الغروب فى يوم الجمعة جاءت لايا ابنة بن صهيون

الكبرى الى العمة بيتيا ، وقالت :

- جئت ادعوك الى الغداء عندنا غدا .

فسالت الحكيمة :

- وماذا حدث ؟

- تسأليننى ماذا حدث ؟ وهل اعرف ؟ هكذا . . . لا شىء .

سمعت ان حايم سيرحل قريباً . . . الافضل ان تسألنى ماذا حدث  
عندنا اليوم ؟

- ماذا هناك ؟

- كل ما فى الامر ان تسيليا قضت طول النهار فى المطبخ . . .

تصورى اذن ماذا جرى هناك ! ارتفع الصراخ والضجيج ، حدث هياج

شديد لدرجة اننى لا ادري كيف لم اجن حتى الآن !

فتساءلت الحكيمة باصرار :

- لكن ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟

- ماذا حدث ؟ . . لقد قررت تسيليا ، فليهبها الله الصحة ،

ان تعد سمكاً محشواً . . بنفسها ، بدون مساعدتى . . - وهتفت

وهي ترفع يديها الى اعلى - كأنما انشقت السماء ! آه لو رايت يا  
عمة بيتيا ماذا كان يجرى ! كانت امعاء السمك وخياشيمه مبعثرة في  
كل مكان ، وتطايرت القشور والدماء ، وتساقطت قطع السمك على  
الارض وقرقعت الاواني ورنت المقالي واحترق البصل ، وتناثر الفلفل  
الاسود واصاب انوف الجميع ، فرحنا كلنا نعطس حتى طفرت  
دموعنا . . . اما هذه الخرساء فكانت تقفز هنا وهناك ، صدقيني ،  
اسرع من العنزة الجبلية بمليون مرة ! وكيف تظنين كانت النتيجة ؟ -  
وضحكت لايتا وهي لا تخفى سرورها - لقد جرحت تسيليا اصبعها . .  
اوه يا للمرح ! طنينه ما زال في اذني حتى الآن ! وباختصار  
كانت تسيليا في المطبخ !

واصغت الحكيمة بانتباه وهي تتظاهر بالدهشة والاستنكار  
لكل ما حدث ، ثم سألت بنفس التظاهر الساذج :  
- ومن ذا الذي ارادت ان ترضيه بطهيها ؟ اهو حايم يا  
تري ؟

- عم تسالينني ؟ ! وهل اعرف ؟ لقد سمعت انه ينوي  
الرحيل . . . اما اذا لم يكن كذلك فارجو ان اكون مخطنة اذ يبدو  
لي ان هناك شيئا ما بينه وبين الخرساء . . .  
ورسمت الحكيمة على وجهها مزيدا من الدهشة ولكنها لزممت  
الصمت .

فمضت لايتا تقول :

- هكذا ! هي خرساء وهو مريض بالتيفوس ومع ذلك فهذا  
ما يحدث ! . . . ولكن يبدو سيأخذون الفتاة من عندنا هذه الليلة .  
هكذا سمعت . ولكن فليبق هذا سرا بيننا يا عمة بيتيا ، اتسمعين ؟  
ونظرت الحكيمة من فوق عويناتها نظرة تأنيب الى لايتا وقالت :  
- ماذا ؟ اتظنين انني سأجرى لابلغهم ؟ وماذا اقول لهم ؟ !  
ومضت ابنة الحاخام تقول :

- يبدو انهم سيعطونها لستيفانوس . . . لا احد غيره ولكنهم  
لم يقولوا لي . انني قبيحة ، لست ذكية ، ويعتبرونني عدوتهم  
دائما ! ومكاني هو المطبخ . . . ما العمل اذا كان حظي تعيسا ؟ !  
لا بد ان هذا نصيبي . كم اشفق على الفتاة ، الا تصدقين ؟ جدا !

سيكون وضعي اسوا ، كل العمل في المنزل والفناء سيلقونه علي رأسي . . . انت تعرفين يا عمة بيتيا اية مساعدة يمكن ان انتظرها من تسيليا . . . حسنا ، حسنا . . . لا تسألني عما ينتظرنني من سعادة !

وهزت الحكيمة رأسها بحزن وهي تصغي الى لايثا . وقالت في نفسها : «يا له من حاخام ! سيلف حباله علي الشاب المسكين حتى ينسى اهله ! والادهي انه ربما القى علي كاهله بابنته تسيليا بدون اية بائنة . . . هذه الحمقاء . . . استغفرك يا رب !» .

وقطعت ابنة الحاخام علي الحكيمة جبل افكارها :  
- لكن ارجوك يا عمة بيتيا الا يبلغهم ذلك ، لا قدر الله -  
وتضرعت اليها قائلة - والا اكلوني حية . . . تعالى للغداء من كل بد ، اتسمعين ؟ سوف ننتظرك ! ضروري .

لم يكن بن صهيون هاجرا حاخاما فحسب ، بل ورئيس بنك «الزماله» المحلي . وكان من سلطته تقديم القروض وتأجيل السداد . وكانوا يحتكمون اليه في قضايا النزاع حول عقد الصفقات التجارية وتنفيذها . وله الكلمة الفاصلة في امور الزواج والطلاق .

كان شخصا ذكيا ومثقفا . وقد ولد في غاليسيا وطاف بكثير من دول اوربا ، ودرس في اثينا . وكان يجيد لا لغة «اليديش» والعبرية القديمة فحسب ، بل وكذلك اليونانية والانجليزية والبولندية ، ويستطيع ان يتفاهم بالالمانية والعربية .

وكان مديد القامة ، ضيق الصدر ، طويل الذراعين ، كبير الرأس ، متين العنق . وكان شعره الغزير ، ولحيته البيضاء الكثية ، ونظرته الثاقبة المظلة عن عيني عسليتين كبيرتين ، تجعله اشبه بنبي من انبياء التوراة .

وكان الحاخام بن صهيون هاجرا يسير في ليماسول علي نمط حياة مستقيمة ، بيد ان الاشخاص الذين كانوا يعرفونه عن قرب كانوا يتهامسون بان رقيب الشرطة المتقاعد ستيفانوس يدير بيت دعارة باموال الحاخام .

وكان بن صهيون هاجرا محبا للتسلط ، ولا يطبق المعارضة ، ولكنه كان يصغى لآراء ذوى الحكمة ، وخاصة اذا كانت آراؤهم تتفق ومصالحته . ولم يكن يتورع عن اية وسائل للدفاع عن مصالحه ، وان كان يبدو من الخارج دائما طيبا ومسالما . وقد يخيل للشخص غير المحنك احيانا انه ليس الجانب ووادع ، وذلك لانه كان يفضل ان يزيح الاشخاص الذين يحاولون الاضرار به او ببساطة يعرقلونه من طريقه بحذر ودون ضجة .

اما الرقيب المتقاعد ستيفانوس الذى كان يعمل شريكا له ويعرفه عن قرب فلم يكن يدعوه الا «الافعى هاجرا» ويقول عنه : «انه يزحف دون صوت ، فيلدغك ، وانتهينا !» . وعندما قرر ستيفانوس ذات مرة ان يتزوج بارملة شابة من فماجوستا احس بن صهيون بان فى الامر شيئا . فقد بدت له المرأة ذات شخصية قوية وذكية . فكيف ستتنظر امرأة كهذه الى علاقات زوجها «بشريكه» ! ؟ وعلى الفور ازال هاجرا هذا الخطر . فقد اطلق عن طريق اشخاص مؤتمنين لديه شائعات تسيىء الى سمعة هذه الارملة الشابة ، وسرعان ما اضطرت الى مغادرة الجزيرة مجللة بالعار . . .

كان الهاخام هاجرا حريصا على ستيفانوس ، لا بسبب الدخل الذى كان يعود على الهاخام من الحانة اساسا ، حسبما كان البعض يظن بل لامكانية اقامة اتصال عن طريقه بعالم المهربين . . .

فبالاضافة الى مناصبه الرسمية كان بن صهيون هاجرا شخصية غير مشهورة ولكنها واسعة النفوذ فى «اكسيونس كوميتى» («لجنة العمل») المقر الرئيسى «للمركز القومى» الصهيونى القيادى . وكانت هذه المنظمة الغنية التى كانت ، بالاضافة الى دخولها المباشرة ، تحصل على الاعانات من كثير من رجال البنوك والحوانيت والمصانع والحرفيين اليهود فى كل انحاء العالم ، تعمل على اقامة قاعدة اقتصادية وعسكرية قوية ، تنشأ عليها الدولة اليهودية الموحدة مع مواصلة توسيع مجالها الحيوى للمهاجرين من ابناء العقيدة المقيمين فى الدياسبورا \* .

\* الشتات - اى اليهود المقيمين خارج فلسطين .

كان بن صهيون يعمل غير باخل بقواه ، رغم انه كان يعرض على صحته وقد بلغ الرابعة والخمسين . ففي الصباح والمساء كان يصرف شئون العبادة في الهيكل بمشاهدة ، واثناء النهار يقوم بوظائف الحكم والرعى الروحي والقاضي والحكيم . واذا حدث ولم يتمكن خلال النهار من انجاز الاعمال التي استقر من اجلها في هذه الجزيرة ، كان يسهر عليها ليلا . وكان يجري المباحثات ويعقد الصفقات التي كانت تفوق من حيث ابعادها ولاشروعيتها اعمال الاحتيال التي كان يقوم بها اكبر رجال الاعمال الدنيويين وامهرهم . . . وكان حذرا وبعيد النظر في شئون العمل ، وبالطبع لم يكن صدفة ان يتخذ من الفتاة اليونانية الصماء البكماء خادما في بيته . فلو انها رأت شيئا او شكت في امر فلن يكون بوسعها ان تتحدث عنه . ولكن ها هي فجأة تصبح عقبة .

وقال الحاخام في نفسه : «ما اسوأ امورك يا بنيتي تسيليا عندما تصبح منافستك هذه الفتاة التعيسة !» ووعد ابنته ان يزيل هذه العقبة «التافهة» - على حد تعبيره - من طريقها . ولكن الظروف حالت بينه وبين الانصراف الى ذلك .

- لقد حلت ايام ساخنة . . . - قال وهو يفتتح اجتماعا لمجموعة ضيقة من الاشخاص الذين وفدوا الى داره بمناسبة وصول مبعوث خاص من القيادة العليا ل«اكسيونس كوميتي» الى قبرص . وبعد ان عرف المبشرين الصهاينة الوافدين على قبرص بهذا الشخص الذي كان يرتدى قميصا من التيل الحائل اللون بكتافيات صغيرة وجيوب صدرية محشوة ترك له بن صهيون هاجرا كرسي الرئيس عند الطاولة .

كان المبعوث رجلا معروفا ، اسمر ، يرتدى نظارة كبيرة الاطار ، بشعر مجعد خفيف وصلعة تلوح في وسطه . وقد بدأ كلامه بالحديث عن الحياة السعيدة والعمل الشاق للمستعمرين في الوطن ، في ارض اسرائيل . واكد بصفة خاصة على اهمية النشاط المتسع باستمرار ل«كيرين هايسود» \* في شراء اراضي جديدة وبناء عدة

\* اتحاد صهيوني لشراء قطع الارض من العرب .



مستعمرات . وتحدث بحماسة خاصة عن نجاحات الصهاينة الكبيرة في النضال اليومي ضد البريطانيين الذين يعرقلون مجرة الاخوان في العقيدة ، وضد العرب الذين يقاومون اليهود في توسيعهم للمجال الحيوى . ولكن مبعوث المركز الصهيونى اعار اهتمامه الرئيسى لتحليل الوضع الدولى والمهام التى يطرحها هذا الوضع امام «البيتاريين» \* .

وقال المبعوث وهو يصاحب كلماته بحركات واسعة من

يديه :

- بريطانيا منهمكة في الحرب مع المانيا ، وهى تبذل محاولات يائسة لكى تبعد عنها الضربة التى يجهزها لها هتلر . وبالطبع ستجد مخرجا ، ليست هى بريطانيا ! لكنها الآن في وضع صعب للغاية . وهى مهددة بخطر آخر . من جانب ايطاليا هذه المرة . فموسوليني ، كما تعلمون اعلن البحر الابيض المتوسط «بحرا لايطاليا» . وهو يسعى في المقام الاول الى تأمين سلامة الملاحة لسفنه لاستنزاف ثروات الحبشة . . . وهنا ستبدأ لعبة «القط والفار» . فالبريطانيون عازمون على فك الحصار عن ايطاليا ، هذا الحصار الذى ضربوه اثناء غزوها للحبشة . وتصوروا انهم يجرون مباحثات مع ايطاليا لعقد اتفاقية تجارية ! . . . وباختصار يريدون استمالة موسوليني . اما الدوتشى فيعرف قيمة موقف بريطانيا الودى نحوه . ولكنهم في لندن يعرفون ايضا ان ايطاليا هى عدوهم القادم ، وان محاولتها لتحويل البحر الابيض المتوسط الى «بحر مغلق» هى تهديد خطير لمصر وقناة السويس .

- هذا امر سيىء . . . - قال بصوت ممطوط احد الاشخاص الموثوق بهم في «اكسيونس كوميتى» ، وهو رجل لاذع اللسان ، عجول ، يعمل محاميا . وكان طرف كم سترته القديمة الخاوى مدموسا في جيبه .

ولم يرد المبعوث بل ضحك ضحكة قصيرة ساخرة ، موحيا بان

---

\* جناح يمينى متطرف فى الحركة الصهيونية يستهدف تحرير وارض الاجداد» بالكفاح المسلح .

هذه الاجابة سابقة لاوانها ، وراح يشرح على الفور كيف يمكن في ظل الخط الذي وضعه «المركز» الصهيوني استخلاص منفعة كبيرة من الوضع الدولي الراهن .  
ودوى صوت المبعوث :

- تكتسب فلسطين اهمية استراتيجية كبيرة في هذه البقعة من العالم بفضل موقعها الجغرافي . ويخشى البريطانيون من ان موسوليني قد يجد ذريعة للحرب في اقرب وقت . وتشجع قيادة «اكسيونس كوميتي» هذه المخاوف بكل الطرق . وقد تتساءلون : ولماذا ؟ الاجابة بسيطة جدا : هذا مفيد لنا . فالهجوم الايطالي ، كما يتوقعون في لندن ، ينبغي ان يحدث عبر ليبيا على الارجح . عندئذ تصبح فلسطين القاعدة الحربية الرئيسية الضرورية لانجلترا . فعن طريق فلسطين بالذات سيتمكن البريطانيون من تقديم العون لقواتهم في مصر . . . - وسوى المبعوث عويناته التي سقطت على انفه ، وشرب جرعة ماء من الكوب ومضى يقول : - ان لندن تعير اهمية كبيرة قصوى لفلسطين لانها تمثل ايضا تغطية اقليمية لمصر من الشمال . . . وليس ثمة ضرورة للحديث عن مدى اهمية مصر وخاصة قناة السويس ، بالنسبة للامبراطورية البريطانية . . . وبالإضافة الى ذلك فعبر اراضي فلسطين يمتد خط انايبب بترول كما تعلمون ، وخلاله يجرى نقل البترول العراقي . وبدونه سيدوق الاسطول البريطاني الامرّين في هذه المنطقة من العالم !

ومن جديد تدخل المحامي وهو يسوى كفه الخاوي :

- ومع ذلك فليعذرني السادة المحترمون ، اذا كنت لا ارى حتى الآن ما هو الشيء الذي يمكن ان نستخلص منه الفائدة . واذا لم اكن مخطئا فقد قال مبعوثنا المحترم «وفائدة كبيرة» ؟ فباى طريقة يمكن ان نستخلصها ؟ وفيم تتجلى هذه الفائدة ؟ عفوا ، اننى لا افهم ذلك .

تطلع الحاضرون الى زميلهم في صمت ، وراحوا ينتظرون بفضول رد مبعوث «المركز القومي» . الا ان المبعوث تمهل ، واستغل فترة الصمت ومضى يمسح بعناية وجهه وعنقه المبللين بالعرق بمنديل كثر استعماله .

ونكس بن صهيون رأسه وهو يحاول ان يكتم ابتساماً لارادية . شعر بالسرور من هذا السؤال ، اذ كان يعرف ان المحامي يحسن وضع الاسس المنطقية لآرائه ومن الصعب للغاية ان تعارض وجهة نظره . وقد تسنى لبن صهيون هاجرا ان يتأكد من ذلك غير مرة . فمئذ بضع سنوات ثار بينهما جدال حول بعض الصيغ التي تم التوصل اليها خلال لقاء زعيم الصهاينة فلاديمير جابوتينسكى مع زعيم ذوى القمصان السوداء الايطاليين بنيتو موسولينى . كان الدوتشى قد بدأ يهتم آنذاك بالشرق الاوسط ، ويضع الخطط لبسط نفوذه على فلسطين ايضا . واعرب جابوتينسكى عن دعمه الكامل للدوتشى بعد ان حصل على موافقة مسبقة منه بتلبية بعض مطالب «اكسيونس كوميتى» . وكان من بين تلك المطالب ارسال ثلاثين متطوعا يهوديا مختارين بشكل خاص الى ايطاليا لدراسة الملاحة البحرية . وسرعان ما بدأ مدربو موسولينى تدريب هؤلاء الشبان فى مدينة تشيفيتافيكيا . وكان على هؤلاء المتطوعين - حسب خطة «اكسيونس كوميتى» - ان يقوموا بعد انتهاء تدريبهم بشراء سفينة لتدريب المهاجرين الجدد الى «ارض الميعاد» ونقل بعض الشحنات الممنوعة .

وكان المحامى منذ البداية يعارض هذا التدبير المغامر وقال :  
- اذا كان الحصول على سفينة لا يمثل صعوبة ما ، فان استخدامها للغرض الموضوع سوف يصطدم حتما بعقبات وقيود خطيرة . وفى النهاية سنضيع الوقت دون ان نحقق الهدف المنشود . ولكن بن صهيون هاجرا اذ ان موقف المحامى . وعندما وصف الاخير فى غمرة انفعاله هذا المشروع بانه مغامرة ، اتهمه الحاخام بالتخاذل والجبن ، فاضطر المحامى للتراجع . والاكثر من ذلك انه ، لكى يتجنب العواقب المحتملة للنزاع مع بن صهيون هاجرا ، توجه بنفسه مع المتطوعين الى تشيفيتافيكيا . وهناك وقع له حادث ، فقد شب حريق فى السفينة ، فتصرف المحامى بفدائية وانقذ تسعة وعشرين متطوعا وكثيرا من المدربين الايطاليين من موت محقق ، ولكنه فقد ذراعه واصيب بارتجاج فى المخ . ومع ذلك فقد تحقق تنبؤ المحامى بعدم جدوى هذا التدبير كله .

وبعد الشفاء كلف المحامي الاكتم بعمل ذي طبيعة جعلته على اتصال اوثق بين صهيون . ورغم خلافهما السابق فقد عملا معا بصورة لا بأس بها وابديا سعة حيلة غير عادية في تنفيذ شتى الالاعيب التي كانت تمليها «اكسيونس كوميتي» . وربما كان الاختلاف فيما بينهما يتجلى فقط في ان بن صهيون هاجرا كان يتلقى وينفذ دون ادنى اعتراض التعليمات «العليا» ، مؤكدا ان الغاية تبرر الوسيلة ايا كانت ، بينما كان زميله يجد في هذه التعليمات دائما ثغرات ما وعدم دقة في الصياغة ويتشكك في جدوى تنفيذ القرارات التي تبدو له دنيئة .

وكان بن صهيون هاجرا يكن بعض الكراهية للمحامي الاكتم ، ولكنه كان مضطرا لان يحسب له حسابيه ، فقد كان «المركز القومي» يقدره تقديرا عاليا لقدرة الفائقة على العمل وعلاقاته الواسعة . وعندما ابدى المحامي ملاحظته تلك للمبعوث ابتسم الحاخام بتشف ، فقد كان يعرف مسبقا بم سيرد مبعوث «المركز» ، اذ كان بن صهيون يعرف حقائق الامور افضل من اى واحد من الحاضرين ، وكان ملما اكثر من الآخرين «بدقائق» السياسة التي تنتهجها «اكسيونس كوميتي» . فهو بالذات الذي يراس قاعدة الانتقال في قبرص التي كانت تمارس في الاساس شراء الاسلحة سرا وتقوم في بعض المناسبات بتهريب المهاجرين الى «ارض الميعاد» . . . .  
واجاب المبعوث مخاطبا المحامي بنبرة الضجر :

- انت لم تخطى . لقد قلت هكذا بالضبط ! ان الوضع الدولي يبدو للوهلة الاولى صعبا للغاية ، بل وخطيرا . ومع ذلك فنحن عازمون بقوة على استخلاص فائدة ضخمة منه ! بل ومن الضخامة بحيث انها ستصبح خطوة حاسمة نحو تحقيق برنامجنا ! . . . - وراح المبعوث يعدد المزيد والمزيد من العوامل التي لن تمكن الانجليز ، في رايه ، من ترك فلسطين لعبث الاقدار . وقال المبعوث بفخر :

- ان هذه الاراضي الواقعة تحت الانتداب البريطانى تلعب بالنسبة لبريطانيا دورا هاما للغاية ! كم تساوى حيفا وحدها ا فليس لدى البريطانيين هنا مجرد مرفأ ، بل قاعدة بحرية حربية ،

افلا يعنى ذلك شيئا ؟ وماذا عن الطريق الواصل بين فلسطين والخليج الفارسى ؟ انكم لتدركون بانفسكم انه الطريق البرى الوحيد لامداد القوات البريطانية فى حالة ما اذا نشأ وضع غير ملائم فى البحر الابيض المتوسط .

وبعد ان فرغ المبعوث اخيرا من طرح الحجج المؤكدة لاهمية فلسطين الفائقة بالنسبة لانجلترا ، انتقل الى شرح «السياسة الكبرى» «للاكسيونس كوميتى» و«المركز القومى» . فعضى يقول بنبرة آمرة : - لقد اقترحنا على لندن السماح لنا بتشكيل فيالق متطوعين يمكن ان تستخدم لمقاومة اعداء انجلترا فى حالة انزال حربى معاد فى شمال افريقيا . وتجرى الآن مفاوضات لتشكيل كتائب من ابناء شعبنا على ارض فلسطين ذاتها ! بل هناك ما هو اكثر ! لقد اقترحنا تشكيل جيش كامل من رجالنا فى فلسطين ، يضم كل انواع الاسلحة ، ويمكن للانجليز استخدامه فى حالة الضرورة على مسرح العمليات الحربية فى اوروبا . . . .

شرح المبعوثون الذين كانوا جالسين وكانما تحت تأثير تنويم مغناطيسى يتحركون فى جلستهم بوجل . اما المحامى فتملعل على مقعده المتهالك . لقد اثارت اخبار المتحدث معارضته فعاد يقاطع المبعوث قائلا بنبرة مسالمة :

- لقد اصغيت اليكم بانتباه . . . ولكن هل لى ان اعرف لاي غرض تفعلون كل هذا ؟ انى لاتساءل ما الداعى لالقاء ابنائنا فى اتون حرب بعيدة ؟ وهل يعتبر قادة «المركز» المحترمون انها قليلة تلك الدماء التى اراقها شعبنا طوال قرون من حياته فى المنفى ؟ قطب مبعوث «المركز» حاجبيه ، وتبادل نظرة خاطفة مع

الحاخام ، وابتسم بسخرية وقال بنبرة لوم ظاهر :

- قبل ان اجيب على سؤالك من حيث الجوهر ينبغى ان اقول انها اول مرة اسمع فيها فى اوساطنا مثل هذا اللوم الموجه الى قيادتنا ، وكانها لا تابه بعيادة ابناء شعبها ومصائرهم . ولن اكون مخطئا اذا قلت لك انه لا يوجد فى حركتنا كلها شخص آخر غيرك يشاطرك هذه الشكوك .

اربد وجه المحامى وابتلع فى صمت هذه «الغمزة» بينما اطلق

المبعوث العنان لمشاعره فصدر عنه بصورة مفاجئة له ولاكثرية الحاضرين اعتراف لا يدل ابدا على ان «المركز القيادي» «يا به بحياة ابناء شعبه ومصائرهم» بالفعل .

فقد قال المبعوث :

- ينبغي ان ندرك دون رجعة انه طالما لم يساهم شعبنا ، او لم يتظاهر على الاقل بمحاولة المساهمة في توطيد اركان الامبراطورية البريطانية فلن تكون لديه الاسس الكافية للمطالبة بما يسعى اليه منذ امد طويل . . . وحتى لو اضطررنا للتضحية بالقليل من اجل بلوغ الكثير ، فسوف تقدم قيادة «اكسيونس كوميتي» على هذا ! وذلك هو تكتيكا في الوقت الراهن . . . وادرك المحامي انه اخطأ في تسرعه بالتعبير عن آرائه . . فتكتيك «المساهمة الظاهرية» كان يروق له . ومن ثم هدأت نفسه وراح يصغى بانتباه .

ومضى المبعوث يقول :

- ولكن هذا ليس سوى احد جوانب الموضوع . وللأسف فهناك من الاسس ما جعلنا نعتقد بان لندن لن تقبل كل مقترحاتنا . . . لماذا ؟ لان هذه المقترحات تقوم على اساس التأكيد بقرب اندلاع النزاع العسكري الذي قد يمتد ليشمل اراضي فلسطين ، وبالتالي فهو يهدد شعبنا . اما الواقع الفعلي فبعيد عن مثل هذا التأكيد . . . ولا داعي للدهشة من ذلك . . . فرجالنا موجودون في الاماكن المطلوبة ، ولذلك فنحن مطلعون بصورة جيدة على الخطط الحقيقية لدول المحور وامكانياتها ، ولدينا من الوسائل ما يكفي للتأثير على الاحداث بصورة حاسمة لصالحنا في الوقت المناسب . وبوسع بعض الحاضرين هنا ان يؤكدوا هذا بأمثلة محددة ، ولكنكم تدركون انه لم يأت الوقت للخوض في هذا الموضوع . سأقول فقط شيئا واحدا : ان كفاح شعبنا المشرد عبر آلاف السنين والخبرة التي اكتسبها قد علمانا بعض الاشياء . . . ولاحظ بن صهيون الذي كان يراقب خفية كل واحد من الحاضرين ان هذا الجزء من الخطاب قد ترك انطبعا طيبا لدى الجميع . حتى المحامي فقد هز راسه مرحبا .

- ولكن !

صاح مندوب «المركز» فجأة ، وبعد ثانية من الصمت استطرد  
بنبرة ذات مغزى :

- اننا لا نتحدث جهارا عن تكتيكنا واهدافه . . فما الداعي  
للتظاهر بالشجاعة ؟ ارجو من الجميع ان يذكروا هذا . بالعكس ، اننا  
نؤكد بملء الفم ان الخطر من قبل المانيا وايطاليا هو اكبر من اى  
وقت سبق ، وانه خطر حقيقى تماما !

ومضى يوضح بحماسة اية فائدة يسعى «المركز القومى»  
لاستخلاصها من هذا التكتيك .

- فلنتصور لحظة ان قبلت لندن مقترحاتنا . . ولو جزئيا . .  
ان هذا يعد انتصارا ! تسألوننى لماذا ؟ ببساطة لان تشكيل كتائب  
الدفاع الذاتى هو مجرد ستار يمكننا شرعيا ، واکرر واؤكد : شرعيا ،  
من تسليح رجالنا على نطاق اوسع بكثير مما يجرى حتى الآن ! وتلك  
هى مهمتنا الاولى ! - وهز المتحدث قبضتيه فوق راسه - ستكون  
هذه خطوة حاسمة نحو تنفيذ البرنامج العام : فعن طريق «عليا» \*  
والتسليح الشامل لرجالنا نمضى الى اقامة دولتنا المستقلة ذات  
الاراضى والقادرة على اشباع احتياجات ومتطلبات شعبنا كله ، بمن  
فيه من المقيمين فى الدياسپورا ! ان الحديث يدور حتى الآن حول  
جزء كبير من ارض فلسطين ! . .

كان المبعوث اشبه بعداء الماراثون . فقد انتشرت بقع مبللة  
على اطراف جيوب قميصه التيل المنتفخة على صدره ، وتساقط  
العرق من وجهه شلالا . وبدا وكأن مبعوث «المركز» الذى اثارته  
والهيبته الصورة التى رسمها بنفسه ، لا يلاحظ الجو الخانق الى حد  
الغثيان ، ولا الهواء الفاسد الراكد فى الغرفة الضيقة المغلقة باحكام  
لدواعى الأمن حسب تعليمات الحاخام .

والتقط المبعوث انفاسه واكد بتحد :

- فهل يجرؤ ان يعارض هذا التكتيك اى شخص من اولئك

---

\* «الصعود» - دعوة ديماجوجية صهيونية لتوطين جميع اليهود بلا  
استثناء فى «ارض الاباء» .

الذين يطمعون في حق ان يسموا ببنى اسرائيل الحقيقيين ، اولئك الذين تجرى في عروقهم دماء الشعب المختار !  
وتعالى همسات الاستحسان من جميع الاركان . وظل المندوبون يصغون اكثر من ساعتين دون ان يعكروا الصمت . وسرعان ما خمدت الهمسات المتصاعدة ما ان بلل المبعوث «المخول» صلاحيات واسعة من القادة الكبار» حلقه بجرعة تالية من مياه فاترة وواصل حديثه بحماس لا يكل . واكد ان اللحظة التي طال انتظارها قد حلت الآن ، في الوقت الذي ينبغي ان تكتسب فيه هجرة الافراد وتجميع السلاح طابعا شاملا .

ودوى بمهابة صوته الذي اصبح ابح بشكل واضح :  
- ان معلمينا العظميين تيودور هرتزل وفلاديمير جابوتينسكى قد تنبأ بحلول هذه اللحظة ! فلتذكروا كلمات هرتزل الرائعة عندما اشار الى انه كلما ازدادت المذابح اقرب حلول اللحظة المناسبة لحل مشكلة هجرة رجالنا الى فلسطين . . . وبوسعنا اليوم ان نقول بكل ثقة ان تنبؤاته تحققت ! لقد حل الزمن المنشود ! وقد قال جابوتينسكى بهذا الصدد : «ان معاداة السامية اشبه بالقملة التي لا تؤدى عضتها الا الى ايقاظ النائم !» لقد بدأ شعبنا يستيقظ . . .

وفجأة دوت قرعة مقعد نحى بحدة ، فاستدارت كل الرؤوس ناحية المحامى الذى قفز من مكانه ، وقال بعصبية مقاطعا المتحدث المنفعل :

- لقد تحدثت ببلاغة تجعل المرء يصغى مبهورا . وقد اعربت عن افكار مذهلة حتى انى لادهش كيف لم تظفر الدموع من اعين الحاضرين ؟ ! وبالفعل ، ماذا تكون عضه القملة . . . شئ تافه ! في غاية التفاهة ! وبالمقابل شعب يستيقظ . . . ولكن ارجو المعذرة . . . اريد ان استفسر عن شئ محدد : هل تعتقد انت شخصيا والقادة المحترمون في «المركز القومى» ان معاداة السامية التي يتبعها السيد هتلر والفاشيون عموما ، واضطهادهم القاسى لابناء جنسنا ، ليست سوى عضه من مثل هذه الحشرة المسالمة ؟ هه ؟  
اختفى من وجه مندوب «المركز» على الفور تعبير الثقة



والتعالى ، اذ لم يتوقع حتى من هذا الناقد المتهور مثل هذا الهجوم  
الصفيق ضد مؤسس الصهيونية . واحس مبعوث «المركز» وكان  
احدا بصق في وجهه .

فقال وهو يكاد يخنق من الغضب الذى اجتاحه ، وراح يسوى  
نظارته بعصبية دونما حاجة الى ذلك :

- لقد ذكر احدهم هنا المستشار الالمانى ادولف هتلر . ان  
لدينا وجهة نظر خاصة في هذا الصدد ، وسوف اشرحها بكل وضوح  
حتى نتجنب مستقبلا اية تلميحات وتاويلات كاذبة . وبتبسيط شديد  
فهى تتلخص فى انه لو لم يكن هذا الادولف هتلر موجودا اليوم  
لكان علينا نحن الصهاينة البيتاريين ان نوجده ! - صاح المبعوث  
بنبرة حماسية ، وانطلق يتكلم دون توقف خشية ان يقاطعه المحامى  
الاكتم من جديد - قد يقول البعض هذه صفاقة ! بالعكس ! اننا  
نعتبر نكران وجهة النظر هذه عاطفية عفنة وانسانية كاذبة لن  
تؤدى الا الى عرقلة تحقيق حلم امتنا منذ آلاف السنين ! . ولا  
تلومونا على صراحتنا وعلى التشبيه الذى قد يكون فظا ، ولكن اذا  
كان البعض هنا قد اعتبر من الجائز توجيه النقد لتنبؤات هرتزل  
وجابوتينسكى العبقرية ، فاننى اجد لزاما على ان اقول بمنتهى  
الوضوح انه لو لم توجد النظرية القومية الاشتراكية ومبدؤها  
العنصرى ، هذه النظرية التى لا تعدو ان تكون احد مظاهر معاداة  
السامية ، لما تذكرت الاغلبية الساحقة من اخوتنا واخواتنا  
اصلهم ! . . . وليس هذا ، ولتعذرونى ، استشهدا باقوال  
الشخصيات البارزة ، بل تقرير حقيقة مؤلمة ولكنها لا تقبل النقض .  
وهب المحامى ثانية ولكن بن صهيون هاجرا سبقه وطلب منه  
بشكل مهذب الا يقطع المتحدث وان يحافظ على النظام .

واخذ مندوب «المركز» وقد شجعه تايد الحاخام له ، يبرهن  
بحرارة ان بنى اسرائيل قد اضطروا الى التوجه بانظارهم صوب  
«ارض الاجداد» بالذات نتيجة للاضطهاد الذى يعانونه فى المنفى .  
- فلنتصور ان ادولف هتلر ومبداه العنصرى قد قضى  
عليهما . . . اذن لصرخنا برعب : «شما اسرائيل ! . . . يا للكارثة  
\* اسمعى يا اسرائيل ! . . .

التي حاقت بنا من جديد ا» . ان احدا من اولئك الذين يتعرضون  
الآن للاضطهاد الوحشي ومن ثم يهرعون الى ارض آباءهم ما كان  
ليهجرك المكان الذي الفه ولو اغدقت عليه كل النعم ! نعم اننا نحن  
الصهاينة ذوو مصلحة في تسعير العداة للسامية ! قد تقولون ان  
هذا مؤسف ! نعم مؤسف ، ولكنه حقيقة ! فمعظم اليهود الذين  
هاجروا الى فلسطين مؤخرا لم يفكروا من قبل ابدا في الهجرة !  
وكانوا يعيشون في المانيا هذه بصورة لا بأس بها قبل وصول  
النازيين الى السلطة . وكان بينهم رجال البنوك واصحاب المصانع  
ومالكو المؤسسات التجارية . . . ولم يكن اى منهم يرغب حتى في  
مجرد سماع كلمة العودة الى ارض الميعاد . . . - ومسح مندوب  
«المركز» بيده على جبينه المبلل بالعرق .

فصاح المحامى مستغلا فترة الصمت :

- وهؤلاء بالذات هم الذين نهجهم الآن في المقام الاول !  
ومضى على الفور يدعم استنتاجه . واعاد الى الازهان انه منذ  
بضع سنوات كانت سياسة النازيين تنحصر اساسا في طرد اليهود  
قسرا ، وفيما بعد اصبحت امكانية الهجرة مشترطة بدفع مبلغ معين  
راح يزداد حتى بلغ رقما خياليا . وبعد ذلك اعتبر النازيون حتى  
هذه الاجراءات غير كافية ، فراحوا يزجون بالمساكين في معسكرات  
الاعتقال فارضين عليهم السخرة والامراض والحرمان .  
واخذ المبعوث وهو يصغى للمحامى يسمح صلته المبللة  
اللامعة بالمنديل بين حين وآخر وينظر الى العاхам بقلق .  
ومضى المحامى يقول بانفعال :

- اذا كان رجالنا الواقعون تحت اقدام النازية يقدررون في  
الماضى بعشرات او مئات الآلاف ، فانهم الآن يعدون بالملايين !  
ومأساة هؤلاء المساكين هي انه ما من احد ، ولا حتى اولئك  
الجالسون في «المركز القومي» ، يفكر بل ولتعذرونى على صراحتى ،  
ولا حتى يرغب في التفكير في المصير الذى ينتظرهم ! . . . فهل سيتمكن  
هؤلاء من الهجرة ، ام لا قدر الله سيضطرون للبقاء في الاسر ؟ ما  
الذى ينتظرهم ؟ آلام فوق طاقة البشر ، بل ربما الهلاك . . . كم

بودى ان او من بان الله سيجنبهم هذا المصير الرهيب ، ولكن هذا لا يعنى انه يحق لنا ان نقف مكتوفى الايدى . . .  
ووجد بن صهيون هاجرا انه ينبغى ان يتدخل ، فسأل المحامى  
دون ان يرفع نبرة صوته :

- الا يعرف الرفيق المحامى اننا على اتصال بالاشخاص ذوى النفوذ فى الرايخ الالمانى ؟ اليس الرفيق المحامى هو الذى استاجر بنفسه فى مارس من العام الحالى السفينة «كولورادو» التى استقبلت على ظهرها فى ميناء كورفا خيرة ابناء شعبنا من راىخ ادولف هتلر ؟  
فهتف المحامى بغضب :

- ولكن ذلك قطرة فى بحر ! ثلاثمائة شخص !  
فقاطعه المبعوث ولاحت فى صوته بوضوح نبرة عصبية :  
- صحيح ! لكن لا يجب ان ننسى ان لسفينة «كولورادو»  
ليست سوى البداية !

فقال بن صهيون هاجرا بتؤدة وخبث :  
- اتظن ان السيد المحامى لا يعرف ذلك ؟ انه يعرف !  
ويعرف جيدا كذلك ان النقل بالسفن فى المستقبل لن يجرى سرا كما كان بالنسبة ل«كولورادو» ، بل علنا ، وسترسو السفن بصورة شرعية تماما فى مينائى هامبورج وايمدين الالمانيين . . . ويعرف ايضا الكثير من الامور الاخرى - ، قال الحاخام بابتسامة ساخرة فى ختام كلامه - ولكن هكذا طبعه القلق . . .

فصاح المحامى بحدة :  
- وما دخل طبعى بذلك ! ان كل ما ذكرته يا حضرة الحاخام المحترم وكل ما اعرفه بالفعل لا يشمل الا قلة قليلة من العائلات الغنية جدا ، او بعض الاشخاص الذين ادوا خدمات خاصة للصهيونية ! ولكن هلا خبرتمونى لو سمحتم كيف يتفق هذا الاختيار مع تأكيداتنا الاساسية ومبدئنا الذى يفرض على جميع ابناء جنسيتنا ، بغض النظر عن اوضاعهم المادية والفئوية الاجتماعية ، ان يتعاونوا كامة يهودية واحدة ؟ اى تعاون هذا اذا كنا نهتم ببعض المختارين ولا نعمل شيئا لانقاذ الملايين ممن لا يملكون رؤوس اموال ولم يؤدوا - تصوروا ! - اية خدمات خاصة للصهيونية !

- ان هؤلاء الناس العاديين كغيرهم من اصحاب الملايين  
والمشاهير الآخرين قد دمغوا في مملكة النازية بعلامة «وجسن  
دوفيد» • التي تميزهم عن غيرهم من ابناء القوميات الاخرى ان  
هذه العلامة تعنى انه قد كتب عليهم الهلاك . . .

وما ان صرخ المحامى بهذه العبارة حتى وضع يده على قلبه  
وتهالك على المقعد في بطاء وهو يتنفس بصعوبة .

وخيم صمت ثقيل مقبض . ولزم المبعوث ايضا الصمت . كان  
الغضب قد شوه سحنته ، ومن وراء عدسات نظارته السميكة زر  
عينيه السوداوين باحتقار . واصبح الصمت خطرا . واذا احس  
المبعوث بذلك فقد قطع حبل الصمت بصوت متهدج من الغضب :

- لكيلا يضل احد من الحاضرين طريق الصواب في مثل  
هذه اللحظات الحاسمة ، ولكيلا يبدي احد تخاذلا ساردا على هذه  
الاتهامات الباطلة ضد «المركز» بكلمات وايزمان المبجل . . . فمنذ  
وقت غير بعيد سئل اثناء اجتماع اللجنة الملكية في لندن : كيف  
يراعى تنظيم هجرة بضعة ملايين من اليهود من البلدان التي استولى  
عليها النازيون ؟ فاجاب وايزمان بوضوح وايجاز :

«ان العجائز سوف يزولون من الوجود . . . انهم غبار ، غبار  
اقتصادي ومعنوي للدنيا الكبيرة . . . ولا يبقى الا الجيل  
الجديد ! . . .»

تطلع بن صهيون الى المحامى الاكثع . لقد قرر الحاخام ان  
يتدخل هذه المرة فيما لو عاد المحامى الى مقاطعة المبعوث . بيد ان  
المحامى كان يجلس صامتا وقد نكس رأسه في اسي . كان يود  
بالطبع ان يعارض مندوب «المركز» ثانية ، ويقول له ان كلمات  
مفكر الصهيونية وايزمان صفيقة وقاسية في جوهرها ، ويؤكد من  
جديد صحة موقفه هو ، اى المحامى . ولكنه لم يجد لديه من القوة  
ما يكفي حتى لينهض من معقده ، فقد كان قلبه يدق بعنف ، واظلمت  
الدنيا في عينيه من الالم الحاد في صدره . ولهذا ظل صامتا فترة  
طويلة .

• النجمة السداسية «درع داوود» .

واستطرد المبعوث يقول رافعا صوته من جديد :  
- لكنه من الضروري ان نجرى بعض التعديل على هذه العبارة  
الرائعة ، التي حتى وان كانت قاسية ، فانها مبنية على اساس تحليل  
الواقع الفعلي وليس على تمنيات طيبة عقيمة . فليس بخاف على  
احد ان اشقاءنا اساطين المال يعتبرون احيانا من مقرري مصائر  
الشعوب الاخرى . وعلى اى حال فلهم تأثير هائل على سياسة حكام  
تلك الشعوب ! ولهذا السبب فانهم بوجودهم في بلدان المنفى قادرون  
على تقديم العون الفائق بل ويقدمونه فعلا لقضيتنا . ولا تستثنى من  
ذلك الآن سوى المانيا النازية والبلدان السائرة في فلكتها . فاليهود  
في هذه البلدان ، بمن في ذلك اصحاب البنوك منهم ، لا حول لهم ولا  
قوة . ومهمتنا هي تحرير هؤلاء الاغنياء ذوى النفوذ في المقام الاول ،  
ان نحافظ عليهم حتى تأتى اللحظة التي يصبح بإمكانهم فيها ان  
يقولوا كلمتهم الفاصلة من جديد في المانيا نفسها . . . . . وعبثا  
يحاول البعض هنا اتهامنا بان هذا الاختيار يتعارض مع المبدأ  
الاساسى للصهيونية بخصوص تعاون جميع ابناء الشعب بغض النظر  
عن انتمائهم الطبقي . فالتعاون في المرحلة الراهنة يتلخص في ان  
ننقل الى ارض الاجداد في المقام الاول اولئك الذين سيعودون باكبر  
الفائدة على شعبنا المضطهد وعلى امتنا المعذبة كلها . وبوسعكم ان  
تصدقونى فان زعماء «المركز» مثلنا جميعا ، يشعرون بأسى عميق  
لكل مصاب يمنى به شعبنا ، ولكن فيما يبدو لا مناص من  
التضحية . . . . . وليس عبثا ان جاء في التوراة «ان النور الحقيقى  
والفرج الاكيد لا يأتيان الا عندما يشتد الضيق ويتكاثف الظلام . . . . .»  
صمت الخطيب العرقان المنفعل بشعره المشعث لحظة وهو  
يطوف على المستمعين بنظرة فاحصة . وكان هؤلاء قد حبسوا انفاسهم  
وهم لا يحولون عنه ابصارهم ، الا المحامى الذى جلس مطرقا .  
ومضى المبعوث في سرد التعليمات الرسمية بهدوء ، فوجه نقدا  
شديدا «للكتاب الابيض» الذى صدر مؤخرا في لندن واعلن فيه  
عن وضع قيود صارمة على الهجرة الى فلسطين بحيث لا تتجاوز  
خمسة عشر الف شخص في العام ، و اشار باعجاب شامت الى ان هذه

القيود سوف تتطير في القريب العاجل كفقاعة صابون نتيجة للحرب التي شنها هتلر على بريطانيا .  
وفي الختام اهاب بالعاشرين في حماسة ان يستفيدوا استفادة شاملة من الوضع الناشئ في العالم والملائم لتنفيذ البرنامج الذي وضعه «المركز» ، وان يعملوا بلا تردد ودون تأفف من اى شيء ، ودون تورع عن استخدام اية وسيلة .

واختتم المبعوث حديثه قائلا بصوت مبجوح :  
- على الصهاينة البيتاريين اكثر من اى وقت مضى ان يكتشفوا الامكانيات لتكديس اكبر قدر من الاسلحة ولتوسيع الهجرة باستمرار الى ارض الاجداد لافضل رجالنا في الدياسبورا . وسوف نحقق هذه المهمة المقدسة باى ثمن بعون الله القدير ، لان ارادتنا صلبة .  
وذهننا صاف ، وطاقاتنا فياضة !

انهك بن صهيون هاجرا في مشاغل شراء الاسلحة . لقد طالبه «المركز القومي» بالتوسع في نطاق هذا النشاط ، فقد كان من الضروري استغلال الفرصة . ولذلك فلا عجب انه كان ينسى احيانا وعده لابنته بطرد اويثا من البيت بعد ان وافق على عرض ستيفانوس . بيد انه لم تكن لديه دقيقة فراغ لا لكى يبر بوعدة فحسب ، بل وحتى للقاء شريكه . وغرق ستيفانوس ايضا في الاعمال : فهو الذى كان يقيم الصلات مع تجار الاسلحة ويجرى معهم المباحثات التمهيدية . ولكن ذلك لم يكن يهم تسيليا في شيء !  
«مثل طبعى !» - قال بن صهيون لنفسه بسرور وهو يتذكر حديثه الصباحى مع ابنته . كان الحاخام يستعد للسفر مع مبعوث «المركز القومي» ليقضى النهار بسبب امور مستعجلة ، فقال لتسيليا انه في المساء حتما سيحقق رجاءها ، ولكنه لم يعد الى البيت في ذلك المساء . كان ذلك لا يحدث له الا نادرا ، ومع ذلك فلم يثر غيابها قلقا خاصا لدى اسرته . ولم يحضر الحاخام ايضا صلاة المساء عشية السبت في الهيكل ، ولكن ذلك لم يثر دهشة خاصة لدى المصلين : فكم لدى الحاخام من اعمال . تسيليا وحدها هي التي

لم تخف استيائها . ولم يكن ما اغضبها هو غياب والدها بل وجود هذه الفتاة البغيضة اويًا في الدار . وقالت في نفسها : «غدا السبت وهى ما زالت هنا !» وتطلعت بحقد الى الفناء حيث كانت الفتاة اليونانية تعمل . وكان من المقرر اقامة حفل غداء يوم السبت ، وقد استعدت له بعناية . «ستحضر العمة بيتيا ايضا ! وربما كالعادة فى مثل هذه الاحوال ستتحدث مع حايم فى الموضوع . ومن يدري ، ربما تتم الخطبة !» . وتطلعت تسيليا الى نفسها فى المرآة وشعرت بالرضى .

دلف حايم الى المدخل ، واخذ الفرشاة وراح ينفذ الغبار عن ملابسه وحذائه . كان قد ذهب الى الميناء وعرج على الوكالة ليعرف ما هى الاجراءات المطلوب القيام بها قبل السفر . ولحسن الحظ فقد اعتبر موظفو الادارة البريطانية بطاقة سفر سارية المفعول ولم يكن عليه الا ان يدفع مبلغا اضافيا بسيطا . وكان حايم يامل فى مساعدة الحاخام ، وقال فى نفسه : «سارده فورا ما ان اكسب من عملي» . بهذه الافكار دق حايم الباب . وما ان رآته تسيليا حتى اسرعت تسوى شعرها ، ودعته وهى تبتسم الى الدخول . وعبر حايم الى غرفة الطعام . كان مزاجه ممتازا ، بالرغم من انه كان مرهقا جدا لانه انقطع وقتا طويلا عن المشى وفى غاية الجوع . وعندما رأى الطاولة المغطاة بمفرش ابيض بدلا من المشمع العادى ، والغرفة المرتبة بعناية خاصة ، قال مازحا :

- اووه ! الا تنتظرون خُطابا ؟

احمرت تسيليا ولم تجب . وخيل اليها ان حايم لم يذكر ذلك صدفة . وعندما دخلت لايتا الى غرفة الطعام وكرر حايم مزحته ، هزت هذه كتفيها بلا مبالاة وقالت :

- من اين جئت بهذا ؟ ببساطة اليوم عشية السبت ، ولهذا رتبنا البيت بما يليق والعيد ، كما هو الحال لدى اليهود المحترمين .

ولكن تسيليا صرخت فى اختها على الفور :

- عندما يأتى المرء من الشارع جوعان يقدمون له الطعام لا الاحاديث . لقد وضعت البطاطس المهروسة بالفرن على حافة

النافذة . وفي المطبخ توجد الشعرية مغطاة بطبق . . هاتيهما  
ايضا . . انه لم ياكل منذ وقت لا يعلمه الا الله ا

وهرولت تسيليا هنا وهناك ، واكثرت من الخروج الى  
المدخل وهي تتهامس مع اختها . وافسد كل ذلك مزاج حاييم  
واثار رييته . فشكرهما دون ان يمس الطعام وخرج . ولدهشته  
لم تلح عليه تسيليا في البقاء كعادتها .

كانت اويًا تنتظره في الفناء ، فابتسم لها ، واوضح لها  
انه متعب جدا اليوم ويريد ان يرتاح ، فصحبته اويًا حتى الجناح .  
تمدد حاييم على الفراش دون ان يخلع ثيابه واخذ يفكر كيف  
سيستقبله في ارض الميعاد اصدقائه من جماعة «الكوتس» .  
الذين ادى معهم الدورة التدريبية وكيف سيبدأ العمل ويوفر النقود  
ويستدعي اياه واخته اللذين بقيا في بولجراد . وماذا عن اويًا ؟  
ما الذي سيحدث لها ؟ انه لا يستطيع ان يفارقها ، فهي غالية  
عليه كابيه واخته . كلا ، انه لا يستطيع العيش بدونها . .  
سيخبرها غدا بذلك ، وسيرحلان معا .

استيقظ حاييم على صخب شديد . لقد دلفت الى الفناء سيارة  
وقد زار محركها . وسمع وقع خطوات ، وصفق باب السيارة ،  
ثم صرير عجلاتها وهي تبتعد . ونهض حاييم وتطلع الى الفناء ،  
فلاحظ مصعوقا ان جميع النوافذ مضاءة في بيت الحاخام . وقال  
لنفسه : «الوقت متأخر ، ولكنهم لم يناموا لسبب ما . ترى هل  
وقعت مصيبة ؟»

واستولى القلق على الشاب فركض نحو البيت . وعندما اطل في  
نافذة غرفة الطعام وجد تسيليا واقفة في وسط الغرفة وهي تدق  
بقدميها في غضب واختها الحدياء تبكي بحرقة . وعندما رآه  
الشقيقتان صمتتا بخوف . واحس حاييم بالحرج ، فقال :  
- ارجو المعذرة . . لقد رايت الضوء فظننت ان شيئا قد  
حدث . .

فقالت لايًا وهي تكتم العويل :  
- حدث لأويا . . - وركضت من الغرفة .  
\* جماعة عمل عسكرية .



ودمدت تسيليا من بين اسنانها :

- اليونانية اختفت .

فصاح حاييم :

- كيف اختفت ؟ - ودون ان ينتظر الاجابة اندفع راكضا الى الحظيرة ، واطل في المطبخ ، وفي الجناح ، وفي الشارع ، وفي كل مكان لم يجد احدا . واصاح السمع . تناهى من ناحية الميناء ضجيج محرك سيارة كانت تتسلق مرتفعا حادا . وبعد قليل مزق الظلام شعاع ضوء عريض قادم من زاوية الشارع . واصطفق باب السيارة ، وقفز منها رجل اقترب قليلا وتوقف فاضاءه نور الكشافات الساطع . ولدهشة حاييم فقد عرف فيه الحاخام . وقال لنفسه : «يا لها من امور ! في يوم السبت يركب الحاخام سيارة ؟ غريبة . . .»

واسرع حاييم الى الدار وقد اعتراه القلق . ورغم تاخر الوقت فقد كانت تسيليا لا تزال جالسة في غرفة الطعام تطرز وسادة بخيوط سميقة ملونة . ونظرت اليه ثم خفضت بصرها على الفور الى التطريز .

- سبت مبارك ! - قال الحاخام بن صهيون هذه العبارة التقليدية وهو يدلف الى الغرفة .

ورد حاييم على التحية بتحفظ . وساعد الحاخام في خلع ملابسه الخارجية فأحس بشئ صلب يصطدم بركبته ، وراى حاييم من تحت ذيل معطف الحاخام المنحسر مسدسا رشاشا معلقا في حزام ، من تلك الرشاشات التي لم ير مثلها الا في الافلام . وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئا فمضى نحو المشجب وهو يحمل ثياب الحاخام .

ومضى بن صهيون هاجرا الى غرفته ، وتبعته تسيليا ، وسرعان ما عاد الحاخام الى غرفة الطعام وسأل بأسى :

- تسيليا اخبرتنى بان اويثا هربت . هل هذا صحيح ؟  
لزم حاييم الصمت . لم يكن يفهم كنه ما يحدث . ربما كان الواقف امامه الآن ليس الحاخام بل زعيم عصابة اشقياء ما ؟  
ومضى الحاخام يقول مواسيا وهو يحدق في حاييم مباشرة :

- هذا سيىء ! ولكنها ليست خسارة كبيرة . . . ستظهر .  
ليست هذه اول مرة . لقد هربت ذات مرة قبيل عيد الفصح .  
وبحثنا عنها اسبوعا كاملا فلم نعرث عليها ، وفجأة ظهرت بنفسها .  
هل تدري اين كانت هذه الحمقاء مختبئة ؟ فى الحظيرة ، بجوار  
الجناح ا مثل هذا ينتابها احيانا .

كان قلب حايمم يلح عليه بانه لا يحق له ان يفضب من  
العاخام رغم انه كان يفترى على الفتاة . فقد كان العاخام هو  
الشخص الذى آواه وهو متطوع مجهول ، وانقذه من محتسه  
وساعده فى غربته ولذلك فقد اكتفى حايمم بان قال على استحياء  
انه ينبغى البحث عن الشخص المفقود ، فحتى الفرخة ان ضاعت  
يبحثون عنها ، فما بالك اذا كانت فتاة . وقد يكون حدث لها  
مكروه ؟ فماذا اذا ؟

ولكن بن صهيون هاجرا قال ببرود :

- لا داعى لاثارة ضجة . . يا لها من كنز ! ستظهر . . .  
وانصرف حايمم الى جناحه متكدرا . لم يكن فى حال تمكنه من  
النوم ، وطافت بذهنه شتى الافتراضات المخيفة . وبعد ان خارت  
قواه اغفى قرب الفجر ، ولكنهم ايقظوه على الفور . وخيل اليه ان  
اويثا تهزه لتوقظه ، ففتح عينيه ، وراى تسيليا واقفة امامه .  
وابلغته بجفاء دعوة والدها اليه بالمجرى الى البيت .  
كان العاخام يقف فى غرفة الطعام ملتفأ بمعطفه ، واستقبله  
بابتسامة قائلا :

- لقد شفيت بعون الله ، واليوم سبت ! وينبغى على  
جميع اليهود ان يذهبوا الى المعبد ليصلوا . . ستذهب معى  
الآن . غط راسك وخذ هذا «الصدور» • من على الطاولة . .  
سيكون لك منذ الآن . . .

وفى المعبد قرا حايمم كتاب الصلاة وهو لا يفقه معنى  
الكلمات ، فقد كانت كل افكاره مع اويثا . اين هى ؟ ماذا حدث  
لها ؟ ليم لم يبق معها بالامس فترة اطول ؟ لم يعترف لها بانه  
يحبها ولا يستطيع العيش بدونها ! لقد خجل وتردد . . .  
• كتاب الصلاة .

كان المصلون يرددون الصلوات خلف الحاخام باصوات متنافرة دون ان يلقوا بالا لحاييم . كان هنا غريبا ، ولا احد منهم يهتم ببلواه ، ولا يبالي بالامه ومصيره . مع من يستطيع ان يخوض في امور تعاسته وخسارته ؟ ومن سيسمع كلمة عزاء ومن ذا الذي سيساعده ؟ وتذكر بحزن صديقه ايليا توموف . بالطبع ما زال يعمل في الجراج ويعيش ان لم يكن في بحبوحة ، ففى هدوء ، ولا يخشى الفاشست ، وليس هناك ما يجبره على الفرار الى حيث يعلم الشيطان جريا وراء السعادة . . . اما حاييم فقد اضطر الى الارتباط باناس لا يعلمهم الا الشيطان ، وهامى المصائب تنهال عليه الواحدة تلو الاخرى . ومضى حاييم يقول في نفسه : «وعموما لو جاء الفاشست الى رومانيا فسيعاني ايليا لامرين . كل شيء جائز . . .»

لم يكن حاييم فولديتير يعلم اية مصيبة حلت بصديقه ، لم يكن يعلم ان توموف في هذا الوقت كان ممددا على الارض الباردة الملوثة بالدم في سجن مديرية الشرطة ببوخارست . نهض توموف بصعوبة وجلس مستندا بظهره الى الحائط . كان رأسه يدور وجسده يؤلمه ، والظما يعذبه . وتخرت بقع الدم على ذقنه وصدره . نعم ، لقد «وضّبه» رجال المباحث جيدا ! قبضوا على توموف بناء على وشايصة من عميل للمباحث . وكانت الشرطة تبحث عن مطبعة حزبية سرية تطبع المنشورات المعادية للفاشية . وكان يقوم بالتحقيق مفتش الشرطة الرومانية سولوكانو المعروف بقسوته . ومضى سولوكانو يقول برتابة :

- هيا بنا نتفق . لا تظن انها ذات قيمة تلك الاعترافات التي نريدها منك . فقط اخبرنا اين كنت تحصل على المنشورات . ولا شيء اكثر . سنخلى سبيلك قورا . فنحن نعرف جيدا انك تورطت في هذا العمل القذر بالصدفة ، اما الذي اوقع بك فيتجول الآن طليقا ، فما الذي يجعلك ايها المغفل تتحمل وزرهم ؟ انك

فيما يبدو شاب عاقل ، ولكنك لا تدري في الغالب ان السادة «الرفاق» الذين اداروا راسك ، يتلقون من موسكو زكائب نقود . . . . اتعرف كيف يحيون ؟ نصيحتي لك : اعترف بمحض ارادتك ، وسوف نشكرنا فيما بعد . . . .

لزم توموف الصمت .

والقت به ركلة قوية في البطن على الارض من جديد . وغامت عيناه من شدة الالم ، فلم ير فوق رأسه سوى وجه نائب المفوض سيطيرتشا المقلوب من الغضب .

راقب المفتش سولوكانو هذا المنظر كما يتفرج مشاهد ذواقة من اهالى العاصمة على تمثيلية يؤديها ممثلو مسرح ريفي . وصاح نائب المفوض وهو يضغط على رأس المعتقل الى الارض بنعل حذائه اللامع :

- تكلم ! سأقتلك ! أسمع ؟ سأقتلك !

فقال سولوكانو بنبرة تقزز :

- كفى يا حضرة نائب المفوض ! انك لا تدري ما تفعله .

تدوس على زور الشاب وتطلب منه ان يتكلم . . .

فاجاب نائب المفوض وكأنه يعتذر رغم انه كان يدرك تماما

لعبة رئيسه :

- الى متى يمكن ان نصبر عليه يا سيادة المفتش ! ضيعنا

ثلاثة ايام ونحن نحاول معه . انه يكذب بوقاحة .

وابتعد كأنما دون رغبة منه نحو النافذة ، واشعل سيجارة .

وحل مفوض الشرطة الطويل محل سيطيرتشا مرة اخرى . كان

يلعب منذ البداية دور الرجل الطيب الذي يرجو للمعتقل الخير .

وساعده مع رجل الشرطة الواقف في صمت طوال فترة التحقيق على

النهوض والجلوس على المقعد ، وجاءه بكوب ماء وعرض عليه

سيجارة .

وشرع المفوض يقول بلهجة مسالمة :

- اسمع يا توموف . هل المسألة تستحق ان تتحمل انت كل

هذا العذاب من اجل بعض المتمردين الحمقى ؟ انك شاب متعلم ،

درست في الثانوية ، و اردت ان تلتحق بطيران جلاله الملك ، ومع

ذلك تسلك هذا السلوك المتهور . اننا لا نبغى شيئا سوى ان نساعدك على الخلاص من هذه الورطة . بل والاكثر من ذلك سنكافئك ونعطيك وظيفة عندنا . ستصبح محترما ! - ونظر المفوض الى سولوكانو ليعرف ان كان الاخير يوافق على هذه الخطوة .

وكان توموف يدرك ان الجلادين لن يدعوه في هدوء ، فقرر ان يعجل بالنهاية .  
فدمدم قائلا :

- صحيح انكم تعدون ، ولكن من يدري هل ستدفعون ؟  
فهتف المفوض :

- هذا كلام آخر ! بوسعك الا تشك فينا يا توموف . اننا دائما نبر بوعودنا . . . فلتسمع اذن : اخبرنا اين توجد المطبعة و... خذ الفأ على الفور . موافق ؟  
فتساءل ايليا مذهولا :

- الف لي ؟

- نعم الف . . . وماذا في ذلك ؟

- مقابل هذا المبلغ سأقول للعالم كله ان مطبعة الشيوعيين موجودة في القصر الملكي . . .  
واستطرد توموف وقد لاحظ نظرات الدهشة التي تبادلها الجلادون :

- نعم ! طبعا ! المطبعة وضعت هناك بموافقة ملكنا المحبوب كارل الثاني !

ولم يتمكن ايليا من مواصلة الكلام ، فقد ضرب سولوكانو على مفرش المكتب بقبضته ، وعلى غير عادته رفع عقيرته الى درجة الصراخ :

- انه يسخر منا !

وكان آخر ما يذكره توموف قبضتي المفوض الطويل وهما تلوحان امام عينيه ، وسحنة سطييرتشا المقلوبة من الغضب وقد سارع بالقفز من على حافة النافذة وانهال عليه بالهراوة المطاطية .

في عشية اليوم السابق كان صقيع الشمال القارس لا يزال سائدا ، ولكن في الصباح حل الدفء فجأة . وفي حديقة تشيشمجيرو ، على بعد خطوات من الادارة العامة لمديرية الشرطة في بوخارست كانت اكوام الثلج المسود الرطب تتناقص ، وتساقطت من الاسقف قطرات الثلج الذائب الرائقة كالدموع في ايحاء رتيب . وكان الشرطي المناوب ، وهو رجل ضخم الجسم ، كهل ومتطير ، قد انصرف عن تغيير الكمادات التي امره الممرض ان يضعها كثيرا للمعتقل ، بعد ان ايقن ان «الشیطان من بيسارابيا الراقد على النقالة لن يموت» قبل تغيير نوبة الحرس القريب . وتهالك الشرطي ، على الاريكة بتشاقل ، وحك قفاه ، ومد ذراعيه وهو يتمطى بتكاسل ، وتشاءب .

وتناهى من ناحية بوليفار اليزابث صرير عجلات الترام الطويل الصارخ وهو يقطع شارع كاليا فكتوريا . وخلف جدران مستشفى سجن المباحث كانت الحياة تسير في مجراها . . . . كان الممرض الثمل يغط في نوم عميق . وكان الحارس مغتاظا من شخيره ذى الصفير والفحيح ، فود لو هوى على راسه بشيء ثقيل . وعلاوة على ذلك فقد عاد المعتقل الى وعيه وراح يئن . وزقزقت معدة الشرطي وقرقرت بالحاح وبشدة في هذه اللحظة على غير مناسبة فرسم علامة الصليب وتشاءب واقترب من النافذة الضيقة ذات القضبان الغليظة . واعتمد بمرفقه على القضبان ورفع راسه وحقق في الشعبة الجلدية المتدللية من افريز السطح ، فقد كانت تشبه المسيح المصلوب في مدخل المذبح الذي كان مواظبا في التردد عليه .

ونزع الشرطي قبعته بوقار ، ورسم علامة الصليب بتعبد مرة وثانية ، وما ان رفع يده ثالثة حتى تناهى من وراء الستارة التي ينام خلفها الممرض صوت طويل كريحه . . . فتجمد الحارس المتدين للحظة ، ثم اطلق سبابا مغيظا ، وانهى رسم الصليب للمرة الثالثة واغمد راسه في القبعة ذات الشعار الاصفر الكبير المزين بالتاج الملكى المتسخ . وقطب حاجبيه امتعاضا وفتح الكوة . . . .

اخيرا جاء بديله في الحراسة ، فسلم له الشرطى المعتقل ذا  
الرضوض والكدمات كأنه يسلم شيئا . ونصح زميله الذى تسلم  
الحراسة بان «يحرس هذا الشيطان لانه ما زال يتنفس ، ومن  
يدرى ربما يعن له ان يهرب . . فهو على اى حال بلشفى ، وينبغى  
ان تتوقع منهم اى شىء . . .» .

وبالرغم من ضيق افقه فقد كان الشرطى حويطا ، اذ طلب  
من بديله ان يوقع فى الدفتر بخط واضح والاهم من ذلك ان  
يكتب بانه «تسلم المعتقل وهو حى يرزق . . .» .

ونفذ المناوب الجديد كل ما طلب منه دون معارضة . لم  
يكن يترنج فى وقفته ، ولكن لسانه المتلعثم فضحه ، ولذلك  
فضّل ان ينفذ كل شىء فى صمت . ففى الليلة السابقة احتفل  
كما ينبغى بمولد السيد المسيح ، ولكنه لم يتمكن من ان ياخذ  
قسطه من النوم ويفيق من السكر .

انتشر الفجر تماما . وكان الممرض لا يزال يغط فى نومه .  
ونام الشرطى الذى تسلم المناوبة وهو جلس على الارىكة . كان  
الجو خانقا جدا . ولم يعكر صحو السكون سوى فحيح النائمين  
وزمارات السيارات وصرير الترامات المعول ، والتي كانت تزداد  
شيئا فشيئا .

ونفض توموف قليلا وطاف بنظراته على ما حوله ، قادرك  
اين يوجد ، فاستلقى ثانية على النقالة . كان جسده يؤلمه ،  
والتهبت جراحه ، وعذبه الظما . والحت عليه بصفة خاصة افكار  
مقلقة : «اى ايام الاسبوع اليوم ؟ اين الميكانيكى اليبسكو الآن ؟  
كيف يفكر فى موضوع اعتقاله ؟ هل اتخذوا تدابير الحيطة ؟ ترى  
الا يظن رفاقه بانه قد يعترف ؟ ربما ، ستعرف امه بذلك قريبا .  
ربما . . . ربما . . .» .

ودق الباب مرة ، وثانية ، ثم ثالثة . فقفز الشرطى وهول  
كالمسوع وهو يسوى تارة سترته ، وتارة حزامه ، وتارة  
عمرته . وجاء بديل الممرض وظل طويلا يوقظ النائم ، ولكنهم  
انهموا اسرع بكثير اجراءات «استلام وتسليم» المناوبة . وبعد

ذلك فقط تطلع الممرض المستيقظ الى الساعة وشهق ، إذ اتضح ان بديله جاء متأخرا عن مواعده باكثر من ساعة ونصف ، فانفجر فيه الممرض بعدة جمل لاذعة دون ان ينسى في غضون ذلك ان يحشر فيها اسم العذراء ومولودها ، ربما بمناسبة اعياد الميلاد . وانصرف صافقا خلفه الباب بقوة جعلت الرئيس يتصاعد من قوارير وقناني الدواء الموضوعه على مائدة ذات ارجل معوجة .

وضحك الممرض الذي تسلم المناوبة وفتح الباب وارسل في اثر زميله بعض العبارات المفعمه بالمشاعر المماثلة . ثم اقترب من المعتقل الراقد بعينين مفتوحتين ورفع الكمادة المبللة من على وجهه بالملقط وصاح متهللا :

- اوه ، ما كل هذه الزينات في وجهه ! تناسب تماما شجرة عيد الميلاد !

وتجشأ الشرطي المجذور المحدودب الواقف على مقربة بصوت عال .

فقال الممرض بصوت اخف مظهرا سعة اطلاعه :

- يبدو من الاسلوب ان هذا من صنع السيد سيطيرتشا نائب المفوض ! . . هل هو شيوعى ؟

نعم ، بالضبط . . . - لفظها الشرطي بصعوبة ، ولم يستطع ان يكمل الكلمة فقد تجشأ ثانية .

واشاح الممرض ذو النظارة بيديه نحو الشرطى متقرزا واسرع خلف الستارة . وعلى الفور عاد ودس تحت انف الشرطى المهتز من التجشأ لفة شاش بمحلول النشادر وكرر هذه العملية عدة مرات بالرغم من نخير الشرطى وسعاله ودموعه وسبابه .

ثم اتجه باهتمامه الى المعتقل ، فغسل جروحه بالمنجنيز ومسح بمحلول مركز من صبغة اليود على مواضع النزيف ، وفي النهاية كشف على قلبه ثم قال :

- مثله سيحمل اكثر من استجواب . . .

وجيء بالافطار : كوب شاي وكسرة من الخبز الاسود اللزج



كمعجون النوافذ ، وبمناسبة العيد جاءوا بقطعة من الجبن الابيض  
المغطى بالعفن .

ونهب توموف قليلا ، وشرب الشاي الفاتر القليل السكرين  
والذي فاحت منه رائحة الخيش . ولم يأكل شيئا ، فقد كانت  
اسنانه تؤلمه ولثته تنزف ورأسه يدور .

وحوالى الظهر جاء نائب المفوض القصير مرتديا حلة  
التشريف ذات الاشرطة المذهبة . وكان توموف قد عرف ان اسمه  
سطيرتشا . وتبادل مع الممرض التهنئة بالعيد ، وانقض على  
توموف كالوحش الذى يطارد فريسة وتفحص بعناية آثار «عمله»  
وسأله بابتسامة خبيثة :

- حسنا ، ماذا تقول ؟ هل اعادك بابا نويل الى صوابك ؟  
وتطلع توموف الى السقف .

فقال سطيرتشا رافعا صوته :

- اننى اسألك ، هل ستقول الحقيقة ؟

فأجاب توموف وهو لا يزال يتطلع الى السقف :

- لقد قلت كل شيء . وانت وعدتني بالنقود . اين هي ؟

- اخرس !

فردد توموف ببرود اعصاب رغم ان كل كلمة كانت

تكلفه جهودا هائلة :

- انتم شاطرون فى الوعود ! . . .

واصيب سطيرتشا بحالة هستيرية :

- ساريك النقود ايها الشيطان المثقف ! ساريك كيف

تتظاهر بالغباء ! سأجعلك تتكلم . . .

وخرج سطيرتشا وهو يصب اللعنات والوعيد ، فقد حان

موعد نوبته .

لم يزعج احد توموف بقية اليوم ، مما ساعده على ان يستجمع

قواه قليلا . بل لقد أحس بعد الغداء انه اصبح اقوى . وقبيل

المساء فقط ، عندما خيل اليه ان اليوم مضى على خير ، جاء الى

المستشفى عريف الشرطة المناوب وساق توموف الى التحقيق

بصحبة الشرطى حارس توموف ..

نفس الغرفة ونفس المقعد المخصص للسجين تعسست التحقيق . كان كل شيء هنا معروفا لتوموف : الاثاث ، الارضية الترى كان يلقي عليها عندما يعذبونه ، سحنة نائب المفوض ، الهراوة المطاطية وصورة الملك الذى كان خدمه الغيورون ينكلون منسا «باحد رعايا جلالته» و . . . اوه ، كلا ا هذا شيء جديد . . . فعل الجدار ، بجوار صورة الملك الجبار ظهرت لافتة ضخمة متعددة الالوان . وفتح توموف فمه قليلا واخذ يهز راسه وهو يتأمل اللافتة باهتمام مبالغ فيه . كان مكتوبا في الجزء الاعلى منها بحروف كبيرة : «البلشفية» . وتحتها رسم المصور مدفعا ثقيلنا ونساء مربوبات اليه . كن جميعا مشعثات الشعر ، يحملن اولادهن الرضع على اذرعهن ، وقد ارتسم الرعب على وجوههن . ويسوقهن بالسياط فرسان القوزاق ذوو الشوارب والقبعات السوداء ذات الاسطح الحمراء .

وكانوا ملفوفين من قمة رؤوسهم الى اخص ارجلهم بالاحزمة الجلدية وتتدلى منهم المسدسات والبنادق ، وفي قم كل منهم خنجر مدمى . وعلى جنب اللافتة ، وعلى امتداد ارتفاعها يقف هيكل عظمى فى كفن ابيض ويمسك بمنجل ضخم كتب على نصله بحروف تنزف دما كلمة «الشيوعية» . وعند اقدام الهيكل العظمى مقبرة تمتد الى ما لا نهاية بصلبانها المائلة .

وقال توموف لنفسه وهو يتأمل وجوه النساء المرهقة : «يا سلام ! بهذه الطريقة يريدون تخويف الشعب اذن ! . . . ولكنهم سيفشلون . فالكادحات الرومانيات ، من فلاحات وعاملات ، وخاصة بنات بيسارابيا ، سيقلن عن حق ان مصيرهن الراهن الصعب هو الذى تصوره اللافتة . . .»

وتحول ايليا عن اللوحة ونظر الى الرجل القصير وادرك من نظرتة ان نائب المفوض كان يراقبه طوال الوقت .

وقال سيطيرتشا وهو يومى الى اللافتة :

- اتريد ان يحدث هذا فى بلادنا ؟ - واستطرد دون ان ينتظر الرد وهو يبتسم بخبث : - كلا ! لن نمكنكم من ذلك ،

كلا ! سنبيدكم جميعا قبل ان ترفعوا على رؤوسنا هذا المنجل !  
اتسمع ايها الشيطان المثقف ؟ !

ضم توموف قبضته بقوة ونظر الى نائب المفوض بجرأة وحقد واضح .

واثارت حركة الاحتجاج الصامت هذه جنون نائب المفوض القصير الضيق المنكبين والجبين ، والمتمتع بصلاحيات واسعة غير محدودة ، وذى الاسنان الصغيرة الصفراء ، والفم المقلوب دائما من الحقد ، والعينين الصغيرتين العكرتين المزورتين ، والاذنين الكبيرتين الممدودتين . واندفع هذا الرجل من مكانه وانقض على المعتقل وامسك برأسه واداره بشدة ناحية اللافتة :  
- كلا ، بل انظر ! انظر ! هاهى نتائج افعال اخوانك ، ايها الشيطان البيسارابى !

واستولت على سيطيرتشا نوبة اخرى من نوبات الحقد الوحشى ، فمضى يستخرج من ترسانة العبارات البوليسية الخاصة عبارة تلو اخرى ، ويتبعها بين الحين والحين «بتل هائل» من كلمات السباب .

وتطلع توموف باحتقار الى نائب المفوض وفكر في نفسه لاراديا : «وهذا المعتوه يملك حق ضرب الناس وحرمانهم من الحرية دون ان يتعرض للعقاب . . . اما رايه فيرسل عبر رئيس الادارة العامة للمباحث في تقرير الى الملك ! وبناء عليه تتخذ في القصر «الحلول الجذرية» وتصدر «المراسيم» و«القرارات» وتوضع «الاجراءات» الموجهة لحماية النظام وتدعيم الحكم الذى تجسده الشرطة والجندرية والجيش ومعالي الوزراء وجمالة الملك . . .»

وانقطعت افكار توموف وشتائم سيطيرتشا بمجرى المفوض الطويل . كان هو ايضا في نوبة عمل ، ويرتدى بمناسبة العيد زى التشريفه ذا الشريط المذهب العريض المتدلى من الاسبليطة .

- مرة اخرى يا توموف لا تتكرم بالوقوف عند حضور الرؤساء ؟ عيب ! ام تراهم لم يعلموك ذلك في المدرسة الثانوية ، هه ؟ اين درست ؟

فاجاب توموف بلا رغبة ودون ان يتطلع الى المفوض :

- في مدينة بولجراد . . . في مدرسة الملك كارل الثاني  
الثانوية للبنين . . .

- هكذا ! في مدرسة صاحب الجلالة ! ولكنك تسلك مسلك  
الجهلاء . . امر سيئ . . .

وظل توموف جالسا يحدق في الارض .  
وسأل المفوض الطويل بنبرة ثاقبة :  
- حسنا ، وكيف الحال اليوم ؟ هل ستقول الحقيقة ام تامر  
بان نبدا كل شيء من جديد ؟

وفكر توموف في نفسه : «نفس الكلمات والاساليب من  
جديد . . . ان ما يسمونه حقيقة له اسم آخر تماما : خيانة» .  
واجاب توموف :

- انا لا اعلم شيئا عن الامور التي تسألني عنها ، ولست  
مستعدا لأن اختلق على نفسي اى شيء ! ولو قتلتمونى !  
وصر الرجل القصير باسنانه من الحقد ، بينما اقترب الطويل  
من توموف وسأله وهو يبتسم بمكر :

- واذا اثبتنا انك كنت تتلقى وتوصل لآخرين المطبوعات  
الشيوعية ؟ بم تأمرنا اذن ان نفعل بك ؟  
فهز توموف وقال بلا مبالاة :

- لست ادري كيف يمكن اثبات شيء لا وجود له في الواقع !  
- تنكر . . . حسنا ، ذنبك على جنبك .

وما ان قال الطويل ذلك حتى اعطى اشارة لسطيرتشا فخرج  
هذا من الغرفة على الفور . وجلس المفوض في مقعده «الفوتيل» وراح  
يقلب صفحات عدد مجلة «رياليتاتيا ايللوستراتى» المخصص لعيد  
الميلاد .

وانتابت توموف شتى الظنون : «ربما اعتقلوا احد الرفاق ؟  
وربما هذا فخ ؟ ومن الذى يمكن ان يكون هو الواشى ؟ اهو ليكا ؟  
بالطبع هو وحده . . . واذا كان هو ، فما العمل ؟ هل انكر كل  
شيء ؟ . . .»

وفتح الباب خلف توموف ودخل احدهم ثم توقف عند العتبة .  
واستبدت الرغبة بتوموف في الالتفات ومعرفة بسرعة من الذى

سيواجهه . ولكنه بذل جهدا اراديا كبيرا ليجبر نفسه على البقاء  
جالسا دون حراك والحفاظ على تعبير اللامبالاة على وجهه . وفي تلك  
الثواني المعدودة دار في نفسه صراع متوتر بين اعصابه وعقله .  
واخيرا تنفس الصعداء عندما ساله الطويل هازنا :

- هل انت نائم يا توموف ؟ انظر هنا . . . هل عرفته ؟  
فالتفت ايليا ببطء واخذ يتفحص القادم بصورة توحى بانه  
يرى لأول مرة هذه السحنة المجدورة وهذه القامة النحيلة  
الممشوقة . فعجل سيطير تشا بقطع فترة الصمت التي طالت :

- ما لك صامت ؟ هل انعقد لسانك من هذه المقابلة ؟  
فاجاب ايليا بهدوء :

- ولماذا ينعقد ؟ اذا كان هذا السيد يعرفنى فليقل . اما  
انا فاراه لأول مرة .

كان ذلك ليكا . روى بالتفصيل كيف ابلغه قائد الجماعة  
السرية بكلمة السر لكي يقابل توموف ويتسلم منه المنشورات ،  
وكيف وصل الى المكان المتفق عليه في الموعد المضروب في ساعة  
متأخرة من المساء ، وكيف القى كلمة السر وانتهاز فرصة الظلام  
فوضع حلقة القيد بغتة في يد توموف ، ولكن هذا وجه اليه ضربة  
قوية في خن وركه .

وقال ليكا معتذرا امام مفوض المباحث :

- لقد انكشيت من شدة الالم رغما عنى ، فلم استطع ان  
اضع الحلقة الثانية في يدي . . وهكذا تمكن هو من الفرار . .  
والالتمدد الى جوارى دون حراك ! . .

اصغى ايليا الى الرواية وكأنه يصغى الى رواية ممتعة حقا  
ولكنها لا صلة لها به . فقد كان يعلم ان نتيجة التحقيق ستتوقف  
على سلوكه في هذه المواجهة مع عميل المباحث . ولذلك حاول الا  
يكشف نفسه باية حركة او تعبير او تنهيدة . وقال لنفسه مؤكدا :  
«ينبغي ان اصمد ، وان العب اللعبة الى النهاية !» . ومضى في اللعبة  
رغم ان رأسه كان يتحطم الماء ، وزوره يغص غضبا . وقال لنفسه :  
«سامح الله رفاقنا . . كيف يجند للعمل السرى مثل هذا !»  
وعندما انتهى ليكا اخيرا من روايته قال توموف بدهشة :

- لا استطيع ان افهم لماذا يحاول هذا الشخص ان يتقن  
على بما لم يحدث منى ؟ اربما حدث كل ما رواه هنا مع شخص  
آخر ؟ وعموما ، فهل هو شخص سليم العقل ؟ . . . - قال ايليا  
وهو يؤمى نحو الخائن - ما هذا الهراء الذى يقوله عن الحلقة ؟ اية  
حلقة ؟ وما دخلى انا بذلك ؟

ولم يحتمل المفوض الطويل فقال :  
- اسمع يا توموف ! اقول لك بالتى هى احسن . . . كفاك  
تصنعا للغباء . . . والا فسوف اهتم بك كما ينبغى . . . احذر !  
فلن تستطيع ساعتها ان تفلت من الاشغال الشاقة ، بل من اشياء  
اسوأ منها ربما . . . هيا ، الاحسن ان تعترف ، وستعمل مع هذا  
الشاب . هو ايضا ركب رأسه عندما سقط فى ايدينا ، ولكنه تاب  
الى رشده فى الوقت المناسب . . . وقد غفرنا له كل شىء واعطيناه  
مكافأة طيبة . انظر الى هندامه الآن ! والنقود ترن فى جيبه دائما ،  
وعموما . . . هيا بنا ننسى الماضى ونعقد صداقة ! موافق ؟  
حملق توموف كأنما يريد ان يظهر انه لم يعد قادرا على ترديد  
نفس الشىء ، ومع ذلك قال :

- ليس عندى اية فكرة عن الاشياء التى رواها عميلكم ولا  
افهم ماذا تريدون منى ؟ ! كل هذا سوء تفاهم . . . ليس الا !  
وخيم الصمت . وحدث ثلاثتهم فى المعتقل المستكن الممزق  
الشياب وكل منهم يفكر فيما ينبغى ان يقوله لكى يوقع به ويضطره  
الى الاعتراف . وكان سيطيرتشا اول من وجد ما يقول :  
- وماذا لو جئنا الى هنا بصاحبك الميكانيكى ايليسكو ؟  
وماذا لو اكد ما كنت تفعله ؟ ماذا تقول عندئذ ؟

خفق قلب توموف بقلق ، وومضت فى خاطره للمحظة : « احقأ  
سقط الرفيق ايليسكو فى ايديهم ؟ ولكنه لا يمكن ان يشى . . .  
كلا ، هذا فح ! استفزاز ! » . ورد بعد ان تما لك اعصابه :  
- هيا ، احضروه ايضا من فضلكم . انكم تخوفوننى  
بالميكانيكى طوال الوقت : فمن هو بالنسبة لى ؟ ليس عمى او  
خالى . . . لقد تعرفت به اثناء عملى فى الجراج ولست مستعدا ان اتحمل  
وزره اذا كان قد ارتكب شيئا . كل ما يمكن ان اقوله ان الجميع ،

بمن فيهم كبير المهندسين ، كانوا يعتبرون السيد ايليسكو  
الميكانيكي ، شخصا شريفا . اسألوا اى شخص وسيؤكد لكم هذا .  
واحس ليكا ان المواجهة لم تحقق ما كان اسياده يؤملون فيه ،  
فبادر الى انقاذ الوضع :

- اذن فانت تقول انك لا تعرفنى يا توموف ؟

فقال توموف ساخراً :

- اوه ، وتعرف اسم عائلتى ايضا ! من زمان يا ترى ؟

فقال ليكا محتدا :

- لا تتمحك باسم العائلة ! لقد عرفته هنا ، الآن ، ولكنى  
اعرف اسمك الحركى من قبل . انت «كوستيكا» ! اما انا فكنت  
«ليكا» . انك تعرف ذلك جيدا ، فلا تتظاهر . . .

فهز توموف راسه باسى ، وقال :

- اليوم عيد الميلاد ، ويبدو ان عميلكم قد افرط فى الشرب !  
لقد عمدنى واطلق على اسم «كوستيكا» . ولكن هذا فى منتهى  
الغباء . فاذا كان هناك فى الدنيا شخص اسمه «كوستيكا» فلتبحثوا  
عنه . فانتم لا تدفعون لهذا الشاب جيدا من اجل ان يضلل الناس  
وهو غائب عن وعيه ! . .

اسقط فى يد ليكا بسبب رد توموف ، فلم يكن يتمتع بذلك  
ما . الشئ الوحيد الذى كان قادرا عليه هو ان يضع «اوراقه الاربعة»  
على الطاولة مباشرة . وازداد حدة وهو يقدم دليلا آخر خيل اليه  
انه لا يدحس :

- لا تتعلق بقشة ! فانا اعرفك حتى من صوتك !

ولم يضطرب توموف ، بل استغل هذه العبارة ضد الغائن .  
سأله ببطء :

- تقول انك تعرفنى من صوتى ؟

- نعم من صوتك ، فحتى الآن لم يخنى سمعى ابداً !

فقال توموف موجهها كلامه الى رجال الشرطة :

- انظروا يا حضرات الرؤساء . . يبدو ان عميلكم انساق

وراء اكاذيبه . . . يقول ان سمعه لا يخونه . . . ولكنكم تعرفون

جيدا ان صوتى كان مختلفا تماما عندما جئتم بى الى هنا . . . وبعد

ان فعلتم كل هذا بي فاني لا اتكلم بصوتى بل ببحة ! لقد حطمت  
لى اسنانى . . . هنا . انا نفسى لا اتعرف على صوتى ، اما هو فقد  
عرفه على الفور . . . يا له من شاطر !

لمح العميل نظرة تقريع فى عينى نائب المفوض سيطيرتشا ،  
فتوقدت البثور فى وجهه بالحمة . وعقد حاجبيه القليل الشعر  
واسرع يبرر موقفه :

- فليقل ما يشاء ، ولكنه هو ! اقسم بشرفى يا سيادة  
الرئيس ! لست مخطئا . . .

استدار توموف عنه بازدراء . اراد ان يؤكد له انه حتى  
وهو هنا ، فى المباحث ، معذبا ومضروبا ، فهو مفعم بالاحتقار  
للخائن .

وامروا ليكا ان يخرج ، وتبعه المفوض الطويل . وعندما  
بقى سيطيرتشا مع المعتقل على انفراد بدأ يستخدم اسلوبه المعتاد  
فى الاصرار على ان يعترف له توموف باسماء من ساعدوه فى خلع  
حلقة القيد عن معصمه واين اخفوا القيد ، ولكنه عندما لم يتوصل  
الى شىء ، صاح فجأة ودون اية صلة بما سبق :

- اتظن اننا لا نعرف ماذا كنت تفعل فى ايام الدراسة ؟ اين  
ذلك اليهودى الخبيث الذى كنت تصاحبه ؟ اننى اسالك اين هو ؟  
ما اسم عائلته ؟ تكلم ايها الشيطان !

ادرك توموف على الفور من المقصود بالسؤال ، ولكنه تظاهر  
بان لا يعرف اى شىء . ورسم على وجهه علامات الدهشة ولزم  
الصمت .

فاندفع سيطيرتشا الى الطاولة وراح يقلب بعض الاوراق ،  
ثم صرخ :

- فولديتير ! حايم فولديتير ! اين هو ؟ باسم  
مسيحك ، ربك ، الهك ، روحك . . . تكلم !  
ولم ينبس توموف ببنت شفة .

- اتصمت ايها الشيطان المثقف ؟ اننى اسالك اين ذلك  
الجاسوس البلشفي ؟ اليس هو الذى جرك الى العمل السرى ؟  
اعترف ايها الشيطان ، اين هو ؟



فاجاب توموف وكانما ادرك الان فقط عمن يدور الحديث :  
- ومن اين لي ان اعرف ؟ اذكر انه فصل من المدرسة ،  
ومن يومها لم نتقابل ، فقد جئت انا الى هنا ، الى بوخارست ، اما  
هو . . . فربما بقى في بولجراد . . . يبدو ان والدته تعيش  
هناك . . .

لم يذكر توموف الحقيقة عن عمد . فقد كان يعرف جيدا ان  
والدة حاييم ماتت اثناء المذبحة . روى له ذلك حاييم عندما تقابلا  
في كونستانسا . وكان توموف يعرف والدة حاييم حتى المعرفة .  
كانت امرأة طيبة ، بشوشا ، هادئة . وعندما كان يحدث ان يبقى  
توموف طويلا لدى حاييم ، كانت دائما تقول : «فلتمكث قليلا  
عندنا يا ايليوشكا \* ! علام تستعجل ! سنتعشى سويا . . . لقد  
صنعت من نصف دجاجة مرقا ربما لم يذق الملك نفسه مرقا مثله  
في حياته . . . ابق . اذ ربما يأكل حاييم في صحيبتك . . . انظر  
كم هو نحيل !»

وكان نائب المفوض سيطيرتشا يعلم ايضا ان والدة حاييم  
فولديتير قد ماتت ، ولكنه لم يظهر ذلك ، وراح يردد :

- ياله من حمل وديع ! . . . «لم ار شيئا !» ، «لا اعرف  
شيئا !» ، «لم اصنع شيئا سيئا !» ، «كل هذا سوء تفاهم !» . ولكن  
تذكر ايها الشيطان البلشفي ، اذا لم تعترف بما كان بينك وبين  
ذلك اليهودي ، فسوف اضربك ضربا مبرحا ، ولن اضربك فحسب  
بل لن اجعلك انت وعجوزك الشمطاء تخرجان الى النور ، الى ان  
تتعفنا هنا عندي . . .

تخيل ايليا على الفور والدته المريضة الوحيدة التي تعاني  
من العوز الدائم ، والتي ذقت العذاب بسبب ابيه الذي حل ضيفا  
بجميع سجون المملكة تقريبا لاشتراكه في انتفاضة فلاحي بيسارابيا  
في تاربوناري . واستولى على توموف غضب لا يطاق :

- لماذا اعتقلتم امي ؟ ماذا فعلت بكم من سوء ؟  
فردد نائب المفوض ليقلده :

\* صيغة تدليل مشتقة من اسم «ايليا» . المهرب .

- «ماذا فعلت بكم من سوء؟»، «لماذا اعتقلتم امي؟» فليكن  
اننا اعتقلناها على الاقل لانها بنت متمرّد بلشفي ! ولانها ملات  
بنفس الروث راس ابنها الفاسد النسل ، الذي لا احد يعرف ممن  
حملته . . .

لم يتمالك توموف نفسه فانفجر غير عابى بشيء :  
- لا بأس يا حضرة نائب المفوض . . . ستحاسب يوما  
ما على كل هذا ! . . . ستحاسب .

وصعق سيطيرتشا ، وانكمش كالقط البرى قبيل الانقراض ،  
ولوى شفّتيه الضيقتين جانبا ، واقترب من المعتقل على مهل .  
وصاح نائب المفوض بصوت رفيع ورفع يده :  
- ماذا قلت ايها الشيطان البلشفي ؟ لي انا ؟ اتجرؤ على  
تهديدي ؟! سوف اسحقك . . .

نقد صبر توموف ، وخانته اعصابه تماما ، فامسك بيد  
نائب المفوض في الهواء ودفعه بشدة الى جنب . وارتطم سيطيرتشا  
بحافة المكتب . . .

ومد نائب المفوض يده بعصبية وهو شاحب الوجه من  
الذعر واخرج مسدسه من جيبه وحشاه برصاصة ، وانتظر  
لحظة ، ثم دار من حول المعتقل ببطء وهو ملتصق بالعائط ،  
وفقط بعد ذلك وثب الى الباب بقفزة وفتحته على مصراعيه وصاح  
مناديا الشرطى المناوب فى الطرقة بصوت عال . ووضع كلاهما  
القيد فى معصمى توموف . ثم امر سيطيرتشا الشرطى ان ينصرف ،  
ثم مسح ببطء حبات العرق من على جبينه ، واقترب من العائط ،  
ونزع من المسمار الهراوة المطاطية المعلقة وفحصها من كل جهة .  
وابتسم وهو يقترب من المعتقل حتى لاصقه ، وسأله :

- اذن فانت لا تعرف شيئا عن الشيوعى حاييم فولديتير ؟  
افلا تعرف ايها الشيطان البلشفي ماذا تعنى «اديو مامى» ؟ \*

كلا ، لم يكن حاييم فولديتير يعرف بالطبع ، ولم يكن  
بوسعه ان يعرف ما حل بصديقه توموف ، وبينما كان يغبطه على

\* وداعا يا ماما (بالرومانية) .

حياته الهادئة راح يأسى في هذه الساعة على اويًا فقط . وفي تلك الاثناء واصل الحاخام بن صهيون هاجرا تلاوة صلاة «مودين» ولما كان هذا السبت يوافق مطلع الهلال ، فقد انتقل الحاخام الى تلاوة صلاة «عطا يزارتا» بينما ردد المصلون معا «ينكى الوهينو . .» وبعد فترة طويلة ، عندما انتهى بن صهيون هاجرا اخيرا من تلاوته الرتيبة ودق براحته الثقيلة على كتاب الصلوات ، افاق حاييم من خواطره المؤلمة واغلق «صدوره» . وكاد ان يتجه الى باب الخروج ولكنه اكتشف انهم سيقومون طقوس «بار ميتسوى \*» لاحد الصبيان .

واعلنت فترة راحة قصيرة ، فانطلق المصلون الى الفناء وهم يتسابقون كما يفعل التلاميذ اثناء الفسحة . . . واقترب بن صهيون من حاييم بوقار ، وقال بصوت هادى ولكنه آمر :  
- لقد جننا الى هنا معا . . . ومعا سنخرج من هنا . . .  
وظاها حاييم راسه واخذ يراقب الصبى وهو يقبل «التيفلين»، المكعبات المربعة المغطاة بجلد رقيق اسود ، وكيف وضع اول «التيفلين» على ذراعه اليسرى العارية حتى الكنف ، وبينما استمر في تلاوة الصلوات ، قتل عليها سبع حلقات من اعلى الى اسفل حتى بلغ اصبعه الوسطى فلف عليها ايضا ثلاث لفات من شريط الحزام المتدلى من المكعب . واخيرا ، وبعد القى على قفاه بحزام جلدى وجعل منه عقدة - اذ لا ينبغى ترك الرأس حاسرا في الهيكل لحظة واحدة - وثبت «التيفلين» الثانى على الجزء الاعلى من جبينه . وهنا بدا الصبى يقرأ مختارات من التوراة بعاطفة مشبوبة وخشوع ، وهو يرتل كما ينبغى ، وحيانا كان يسترق النظر الى الحاخام شزرا ولكن باحترام خاص . وكان بن صهيون منتصبا كالصخرة .

اما آخر مراسيم سن الرشيد فكان اشبه بامتحان يعقد للمحتفى به . وكان بن صهيون اول من وجه اليه سؤالا . وتوالت ردود الصبى وكأنها منطلقة من آلة اوتوماتيكية : بسرعة ووضوح

\* طقوس دينية لادخال الصبيان الذين بلغوا سن الرشيد الى العقيدة .

وايقاع . كان يقول في اجاباته بان «التيفللين» الموضوع على اليد يسمى «شيل يد» و«شيل ذراع» ، والثاني المتدلى من الراس يسمى «شيل روش» ، وهما يحتويان على اشرطة جلدية تتضمن اربعة مقاطع من الكتاب المقدس ، وان «التيفللين» الموضوع على اليد يحتوى من الداخل على قسم واحد وفي كل فقرة سبعة اسطر اما «تيفللين» الراس ففيه اربعة اقسام في كل قسم اربعة اسطر . وفي كلا «التيفللين» لف الجلد على شكل اسطوانة مربوطة بشريط ضيق من الجلد وبشعرة عجل يدعى «الحيوان الطاهر» غسلت حسب ترتيب معين . . وبعد ذلك اجاب الصبى بان نزع «التيفللين» عن اليد والرأس ، اذا حدث ذلك في يوم ظهور الهلال ، تصاحبه تلاوة صلاة «موساف» .

تذكر حاييم وهو يتابع هذه المراسم المملة كيف كان هو نفسه يجهد في الاجابة بنفس الطريقة يوم بلوغه سن الرشد ، وكان ينظر الى العاخام باعجاب ويتصوره مثل اله تقريبا . . . وقال الآن في نفسه : «لو راى هذا الشاب كيف جاء هذا «الاله» ليلة السبت في سيارة من مكان لا يعلمه الا الشيطان ، وكان يحمل مسدسا يحسده عليه حتى رجال عصابات شيكاغو !»

ولم ينتبه حاييم الى ان المراسم اوشكت على الانتهاء ولكنه ادرك ذلك عندما راى الشماس الاعرج يطوى «الطالس» في كيس مخملى بال . ولكن العاخام بقى في مكانه . وفي تلك الاثناء اخرج والد الصبى لفةً واخذ منها كعكتين احد هما عادية من البسكوت والاخرى بالعسل ، ثم صب خمرا عكرا مصنوعا من التين في كؤوس صغيرة كالكستبان احضرها معه خصيصا .

ورفع العاخام كاسه اولا ، وحوار عينيه الكبيرتين وتلا «البركات» الضرورية في مثل هذه المناسبات ، مباركاً الشمار التي صنع منها هذا الشراب :

- باروخ عطا ادوناي الوهينو باره برى اجيفين ! • -  
رتل العاخام هذه العبارة وصب ما في الكاس في جوفه ثم مز بالكعكة

• بارك اللهم ثمار الكروم !

واعرب عن تمنياته بان يلتقى الجميع فى القريب العاجل على ارض  
الميعاد . وقال :

- اومين ! \*

وردد المصلون وراءه بنفس النبرة :

- اومين !

فى الظهيرة عاد صهيون هاجرا وحاييم الى المنزل . وربما  
لم يتسن لحاييم ان يرى من قبل كل هذه الاطعمة الوفيرة التى  
حفلت بها مائدة العيد فى دار الحاخام . كان هنا الفسيخ المقطع  
بالجوز ، والبيض المسلوق المختلط بدهن الفراخ ، ومعجون  
كبدة بالبصل المحمر و«بيتسا» من ارجل الفراخ ورقابها واجنحتها  
وقوانصها وغيرها من امعائها المغطاة بصلصة من صفار البيض  
المضروب واللوز المسحوق والنييذ ، والمزين بشرائح الليمون .  
وفى وسط المائدة وضع صحن كبير يحوى فجلا مبشورا مشربا  
بدهن الاوز والقرفة . ولا تخلو اية مائدة من موائد يوم السبت من  
هذا الطبق المفضل لدى الحاخام . وفى صحن عميق وضعت الشطائر  
القبرصية الشهيرة المحشوة بلحم الفراخ المفروم مرتين . واخيرا  
كان هناك سمك محشو فى مرق متجمد احمر غامق بسبب البنجر !  
اما طبق المائدة الرئيسى فقد اعدته تسيليا بنفسها ، وشهدت على  
ذلك اصبعها المضمدة .

كان الجميع حاضرين . وانتهز حاييم فرصة وقوف العممة  
بيتيا وحدها بجوار النافذة فاقرب منها وابلغها بنبا اختفاء اويًا .  
واتضح ان الحكيمة على علم بما حدث . وذهل حاييم للهدوء الذى  
استقبلت به العجوز النبا . فقال فى نفسه بمرارة وهو ينصرف  
عنها : «اهى ايضا بلا قلب !»

جلس الجميع فى اماكنهم ولكن احدا لم يقرب الطعام فقد  
كانوا ينتظرون جلوس الحاخام فى كرسيه الكبير البالى .

وتطلع حاييم الى وجه الحاخام المشبع بالرضى عن النفس  
وتذكر اللوحة البدائية التى عثروا عليها منذ عدة سنوات فى عليّة

• امين •

منزلهم . وقال حاييم في نفسه : «لو نزعنا عن الحاخام طاقيته  
المخملية لاصبح نسخة طبق الاصل من جريشكا راسبوتين !» .  
كان بن صهيون هاجرا راضيا ، فقد سار كل شيء مثلما رسم  
له : اختفت اويّا ، وامثل حاييم فيما يبدو لهذه الخسارة ، كما  
اعد الغداء بصورة رائعة . وانشد الحاخام بصوت خافت لحن  
«زميريس» المناسب لمائدة يوم السبت ، وما ان وضع في طبقه  
ملعقة من الفجل حتى فتحت النافذة على مصراعيها واطل منها رأس  
خادم ستيفانوس الاسود الشعر .

وصاح الصبي بصوت عال وهو يدخل :

- كالي ميرا ! ••

واراد ان يبلغ شيئا ولكن الحاخام استوقفه ، ونهض ببطء  
وانصرف الى المدخل . وعلى الفور تبعتهما تسيليا . وساد  
الصمت غرفة الطعام .

نظر حاييم الى النافذة فرأى تسيليا تركض الى آخر الفناء ،  
حيث يقوم الجناح ، ومرقت من الباب ، ثم خرجت راكضة ، واختفت  
ثانية خلف باب الحظيرة . ودهش حاييم وقال لنفسه : «ما الذي  
تبغيه هناك ؟» . واقترب من النافذة فسمع صوت تسيليا الخافت  
تقول :

- انها ليست هناك ! فتشت كل ركن . . .

وذهل حاييم للخاطر لذي فطن له : انهم يبحثون عن اويّا !  
وعاد بن صهيون وتسيليا الى غرفة الطعام . كانا منزعجين  
بصورة واضحة ، رغم محاولتهما اخفاء ذلك . وجلسا الى المائدة .  
وانقض الجميع على الطعام ما عدا حاييم . وسرعان ما نهض وشكرهم  
على الوليمة واراد ان ينصرف . ولكن الحاخام اوقفه وقال له بعدم  
رضا انه لا ينبغي ان يترك مقعده حتى يغادر الاكبر سنا المائدة .  
واخرجه سؤال العمة بيتيا من استغراقه في التفكير . كانت  
تتساءل عما اذا كان سيتركهم قريبا .

• جريجورى راسبوتين (١٨٧٢-١٩١٦) - محبوب قيصر روسيا  
الاخير نيقولاى الثانى والقيصرة الكسندرا فيودوروفنا . مغامر . المحرب .  
• • • نهار سعيد (باليونانية) .

فاجاب حاييم بحددة ، ودهش هو نفسه لجرأته :  
- لن اسافر الى اى مكان ما لم اجد اويًا !  
ودهش الجميع لهذه الاجابة القاطعة الصادرة عن شاب خجول  
بطبعه وسرت في وجه بن صهيون ابتسامة حاقدة . فقال مخاطبا  
العمة بيتيا بهدوء مفتعل :

- يقولون ان الغريب الاطوار اسوأ ممن ترك دينه واعتنق  
المسيحية . . . واذن فالناس على حق . . . - والتفت الحاخام الى  
حاييم وقال - حسنا ، فلنفرض انك لن تجدها ؟ ماذا اذن ؟ لن  
تسافر ؟ هراء ! بالطبع ليس لانك مقيم عندنا وتثقل علينا . . .  
لا سمح الله ! ولكنك ايها المتطوع ، يا ولدى العزيز ، قد تدربت  
في «الاكشارا» ، ومكانك الآن في ارض اسرائيل فقط ! ثم خبرني  
من فضلك ، ما الذى وجدته في هذه «الشكسا» \* الصماء البكماء ؟  
الانها رعتك اثناء مرضك ؟ حسنا ! وما الذى يمكن ان يترتب  
على ذلك ؟ وهل قليل ما فعلته من اجلك العمة بيتيا ؟ ونحن  
كلنا ؟ من الذى كان يعد لك الطعام ؟ ومن غير تسيليا كان يذهب  
الى الاتراك من اجلك لي جلب لبن الماعز ؟ فهل تدرى اية كلاب  
لديهم ؟ هل سألت عن ذلك ولو مرة ؟ فليهبني الله من الاعوام  
السعيدة بقدر المرات التى كانت تعود فيها تسيليا باللبن  
مذعورة ، شاحبة الوجه ! فهل هذا لا يساوى شيئا في نظرك ؟  
فسدت وليمة العيد ، ولم يعد هناك مجال للكلام عن الخطبة .  
كان الحاخام يدرك ذلك ، فنهض ، ونهض حاييم ايضا وشكرهم  
على الغداء ، ومضى متجها الى الباب ولكن الحكيمة اوقفته ، وسألته  
بصوت خافت :

- هلا اوصلتني ؟

فاجاب حاييم دون رغبة :

- تفضلي .

ونادى الحاخام الممرضة وانحنى على اذنها هامسا :

- اخبرى هذا المعتوه ان تسيليا تملك في رصيد حسابها

\* الفتاة غير اليهودية .

في بنك «امبريال بنك اوف بريتيش» في القدس اثني عشر الف جنيه  
استرليني عدا ونقدا ! اتسمعين يا عمه بيتيا ؟ اثنا عشر الفا !  
افهميه ما معنى هذا ! فاننى ارى انه ليس ذكيا كبيرا ولا غبيا  
صغيرا . يرتدى بنطلونا مهترنا ويتصرف ككبار  
السادة . . . .

فقلت الحكيمه :

- اننى اعرف يا حاخام . انت نفسك ترى انه شاب ذو  
خيال . ولكن اطمئن ، سابدل جهدى . . . وهل هذا يحتاج الى  
كلام ؟ . . .

عندما وصل حايمم والعمه بيتيا الى منزلها سألته وعدسات  
نظارتها السميكة تلمع :

- هل تحب اويًا ؟

فاجاب حايمم دون تردد :

- نعم !

فتنهدت الحكيمه بزفرة ، وقالت :

- لم ادرك ذلك الا اليوم . وارى انك لا تثق بي . . .

عبثا . . . لا تعامل الجميع بمعيار واحد . هل تسمع ؟

وهز حايمم كتفيه . ودعته الحكيمه الى بيتها لدقيقة :

- هيا اقول لك ! هل تفهم ؟ انا لست عدوتك . . .

وما ان تخطى حايمم العتبة حتى وقف حائرا . كانت الغرفة

نظيفة ، بستائر من الدانتلا ، وطاولة مغطاة بمفرش ابيض . وكان

الباب المغلق يفضى فيما يبدو الى غرفة اخرى او الى المطبخ .

وقالت العمه بيتيا برقة وهي تنظر الى حايمم بابتسامه

حزينة :

- افتح هذا الباب . . ستكون الحياة صعبة عليك يابنى . .

الخجل ليس افضل صفة في الرجال . - وعندما رأت ان حايمم ما

زال يقف مترددا ، دفعت هى الباب . في الغرفة الصغيرة الضعيفة

الضوء كانت اويًا تقف مذعورة في الركن .



وقالت العمة بيتيا :

- اترى . . . ليس الناس جميعا من طينة واحدة . . بل مختلفون . . . تذكر ذلك طول عمرك ! لقد جاءتنى المسكينة في الفجر ممزقة الثياب ، حافية مليئة بالكدمات . لم استطع ان افهم شيئا ! ماذا حدث ؟ . . انظر اية تضحية اقدمت عليها دفاعا عن شرفها !

مسد حاييم ذراعى اويًا المخدوشتين ، وضمها اليه برقة فاخذت الفتاة ترتعش كالمحمومة من الخوف والفرحة .

ومضت العمة بيتيا تقول :

- لقد كانت عند ستييفانوس المشهور هنا . انت طبعًا لا تعرفه فلتحرقه جهنم . والآن ينبغي ان تعجل بالانصراف ، واحذر لا قدر الله ان تتفوه بانها عندي . . . هل سمعت ؟ سوف ترحل من هنا ، اما انا فسأبقى لاعيش ما تبقى لى من ايام . . . وليس عندي كما تدرك اى رصيد فى البنك . . . ولكنى لا اشكو . يكفينى القليل ! . . طوال حياتى كنت اساعد الناس . . وسوف اساعدكما .

اراد حاييم ان يقول للحكمية انها ردت اليه حياته مرتين : عندما ساعدته على مقاومة المرض الشديد ، والآن عندما آوت فتاته الحبيبة . اراد حاييم ان يقول هذا الكلام لهذه المرأة العجوز الطيبة التى اعادته الى الحياة وتهديه الآن السعادة ، ولكن العمة بيتيا قاطعته ما ان تفوه باول كلمة :

- ارجوك ، انصرف الآن . كن على حذر مع حاخامنا ! انك لم تعرفه بعد ! ولا داعى لان تعرفه . . . اكنت مقيما عنده ؟ وشفيت ؟ الحمد لله . . اننى افهمك ! اتظن لا ؟ تحبها ؟ حسنا ، هذا من عند الله . ولكنى اصارحك كابنى . . . انا لا اتصور كيف ستعيشان معا ؟ ! فانكما ترحلان الى هناك ! فليجعل الله حياتكما هنيئة ! ولكن الحياة غادرة . . ما اغدرها من حياة ارجو الا تعرفاها ! . .

كانت سفينة «ترانس اطلانطيك» العتيقة والقبیحة الشكل ، والمشهورة سابقا بسرعتها ، تغادر الخليج ببطء مخلقة وراءها السفن التجارية الصغيرة البالية ، وقوارب الصيد الغريبة الاشكال ، وزوارق الحراسة البريطانية الرهيبة ، والمبانى القبرصية القميئة الممتدة على طول الشاطئ . وكان ذيل الدخان المتصاعد كعمودين كثيفين من مدخنتى السفينة الكبيرتين يعجب الجزيرة كستارة سوداء .

وتناثرت في كل مكان في غرف وسطح السفينة الحقائب واللفف واناس لا حصر لهم . كانوا متعبين ، متوترين ، قلقين : ففى الامام ، في مكان ما خلف هذا الافق الازرق كان بانتظارهم حياة جديدة . ترى كيف ستكون ؟ افضل من تلك التى تركوها الان ؟ وعندما رأت امرأة شابة بشعر اسود ناعم ممشط ومجموع بمقعدة كثة من الخلف تلك الفتاة المذعورة الواقفة بالقرب منها في ثوب خفيف ، دعته الى الجلوس بجوارها على الصندوق . وقال ببشاشة وهى تحمل على ذراعيها احد ولديها التوامين :

- بيتى ، بيتى . . . نيمين زى بلائس . . .

ونظرت اويًا الى حاييم متسائلة ، وعندما ابتسم ودفعها برقة نحو المرأة ذات الشعر الاسود ، جلست بخجل على حافة الصندوق . لقد تمكنت باعجوبة من الافلات من حانة ستيفانوس ، والتخلص من مطاردة بن صهيون هاجرا المنتقم القاسى ، ولكن الخوف لم يفارقها بعد ، ولم تحس بالسعادة . بالعكس ، كانت تنظر باسى الى البحر الذى انزل بها كثيرا من البلايا . وخيل اليها الان ايضا ان البحر الساطع الساكن سيوقع بها مصيبة .

وكان حاييم ايضا لا يكاد يصدق ما حدث : فهو مع اويًا على ظهر الباخرة ! كان ذلك اشبه بمعجزة ! وظل لا يحول عينيه عن وجه اوي الرقيق ، ويمسك يدها ، ويلمس كتفها وكانما يريد ان

• تفضلى ، تفضلى بالجلوس (بالالمانية) .

يتأكد من ان هذا ليس حلما . نعم . الدنيا لا تخلو من الطيبين .  
ولو لا العمة بيتيا لما اصبحت معا . وقد ساعدتهم ايضا ميكانيكى  
الباخرة اليونانى ، وكانت الحكيمة قد انقذت طفله المريض من  
موت محقق . لقد نقل اويا الى السفينة سرا . وكانت المخاطرة  
كبيرة ولكن ظرفا معيننا حدث ، وظل لغزا غامضا بالنسبة  
للميكانيكى والحكيمه ، وهو الذى ساعدهما على تنفيذ خطتهما .  
فبينما كان الزورق الصغير يقترب بالفتاة من السفينة كان الصخب  
الذى عمها من قبل قد هدا . فالحمولة «الهامة بصفة خاصة» والتي  
نقلها رجال بن صهيون هاجرا من الشاطئ قد تم وضعها في  
العنبرين الرئيسيين وكان البحارة يستريحون بعد هذا المجهود  
الشاق فلم يلحظ احد من افراد الطاقم الفتاة وهى تصعد الى  
السفينة وحاييم يستقبلها .

وبمعمونة العمة بيتيا ايضا استطاع حاييم ان يضع اسم اويا  
في «شهادته» كزوجة ، ولكن حتى العمة بيتيا لم تستطع ان تحصل  
له على شهادة زواج مسجلة حسب العرف والقانون . والآن لم  
يعد هناك ما يعكر سعادة حاييم . فماذا تعنى بعض الشكليات !  
كل شئ سيكون على ما يرام ، فقد خلفا وراء ظهرهما اصعب  
الاهوال .

وسأل حاييم المرأة ذات الشعر الاسود وهو يبحث عن  
الكلمات الالمانية بصعوبة :

- هل انت من المانيا ؟

فاجابته بصوت خافت وهى تنظر بقلق الى المرأة المسنة  
الجالسة بجوارها ، وكانت امها :

- كلا ، من النمسا . وهل تتحدث الالمانية ؟

فاجاب حاييم :

- قليلا جدا . . ولكنى افهم كل شئ تقريبا .

وتحولت المرأة عن والدتها لكى لا تثير اشجانها فيما يبدو  
بالذكريات الحزينة . وروت لحاييم ، وهى تحاول ان يكون صوتها  
خافتا بقدر ما يمكن ، ان اسرتها كانت تعيش في فيينا ، وكان ابوها  
طبيب اسنان وزوجها عازف كمان . اما هى فعازفة بيانو ، وكانت

تعطى دروسا فى الموسيقى . وقد قتل النازيون اباهما وزوجها على مشهد منها . ولكن بعض الطبيبين ساعدوهم على الهجرة الى يوغسلافيا ، والآن يتوجهون الى يافا .

وقالت عازفة البيانو فى ختام روايتها :

- ذاهبون الى خالى . انه مهندس بناء ، خبير خرسانة . هو الذى رتب لنا «الدعوة» . وآملنا كلها معقودة عليه الآن .

لم يعد حايم يدهش الآن من كثرة الشيب فى شعر هذه المرأة الشابة ولا من الظلال الزرقاء تحت عينيها ، ولا لسفرها مع اطفال صغار على سطح السفينة ولا لذراع والدتها اليمنى المدلاة بلا حياة . . . وتذكر والدته التى وافاها الاجل سريعا بعد المذبحة التى دبرها بلطجية خوريا سيما زعيم «الحرس الحديدى» الفاشيستي .

وابتسمت عازفة البيانو وقالت :

- غدا ينتهى كل هذا الكابوس . . . الحمد لله لقد نجونا

الآن ! . .

وامتلأت عيناها المشرقتان بالدموع .

والتقط حايم خيط هذا الحديث عن طيب خاطر ، ومضى يشرح لاوليا انهم سيقضون ليلة واحدة فقط على السفينة . وادركت المرأة ما الذى يوضحه الشاب «لاخته» ، فراحت هى الاخرى تشرح للفتاة بحركات اليدين وتعابير الوجه ان حياة جميع الوافدين الى فلسطين على ظهر هذه السفينة ابتداء من الغد ستسير فى مجرى جديد ، وستكون حياة طيبة ولا بد سعيدة .

واستطردت عازفة البيانو تقول بثقة :

- نعم ، نعم - وابتسمت لاوليا بمودة وضمتها اليها . - هكذا

سيكون ، طبعا ! سترين ، سترين . . .

حدقت اوليا بعينين مفتوحتين تارة الى هذه المرأة الرقيقة المدهشة ، وتارة الى فتاهها الحبيب ، ولم يكن واضحا ما اذا كانت تصدق هذا الذى يحاولون توضيحه لها واقناعها به ، ام ان الخوف والريبة لا يزالان يسيطران عليها مثلما من قبل .

اخرجت عازفة البيانو من محفظة بنية كبيرة مظروفا قديما

ومدته لحاييم . وكان مكتوبا عليه عنوان الراسل ، خالها مهندس  
البناء غوردون من يافا ، واسم عازفة البيانو . كان اسمها شيللي  
بيكر . . .

مالت الشمس نحو المغيب . واطلم البحر الهادي البراق  
كمرآة وكأنما غطاء الصدا . وكان كثير من المسافرين قد تعارفوا  
على بعضهم البعض ورووا لبعضهم البعض من اين جاءوا وهل لديهم  
اقارب في «ارض الميعاد» ، وماذا يعمل هؤلاء الاقارب وما هو  
وضعهم المالى . وكان سؤال واحد يشغل بال الجميع : هل سيحصل  
الوافدون الى فلسطين على عمل ومسكن ، ام سيكون عليهم ان  
يسعوا ايضا لتدبير هذا وذاك ؟

وكان يلوح من الاسئلة المستعجلة والاجابات المستعجلة  
مثلها قلق هؤلاء الاشخاص وعدم ثقتهم في الغد ، والرغبة في  
الحصول على تاييد وطمأنة وامل فيما هو افضل .

وبجوار حاييم استقرت مجموعة صغيرة من الرجال الذين  
كانوا يتحدثون بحيوية . وكان الحديث يدور عن احداث الحرب :  
عن اشتراك المقاتلين البولنديين السابقين في القتال على خط الدفاع  
الفرنسي «ماجينو» ، وعن اغراق سفينة تجارية بريطانية في منطقة  
ما من المحيط الاطلسي ، وتجادلوا في امكانية تسلل الغواصات  
الالمانية الى البحر المتوسط ومهاجمتها لسفن الركاب .

وفي هذا الصدد قال شاب ذو لحية خفيفة قصيرة :  
- لقد حالفنا الحظ ، فالسفينة تسير تحت علم دولة  
محايدة !

فقال رجل نحيل يضع نظارة سوداء بنبرة الشخص المطلع  
على الامور :

- لقد اهتم البعض بذلك في الوقت المناسب . ففي مثل  
هذه الفترة العصبية ليس من السهل ان تحصل على سفينة . .  
ولكن . . . امكن تدبير ذلك ! فكيف ولماذا ؟ لانهم هناك ، في الدوائر  
العليا ، يعيرون هذه الرحلة اهمية كبيرة . . .

فقاطعه رجل سمين صغير يرتدى قبعة من القش وسترة فاتحة

اللون مخططة . وتدلت سلسلة ذهبية ثقيلة من عروة سترته الى داخل جيبه الجانبي :

- اتظن اننا صيد ثمين الى هذه الدرجة ؟ ! ام انك تظن ان عنابر هذه الخرقة البالية محشوة بالذهب ؟

فقال الشاب ذو اللحية مؤمنا على ما قال ذو النظارة السوداء :

- سواء كنا مهمين ام لا ، وسواء كان في العنابر ذهب ام لا فانهم في مكان ما ، لعلمك ، يعيرون لهذه السفينة بالذات اهمية كبيرة . ولهذا السبب بالذات سيصل كرشك ذو السلسلة الذهبية بسلام الى ارض اسرائيل . . .

وسدد الشخص ذو النظارة السوداء نظرة ثابتة الى الرجل السمين وقال بلهجة ذات دلالة :

- وعموما فانى لا انصحك بتوجيه اسئلة فارغة .

فقال الرجل السمين وقد شعر بالاهانة :

- وماذا هناك ؟ ما الذى سألته ؟ ماذا ؟ ! وهل هذه مدمرة حربية ؟ ! يا سلام ! - ولوح بيده هازئا . - اننا نجيد اطلاق الفقاعات من انوفنا ونصيح في العالم اجمع مؤكداين انها مناطيد . دعونى وشأنى . . . لست صبيا ، فانى اعرف الاعيب المتطوعين هذه من زمان ! نعم ، نعم . . . لا تحذقوا فى هكذا . . . اطمئنا ، فنحن ايضا نعرف بعض الامور . . .

لم يهتم حاييم بهذه المشادة ، فالعالم مليء بالثرثارين . ومع ذلك فقد فكر بانه لا بأس ابدا اذا كانوا «في الدوائر العليا» قد اهتموا لسبب ما اهتماما خاصا بسلامة رحلة هذه السفينة .

اختفت الشمس خلف الافق تاركة في طرف السماء خطوطا حمراء . وحمل النسيم الخفيف عبر السفينة روائح شهية من المطبخ . وخرج من مقصورات الدرجتين الاولى والثانية ركاب ينتمون الى المجتمع الراقى ، اولئك الاشخاص اصحاب النفوذ والذين ادوا «خدمات خاصة» للصهيونية ، اولئك السادة الذين كان «المركز القومى» يعتبر هجرتهم في الدرجة الاولى من الاهمية .  
تجمهر الرجال في الصالون نصف الدائرى ذى الستائر التى حال لونها من الشمس . كان الاستعداد يجرى على اشده لصلاة

العشاء . واشعل المصلون الذين كانوا يحيون الذكرى السنوية لوفاة اقاربهم بعض الشموع . وكان عليهم ان يرتلوا بخشوع صلاة «فاديش» التي تليق بالمتوفى الورع . وتجمع الرجال الذين تلوح عليهم سيماء الجديدة ، ليقيموا شعائر «مينين» التي تتطلب ان يجتمع للصلاة ما لا يقل عن عشرة ذكور ممن بلغوا الثالثة عشرة .

اطل حاييم في باب الصالون . وعندما رأى الرجال الذين يحملون كتب الصلاة في ايديهم احس بخيبة امل فانصرف ومضى يتسكع بعيدا . احس هو واويا بجوع شديد . واخيرا تمكنا ، بعد ان ابرزا كوبونات الاكل من بطاقات السفر من حشر انفسهما في قاعة المطعم المزدهمة . لأول مرة كانت اويا تجلس مع اناس غرباء يلبسون ثيابا فاخرة على طاولة واحدة مغطاة بمفرش ناصع البياض . ودق قلبها بعنف وتورد خذاها الاسمران .

وجىء بالعشاء . ولم تلمس اويا شيئا ، وظلت تختلس النظرات حولها ، وكأنها تخشى ان يطردوها في اية لحظة . وذهبت هبا كل جهود حاييم في تهدئة روع الفتاة وجعلها تأكل . عندئذ اخرج من جيبه صحيفة ، ودون ان يلقي بالا لنظرات الدهشة في عيون الجالسين معه الى الطاولة ، لف فيها الفطائر والجبن .

وعندما صعدا الى سطح السفينة مدت اويا يدها الى اللفة وهي تبتسم ابتسامة مذنبية ، ومضت تلتهم الفطائر بشهية . وابتسم حاييم وهو يغالب الغصة التي امسكت بزوره .

انتعشت الحركة على سطح السفينة ، فقد رفع نسيم المساء المنعش والطعام الشهى الوفير من معنويات الركاب . وتناهت من مؤخرة السفينة اغنية مرحة .

وقالت شيللى مخاطبة حاييم واويا القادمين :

- آخر ليلة في البحر ! سنستيقظ صباحا وتلوح لاعيننا شواطئ فلسطين . . .

وتنهدت ام شيللى وقالت :

- ليت ذلك يحدث بسرعة . لم اكن اظن ابدا ان الانسان يتعرض لكل هذه المصائب ولا يموت .

وحمل حاييم في يديه دودي الصغير ، احد التوامين ، واسرع  
مع اويًا الى المكان الذي تناهت منه الاغنية .  
كانت مجموعة ضخمة من المتطوعين تغنى عند مؤخرة السفينة  
امام السطح المكشوف :

قومو قومو هولوتسيم  
قومو قومو هاردوليم !  
قادما ميزراحا !  
ميزراحا آقادما ! \*

كان حاييم يعرف هذه الاغنية ، فقد كان يغنيها في الامسيات  
اثنا «الاكشارا» . فراح يردد معهم الاغنية ويرقص على ايقاتها .  
وكرر الصغير بصوت رنان وهو جالس على ذراعى حاييم .  
لم يشعر حاييم على الفور بان اويًا تهزه بشدة . والتفت  
فراى شيللي تفتش بنظراتها في الحشد باضطراب . ورفع حاييم  
يده فمضت شيللي تشق طريقها اليه على عجل . واقتربت منه حتى  
لاصقته ، وهمست في اذنه بان شيئا غريبا يحدث على ظهر  
السفينة . اما المتطوعون فواصلوا الانشاد بجذل :

بانو-بانو باديريخ !  
بانو-بانو باديريخ !  
كى هولوتسيم - افريم  
اوميريم - اكشيم ! \*

انتهت الاغنية ولكن المغنين بداوا اغنية اخرى عسكرية .  
بينما اشارت شيللي الى متطوع في قميص من لباس خاص  
بكتافيات ، مشمر الكمين حتى المرفقين ، ويضع على جيب صدره

\* قوموا ، قوموا ايها المتطوعون ، قوموا ، قوموا ايها  
الهاردوليون ، الى الامام نحو الشرق ! الشرق في الامام ! (الهاردوليون  
اعضاء «هاردوليا» وهي فرع من منظمة صهيونية تعمل في تجنيد الشبان  
وتهجيرهم الى فلسطين .)  
\* استعدوا ، استعدوا للرحيل ! استعدوا ، استعدوا للرحيل !  
المتطوعون اليهود يهدونكم التحية !



نجمة سداسية زرقاء كبيرة . كان يشق طريقه وسط الحشد ويصدر اثناء سيره تعليمات ما ، فينصاع لها الشبان والشابات المتطوعون بلباسهم الخاص . واصبح صوت كورس المغنيين اضعف فاضعف ، حتى انقطع الغناء اخيرا . وساد الهرج بين المتطوعين ثم تردد امر : على جميع المتطوعين ان يجتمعوا مع مجموعاتهم وعلى الركاب اخلاء مؤخرة السفينة والعودة الى مقصوراتهم واماكنهم .

لم يكن احد يدري السبب في ذلك وما الذي يعده المتطوعون ، فراح البعض يسخر منهم ، والبعض الاخر يشتم ، والبعض الثالث اذعن في صمت واتجه الى مقصوراته . وسيطر القلق على الجميع . وعاد حاييم واويا وشيللي الى مكانهم على السطح . وبجوار صندوق ادوات الاطفاء وقف الشخص السمين ذو السترة المخططة . كان يمسك في يده ساعته الذهبية ذات السلسلة ويقول لام شيللي بسخط :

- اقاموا الدنيا واقعدوها هؤلاء الـ ٠٠٠ ! والسبب ؟ الداعي ؟ اين ؟ في وسط البحر . يريد متطوعونا ان يقيموا عرضا عسكريا غدا بمناسبة الوصول الى فلسطين ! افلا يستطيعون عمل هذا التدريب بهدوء وسكينة ، ووقار ودون صخب . ولكن لا ، فهم بحاجة الى ان يخاف الناس ويصابوا بالذبحة الصدرية . . . اراد حاييم ان يبدد القلق المسيطر ، ولذلك تظاهر بانـه يصدق السمين وقهقهه ضاحكا . وكانت شيللي جالسة ، شاحبة الوجه ، مذعورة ، وقد ضمت الى صدرها وليديها . كانت اشبه بالدجاجة الحاضنة التي تحرس كتاكيته .

وتار القلق في نفس اويا وشيللي وهي تنظر اليها محاولة فهم اسباب هذا الاضطراب ، ولم تهدي روعها ابدا ضحكات حاييم . فقد حدثت في عينيه فاحست في نظراته قلقا ما .

وسأل حاييم عازفة البيانو :

- هل فهمت ما قاله هذا السمين الظريف ؟

- يستعدون لاستعراض . . . ولكنه شيء غريب . . .

فقاطعها حاييم بلطف :

- ما هو الغريب ؟ - واضاف ضاحكا - انهم متطوعون !  
وهم يتدربون كالجنود . اليس كذلك ؟ بالطبع انت تعرفين  
من هم «المتطوعون» ؟

هزت شيللى كتفيها وقالت بعدم ثقة :

- شىء شبيه «بفرق العاصفة» . اليس كذلك ؟ بالطبع انت  
تعرف ما هى «فرق العاصفة» ؟

اتسعت عينا حاييم الرماديتان ، ولكنه اکتفى بهز  
راسه . . فقد كان موضوع الحديث حساسا للغاية ، وكان  
المتطوعون ينتشرون من حولهم ، ولذلك وجد من الحكمة ان يلزم  
الصمت .

ولفتت انتباه حاييم فتاة فى زى متطوع . كانت تروى  
بانفعال شيئا ما للركاب المحيطين بها ، فاصغى حاييم . كانت  
تتحدث عن سفينة حربية ما تطارد سفينتهم وتطلب منها فيما يبدو  
ان تتوقف .

ويظهر ان هذه الاشاعة قد انتشرت وسط الركاب ، فاندفع  
الكثيرون منهم نحو الجانب الآخر للباخرة على امل ان يروا السفينة  
الحربية . وفجأة مزق سكون البحر دوى طلقة مدفع .  
دب الذعر على سطح السفينة ، واجتاح الركاب كموجة  
عاصفة .

- طوربيد !

- اننا نغرق ! . .

وتدفق الركاب من المقصورات والعنابر الى السطح واندفعوا  
الى قوارب النجاة وهم يتخاطفون اطواق النجاة واحزمة  
الفلين من بعضهم البعض . كانت وجوههم شاحبة ، عرقانة ،  
وعيونهم جاحظة من الرعب ، وشفاههم مقلوبة من الصرخات  
الهستيرية . . واحس حاييم بالرعب يشلج اطرافه ، اذ لم ير فى  
حياته شيئا اهل من هذا . . لقد مال السور الحديدى الذى يطوق  
السطح تحت ضغط الكتلة البشرية المجنونة وكان على وشك ان  
ينهار بين لحظة واخرى . وطغت الصيحات التى تمزق نياط

القلب ، الصادرة عن اناس تملكهم الرعب ، طغت على كل شيء

حولهم . . . .  
وفي تلك اللحظة ظهر البحارة ومجموعة من المتطوعين على  
سطح السفينة . واعملوا قبضاتهم دون حرج فأبعدوا المسافرين  
عن الاسوار دون ان تأخذهم شفقة بالنساء او الاطفال وغير  
عابنين بالصرخات اليائسة والعيول .

ومن السطح العلوى اخذ الرجل القصير اللحية يدعو الركاب  
الذين جن جنونهم الى الهدوء عبر بوق مكبر للصوت ووضح لهم  
انه لا توجد اسباب للذعر . .

لقد عرفه حاييم : انه ذلك الشاب ذو اللحية ، الذى كان  
يتحدث منذ فترة قريبة بلهجة متعالية الى السمين ذى السترة  
المخططة والسلسلة الذهبية .

وقال حاييم فى نفسه : «هذا الرجل هو الزعيم هنا على  
الارجح . .» .

وردت صوت المذيع الامر جميع مكبرات الصوت على ظهر  
السفينة :

- انتباه ، انتباه ! اوقفوا الضجة ! ليلزم الجميع الصمت !  
وعرف حاييم من الصوت ان المتكلم هو نفس الشاب ذو  
اللحية . فى البداية تكلم باللهجة العامية \* ثم بالعبرية القديمة ،  
ثم بالانجليزية مطالبا بالتزام الهدوء واطاعة اوامر المتطوعين  
المكلفين باقرار النظام فى السفينة .

هذا الذعر تدريجيا . واخبر نفس الصوت المسافرين عبر  
المكبرات انه قد تشكلت على السفينة اركان خاصة «للهاجانا» \* .  
اخذ على عاتقه مسئولية اىصال المسافرين الى «ارض الميعاد» .  
واطفئت انوار السفينة ، واعلن المذيع على الفور انه ممنوع منعا  
باتا على الجميع ان يشعلوا الضوء الكهربائى او الكبريت او  
التدخين . . . . وسيعرض المخالفون لمحاسبة صارمة .

\* اللغة اليهودية المسماة «اليديش» .  
\* \* حرفيا تعنى : الدفاع ، الحماية . وهى فصائل عسكرية سرية  
صهيونية .

وصاح المذيع بصوت نشييط :

- اننا نعلن عن ثقتنا بان المسافرين سيثبتون بسلوكهم النموذجي انهم جديرون بالتوطن في ارض اجدادنا المقدسة ، التي لم يبق على موعد الوصول اليها الا ساعات معدودة ! وبذلك سنبرهن من جديد على عظمة الامة باسرها !  
واذيع هذا النداء باستمرار بعدة لغات ، وفي كل مرة كان ينتهى بالكلمة التقليدية «شالوم» \* .

وكان لنداء اركان الهاجانا على السفينة اثره فقد استتب الهدوء والنظام . . . وكانت مجموعات المتطوعين تجوب السفينة باستمرار ، ويطلون برؤوسهم داخل المقصورات بلا حرج . واحكموا رقابتهم على كل ركن في السفينة . وحذروا الركاب من ان اقل مخالفة للنظام ستعرض مرتكبها للحبس في غرفة انفرادية ، بل وحتى الالقاء به في عرض البحر . . .

بيد انه لم يكن بوسع اية اجراءات صارمة ان تمنع انتشار شتى الظنون والاشاعات المزعجة . واستمرت الاقاويل تتردد زاعمة ان السفينة الحربية التي تطاردهم هي سفينة المانية تستر تحت علم دولة اخرى . وفي رواية اخرى كانت هذه السفينة بارجة ايطالية تحرس قافلة بحرية قادمة من الحبشة . . .

ومن جديد اهتز الهواء بقذيفة مدفع . واضطر قبطان السفينة بعد اصراره على الصمت الى ان يرد على اسئلة سفينة الحراسة الحربية المتكررة ، فابلغهم ان السفينة التي يقودها سفينة ركاب صرفة تسير في خط سيرها المقرر حسب المواعيد والجدول . . . كما اشارت برقية القبطان اللاسلكية الى تفاصيل اخرى مثل تبعية السفينة وحجم حمولتها .

وبالرغم من هذه الاجابة الواضحة الى حد ما فقد طالبتهم السفينة الحربية بالتوقف ، فرد القبطان بالرفض معللا سبب رفضه بان السفينة تقل اساسا نساء واطقالا ، وان القبطان ، تجنبنا لاستمرار الذعر الذي دب على ظهر السفينة اثر طلقات

• السلام •

الانذار التي اطلقتها سفينة الحراسة مضطر الى المضي في السير .  
واعرب القبطان عن استعداده لتلبية اي مطلب لسفينة الحراسة  
ولكن عند حلول الفجر او في مرفأ الوصول ، اي في بيروت .

وجاء من السفينة الحربية امر للقبطان باشعال الاضواء .  
ولكن ممثلي اركان الهاجانا ، الذين كانوا منذ بداية الرحلة يعملون  
بتنسيق وثيق مع القبطان ، اوصوه بالابطاء في الرد . فقد كان  
من الضروري مهما كلف الامر المماطلة حتى حلول الظلام التام ثم  
محاولة الافلات من المطاردة تحت جنح الليل .

ولكن المسافة بين سفينة الركاب وسفينة الحراسة تقلصت  
الى حد كبير ، ومن جديد صدر الامر باشعال الاضواء فوراً والسير  
من الآن فصاعداً حسب قواعد الملاحة الدولية لسفن الركاب ، اي  
السير بدقة حسب خط الملاحة الى بيروت .

وادرك القبطان نية قيادة السفينة الحربية ، فاجاب بانـه  
موافق تماما على الاقتراح ، ولكنه يأسف بشدة لعدم استطاعته  
تنفيذه فوراً لان مولدات الانارة في السفينة معطلة ويجري  
اصلاحها ، ومن المتوقع ان تعود للعمل بين لحظة واخرى ، والى  
حين ان يتم ذلك فهو مضطر الى الاكتفاء باضواء الاشارة .

وما ان ابلغت هذه البرقية اللاسلكية حتى انطفأت اضواء  
الاشارة في السفينة ، وتحولت السفينة عن خط سيرها بحددة .  
وسرعان ما افلتت السفينة من المطاردة . وحل الظلام .  
وظلت الاشارات اللاسلكية الواردة من سفينة الحراسة الى الآن  
بلا جواب . واخيرا صمت اللاسلكى ايضا . . . ولم يكن احد يعرف  
هل توقفت سفينة الحراسة عن المطاردة ام انها فقط فقدت اثر  
سفينة الركاب .

ولم يعد القبطان الى خط السير السابق الا بعد ساعتين .  
لف ظلام الليل الحالك السفينة بستار كثيف مضاعفا قلق  
الركاب الخائفين . وشغل اذهان الجميع سؤال واحد : لماذا لم  
ينفذ القبطان امر السفينة الحربية ، ولماذا لم يتوقف ما دامت  
سفينة الحراسة انجليزية كما يؤكد الجميع ؟  
وكثرت التكهنات والتفسيرات حول هذا الموضوع : فقد

قال فريق ان بعض الركاب ليس لديهم تاشيرات القنصلية البريطانية بالدخول الى اراضى فلسطين الخاضعة لانتداب الامبراطورية البريطانية . وادعى فريق آخر انه توجد بين الركاب شخصيات هامة جدا من القيادة الصهيونية العليا تفرض على اسمائها سرية مطلقة . وقال فريق ثالث انهم راوا في فجر اليوم السابق ، والركاب نيام ، ان السفينة توقفت قرب قبرص وتسلمت من سفينة اخرى كمية كبيرة من الاسمنت . . . . وراح الركاب يخمنون :

- لا بد انه اسمنت مهرب ؟
- او ربما لم تدفع عليه الجمارك ؟
- ولهذا شحنوه في الفجر . . . .
- وسرا . . . في عرض البحر !
- هل رايت ذلك بعينيك ؟
- كلا ، ولكنهم يقولون . . . .

وقال الرجل السمين ذو السلسلة الذهبية المدلاة من عروة سترته بدهشة :

- اكل ذلك بسبب بضعة براميل قافهة من الاسمنت ؟ !
- يا له من تهريب ! بسبب هذا الشيء التافه لا يمكن ان يفتحوا نار المدافع ! خاصة اذا كانوا بريطانيين . اننى اعرفهم . . فهم مهذبون ! اناس مثقفون ، رهيফون ، لا يسببون لاحد اهانة ابدا . . . لقد خبرتهم جيدا . . فانا مجوهراتى . . كنت اصدق لو ان المسألة فيها مثلا ذهب او عملة ما ! . . اما هنا فماذا ؟ ومن الذين تقلهم هذه الخرقه ؟ عدة مئات من اليهود البؤساء الهاربين من هتلر ، لتزهق روحه ، وهؤلاء المتطوعون التافهون ؟ كلام فارغ ! والكلام عن الاسمنت ايضا كلام فارغ . . . .
- وبالتدريج تفرق الركاب الخائفون المتعبون كل الى مكانه ، وأووا الى النوم .

وكانوا يفكرون وهم يخلدون الى النعاس في يوم الغد وفي قرب لقياهم بالاهل والاصدقاء ، وفي نهاية الرحلة وبداية حياتهم الجديدة في ارض اسرائيل المنشودة المباركة !

وبالنسبة لحاييم ايضا اصبحت «ارض الميعاد» املا مكنونا  
بعد كل هذا التشرذ . واستغرق في النوم هو الاخر وهو يمني  
النفس بسرعة الوصول . وعندما ايقظته شيللي في الصباح الباكر  
لم يدرك لاول وهلة ما الذي يجرى . كان السطح غاصا بالنساء  
والاطفال فقط تقريبا . ولم تكن اويًا نائمة كذلك . وارتبك حاييم  
ثم نهض و . . . بهت : كانت هناك سفينة حربية تسير بمحاذاة  
سفينتهم على مسافة غير بعيدة .  
وقالت شيللي :

- انها بريطانية ، كما يقولون . . ترى كيف سينتهى  
هذا كله ؟

واتضح ان نفس الشيء يحدث على الجانب الاخر للسفينة .  
فغير بعيد عن «ترانس اطلانتيك» كانت تسير مدمرة انجليزية  
مماثلة . وازدحم سطح السفينة بالنساء والاطفال الذين اخرجوا  
من المقصورات والعنابر السفلية بناء على تعليمات اركان الهاجانا .  
فقد كانوا يقصدون بذلك ان يرى الانجليز من هم الذين تحملهم  
السفينة .

تطلع الركاب برعب الى منظر المدمرتين الرهيبتين  
المنطلقتين . وفرض حظر التجول على سطح الباخرة . وبالقرب من  
كل مخرج وامام كل قارب نجاة وقف فتیان وفتيات يرتدون زيا  
موحدا بكتافيات على القمصان ونجوم سداسية كبيرة . وبناء  
على تعليمات اركان الهاجانا تجمع الرجال في مؤخرة السفينة ووضعوا  
على اكتافهم «الطوالس» ، واخذوا يصلون على مرأى من الجميع . . .  
كان الموقف مرعبا .

واصدرت السفينتان الحربيتان امرا مشددا «بالتوقف فورا  
والا فسيتحمل القبطان المسؤولية الكاملة عن كل ما سيترتب على  
ذلك» .

وردت السفينة بانها لا تستطيع ان تتوقف الا في مرفأ  
الوصول الذي لم يبق على بلوغه سوى خمسة وستين ميلا . وذكر  
اسم حيفا كميناء وصول . . .

واقتربت المدمرتان من السفينة .

وتجمد الركاب في اماكنهم في انتظار ممض لكارثة ستقع  
لامحالة في تصورهم . ومع كل ثانية تمر كان التوتر يزداد . ورغم  
التحذيرات الصارمة فقد كان يعلو هنا وهناك صراخ امرأة او بكاء  
اطفال . واقتربت المدمرتان من السفينة من الجانبين في وقت  
واحد حتى لاصقتاها . ومن الاطراف الجانبية لجسر المدمرة التي  
اقتربت من الجانب الايسر للسفينة قفز بحاران انجليزيان الى  
قارب النجاة المعلق فوق سطح سفينة الركاب في مواجهة صندوق  
ادوات الاطفاء . ولكن المتطوع الذي كان يحرس القارب جذب  
ذراع التشغيل فهوى القارب بالبحارين الى الفجوة الواقعة بين  
المدمرة والسفينة . حدث ذلك في لمح البصر ، فلم يتسن للمدمرة  
ان تناور ، وانسحق الزورق امام اعين الجميع بين هيكل  
السفينتين المصطدمتين كما تسحق قشرة البيض .

ودوت طلقة نارية من المدمرة ، وثانية ، وثالثة . . .  
واختفى الركاب من السطح كما لو ان موجة اكتسحتهم . اندفع  
الجميع الى المقصورات وهم يدوسون على بعضهم في الابواب .  
واستطاع حاييم ان يرى المتطوع الذي كان يحرس قارب النجاة  
وقد سقط ، بينما تكور رفيقه ، وصرخت شيللي بجزع  
وهي تلتقط احد توأميها . . . وضم حاييم التوأم الآخر الى صدره  
واندفع عبر السطح الخالي نحو شيللي . كانت تتشنج في هستيرية  
ودودي ملقى على ذراعيها وقد غطت الدماء وجهه . .  
وبالقرب منها على الصندوق جلست امها شاحبة كالموتى ،  
جامدة ، وهي تحرق في وجه حفيدها الذي فارق الحياة بعينين لا  
تطرفان .

واقبلت اويًا ركضا . وعندما رأت هذا المنظر اطبقت  
يديها على رأسها وتجمدت بقم فاغر مرتجف وكأنها تجهد لكى تقول  
شيئا ما .

وفي تلك الاثناء اقترب بعض المتطوعين من حاييم واخذوه  
وابلغوه ان اركان الهاجانا يامر جميع الركاب بلا استثناء بان  
يمزقوا «شهاداتهم» وبطاقات السفر احتجاجا على تصرف الانجليز ،



وان يسلموا نصف البطاقة الممزقة الى المتطوعين دليلا على تنفيذ اوامر اركان الهاجانا . واصفى حاييم صامتا الى الفتيان ، ومضى في صمت الى الصندوق الذي كان دودي ممددا عليه الآن .

اصبح حاييم يرى كل ما يحدث على السفينة بعد ذلك وكانه يرى حلما . لقد التصقت المدمرتان بالسفينة ، ونزل منهما البحارة الانجليز ، فاستقبلوا بالعلب الفارغة والزجاجات والاطباق . . . ونظر بلا مبالاة الى البحارة ذوى «البيريهاات» القرمزية وهم يحتلون السطح تلو السطح ، ثم وهم يندفعون الى جسر القبطان . .

ولم يكن القبطان هناك ، ولا مساعدوه ولا افراد الطاقم . فقد بدلوا ملابسهم واختفوا في الجمع . واصبح كل منهم ، كبقية الركاب ، يحمل بدلا من الوثائق قطعا من «الشهادات» و«بطاقات السفر» التى مزقتها الركاب . لقد رتبت اركان الهاجانا التى طلبت من الركاب ان يعربوا عن «احتجاجهم» بهذه الصورة الغريبة هذا الامر سعيا في الواقع وراء هدف واحد : انقاذ اعضائها وعدد كبير من الاشخاص الذين لم يكونوا يحملون وثائق دخول الى فلسطين .

وعبر السفينة تنقل من فم الى فم امر الاركان : «عدم تسليم طاقم السفينة للانجليز باى حال ، والا . . .»

وقاوم المتطوعون الانجليز مقاومة عنيدة بصفة خاصة عند باب احد العنابر . ودارت هنا معركة ضارية . وكانت لدى الانجليز خبرة في هذه الامور . كما كانوا مجهزين بعتاد خاص : صديريات واكمام مطاطية واقية من الضربات ، وهراوات مطاطية ايضا . . . وظهر جرحى من الطرفين . . . فكان البحارة يحملون جرحاهم الى المدمرتين ، اما المتطوعون فالى «مستشفى» اعدوه على عجل .

وعندما ظهر البحارة ذوى «البيريهاات» القرمزية حطم المتطوعون السلمين المؤذيين الى العنبر ، فاحضر البحارة سلالا متحركة ، ولكن ما ان حاولوا النزول عليها الى العنبر حتى ووجهوا بسيل من الاكواب والكؤوس والعلب وكل ما كانت تقع عليه ايدى المتطوعين .

وانسحب البحارة . بيد انهم مدوا بعد قليل خراطيم مياه من المدمرتين . وكان تيار المياه القوي يلقي المقاومين ارضا ، لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على السلالم المتحركة وانزلوها الى العنبر . وحين جنون قيادة المدمرتين فاستخدمت القنابل المسيلة للدموع . وانهارت المقاومة . واخرج الانجليز المتطوعين من العنبر ، وكانوا مضروبين ، ممزقى الثياب ، وقد تورمت عيونهم من القنابل المسيلة للدموع . وهبطت الى العنبر مجموعة من الضباط الانجليز تحت حراسة مشددة من البحارة . اما المتطوعون الذين غيروا ملابسهم واختلطوا بالحشد فقاموا ، بتحريض من الاركان ، بتشجيع الضباط بصيحات السباب والتهديد والبصقات . ثم اخرج البحارة من العنبر الى السطح ، حيث كانوا لا يزالون يصلون هناك للرب ، برميلا عاديا مستطيلا على شكل الليمونة ، وقد كتب باحرف عريضة على قاعه الخشبي كلمة «اسمنت» وعلى شنبر البرشمة اسم الشركة والوزن القائم والصافي ، وسنة الانتاج : ١٩٣٩ . وامام اعين المصلين الذين كانوا يلعنون الانجليز لا يصلهم الامور الى حد المصادمة الدموية بسبب اسمنت ما مهرب ، نزع البحارة ذوو «البيريهات» القرمزية الحلقات الحديدية عن البرميل . وبهت المصلون المرتدون «الطوالس» وكتب الصلاة في ايديهم من المفاجأة . فقد تساقطت من البرميل مواسير رشاشات وقرابات وقرنافات وعبوات طلقات ، وترابيس . وكانت كلها تحمل علامة مصانع «شكودا» التشيكوسلوفاكية .

وتساءل احد المصلين :

- تشيكوسلوفاكية ؟ هل هذا معقول ؟ اليس النازيون هم المسيطرون هناك ؟ شىء لا يصدق . .

فرد عليه آخر :

- لا يصدق ؟ يالك من ساذج ! هل انت من بورسعيد ؟

- وماذا فى ذلك ؟ لماذا تهيننى ؟

- لانه لا ينبغى ان تكون غاية فى الذكاء لكى تدرك ان

انجلترا تحارب المانيا ، وان المانيا مهتمة بان تفسد الامور على

انجلترا . . . هل هذا صعب الفهم ؟

فقال المجوهراتى السمين ذو السترة المخططة والسلسلة الذهبية الذى كان بين المصلين بانفعال :  
- بورسعيد ام غيرها ، ذكى ام غيرهه ، فلتحاول اذن ان تعرف من هؤلاء الذين تسافر معهم ، وما هذه السفينة وما الذى يمارسه هؤلاء المتطوعون . . . اننى اسأل من هم ؟ ومن اين هؤلاء الاولاد الصغار بالرشاشات وغيرها فى هذا الزمن المضطرب ؟

ذاع على السفينة خبر اكتشاف اسلحة مصنوعة فى تشيكوسلوفاكيا فى براميل الاسمنت ، هذه الاسلحة التى يبدو ان هتلر قد استولى عليها ، وتسلمها الآن الصهاينة على الارجح لمحاربة الانجليز والعرب . واخذ الركاب يلعنون هتلر والانجليز ، ويسبون المتطوعين والسفينة وقبطانها وذلك اليوم والساعة اللذين وافقوا فيها على ركوبها .

وفتش البحارة الركاب ، ونقبوا فى حقائبهم ولفائفهم بحثا عن السلاح ، وصادروا كل المواد الحادة ابتداء بسكاكين المطبخ ومبارى الاقلام وانتهاء بشفرات الحلاقة . وفى منتصف النهار اصبحت «ترانس اطلانطيك» تسير مقطورة . وانقطعت مياه الشرب ، وتوقف المطبخ عن العمل ، واغلق المطعم والبوفيهات والبار . . . وفى نهاية النهار بدا يغمى على بعض الركاب من العطش . وانهمك المؤمنون فى الصلاة .

وعندما حل الظلام لاحت بوضوح اضواء متلألئة .

- انها حيفا !

- ارض اسرائيل !

- ارض الاجداد !

- نهاية الآلام !

وعندما لم يبق على بلوغ العرفا اكثر من نصف ميل ، صدرت اشارة من المدمرة القاطرة ، فصلصلت سلاسل الهلبين الثقيلين على السفينة . واحيط الركاب علما بان النزول الى الشاطئ ، لن يجرى الا بعد حلول الصباح . . .

واقلق هذا النبأ الركاب ، ومن جديد انتشرت شتى

التكهنات والشائعات . وعاد الركاب يلعنون المتطوعين والانجليز . وتذرع البحارة بالصبر وهم يسمعون اللعنات ولزموا الصمت ، واحيانا كانوا يؤكدون ، بشعور بالذنب ، بان هذه الاوامر ليست صادرة عنهم . اما المتطوعون الذين ركنوا الى السكون فقد تظاهروا بانهم ليسوا المسؤولين عن «هذه المعمة» . كانت الليلة الثانية التي قضاهما الركاب على السفينة الخالية من الانوار ، اشد هولاً . فقد اضناهم العطش الذي لا يحتمل والجوع ، ورائحة العفن المتزايدة . وتوقف تدفق مياه البحر الى السفينة ، وكانت جميع محركاتها متوقفة .

وثناء الليل نقلت جثة دودي الى صالون الموسيقى ، حيث وضعت هناك جثتا المتطوع القتيل وزميله الذي توفى متأثراً بجراحه . ووضعت جثة الطفل بجوارهما على الارض وغطيت مثلهما بملاءة سوداء نقشت عليها على عجل نجمة سداسية بيضاء . وانهارت الام الشكلي شبه فاقدة الوعي بالقرب من رأس وليدها بجوار شمعتين داخنتين وضعتا في شمعدان مصنوع بصورة فظة من علبة محفوظات . وكانت تحمل ابنها الآخر على ذراعيها طوال الوقت .

رجع حايبم واويًا الى السطح لكي يساعدوا والدة عازفة البيانو على النزول الى الصالون ورفعها بصعوبة عن الصندوق وجراها من تحت ابطيها ، ولكن ما ان سارا بها بضع خطوات حتى ارتعشت ، وترنحت ، وبدأت تتهاوى . وتمكن حايبم واويًا بالكاد من الامساك بها .

وركض الناس اليهم ، وعثروا على طبيب ، واتضح ان المرأة المسكينة اصببت بالشلل للمرة الثانية .

كتموا ذلك عن شيللي ، اخبروها انه من الاحسن لوالتها ان تظل على السطح ، لان الجو هنا خانق ، والشموع ترسل الدخان . واصغت عازفة البيانو في صمت ، ثم هبت واقفة بغتة ، وانطلقت راكضة الى السطح وهي تترنج وتضم ابنها الى صدرها . وعندما رأت امها ممددة على الصندوق الذي كان ابنها ممددا عليه

منذ فترة قريبة وادركت ما جرى لها ، سقطت على الارض مغشيا عليها .

وكان حاييم واويا في غاية الارهاق ، فلم يفارقا عازفة البيانو وابنها الذي لم يغمض له جفن طول الليل ا وفي تلك الاثناء اختفى البجارة ذوو القبعات القرمزية من على سطح السفينة ، ورفعت المدمرتان هليبيهما . وقد لاحظ حاييم اختفاءهما عندما انتشر نور الفجر ، ورأى مكانهما زورقا حربيا صغيرا من زوارق خفر السواحل البريطانية .

وما ان اشرفت الشمس حتى تحرك الركاب المتعبون المجدو الثياب ، واخذوا يروحون ويجيئون على عجل وهم يتبادلون الحديث خطفا وكأنهم غارقون في المشاغل وكأنما لم يبق على النزول سوى دقائق . اما المتطوعون فقد راحوا يتجولون على السطح ثانية بعد ان غيروا ملابسهم . وبمجرد رحيل المدمرتين المفاجيء شرعت اركان الهاجانا في تدير امر ما .

ولم يبق قرب حواجز السفينة الا نفر قليل من الركاب ، اخذوا يتطلعون الى الارصفة والمرقا التي لاحت من بعيد ، والى المدينة التي كانت لا تزال غارقة في النوم .

بيد ان زورقا سريعا لاح قادم من ناحية الميناء ودار دورة واسعة وهو يقترب من السفينة ، وهدأ من سرعته ثم توقف بين السفينة وزورق الحراسة . وكان يقف على ظهره شخص يرتدى فانلة بيضاء ويصيح في مكبر صوت :

- شالوم ايها اليهود ! قدوما سعيدا الى ارض الميعاد يا اخوتنا المنتظرين !

ومن كل انحاء الباخرة اتجه الناس الى السطح وكأنما هبط من السماء فجأة المخلص المنتظر منذ آلاف السنين . كان كل منهم يود ان يرى بسرعة ويسمع اول شخص من «ارض الاجداد» الاسطورية . واجهش كثير من النساء تأثرا ولوحن بالمناديل والقبعات تحية للرسول . واصغى الركاب المجتمعون على السطح بشوق دقيقة او دقيقتين الى عبارات الترحيب المعسولة الموجهة اليهم . ولكن واحدا منهم صاح :

- ان حالتنا سيئة !  
وبالرغم من انه كان واضحا ان الشخص الواقف على ظهر  
الزورق لن يسمع اصوات الركاب ، الا ان موجة طويلة من  
الصيحات المتعددة انطلقت في اثر الصيحة الاولى :

- بيننا مرضى !

- نحن بلا طعام !

اما الرجل في الزورق فقد واصل كلامه المعسول :

- هذه ارض المن ، وانهار اللبن وشواطىء العسل . فاهلا

بكم في داركم ايها اليهود .

- ليس لدينا خبز !

- نموت من العطش !

- بيننا قتلى !

اطلق زورق خفر السواحل صاروخا احمر .

فادرك الرجل ذو الفانلة البيضاء معنى التحذير ، فهبط من

سطح الزورق ملوحا بمكبر الصوت وهو يودع . وانطلق الزورق

ناحية المرفأ بسرعة متزايدة .

وعندما تأكد الركاب من «انهم هناك قد علموا» بوصول

سفينتهم ، تنفسوا الصعداء ، ولم يساورهم الشك في ان «من

هناك سيهتمون طبعاً بهم» . . . ولم ير اى منهم انه اثناء اندفاعهم

الى احد جانبي السفينة ، وبينما كانوا يصغون بتأثر الى ترحيب

الرجل ذى الفانلة البيضاء بهم ، اقترب من جانب السفينة الآخر

زورق صغير لا يكاد يبدو في اشعة الشمس المشرقة الباهرة .

ولكن اويًا ، التى بقيت مع والدة شيللى المريضة ، هى وحدها

التى شاهدت نزول شخص بحقيبة كبيرة من الزورق الى عنبر

البضائع السفلى . لم يساورها شك فى شىء ، ومضت تتابع ما

يجرى بدافع حب الاستطلاع . ولكن عندما عاد الشخص الى الزورق

ليأخذ حقيبة اخرى ورفع رأسه الى اعلى ونظر متلصصا ، انتفضت

اويًا . لقد عرفت هذا الشخص . رآته فى قبرص مع العاخم بن

صهيون هاجرا عشية ذلك اليوم المشهود عندما اخذها ستيفانوس

الى حانته فى ساعة متأخرة من الليل . نعم ، لقد كان هو . . . قصير

القامة ، نحيف ، ذو صلعة ، يرتدى نظارة كبيرة . وعاد خوف الملاحقة الذى عذبها فى الساعات الاولى من وجودها على الباخرة ، يستولى عليها ثانية بقوة .

وعندما رجع حاييم راحت اويًا تشرح له بانفعال شيئا ما ، لكنه لم يفهم الا القليل ، وظل سبب اضطراب الفتاة غير واضح له .

وحوالى الساعة العاشرة صباحا رست سفينة مريحة قرب سفينة الركاب . كانت تحمل موظفى ادارة الميناء ورجال الجمارك ومفتش بوليس المستعمرات البريطانى وطبيبًا وممرضين . وتبعتها سفينة اخرى تحمل ممثلى البلدية البريطانية العربية اليهودية الذين جاءوا معهم بهدايا للركاب من جمعية «جوينت» الخيرية المحلية عبارة عن علب بها قطع من البسكوت الجاف ، وارغفة بالنعناع ، وبرتقال وسندوتشات صغيرة بالجبن المسيح ، وصناديق زجاجات عصير يشبه الليمونادة . وكانت هذه السفينة مخصصة لنقل الركاب الى المرفأ .

واعلن موظفو الجمارك انه سينقل اولا الجرحى والمرضى . وفى الوقت نفسه اعلنوا انه لا يمكن لاحد ان يغادر السفينة الا بعد ابراز جواز السفر او «الشهادة» بتأشيرة القنصل البريطانى لدخول فلسطين . وهبت من جديد عاصفة من الغضب على السفينة . وتصايح الركاب وتجادلوا وبكوا وهم يلعنون تشمبرلين وهتلر والمتطوعين ايضا الذين تسببوا فى انهم فقدوا الوثائق المطلوبة ولم يعد معهم سوى مزق بائسة .

وثارت ثائرة المتطوعين ايضا . وراح بعضهم يقنع الركاب الحائرين بالألا يستسلموا وان يقاطعوا قرار ادارة الميناء بينما حاول البعض الاخر الضغط على ممثلى السلطة قائلين :

- ينبغى تفهم حالة هؤلاء الناس الذين بلغوا حد اليأس نتيجة مقتل اخوتهم !

وعمت موجة الاحتجاج ركاب السفينة جميعا :  
- انه لمن التجديف ان تطالبوا الناس ببعض الوثائق

بينما جثث اخوانهم ممددة بجوارهم ولما تجف دماؤها ! ثمة طفل  
قتيل ، ابن ثلاث سنوات !

- هذا ما لم نسمع به ! يستوقفون سفينة في عرض البحر  
ويضربون ويقتلون ركابها الابرياء !

ولكى تتخلص ادارة الميناء من هذه الورطة قررت تصنيف  
الركاب في مجموعات . وبعد ان اعربت عن اسفها لما وقع وكانها  
لم تعد مهتمة بالسلاح المكس في العنابر ولا بالمسئولين عن  
تهريبه ، بل زعمت انها ترغب في انتهاء الموضوع ، طلبت من  
اعضاء طاقم «ترانس اطلانطيك» ان يشغلوا اماكنهم حسب نظام  
الرسو ، وان يساعدوا على سرعة نقل الركاب الى الشاطئ .

ولكن هذه المناورة لم تعد بالنتيجة المطلوبة ، اذ لم يظهر  
سوى البحارة العاديين وغيرهم من افراد الخدمة . اما القبطان  
ومساعدوه فلم يتقدموا ، ولم يمكن اكتشافهم وسط الركاب .

وفي تلك الاثناء استعدوا لنقل الجرحى الى الشاطئ واتضح  
ان عددهم كان كبيرا بحيث شك الانجليز في الامر فقرروا اجراء  
تفتيش اختبارى قبل انزال الجرحى . ولكن اول متطوع جريح ،  
وكان يضع ضمادة على رأسه وعينه ، رفض الامتثال للامر بصورة  
قاطعة . وايده بقية الجرحى وهم يدينون بغضب ممثلى السلطة  
على سوء ظنهم الذى لا مبرر له بضحايا الاستبداد .

وهاجت المشاعر ، وتدخل ممثلو البلدية والشرطة ، واقتيد  
المتطوع الى التفتيش . واخذوا يفكون الضمادة عن رأسه ببطء  
وحذر ، واخيرا نزعوا الضمادة و«الوسادة» القطنية و . . . اصبح  
المتطوع الاعور ذا عينين سليميتين تماما ورأس يخلو من اى  
خدش .

ومنيت بالفشل حيلة اركان الهاجانا فى السفينة بغية تمرير  
المتطوعين الذين لا يملكون وثائق الى فلسطين . لكن المتطوعين  
لم يستسلموا لليأس ، واصلوا بايعاز من اركان الهاجانا :

- اما ان ينزل الجميع الى الشاطئ والا فلا احد !  
ووعدهم ممثلو سلطات الميناء ان يتشاوروا مع الجهات  
العليا حول كيفية التصرف مع حاملى مزق الوثائق ، اما الآن فقد



سمحوا بنقل جثث القتلى الى الشاطىء\* كما سمحوا بالنزول لمن يحتفظ بوئائق دخول سليمة .  
ولدهشة المتطوعين فقد ظهر امثال هؤلاء . وانهاى عليهم

سبل من السباب المنتقى والتهديدات :

- ايها الخونة !
- هتلر اشتراكم !
- يا خونة الامة !
- ارض الميعاد ليست لامثالكم !
- سنعثر عليكم ، لن تفلتوا منا !
- يا ميشوميت ! \*

وكان المجوهراتى السمين ذو السترة المخططة والسلسلة الذهبية من بين «الميشوميت» . ولم يكن يتصور فيما يبدو مع من يتعامل ولا مدى التهاب الموقف ، ولذلك صاح فى حشد المتطوعين :

- انظروا الى هؤلاء العيال ! انهم يريدون تعليمى ! امسحوا

انوفكم اولاً ثم . . .

ولم يكمل كلامه . فقد عزل عن الركاب وحشر بحاجز السفينة بنية واضحة لالقائه فى البحر . ولو لم يخف رجال الجمارك والشرطة اليه لكانت عاقبته سيئة . وعندما جلس فى الزورق الذى كان يقله مع الركاب ذوى الوئائق الى الشاطىء\* تحسس عروة سترته فجأة ولمس جيبه وصرخ :

- الكلاب الحقراء ، خطفوا الساعة ! ماركة «لونجين» آخر

موديل ، عيار ٩٢ . . اتعرفون اى ذهب هذا ؟ والسلسلة وحدها كم تزن !

ومن جديد حاولت اويًا ان تشرح لحاييم شيئاً ما ، بالغ الاهمية كما خيل اليه : لقد رأى القلق فى عينيها ، فما السبب ؟ ولكنه لم يدرك ذلك ، بل ولم يكن ثمة وقت للتفكير ، فالمشاغل كثيرة . لم يكن لدى اويًا وئائق دخول الى فلسطين ، وكان من

\* الميشوميت هو المتخلى عن دينه والمعتنق المسيحية .

المحتمل الا يسمحوا لها بالدخول . ولكن المأساة التي حلت بشيللى ساعدتها . فعندما خارت قواها تماما اعطت ابنها لاويًا واعتمدت على ذراعها . واعتقد المسئولون ان اويًا قريبة المنكوبة .

ونقلت جثث المتطوعين القتيلين ودودي الى سفينة النقل ، بينما بقيت ام شيللى على ظهر السفينة ، في انتظار مجيء سفينة خاصة بأطباء لنقلها مع بقية المرضى .

وفجأة قبضت اويًا على ذراع حاييم وهي تشير الى رجل نحيل بنظارة ظهر في نهاية الممر الضيق في السفينة . ولم يكن من الممكن ان يخطئ حاييم في التعرف عليه ، فقد رآه ذات مرة مع بن صهيون هاجرا . وقالت عنه لايا الحدياء ، ابنة العاخم ، انه «مبعوث» و«شخص هام» . وأوضحت انذاك بصورة غامضة انه جاء «من هناك» . اما الآن فقد صعق حاييم عندما رأى زعيم اركان الهاجانا ورئيس المتطوعين ، الشاب ذا اللحية القصيرة ، يسير الآن الى جانب المبعوث ذى النظارة .

وفكر حاييم في نفسه : «اسرار بلاط مدريد ! كان المتطوعون يصيحون بألا يجرؤ احد على مغادرة السفينة ويسبون المغادرين «بالخونة» ، بينما زعيمهم يختفى اول الكلل لسبب ما ! . . فمن اين جاء بالوثائق ؟ الم يقولوا ان جميع المتطوعين مزقوها احتجاجا ؟!» وورست السفينة على الرصيف . وعرضوا على الركاب ان ينتقلوا الى منزل متواضع بالقرب من المبنى الرئيسي للميناء . وهنا ارسلوا النساء والرجال الى اقسام مختلفة اذ كان عليهم ان يملوا بالاجراءات الصحية . وفي نهاية الفحص الطبى السريع كان كل مسافر يحقن ببلقاح مضاد للكوليرا ويرش بجرعة كبيرة من مسحوق ابيض في عبه وتحت ياقته . وكانوا يخرجون من المبنى الواحد تلو الآخر وهم يسعلون ويتمخطون ويعطسون .

وراح المجوهراتى السمين يتذمر كعادته :

- ياله من اختراع هذا التطعيم وهذه المطهرات ! . . كان الاحسن لو منعوا السرقة في وضع النهار . . . - وعطس ثم بصق بتقزز . - من بحاجة الى ذلك ؟ ما الداعى ؟

وخرج حايم الى ساحة كانت تبدو كملعب تنس كبير ومحاطة  
بسياج عال من السلك المجدول . وعلى الناحية الاخرى من السياج  
تجمهر اناس يرتدون ملابس العيد . ووقفت مجموعة من الشبان  
والشابات على افراد ، وكانوا يحيون كل من يخرج الى الفناء بعد  
الفحص الطبى بصيحات عالية :

- بروخيم ابائيم !  
- بروخيم ابائيم شى ايجاتيم لا اريتس ! \* \*  
وغنى كورس من الفتيات المرتديات بلوزات بيضاء وفي  
ايديهن اغصان الزيتون اغنية حماسية :

ارجيت تسوم بافرايونج

فون انجلاند

دوم بريج

كاين اريتس اسرائيل

تسو ليخيچى تيج . . . \* \* \*

وكان كثير من الشيوخ بمجرد تجاوزهم باب الخروج وسماع  
تحيات المستقبلين يركعون ويقبلون الارض بخشوع والدموع  
تترقق في اعينهم . . . وكان بعضهم يهمس بصلوات خافتة ،  
والبعض الآخر يجهر بالصلوات للعلى القدير على الخلاص من احوال  
الماضى .

وشينا فشيئا امتلأ الفناء بصخب الاصوات . ومن كلا جانبي  
السياج تصايح الناس بأسماء اقاربهم ومعارفهم الذين كانوا  
ياملون فى لقائهم .

وصاح رجل عجوز بصوت ابح وهو يروح ويجىء بحذاء

السور :

- جوتفار فروييم ! جوتفار فروييم ! تاجر دقيق من

نتانيا . . جوتفار فروييم ! . .

\* وصولا مباركا !

\* \* \* وصولا مباركا ايها النازلون بارضهم !

\* \* \* انه ذاهب للتحرير من الانجليز ، الى شواطى ارض اسرائيل ، الى

الايام المشرقة !

وتجاوب مع ندائه صوت رنان لامرأة بدينة تتصبب عرقا :  
- تويفى جرينشبون من مستوطنة كفار شماليين ! ..  
جرينشبون ! تويفى جرينشبون ! ..

انتحى حاييم جانبا كاليتيم ، وتطلع الى وجوه الناس القلقة  
وهم في انتظار اقربائهم الذين بقوا على ظهر السفينة ، وفكر بقلق  
في ابيه واخته . ترى هل سيتمكنون من الوصول اليه ، ومتى ؟  
وهل سيتمكن من تدبير المسكن ولقمة الخبز لهما ؟ ومضى  
ببطء وهو مستغرق في التفكير الى البوابة الشبكية التي كان يقف  
على جانبها الآخر حارس انجليزى في برج «بمظلة» . ولفت انتباه  
حاييم خشبة مسرح غير عالية تحت سقيفة كبيرة مخططة من فوقها  
لافتة بيضاء خط عليها باحرف زرقاء ضخمة :

### \* اريتس خالاف اودفاش \*

وعلى الخشبة كان صبيان وفتيان يروحون ويجيئون وهم  
يرتدون قمصانا زرقاء وسراويل قصيرة فاتحة اللون . وكانوا  
يرتبون حاملات النوت ويشبتون النوت وقد علت وجوههم سيماء  
الجد ، ويجلسون في اماكنهم مع آلاتهم النحاسية المجلوة الى درجة  
جعلتها تلمع كالمرايا .

ومن خلال صخب الاصوات المتعددة والغناء وصيحات  
الترحيب تناهت الى سمع حاييم كلمات اثار انتباهه :  
- .. من فيينا .. مع اطفال ..

والتفت ، فرأى على الجانب الاخر من البوابة رجلا طويلا  
يقف قرب امرأة قصيرة وفتاة ممتلئة . كان يصرخ في راحتيه  
اللتين طواهما كمكبر صوت :

- فيجا شتاينهاوز وشيللى بيكر مع الاطفال ؟ من فيينا ! ..  
وادرك حاييم ان هذا الرجل هو خال شيللى بيكر مهندس  
الخرسانة المقيم في يافا .

وعند باب الخروج من المبنى رأى اويًا تحمل الطفل على

\* ارض الحليب والعسل .

ذراعيها وبجوارها شيللى . وابرزت الشمس الساطعة بوضوح  
راس عازفة البيانو الاشيب الابيض كالثلج .

وصاح حايم للمهندس الواقف عند البوابة :

- شيللى بيكر ! ها هي ذى شيللى بيكر من فيينا !

ولم يفهم المهندس الى من يشير هذا الشاب الغريب الهيئة .  
لم يكن يعرف ابنة اخته الا من الصور ، وكان يتوقع ان تاتي مع  
طفلين وامها . . .

واسرع حايم الى شيللى يقول :

- هذا هو خالك يا شيللى ! انه يقف هناك مع زوجته

وابنته ويبحث عنك !

واندفعت شيللى وهي تتأوه نحو البوابة :

- خالى بيرل ! ها انا ذا . . شيللى بيكر البائسة . . ها

انا ذا يا خالى بيرل . . شيللى شتاينهاوز !

- شيللى ؟ شتاينهاوز ؟ ماذا بك ؟ اين ماما ؟

- شيللى ! يا حبيبتي ! ماذا حدث ؟

- ها انذا يا خالى بيرل ! ياللمصيبة ، ياللمصيبة الكبيرة !

قتلوا صغيرنا دودى ! قتلوه ، هم ! - وأشارت الى الحارس

الواقف على البرج وهي تصرخ . وخارت قواها فتشبثت في الشبكة

بيديها وتعلقت بها ثم خرت على ركبتيها . - ماذا فعلت لتحل بي هذه

المصيبة ! النازيون قتلوا ابي وزوجى . . . والانجليز قتلوا

صغيري المسكين . . . دودى ابني لم يعد حيا ! وماما هناك

يا خالى بيرل ! انها مريضة . ظلت هناك على ظهر السفينة . . .

ودوى على خشبة المسرح صوت الاوركسترا النحاسية عازفا

نشيد «آتيكوا» \* . واثار القلق والمعاناة وفرحة الوصول والامل

في المستقبل ، اثار ذلك كله دموع التأثر في اعين الناس

المرهقين . وفجأة اهتز الهواء بصوت انفجار ، وتزلزلت الارض

تحت الاقدام ، وانفتحت ابواب ونوافذ مبنى الميناء في صخب ،

وتناثر الزجاج برنين ، وتبعثرت على خشبة المسرح حوامل النوات

\* اى الامل ، وهو نشيد صهيولى .

والنوتات والابواق النحاسية . وطارت «مظلة» البرج التي كانت  
تحمي الحارس من الشمس الحارقة . وهذا كل شيء وتجمد  
للحظة . . .

وفجأة صاح الحارس من على البرج :

- السفينة انفجرت ! انها تغرق !

وكالصدى تجاوبت من جميع الانحاء اصوات مليئة بالرعب :

- السفينة انفجرت !

- انها تغرق !

- بها الركاب ! . .

وسط الصخب المتصاعد للاصوات المضطربة انطلق عويل  
حاد وقاطعته قهقهات . كانت تلك هي شيللي بيكر . لقد تعلقت  
بشبكة السياج وهي ترتعد في نوبة هستيرية . . .

وضغط حاييم غريزيا على يد اويًا المرتجفة ، ولم يستطع  
ان يحول بصره عن اللوحة الجدارية الضخمة التي انتزعتها موجة  
الانفجار فاصبحت معلقة من احد اطرافها . وحدق حاييم ببلادة في  
حروفها الزرقاء الكبيرة وهو لا يستطيع ان يفهم الكتابة المقلوبة :

اريتس خالاف اودفاش

٤

لم يكن احد من الركاب الذين نزلوا من «ترانس اطلانطيك»  
المشثومة يعرف الى اين ولماذا ينقلونهم بسيارة مغطاة بالمشمع  
وتنطلق بسرعة جنونية . وكان هؤلاء المتعبون يتدحرجون من  
جانب الى اخر عند المنحنيات ، ويتشبثون بعضهم ببعض في عصبية  
ويدقون بأيديهم بالحاح على جدار كابينة السائق وهم يأمرونه  
ويتوسلون اليه ان يتوقف ولو دقيقة .

وفي النهاية فرمل السائق بحدة ، وقفز من الكابينة ولفظ  
بغل عدة الفاظ نابية معلنا انه قد منع منعًا باتًا من التوقف في  
الطريق .

عندئذ تجرأ احد المسافرين وقال للفتاة الجالسة في الكابينة وترتدى ثيابا شبه عسكرية :

- الناس تقطعت اعاؤهم ! الا يمكنكم ان تتذرعوا بقليل من الصبر ! هل نحن مستعجلون لاطفاء حريق ؟ كفانا ما بنا ، لقد رأينا الحريق . . .

واجابت الفتاة :

- وهل تظنون ان هذه نزوة من السائق ؟ مخطئون . ان النظم هنا غير نظمكم في مكان ما هناك ! عندنا ينفذون الأوامر بدقة !

ودمدم المجوهراتى السمين بكلمات غير واضحة ، وتهد جاره بصعوبة وقال :

- يبدو ان الامر ينبغى ان يكون هكذا . . .

وتحركت السيارة . ومن جديد عادوا يهتزون ويتطايرون عند المطبات ، ولكنهم تذرعو بالصبر . «يبدو ان الامر ينبغى ان يكون هكذا . . .» .

وحوالى منتصف الليل توقفت السيارة وقد لاصقت مقدمتها بوابة من الاسلاك . واطفا السائق المحرك وانوار المصابيح . وقفزت الفتاة من رفر السيارة وغابت في الظلام . غمر الهدوء المكان وكان كل شىء مات هنا . واطل الركاب من تحت اطراف المشمع وهم يتطلعون بقلق في الظلمة الى سماء الجنوب اللامبالية ذات النجوم الكبيرة الباهرة بصورة غير مالوفة .

واخيرا تنهى وقع اقدام عجلي . واقترب رجل من السيارة . ووجه الى القادمين ضوء مصباح طويل يشبه هراوة الشرطة وحياهم بفرح بالعبارات التقليدية «شالوم خافيريم» \* وتمنى للجميع موفور الصحة وعمرا سعيدا مديدا في «ارض الميعاد» . وبنفس الود طلب ان يصغوا باهتمام الى نصيحة صغيرة للادارة المحلية ولكنها في غاية الاهمية وان يلتزموا بها ، وهى ان يلزموا الصمت بخصوص مأساة السفينة «ترانس اطلانطيك» .

\* السلام عليكم ايها الاصدقاء !

وقال الرجل ذو المصباح :  
- لا يمكن بالطبع تكتم ما حدث . . . ولكن لا داعى للخوض  
في التفاصيل وافترض شتى الظنون . . . الافضل السكوت الى  
حين ، على اى حال حتى يصدر خبر رسمى بذلك . وعموما  
فالصمت من ذهب . هذا ما ننصحكم به . هنا يسود السلام  
والنظام والوثام بين الناس الذين يعيشون بروح الامتثال لوصايا  
اجدادنا الابرار . وبالمناسبة ينبغى ان تضعوا فى اعتباركم ان  
ارض الميعاد لم تتحرر بعد للأسف من الاعداء . وهذا بالطبع امر  
آخر ، ولكن لا ينبغى علينا ان ننساه . ولن نكف عن التذكير  
والتأكيد بملء الفم على ان الاعداء سوف يتجرعون مرارة الكأس  
جزاء على كل ما ارتكبوه ضد شعبنا . . .

وبعد ان قال الرجل ذو المصباح هذه الكلمات قفز الى رفر  
الكابينة ودخلت السيارة ارض المنطقة التى كانت تسمى «نقطة  
التجمع» .

وامام مبنى طويل منخفض يشبه العنبر اتيحت لحاييم واويا  
ضمن اربعة عشر شخصا اخيرا امكانية النزول من السيارة ، هذه  
الامكانية التى انتظروها طويلا .

وبالرغم من هذه الساعة المتأخرة من الليل فقد جاء كثير من  
المهاجرين الذين وصلوا من قبل وما زالوا يعيشون على ارض  
«نقطة التجمع» لاستقبال الوافدين الجدد . ولم يكن اى منهم قد  
سمع بعد عما حدث فى الميناء ، ولكنهم ارادوا ان يعرفوا من الذى  
جاء ومن اين جاء وماذا يحملون من اخبار ، والاهم من ذلك هل  
يوجد بينهم اقارب او معارف .

ودعى الوافدون للعشاء ، غير ان معظمهم رفض ، وابدى  
بعضهم رغبته فى اطفاء ظمئه . وعلى الفور احضروا محلابا ضخما  
يلمع طلاؤه المينا الابيض الناصع . واخذت امرأة شابة مدملجة  
تغرف منه بابريق فخارى كبير وهى تقول :

- ذوقوا حليبنا ! اتعرفون اى حليب هذا ؟ حليب طاهر  
طبعا . . . ذوقوه !



وتناول احد الوافدين الكوب وشرب عدة جرعات وقال  
متاثرا :

- يا سلام ! لم اذق في حياتي مثل هذا . . فليهنى الله  
الصحة . . . ليس هذا حليبا ، بل قشدة صافية !  
ادرك حاييم فولديتير منذ الايام الاولى ان «نقطة التجمع» قد  
انشئت للمهاجرين الذين لم يكن لديهم اقارب في فلسطين ،  
وبالتالى فليس لديهم مسكن .

وكانت «نقطة التجمع» عبارة عن معسكر عادى . وعلى قطعة  
ارض رملية طينية جرداء انتشرت خيام عديدة من المشمع . وغير  
بعيد عنها قام مبنى المطعم الطويل وقرابة عشرين بيتا مربعا  
منخفضا من خشب الابلكاش والكرتون المضغوط ، مخصصة  
للسيوخ وللمهاجرين اصحاب العائلات ولمبعوثى الحركة  
الصهيونية .

واسكن حاييم فولديتير واويا ، التى سجلوها هنا كزوجة  
شرعية بناء على اعلانه ، فى خيمة مدينة القمة تقوم على عمود  
واحد .

وبخلاف اويآ التى لم تقهر بعد شعورها بالخوف وظلت  
تتجنب الناس ، تكيف حاييم بسهولة مع الانظمة المحلية ، وتعرف  
بسرعة على المهاجرين ، وكان يصغى بانتباه الى ما يروى عن الحياة  
هنا . وخيل اليه ان السكنينة التى بلغها هى قمة السعادة . وعندما  
علمت الادارة انه متطوع وادى «الاكشارا» فى رومانيا ولكنه تخلف  
عن فوجه بسبب المرض ، عطفوا عليه واعدوا بالمساعدة . وظل  
حاييم ينتظر فى صبر تعليمات فوجه الذى ينبغى حسب النظام  
السارى ان يحدد مصيره المقبل . صحيح ان حاييم لم يستبعد ان  
مجينه مع زوجة يمكن ان يكون نوعا من المفاجأة بالنسبة لقادة  
الفوج ، ولكنه لم يعر ذلك اهتماما خاصا ، وكان راضيا بما بلغه.  
وحتى خيمته البائسة التى لم تكن تحوى شيئا غير مراتب رفيعة  
فوق الواح نزع من صناديق قديمة وبسطت على الارض العارية ،  
وبطانية خفيفة ووعاء فخارى للماء ، سماها تدليلا «قبيبتى» !  
وعندما سمع المعجهراتى السمين ذو السترة المخططة هذا

الوصف الذي اطلقه حاييم على مسكنه ، وكان قد اصم اذان الجميع بترداده انهم اتوا به الى هنا خطأ ، عندما سمع بذلك غلى من الغضب :

- اية قبة هذه ؟ ان العجر لا ينامون ابدا مثلنا !  
وحاول حاييم ان يقلب الحديث الى مزاح فقال :  
- ولا يهملك ، المثل يقول : في غياب السمك يصبح حتى سرطان البحر سمكة .

- وما دخل سرطان البحر والسمك هنا ؟ هل سبق لك ايها الشاب ان زرت امريكا ؟ كلا ؟  
وابتسم حاييم ابتسامة مذنبه وهز كتفيه .

- هذا ما كنت اتوقعه ! حسنا ، ولكن سمعت على الاقل عن هارلم ؟ كلا ؟ اذن فعليك ايها الشاب ان تلتزم الصمت . ان الاكواخ التي ياوى اليها الزوج الفقراء والمتهالكون لا تختلف في شيء عن «قبببتك» .

كان حاييم يصغى في هدوء بينما اخذ السمين يحتد اكثر فاكثر . وتوافد الناس وقد شددهم الحديث الصاخب . ولم يكن لفضولهم هنا حدود . فقد كان كل شيء هنا بالنسبة للمهاجرين من البلدان الاوروبية جديدا وغير مفهوم وغامضا : العادات الغريبة المنسية ، والطقوس العتيقة التي فقدت معناها منذ مئات السنين ، واللغة العبرية القديمة قدم العالم والتي كان يتكلمها السكان المحليون وبعض الوافدين . ان مستقبل الحياة على «ارض الميعاد» هو الذي كان يثير بالطبع اهتماما خاصا . كانوا يتحدثون عن ذلك من الصباح الى المساء .

فقال الجواهرى السمين مخاطبا من تجمع حوله :  
- ارأيتم هذا المتطوع ؟ ياله من خيالي ! مثالي ! انظروا كيف اخترع «قبببة» ! . . اننى ما كنت لأعطي مرحاضا واحدا في بيتى بوارسو مقابل كل هذه الخيام المخرومة والاكواخ الكارتونية! ولكن هتلر قدم الآن الى وارسو ، ألا فلتزهق روحه ، ولذلك فانا مضطر الى الاحتماء فى هذه القبة القذرة !

تابعت اويًا بقلق كل حركة من حركات السمين . وقد

ازعجها ان هذا الرجل الذي كانت معاملته لهما حتى الآن لا باس بها ، يتهجم الآن على حاييم كالديك لسبب لا تدريه ، ويقول اشياء ما بانفعال . ولاحظ حاييم ذلك فاصبح يبتسم لها كلما التقت نظراتهما ليطمئنها الى انه ليس هناك شيء سييء . الا ان ابتسامات حاييم اثارت حنق السمين فمضى يلوح بيديه بشدة والزبد يغطى شفثيه مؤكدا صحة آرائه .

ولكن شابا يتشبح بالسواد : قفطان اسود لامع وقبعة ضخمة عريضة الحوافى ولونها قد بهت بشدة قاطعه قائلا :

- على اليهودى المؤمن ان يتقبل كل شيء بالصبر . . . فكل ما يحدث من مشيئة الله !

زر السمين عينيه ، وتطلع بتعال الى وجه الشاب الشاحب كقطعة شمع وقال :

- اتقدم لمثل هذه النصيحة الحكيمة ؟ اننى فى غاية الامتنان لك ! . . وماذا اقول . . على ان اقول لك انك تأخرت قليلا ايها الشاب . . نعم ! اذا شئت الحقيقة فاننى لم افعل فى حياتى سوى انى كنت «اتقبل كل شيء بالصبر» . تلك مشيئة الله ! كنت اعمل تفكيرى فى كيفية سداد الضرائب ودفع الكمبيالات والاحتماء من المذابح ومن اشياء اخرى لا يعلمها الا الشيطان . . . وقد بدأت حياتى من العمل ليل نهار بصورة اسوأ الف مرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، فى ورشة باردة رطبة كالقبو . . كنت اصنع خواتم وصلبانا واساور ، واصلح الساعات وغيرها . . وباختصار كنت اكدح كالشور لادخر قطرة قطرة ، بالحق او بالباطل ، جزءا ولو يسيرا من رأس المال . واخيرا عندما وقفت على قدمى كانسان ولله الحمد ، واصبح بامكانى ان افتتح محل مجوهرات فى وارسو ، باريس الثانية ، محل لا فى طرف مهمل بعيد ، بل عند تقاطع شارعى نوفى سفيات ومارشالكوفسكايا الرئيسيين ، عندما بدأ عالم رجال الاعمال يستقبلنى اخيرا كرجل محترم ، ويأتمنى على مبالغ كبيرة ، بينما اوصل التوفير شيئا فشيئا ، وابخل على نفسى بكل شيء كالشحاذ ، عندها ينقض ادولف هتلر على رأسى بغتة ودون انتظار . . . وفى لحظة واحدة اتسمعون ؟ فى غمضة

عين يطير كل شيء كفقاعة الصابون . . كل ما جمع حبة حبة ،  
وخيطة خيطة طوال سنوات ! ولكنها «مشيئة الله» ! ويقولون لك ،  
كما يقول الآن هذا التقى الشاب انه «ينبغي على اليهودى المؤمن  
ان يتقبل كل شيء بالصبر . . .» فتقبل ، وتصبر ! . . اننى  
اسالكم : وماذا بوسع المرء ان يفعل غير هذا ؟ وهل ثمة مخرج  
آخر ؟ ثم سرعان ما تفرح لانك استطعت على الاقل ان تنجو على  
قدميك المصابتين بالروماتزم . . وبالفعل فانت انسان سعيد اذا  
كنت قد استطعت ايضا ان تفلت بساعة ذهبية حصلت عليها  
بكذك ! ولن احدثكم عن عيارها ولا ماركتها ولا عن غطائها  
المرصع بالماس . . . والاهم من ذلك انك لم تفلت بالساعة  
فقط ، بل وبسلسلتها ! وفوق ذلك فهى ليست سلسلة رفيعة  
كما يظن البعض ، بل سلسلة كسلاسل القيود ! وهى بالطبع  
ذهبية وثقيلة ، وبها احجار كريمة لا تقدر بثمن ! اتسمعون ؟  
انها شيء فريد . . . وها انت تستقل مطمئنا سفينة «ترانس  
اطلانتيك» . . ليتنى ما عرفتها .

فسأل احدهم :

- تلك السفينة ؟ حقا ؟!

فزفر السمين زفرة ثقيلة وقال :

- هى بعينها ، ودعك لو سمحت من «حقا» - ثم استطرد

وقد خفض صوته - نعم . . ولكن لا كلمة عن ذلك الآن . .  
هس !

وسرت موجة من الهمس المنفعل بين الاشخاص المحيطين  
بالسمين . وترددت اصوات :

- هدوءا !

- لا تشوشوا !

- دعوا الرجل يتكلم !

- هذا شيق جدا ! انه من هناك ولا يزال حيا ؟!

فتساءل الجواهرى مقلدا نبرتهم :

- حى ؟ شيق ؟! انه شيق الى درجة اننى ارجو من العلى

القدير الا يجعل احدا يرى مثله فى حياته ابدا . . . واذا كان هناك

شيء شيق فعلا فهو انك مسافر في امان واطمئنان ، على مهل ،  
وباحترام ، والاهم من ذلك انك مسافر بصورة شرعية ، لا كاحد  
المهربين او المهرجين ذوى العقول الطائشة ، بل تحمل معك كل  
هذه البطاقات وغيرها من الكوبونات والاذونات ، وجواز السفر  
والتأشيرة ، وكل ما ينبغى ان يكون في جيب رجل محترم . وفجأة  
يهبط عليك لا شطار ادولف هتلر «الرائعون» ، قاتلهم الله ، ولا  
حتى منافسوك - الذين كانوا هم ايضا يجيدون شق البطون - بل  
اقرب المقربين اليك ، ذوو القرابة الحميمة ، وفي وضع النهار  
وفي البحر الازرق وتحت السماء الصافية يسلبونك تلك الساعة  
الذهبية ذات الماس والسلسلة الذهبية ذات الاحجار الكريمة ! . .  
هل هذا يعجبكم ؟

وترددت الصيحات من كل مكان :

- ما معنى «يسلبونك» ؟

- هكذا ببساطة ؟ بدون سبب ؟

- رجالنا ؟ حقا ؟!

فأجاب السمين بعصبية :

- معقول ، غير معقول . . المهم انهم سلبوني حتى دون

ان يقولوا «يرحمكم الله !» انتزعوها مني كما يسلخ جلد الشاة

مع لحمها . . . تفضلوا انظروا ! - وطاق بحلقة المستعمين وهو

يهز ياقة سترته الممزقة .

وهتف احدهم :

- اى-ياى-ياى ! يبدو انه كذلك بالفعل ! . .

ومضى السمين يقول :

- وبالطبع فعليك ان تتذرع بالصبر ! والا فما هو

المخرج ، هلا اخبرتموني ؟ الست رجلا تقياً وعليك ان تدعن

«لمشيئة الله» . . اما اذا كنت تؤمل بان المعاناة قد انتهت عند

هذا الحد فانت ابله تماما كما كنت في وارسو ، عندما كان لديك

محل غنى بالسلع المكدسة بينما تحرم نفسك من كل شيء . . .

ويتضح انه قد قدر لك ، كيهودى تقى وصبور ، ان تنجو بمعجزة

من الغرق في البحر ! وينبغى ان اقول لكم ان ذلك ليس من المتع

العظيمة . . . ولكن ربما تسألون اين حدث كل ذلك وكيف ؟ لن افشى لكم سرا كبيرا اذا قلت ان ذلك لم يحدث في عرض البحر ولا اثناء عاصفة او اعصار ، بل قرب الشاطئ تماما ، في جو صحراوي هادئ . . . اتفهمون ما معنى هذا ؟

والتقط الجواهري انفاسه ، وتطلع الى من حوله وقد تجمدوا من الدهشة ، ومضى يقول بحمية اكبر :

- وكل ذلك يحدث بعد ان تكون قد عبرت بحرا كاملا تقاذفتك امواجه واصابك فيه الدوار ، وحيث انبعثت روائح العفن وانتشر الدخان ، وسالت الدموع بل والدم انهارا ، واحاط بك الانين والفرع ! وكان يبدو ان ذلك كله كاف ! ولكن لا ، بل لا بد ايضا من ان ينطلق الرصاص . . . وآه لو تعلمون كيف انطلق ايها الاتقياء ! افزع الف مرة مما يحدث في الحرب الحقيقية . . . لقد شهدت ما جرى في بولندا . ولكنك هناك كنت على الارض ، بوسعك ان تجد حلا بشكل ما اذا كان لديك عقل يفكر ، او ان تصرخ بشيء ما . . . وعلى اسوأ الاحوال بوسعك ان تهرب الى اى مكان فلديك قدمان لذلك . ولكن ماذا بوسعك هنا ؟ بحر بلا قرار وسماء بلا حدود . يمكنك ان تصرخ كما تشاء وتستنجد ! يمكنك ان تجرى كما يحلو لك ، ولكنك ستبقى في مكانك ، ولا احد يهجمه امرك ! . . .

عطف الناس على السمين وهم يتبادلون النظرات ويتهامسون احيانا ، ولكن الهدوء كان سرعان ما يستتب ما ان يبدأ في ذكر شيء جديد .

- ثم يتضح ان هذا ايضا ليس هو افزع شيء . ففي انتظارك انفجار . . . والسفينة تغرق . . . والناس عليها طبعاً . وبالمناسبة لا يبقى على قيد الحياة احد . . . رائع ، اليس كذلك ؟ ولن ندخل الآن في تفاصيل مسألة كيف حدث ذلك وكيف وقع وكيف نجوت من جديد ، فهذا لا داعي له . سأقول لكم شيئاً واحداً : لقد بدأت معمعة كبيرة ، لعن الله مدبريها ! . . .

وصاح احد الواقفين بفرع :

- اى-ياى-ياى ! شيء يجنن !

- وماذا كنت تظن . . نعم لقد جن الناس ! . . ولكن لا داعى للحديث عن ذلك الآن . . . فمهما يكن فأنت سعيد مرة اخرى لانك استطعت ان تنجو بجلدك وبمساعدة ساقيك عافاهما الله ! فقد خلصتاني ليس للمرة الاولى . . . وهنا ، اتسمعون؟! - صاح فجأة ودق الارض بقدمه - هنا بالذات ، حيث تجرى انهار اللبن ذات الشواطىء المهلبية ، وحيث الارض مشبعة بالعسل من اقصاها الى اقصاها ، وحيث ترسل السماء على الناس المن ليلا ونهارا ، هنا يمسون بك وكأنك نهبت شخصا ما ، ويلقون بك كالبهيمة فى سيارة ، الا فلتحترق فى النار هى وسائقها جزاء له على «حسن» نقله للركاب ! . . ولكن الى اين ؟ ولماذا ؟ ولاى غرض ؟ لا احد يدري شيئا . ومرة اخرى كما على السفينة ، تسافر بين الحياة والموت . . . واخيرا تصل فى منتصف الليل الى مكان ما . والظلام حالك كأنما سكبوا فى عينيك حبرا . وفجأة يضربك شعاع من الضوء فى وجهك حتى لتوشك ان تفقد بصرك ! ومن شدة المفاجأة يخيل اليك اما ان الارض انشقت وقفز الشيطان من الفجوة ، واما ان السماء انشطرت وهبط موسى العظيم بنفسه الى البشر ! وتتجمد دون حراك ، وتكتم انفاسك وتغمض عينيك ! ولكنك تسمع صوتا ويا له من صوت لو تعرفون ! صوت عذب ، رخم ، ناعم كصوت المنشد فى الهيكل يوم عيد «سيمحا تورا» . . . يقول لك انك وصلت الى الجنة بالسلامة . وتقول لنفسك : اخيرا تاب العلى القدير الى رشده وجعلك انسانا سعيدا . . . بينما الصوت لا يزال يتحدث مؤكدا لك انه بوسعك ان تنسى منذ الآن كل مصائبك وآلامك ، وكل عذابك ومآسيك ، لان العلى القدير ونفر آخر يعرفون عنك كل شىء . . صحيح ان ذلك لا يخفف عنك بعد ولكنك لا تستطيع ان تقول ذلك فتلوذ بالصمت كالسمكة . . وشعاع الضوء مسلط عليك ، بينما الصوت يخبرك بانه عليك منذ الآن بان تعمل «بوصايا اجدادك الابرار» بكل طاعة . . . وتقول لنفسك . . . حسنا ، بكل طاعة . . فالطاعة ليست بجديدة عليك . ولكن يتضح ان هذا ايضا غير كاف . اما اروع ما قاله الرجل الخفى فهو تأكيده بان الذهب ليس ابدا هو الساعة التى

انتزعت منك بسلسلتها الشهيرة ، بل هو مجرد السكوت ليس  
الا ! وهكذا ايها اليهود الاتقياء ، فان السكوت هو الذهب ، اما  
الساعة والسلسلة فاشياء تافهة . . . فما رأيكم ؟ هل يعجبكم  
مثل هذا المزاح ١٩

وجاء صوت الثغ من وسط الحشد :

- هو كذلك بالضبط ، فالسكوت من ذهب ، بينما تطلق  
انت العنان للسانك !

وفجأة اصبح وجه السمين المرفه الذى كان يلعب منذ لحظة  
تعيسا مثل صبي شقى ارتكب اثما . ومط عنقه القصير وتلفت  
حوله لكى يرى من تفوه بهذه العبارة بنبرة تأنيب وتهديد . وسرت  
حركة فى الحشد ، وتهامس الواقفون بحيوية .

وطاف البدين بنظرة مرتبكة على وجوه الواقفين حوله وقد  
تسمروا فى صمت قلق . وسأل بصوت لا يكاد يسمع :

- حسنا ، من يطلق العنان للسانه ؟ والمهم اين يطلق  
العنان للسانه ؟ ام ان هذه ليست ارض اسرائيل ؟ انا لا افهم .  
اين انا ؟ ثم ماذا هناك فيما قلته ؟ هل اخترعته ؟ هل انا افترى ؟  
ثم خيرونى لو تفضلتم ما الذى يمكن ان يفعلوه بى على ذلك ؟  
ماذا ١٩

فقال الشاب ذو الوجه الشاحب والقفطان الاسود بتهديد :

- ربما لا يفعلون بك شيئا ، وربما . . . من يعيش ير . . .

تفحصه السمين من قمة رأسه حتى قدميه بنظرة احتقار ، ثم

قال باضطراب :

- اسمع ايها الشاب . . . لا تخوفنى . انا لا اعرف من

انت ، ولا من اين جئت وماذا رأيت فى حياتك وقاسيت . . . ولكنى

ارد عليك : ما وقع وقع ! بل وبأكثر مما ينبغى ! . . . نعم . . .

هلا قلت لى اين السفينة ؟ اين من كانوا عليها ؟ لقد كانوا عدة

مئات ! تصوروا ، كلهم رجالنا . . . نعم ، يهود ! هرب هؤلاء

البؤساء من وجه هتلر ، واذا بهم يلقون مصرعهم على ايدى

ذويهم ! ام تظن ان الجميع مغفلون ؟

طافت عينا السمين باشفاق على وجوه من حوله . كان ينتظر



منهم المساندة او التعاطف على الاقل . الا انهم جميعا ركنوا الى الصمت كالأحجار . وتململ السمين بقلق ، وتفصد العرق من جبينه وذقنه . وادرك انه اثرثر باكثر مما ينبغي فحاول اصلاح هفوته .

- ولكن من ذا الذى يذكر ذلك ولو بكلمة ؟ لقد قال لنا الرجل ذو المصباح فى الليل آنذاك : «تلك مشيئة الله ، وينبغى ان نسكت . . .» ، وها نحن نصمت . . . الا فلتحرقهم النيران جميعا . اننى اعرف ما معنى ان نتعامل مع بنى جنسك ، اعرف ذلك من ايام وارسو . . . ان هذا اسوأ شئ يمكن ان يكون . . . يأتى الواحد منهم ليزورك ، ويحييك فى الشارع باحترام ، وفى المعبد يصلى بجوارك كأكثر الناس ورعا ، ويدعو لك بكل خير ، ولكن ما ان يشتم انك قد تكسب اكثر منه قليلا حتى يصبح على استعداد لاغراقك ولو فى فنجان شاي . هذا ليس بجديد على . ولكن من كان بحاجة الى اصدقائنا هؤلاء ؟ ومن ذا الذى يتعرض لهم عموما ؟ لقد كنا ببساطة نتحدث هنا عن ان هذه «القبب» اسوأ من المرحاض . وهذا كل ما هناك ! ولماذا ثار هذا الحديث فى تصوركم ؟ اقسّم لكم بشرفى انه لا انا ، ولا جارى - وليكن شاهدا على صدق كلامى - لم يغمض لنا جفن طوال هذه الليالى ! فضحك احدهم قائلا :

- من عض البق ؟

فانتعش البدين وقال :

- وهل هذا يسمى عضا ؟ انه ينهش من لحمنا قطعاً بكاملها !

ولم يكن الضحك الجماعى للأشخاص المتجمعين راجعا الى ما قاله السمين بقدر ما كان مبعثه الرغبة فى تصفية النزاع الذى نشب .

وضحك حاييم ايضا . كان يرغب بشدة فى ان يؤكد لاويًا بان احدا لا يتعرض لهما بسوء .

فجأة اوما السمين الى حاييم وقال :

- وهذا الشاب يستطيع بالطبع ان يسمى مسكنه تدليلا

«قبيبة» . . . ولم لا ! فهو لا يهجه ان تعضه الحشرات ام لا . . .  
فمعه زوجة شابة . . . عنده شهر غسل ! فليت لدى مثل  
همومهما ! . . .

وعاد الجميع يضحكون . ووجد حاييم نفسه في بؤرة  
الاهتمام ، فاحمر وجهه ، وارتبك ، ولكنه لم يكف عن الضحك .  
ومضى الجواهري يقول :

- في سنهما يكفيك ان تجد ما تسند اليه رأسك ، اما  
الباقي ف. . . وفوق ذلك فهذا الشاب ، لو اردتم ان تعرفوا ، هو  
اسعد زوج في العالم . تسألونني لماذا ؟ ببساطة لان زوجته  
بكماء ، ولذلك لن تنغص عليه ابدا . . . تصوروا ؟ هذا ما يمكن  
ان تحلم به ، أليس كذلك ؟

اثارت كلمات الجواهري عاصفة من الضحك والفحيح ، فلم  
يكن الجميع يعرفون عيب اويًا .

وتطلع حاييم الى الجواهري بامتعاض . لم يكن يريد في  
حضور اويًا ان يوبخ الرجل ويفهمه ان ليس كل شيء مباح  
للمزاح . فوقف في مكانه متمللا وهو يبتسم في ارتباك دون ان  
يدري ماذا يفعل . ولحسن حظه صاح رجل كان يمر بهم بصوت  
عال :

- ايه ، ايها الخطباء ! الى متى ستظلون تعملون بالسنتكم؟  
هلا ذهبتم الى المطعم . هناك شخصان هاما من حيفا يختاران من  
يريد ان يدمى يديه . لقد اسعداني باختيارهما لي للعمل في البناء  
قرب ناتانيا . . .

اندفع الجميع الى المطعم كالجوعى طلبا للخبز . وظل حاييم  
واقفا وهو في حيرة . كان يعلم تماما انهم لن يرسلونه الى اي  
مكان ما لم تصل تعليمات من فوجه . ومع ذلك فقد شيع اويًا  
الى الخيمة واسرع الى المطعم .

وعندما دار حاييم حول ركن المبنى راى على حافة الطريق  
سيارة ركوب مكشوفة ومجموعة من المهاجرين يتحدثون بحماس .  
كانوا يمطرون كل خارج من المطعم بسيل من الاسئلة محاولين  
ان يعرفوا عم يسأل القادمون من حيفا ، واى عمل يقترحونه وبأية

شروط والى اين يرسلون الاشخاص وهل يعدون بتدبير  
السكن . . .

واخذ هاييم يتنقل بين مجموعة واخرى مصغيا في صمت الى  
احاديث الناس ومحاولا الا يلفت اليه الانظار . وكان يغبط من  
عينوا في العمل ، بالرغم من قلة الراضين بينهم عن اعمالهم  
القادمة . وعلم هاييم من الاحاديث انهم يرسلون الكهول ، حتى  
لو كانوا اصحاب عائلات ، الى المستوطنات اذا كان في عداد هذه  
العائلات افراد قادرين على العمل ، حيث يقال ان تروست «كيرين  
هايسود» قد ابتاعت لهم قطع ارض من الاقطاعيين هناك . كذلك  
سمع هاييم انهم يرسلون الشبان والشابات الذين بلغوا الثامنة  
عشرة الى صرفند ، وهي بلدة صغيرة قرب رام الله .

وقال شاب مطلع :

- انها بين تل ابيب والقدس ، مكان لا بأس به . . .  
للانجليز هناك معسكر حربي محصن حسب آخر صيحات  
التكنولوجيا . وهم ، كما تعلمون ، لا يختارون لانفسهم مكانا  
سيئا . الظاهر انهم سيسكنوننا في مكان ما هناك . وسوف  
يعلموننا لكى نصبح سائقي سيارات ، وبرادين ، وخراطين  
وكهربائيين وميكانيكيين ، بل وسائقي جرارات ايضا على ما يبدو!  
وقالت فتاة وهي تبتسم بسخرية :

- الا يبدو لك انهم سيشرعون في تعليمنا لكى نصبح  
طباخين وغسالين ومنظفي اوعية ؟  
فاجابها رجل قوى الجسم ، في حوالى الاربعين ، بلهجة واعظة  
تعليمية :

- ليس في هذا ما يعيب . يمكنكم ان تصبحوا مهندسين او  
اطباء مثلا ، ولكنكم هنا ، اذا كنتم تعدون انفسكم متطوعين  
حقيقيين مدركين للمهام التى تواجه الامة باسرها ، فعليكم ان  
تجيدوا كل شىء ! قيادة الجرار ، واعداد الخبز ، وطبعا تحضير  
الطعام . . . ليس في ذلك ما يعيب . فاليوم تقودون جرارا ، وغدا  
دبابة ! ان الحالة الراهنة واهدافنا يحتمان علينا ان نتصرف هكذا  
بالضبط . . .

وقرر حاييم من منظر الرجل بقميصه الازرق المصنوع من  
قماش خشن ، والكتافيتين الصغيرتين اللتين تدلى من تحت  
احديهما خيط غليظ مجدول بلون الخاكي ينتهى بصفارة عريضة  
تبرز من جيب الصدر ، انه مدرب عسكري . لقد صادف اناسا في  
مثل هذا الزى اثناء تدريبيه قبل السفر الى فلسطين . وكانوا  
جميعا يذكرون حاييم بمعلم التربية البدنية في المدرسة الثانوية  
الملكية . كان يرتدى قميصا اخضر زاهيا ، وعلى كفه شريط ابيض  
بصليب معقوف يحمل احرف LANC \* . وكان الناس يخشون  
صاحب القميص الاخضر في المدرسة .

وقرر حاييم الآن ايضا ان ينأى بنفسه عن المتاعب ، ولكنه  
راى فجأة بضعة اشخاص خارجين من المطعم ، وبدا له احدهم  
معروفا له بكتفيه العريضتين وقامته الطويلة . ودار حاييم حول  
السيارة التى اتجهت نحوها جماعة من الرجال ودقق النظر . . .  
نعم ، كان هذا نوتسى يوناس ! الذى امضى معه فترة التدريب  
قرب مدينة طيرجوجيو الرومانية . ولم يتجرا حاييم على المبادرة  
بمخاطبة نوتسى ، ولكن هذا لمحاه فحياه بسرور باسطة ذراعيه .  
وصاح بدهشة شديدة :

- حاييم فولديتير ؟! اسمع ! كنا نظن انك من زمان في  
عداد الاموات !

وتعانقا كاخوين . كان حاييم يبتسم بخجل وكأنه اذنب في  
حق زملائه في التدريب . اما نوتسى فقد تابط ذراع حاييم ، وشق  
به الحشد بنشاط حتى خرجا الى الطريق .

وفهم حاييم ان صديقه نوتسى يشغل منصبا هاما ، ومع ذلك  
سأله :

- اصبحت يا نوتسى شخصية هامة كما ارى ؟ هذا عظيم  
جدا . اننى مسرور من اجلك ، اقسام لك !  
فاجاب نوتسى متهربا :

- غارقون في المشاغل ، والمشاكل اكثر . حدثنى عن نفسك

\* عصبه الدفاع عن المسيحية القومية المتعصبة .

احسن . هل صحيح انك مرضت بالتيفوس ؟ كيف حدث ذلك ؟  
ومن عالجك ؟

وحدثه حاييم عن بلاياه باختصار . واخبره وهو مرتبك  
بزواجه من تلك الفتاة التي انقذته من الموت .  
ففرح نوتسى باخلاص وقال :

- هذا رائع ! شاطر ! واين هي ؟ ارنيتها ، لا تخفيها !  
- كلا ، انا لا اخفيها . . . - قال حاييم متلعثما -  
ولكنها . . . اتدرى . . . - لم يشأ ان يقول كلمة «صماء بكماء»  
ولم يستطع ان يجد كلمة اخرى تجعل سامعه يفهم كل شىء بوضوح  
على الفور .

وكان مزاج نوتسى طيبا ، فلم يفكر طويلا والقى باول خاطر  
ورد على ذهنه :

- هل تنتظران طفلا يا حاييم ؟  
فازداد حاييم ارتباكا وغض بصره . ثم قال بتحفظ :  
- كلا يا نوتسى . . . انها لا تستطيع ان تتكلم . . . منذ  
الولادة . اطلاقا . . . هل تفهم الآن ؟  
كان الرد مفاجأة غير متوقعة ، حتى ان نوتسى توقف كأنما  
اصطدم بجدار . وقال بصوت لا يكاد يسمع :  
- صحيح ؟!

وكان وجهه ينم عن الدهشة البالغة . لكنه استدرك اخيرا  
واغتصب ابتسامة ، وقال بصوت مرح مبالغ :  
- وماذا فى ذلك ؟ اية اهمية لذلك فى النهاية ؟ الست  
تحبها ؟

فاجاب حاييم بصوت خافت ولكنه حازم وهو يحدق فى عينى  
نوتسى :

- اكثر من حياتى . ومدين بحياتى كما اخبرتك لها هى  
بالذات اكثر من اى شخص آخر .

- هذا رائع يا حاييم ! - وشد نوتسى على يد صديقه . -  
هذا هو المهم ! . . . اعذرنى ، فى البداية لم افهمك . . .  
استقبلت اويًا نوتسى بريبة شديدة ، ولم تستطع ان تكتم

خوفها من قدوم انسان غريب فجأة . وعندما فهمت ان هذا الضيف صديق طيب لحاييم ، تهللت كلها ، ونفضت الغبار عن مقعدين وهي تبتسم ، وقدمت واحدا للضيف والآخر لحاييم .

واذهل جمال اويًا نوتسى ، ولكنه قال فى نفسه ان حاييم على ما يبدو شاب شريف وفى الوقت نفسه غريب الاطوار . فالجمال وحده لا يجلب السعادة . . . اما الطاعة التامة فيمكن ان تحصل عليها من خادم . . .

وقال حاييم بأسف وهما يخرجان من الخيمة :

- مستعجل ؟ انا مقدر ، فالاعمال كثيرة . . . ولكننا لم

نتمكن من الحديث عن شيء . . .

ولزم نوتسى الحذر . ظن ان حاييم سيطلب منه الان طلبا . وكان نوتسى يوناس لا يجب تقديم العون الى الاشخاص المستبعد ان يستفيد منهم فى يوم ما . ولذلك سأل بلا مبالاة دون ان ينظر الى حاييم :

- هل انت بحاجة الى شيء ؟

فقال حاييم ما طاب الكلمة :

- لا ! فقط كنت اريد ان اعرف كيف يعيش زملاؤنا فى

الفوج ، اين هم ؟ وما ذا يفعل كل منهم ؟

تنفس نوتسى الصعداء . ومع ذلك قال بلا اكرات وهو يحاول التخلص من حاييم باسرع ما يمكن حتى يتحاشى طلباته المحتملة :

- وما الذى يمكن ان تفعله هنا ؟ ها انت ترى : الجميع

يكدون ويشقون ، وحياتهم ليست رغدة بعد . . .

وتحدث نوتسى باختصار عن زعمائهم . ولما تطرق الى سيمون سلمونزون تذكر ان حاييم ادى التدريب عوضا عنه ، وان سيمون اسف عندما علم بمرضه ، وتذكر مرارا حادثة دلت على الاخلاص المتناهى لهذا المتطوع ، وان سيمون كان يعتزم ارساله هو بالذات ، يوناس ، الى قبرص ليعرف ما اذا كان حاييم على قيد الحياة ام لا ، ولاحضاره اذا كان حيا . ولكن بعضهم اشاع ان حاييم فولديتير توفى بالتيفوس ، ولذلك لم تتم السفيرة . . .

ولما كان نوتسى شخصا عمليا فقد بدأت تتضح في مخيلته  
خطة للاستفادة من هذا الشاب الذى بدا له غريب الاطوار . وقال  
له :

- اسمع يا حاييم . ماذا لو تحدثت مع الاصدقاء في الادارة  
المحلية هنا لكى يسمحوا لك وزوجتك بمغادرة المعسكر ؟  
فلم يفهم حاييم مقصده وسأل :

- الى اين ؟

- كيف «الى اين» ؟ معى الى تل اييب . انا هناك اعمل عند  
سيمون سلمونزون في مكتب استيراد وتصدير . لقد شرع  
هنا في نشاط واسع لا يمكن ان اوضحه لك بكلمتين . انه  
باختصار شخصية ذات نفوذ كبير !

فقال حاييم وهو يضحك بسخرية :

- هكذا ! على العموم هذا مفهوم ، فهو ابن صاحب مصنع !  
والمصنع كما هو معروف يصنع النقود . . . فمن الممكن اذن  
تنمية نشاط واسع ، بل وان يصبح شخصية بارزة ! لم لا ؟  
فاجاب نوتسى بشيء من العصبية :

- لا يا حاييم ، انت لم تفهمنى جيدا . ليس ابو سيمون ،  
ولا طبعاً سيمون نفسه ، هو المالك الحقيقى لكل شيء ، بل هو  
خاله . وهذا الخال يعيش في الخارج ، اما سيمون فيمثله فقط . .  
اما هذا الخال فشخصية كبيرة . . . صاحب ملايين ! صديق  
شخصى لموسولينى . . تصور ؟

فقال حاييم باسما ذراعيه :

- لا افهم شيئا ابدا ! صديق شخصى لموسولينى ؟ هل  
تدرك يا نوتسى معنى ما تقول ؟ اى موسولينى ؟  
فضحك نوتسى وقال :

- وهل تعرف انت موسولينى آخر ؟

ثم اضاف بجدية مقصودة :

- مهما يكن فانا قضيت عدة سنوات عضوا في «الهاردونيا» ،

وقبلها كنت في «المكابيا» • وتعلمت فهم بعض الاشياء في القضايا الدولية . . . اننى اعمل في مكتب سيمون للتصدير والاستيراد ، لكننى اؤدى هنا مهام مختلفة تماما . . . ربما كنت تتصور اننا اخترنا الشبان والشابات ببساطة ؟ كلا ، الامور لا تجرى كما يبدو لك . . . فليس كل الشبان يرسلون الى ما يدعى «بتاربا» \* ، وربما عرفت فيما بعد ما معنى هذا وما هي اختصاصاته ، ولكن دع هذا الآن سرا فيما بيننا ! . . . واذا قلت لك شيئا فلا تجادل ، اتفقنا ؟

فقال حاييم موافقا :

- اننى لا اجادل معاذ الله ! ولكنى لا استطيع ان اتصور ، والله ! . . . ربما كنت لا افقه شيئا . لا تغضب يا نوتسى ! فكيف يمكن ان يتصادق زعيم عصاة القمصان السود الايطاليين واليهودى سلمونزون ، وليكن حتى من اصحاب المليارات ؟ !

- تصور ! . . . بالمناسبة ليس اسم عائلته سلمونزون . انه خال سيمون . ولكن ليست هذه هي القضية . . . في مرة اخرى ساحكى لك شيئا ستصعق له ! ولكنى اكرر : هذا فيما بيننا فقط ! اما الآن فساذهب الى السلطات المحلية واخبرهم اننى ساخذكما معى .

- مهلا يا نوتسى ! ينبغى ان افكر جيدا . . .

فسأله نوتسى بدهشة :

- وفيم تفكر ؟

فقال حاييم مترددا :

- اتدرى . . . انا لا اعرف كيف سيتقبل قادة فوجنا

ذلك ؟ !

- لا تعر لهذا الامر اية اهمية . فكلهم تابعون لسيمون .

\* منظمة شبه رياضية ولكنها عسكرية الاتجاه وتخضع مباشرة للمنظمة الصهيونية العالمية .

\*\* المكتب الرابع ، المختص بالتدريب العسكرى .



وموقفه منك طيب . هذا هو المهم ؟ الم تؤد التدريب بدلا منه ،  
وكذحت حتى قصمت ظهرك ! اننى اذكر ! يا لك من غريب !  
فاجاب حاييم بكآبة :

- هذا لا يعنى اى شىء . . . وخاصة بعد ان اصبح شخصية  
هامة كما تقول . وعلاوة على ذلك فقد دفع ابوه لصندوق الفوج  
مقابلا نقديا لكل ما قمت انا به . الا تعرف ذلك !  
- اعرف . . . اعرف كل شىء . . . ومع ذلك فلا تتفوه  
بحماقات !

واشاح نوتسى بيده وانصرف ، تاركا حاييم فى حيرته . ولم  
يمر وقت طويل حتى ظهر نوتسى من وراء ناصية المطعم ، صاح  
من بعيد :

- استعدا ! ستسافران معى !  
عندما توقفت السيارة القديمة المتهالكة امام الخيمة وخرج  
حاييم واويثا يحملان لفائفهما ، اقترب منهما الجواهرى السمين .  
وعلى الفور تجمع المهاجرون الآخرون من الخيام المجاورة . كانوا  
جميعا مذهولين لرحيل الزوجين الشابين المفاجئ .  
وصاح الجواهرى مخاطبا الاشخاص الذين كانوا ينظرون الى  
حاييم واويثا نظرة لا تخلو من حسد :

- انظروا اليهما ! كان هو يتصنع طوال الوقت المسكنة ،  
اما هى فلا تنطق بحرف ، واذا بهم يقدمون لهما سيارة ركوب . . .  
يا لهما من شخصين بارزين ! قد يتصور المرء انهما تعودا على  
السفر دائما بهذه الوسيلة عند ابويهما ! فليخطفهما الشيطان  
هما وآباؤهما واجدادهما ! . . .

لم يفرح سيمون سلمونزون بقدر ما ذهل عندما اخبره  
نوتسى على غير توقع بان حاييم فولديتير حى يرزق ، وهو جالس  
ينتظر فى السيارة عند المدخل مع زوجته الشابة .  
وقال نوتسى بتزلف :

- حسناء ! ولكنها صامتة كسمكة . . . انها بكماء .

فقال سيمون بدهشة :

- هكذا ؟

وبعد ان تردد وراح يفكر بصوت مسموع :

- ما معنى هذا ؟ هل اغرته بائحة كبيرة ؟ يبدو ان حاييم

ليس ساذجا كما كنت اظن . . .

فقاطعته نوتسى قائلا :

- من اين لها بالبائنة ؟ انها شحاذاة ! اما حاييم فهو فعلا

شاب ليس غبيا ، ولكنه قروى وغريب الاطوار . . . لقد وضع في

عنقه هذا النير لانها ، حسبما يدعى ، هى التى انقذت حياته .

فازدادت دهشة سيمون :

- صحيح ؟ اذن فهو فعلا ساذج ، ساذج شريف اكثر من

اللازم . . .

فضحك نوتسى قائلا :

- نعم ، احمق شريف ! . . . قروى . . .

- حسنا . . . فلننظر ما الذى يمكن ان يقوم به .

وخرج مع نوتسى لاستقبال الضيوف غير المنتظرين . وشد

سيمون بقوة على يد حاييم وربت على كتفه بمودة ، وحيا باحترام

اويًا الخجلى ، ودعاهما الى البيت .

ولاحظ حاييم ان نوتسى يجعل بينه وبين سيمون حاجزا من

الاحترام . واربك ذلك حاييم الخجول بطبعه . وعندما اجلس رب

الدار ضيفيه الى المائدة وطلب من حاييم ان يحكى له عن سياحاته ،

احس هذا بنفسه كتلميذ امام ممتحن صارم ، فقد كان يعرف

سيمون كرجل خشن وكتوم . فاية صراحة عندئذ ! وروى حاييم

بكلمات متلعثمة مقتضبة كيف مرض في قبرص ، وكيف وصل الى

فلسطين بعد شفائه . وتذكر حاييم «نصيحة» الرجل ذى المصباح

التى لا تقبل التأويل ، وحادث الجواهرى البدين ، فلم يذكر شيئا

عما حدث له «ترانس اطلاقىك» . وحاول ان يتخلص من الموقف

بالمزاح فقال فى الختام :

- على الرغم من المعونة الطبية فقد شفيت . . . وها انذا قد

جئت !

دخلت الغرفة امرأة قوية الجسم . وكانت الصينية التي تحملها غاصة بالاواني والماكولات . ووضعت على الطاولة فناجين الشاي واطباق المربي والتورتة المقسمة الى قطع ، والبسكوت ثم انصرفت في صمت وسكون .

ودعا سيمون حاييم وزوجته الى ان يتذوقا ما رزقه به الله بعد وعشاء الطريق ، واعتذر بان الاشغال ستضطره الى ترك الضيوف لفترة قصيرة ، وخرج على الفور من غرفة الجلوس . وتبعه يوناس .

طاف حاييم بنظره على غرفة الجلوس . كان كل شيء هنا يشهد ببراء اصحاب الدار ، وفي الوقت نفسه يثقل على النفس بكاآبته وتكلفه وثقله : النجفة الكريستال ذات السلاسل السوداء الضخمة ، والجدران المكسوة بسجاد ثمين ، والستائر المخملية الحمراء الداكنة المطرزة بالذهب والصور البيضاوية الثلاث المعلقة فيما بينها وذات الاطر البرونزية الثقيلة . وفي الوسط علقت صورة كبيرة لرجل ذي لحية كثة وعينين كبيرتين صارمتين . وعرف فيه حاييم دون جهد تيودور هرتزل مؤسس النظرية الصهيونية . فقد رأى صورة مثلها في مطعم «نقطة التجمع» .

واصغى حاييم الى الصوت الناعم لحركة الساعة الكبيرة ذات الاطار الخزفي والموضوعة على رف من المرمر فوق بوفيه متعدد الادراج كالمعبد البوذي ومطعم بالعاج باسراف . ومن خلف زجاجة السميك المرآوى تلالاً كريستال المزهريات والدوارق والاطباق والكؤوس .

وقال حاييم في نفسه باستسلام مر : «نعم ، الاغنياء دائما في الجنة ، ليس مثلنا نحن الفقراء . فليتعذبوا في «نقاط التجمع» ، وليجوعوا ويمرضوا . . . فمن بحاجة اليهم . . .»  
قطع قدوم سلمونزون ونوتسي على حاييم خيط افكاره الحزينة .

وقال رب الدار :

- لقد احسن يوناس صنعا اذ احضر كما معه . اننا بحاجة

الى عاملين شرفاء . ولكن علينا ان نقرر قبل كل شيء ايسر  
ستسكنان .

وكانما كان نوتسى يتوقع هذا السؤال . فقد عرض على الفور  
ان يسكننا عنده . وقال لحاييم موضعا :

- انا اسكن مع زوجتى وحماتى فى بيت الصديق سيمون . .  
فى بلدة بنى بيراك ، غير بعيد من هنا . . . ولدينا فى الفناء  
جناح . . صحيح انه بحاجة الى بعض الترميم . . .

فقال سيمون مقاطعا نوتسى وموافقا على الفور :

- عظيم جدا ، اتفقنا !

فشكره حاييم وسأل مترددا :

- وما رأيكم ، ان القى متاعب من قيادة فوجنا بسبب  
مغادرتى «نقطة التجمع» بدون اذن ؟ اليس من الافضل ان نخبرهم  
بذلك ؟

فاجاب سلمونزون بشقة :

- بسيطة ! رتب امورك ، ورمم المسكن ، ثم نتفاهم بعد  
ذلك عن الاشياء الاخرى . المهم العمل ! هل فهمتنى يا صديقتى  
حاييم ؟ العمل !

•

كان النهار على وشك ان ينتهى عندما توقفت السيارة التى  
كان يجلس فيها بعظمة نوتسى يوناس وزميله السائق وعلى مقعدها  
الخلفى يجلس حاييم واويًا ملتصقين ، عند باب بيت منخفض ،  
مائل قليلا ، وذى اربع نوافذ . واضفى عليه شيش النوافذ  
الخشبية المقشور الطلاء والمكسور فى بعض الاماكن صورة البيت  
الكثير المهجور .

وعلى الفور احاط بالسيارة جمع من الصبيان الذين اقبلوا من  
افنية المنازل المجاورة . وراحوا يتصايحون بالتحية :

- شالوم خافيريم !

- شالوم !

اطفا زميل نوتسى محرك السيارة وهو ينوى ان يدخل الى  
المنزل مع رب الدار ، لكن احد الصبية ، وكان اسمر البشرة ،  
يرتدى سروالا يبلغ اسفل ركبتيه بقليل ، وفي «بيريه» صغير من  
الساتان يشبه الطبق ولا يكاد يغطى شعره المجعد ، اقترب منه  
وقال بتحد :

- انت شبت جوى ! \* عما قريب سيحل السبت وانت ما  
زلت تركب السيارة !

فقال نوتسى وهو يتطلع الى السماء المذهبة بشفق الغروب :  
- ما زال الوقت مبكرا . اتدرى كم بقى حتى الغروب ؟  
وانت تصرخ «السبت» ! اذهب من هنا ، اتسمع ؟  
فتراجع الصبى مكرها وقال مكشرا :

- اذهب انت ! ما ان تظهر اول نجمة حتى نخرق جميع  
اطارات سيارتك الملعونة . . . سترى !

هدد نوتسى الصبى ، ولكن السائق راوده القلق بوضوح  
فادار المحرك ورحل على الفور يشيعه صياح الصبية :

- شبت جوى ! شبت جوى !  
وطارت الاحجار فى اثر السيارة .

وقهقه نوتسى بتكلف :

- ارايت يا حاييم اى شبان يترعرون هنا ؟ ليسوا مثلى  
ومثلك ! ابطال ! . . .

فابتسم حاييم ولكنه لم يقل شيئا . لم يفهم سبب تجاسر  
الصبية ، ولماذا اثنى عليهم نوتسى رغم ارتبائه الواضح .

وما ان فتح نوتسى باب سور البيت حتى صاح بالرومانية :

- ايتسى ، ماميكو ! اين انتما ؟ استقبلا الضيوف !

وظهرت على عتبة الباب المفتوح امرأة شابة فى رداء حريرى  
ازرق زاه مطرز بازهار كبيرة . ولم يكن من الصعب ان تقرأ فى  
ملامح وجهها انها ليست فرحة ابدا باصطحاب زوجها لضيوف  
يحملون لفائف بانسة .

\* شبت جوى ، هو اليهودى الذى لا يراعى عيد السبت .

- هذا صديقي ! - سارع نوتسى بتقديم حاييم اليها بمرح  
وباللغة الرومانية حتى يتحاشى اية تعليقات لا داعى لها - متطوع  
من رومانيا ! وهذه زوجته . . .

فقال اتيليا زوجة نوتسى :  
- كم انا مسرورة لانهما من رومانيا ! - ونظرت الى زوجها  
باستنكار وقالت بتهكم : كم يسرنى هذا . . .

وحياها حاييم بانحناءة وهو مرتبك ، وذكر اسمه ، ومن  
مرفق اويًا بحذر وقدمها اليها فى خجل :  
- زوجتى اويًا .

فقهقهت اتيليا وهى تتساءل :  
- اويًا ؟ ! ما هذا . . . اسمك ام لقب تدليل ؟ اويًا ! . . .

فاسرع نوتسى بالرد مستبقا حاييم :  
- كلا يا ايتى ! هذا هو اسمها بالفعل . انها فعلا رقيقة  
ووادعة كالنعجة . . . - واسرع يقول مرتاحا الى استطاعته تحويل  
سؤال زوجته الساخر اللاذع الى مزحة . - اتعرفين يا اتيليا ان  
رفيقى هذا صديق كبير لسيموتنا ! نعم يا عزيزتى . . . سلمونزون  
استقبلنا بحفاوة كبيرة . . . ونحن الآن قادمون من عنده اقسام  
لك !

جحظت عينا اتيليا ، واستنطال وجهها فجأة ، وتهدلت  
شفتها . لقد كانت مشدوهة .  
وقالت مخاطبة حاييم المحنى الظهر وكأنها لا تصدق كلام  
زوجها :

- وكنتم جميعا عند سيمون ؟ انت تعرفه ؟  
واوما حاييم بالايجاب وهو لا يدرك بعد ذلك التأثير السحرى  
الذى تركته فى نفسها رواية زوجها عن زيارتهم لسلمونزون .  
واجاب نوتسى بعصبية :

- قلت لك يا اتيليا اننا كنا فى بيته ! جلسنا فى الصالون ،  
وضيفنا شايا ومربى وبسكوتا وتورته واشياء اخرى . . . مائدة

\* اويًا بالرومانية تعنى : نعجة صغيرة .

حافلة ، اقسام لك ! ورجاني سيمون شخصيا ان اساعدهما في العيش هنا مؤقتا ، في الجناح . . .

وتناهى صوت حريمى مرتعش :

- اتيليا ، نوتسى ، لماذا لا تدعوان الضيوف للدخول ؟

لماذا تقفون في الفناء ؟

التفت حايميم ، فرأى عند الباب امرأة بدينة ، قصيرة ، بشعر

اشيب قصير . فانحنى لها محييا باعتذار .

ومضت العجوز تؤنب ابنتها وصهرها :

- الناس قادمون من سفر ، ولا بد انهم متعبون وانتما

تبقينهم في الفناء وكأنه لا بيت لدينا لذلك ؟ ! يا للفضاعة ! من

يستقبل الضيوف هكذا يا اتيليا ؟ !

لقد سمعت حماة نوتسى الرهيبة بالطبع ان هذين الزوجين

الشابيين الفقيرى الثياب قد استقبلهما سيمون سلمونزون

نفسه . . .

وهمس نوتسى بشيء ما لزوجته فنظرت الى اويًا بدهشة ،

وقالت لها مترددة بعض الشيء :

- تفضلا طبعاً . . . الى هنا ! ادخلا الى هنا . . . تفضلا !

دلف حايميم واويًا الى مدخل صغير مطلى بالجير ونظيف ،

مكتظ بالصناديق والعلب التى خط عليها «جوينت ديستريبوشن

كوميتى USA» \* . وتذكر حايميم انه في ذلك اليوم الرهيب نقلوا

اليهم في «ترانس اطلانطيك» الطعام في علب كهذه تماما وبنفس

الماركة . وادهشه ان توجد مثل هذه العلب في بيت نوتسى .

وقال حايميم مشيرا الى متاعهما :

- هل يمكن تركه هنا ؟

فنفرت اتيليا كقطة غاضبة وقالت :

- وما هذا السؤال ؟ حتى لو كانت لفائفكما محشوة بالذهب

فلن يمسه احد !

وتضرج وجه حايميم . وقال بنخجل انها لم تفهمه ، وكل ما اراد

\* جمعية صهيوية خيرية يمولها اليهود الامريكيون .

ان يقوله هو انه يخشى ان يأنف اصحاب الدار من متاعهما القبيح المنظر .

وقالت العجوز وهي تخرج الى الردهة :

- ماذا ! لماذا تقفون هنا ؟ ادخلوا !

وشكرها حاييم ، ووضع لفائفهما على الارض بحذر ، وخلع حذاءه البالي وبسرعة دسه تحت اللفائف خجلا من منظره البائس . وحذت اويًا حذوه ، واتجهت معا على اطراف اصابعهما الى الغرفة الكبيرة .

ودعاهما نوتسى الى الجلوس :

- هنا مقاعد ، وتخت وفوتيل . . اجلسا حيث تشاءان وخرج الى الردهة .

واشارت اتيليا الى اويًا وقالت :

- دعها تخلع الجاكت . . افهمها ان البيت دافئ !

وساعد حاييم اويًا على خلع جاكت الصوف . ونزعست ايضا منديل الرأس وسوت جديلتها ، فتبدل منظرها فورا . تطلع اليها حاييم بولعه ، وعندما خرجت اتيليا من الغرفة ، قبلها برقة . وتهللت اسارير اويًا ، واومات بدورها الى سترته المجددة البالية .

اقترب حاييم من المرأة وتطلع الى صورته : خداه غائران ، ودوائر سوداء تحت عينيه ، اما النمش فبدا انه لم يكن في وقت ما اوضح منه الآن .

- اوه ، صح ! - قالت العجوز عندما دخلت الغرفة ورات حاييم يخلع السترة - تصرفا وكانكما في بيتكما ! نحن قد خبرنا ماذا يعنى ان تفد الى بلد لا تعرف فيها احدا ولا يعرفك احد . شئ فظيع ! ولكن . . . ماشى الحال ! لم نمت والحمد الله . . . نوتسى يعمل عند سلمونزون كما تعرفون . واتيليا ؟ انها ايضا تعمل . . . ليس عملا مرضيا ، ولكن لا بأس . . . تعلم الاولاد الموسيقى . - واشارت الى بيانو قديم . - لقد حملته معى من جالاتس ! . . . كم كلفنى من جهد وعافية الله وحده يعلم . . . ولكن لكى تشتري شيئا كهذا هنا لا بد ان تكون معك اموال



خرافية ! ومن اين ؟ ابنتى وصهرى ، وهبهما الله الصحة ، لا يعجبهما عندما اتحدث هكذا ، فهما رغم كل شىء يشغلان منصبين كبيرين . خاصة نوتسى ! لقد احرز تقدما كبيرا . . . ولكنه فى المقابل يعمل كالبغل ! والا فلن يستبقيه سلمونزون . . . صدقونى اذا قلت انه احيانا لا يأتى الى البيت اسبوعا كاملا . . ونحن لا نسأل ماذا يفعل هناك ، والى اين يسافر . ما دخلنا بذلك ؟ وبالطبع فالاشخاص الذين هم مثل سلمونزون لا تتصدع رؤوسهم من التفكير فى كيفية الحصول على النقود للذهاب الى السوق ، او من الذى ينبغى ان يردوا له الدين اولا : البقال مقابل التموين ام صاحب البيت مقابل ايجار المسكن . اما الاسعار ، عليها اللعنة هى ومن اخترعها ، ففى ارتفاع مستمر . . .

ودخلت اتيليا ، فصمتت العجوز ، ونزعت بحركات متسارعة عن الطاولة المفروش القטיפى ذا الشراشب الطويلة وفرشت مفرشا آخر ناصع البياض منشى ، ووضعت الملاعق والشوك على الطاولة ، واخذت شيئا ما من البوفيه مثل ابنتها وتبعتها خارجة .

عندما اصبح حاييم واويا بمفردهما تبادلوا النظرات واخذوا يجيلان النظر فيما حولهما بفضول . كانت الغرفة واسعة ونظيفة . واضفى عليها طابعا مريحا بصفة خاصة ذلك البساط الترانسلفانى الساطع الضخم الذى كان يتدلى من السقف تقريبا ويغطى الكنبه العريضة التى كانت تتناثر عليها وسائد كثيرة متعددة الالوان كما هو الحال على ارض غرفة الجلوس لدى سلمونزون . وفى ابرز مكان ، فوق البيانو علقت صورة سيمون سلمونزون بحجم كبير وبالالوان . كان يبدو فى الصورة اكبر من سنه رغم انه رسم مرتديا قميصا رياضيا ابيض بياقة مفتوحة واكمام قصيرة . وعلى جيب صدره تالقت نجمة «درع داوود» السداسية الكبيرة المحاكة بالخياط الزرقاء .

وتوقفت نظرة حاييم عند باب مفتوح على مصراعيه ويفضى الى غرفة اخرى صغيرة . وكان الصوان والكنبه الملتصقة به يتركان ممرا ضيقا .

عندما دخل نوتسى الغرفة لاحظ نظرة حايمى الى الباب المفتوح

فقال :

- هناك تعيش ماما . اما خلف الحائط فتسكن عائلة اخرى .  
ان سلمونزون يؤجر النصف الآخر من الدار لعائلتين . . . ولديهم  
مدخل مستقل . اننا لا نختلط بهم . . . انهم «فاتيكيم» \* .  
كانوا يعيشون هنا قبل ان يشتري والد سيمون هذا البيت . ان  
لديه ضعفا بشكل عام ازاء المنازل . . . ما ان يأتى الى فلسطين  
حتى يشتري بيتين او ثلاثة . . .

فقال حايمى :

- «ضعف» لا بأس به . . . افهم من ذلك انه ينقل راس  
ماله بالتدريج من رومانيا الى هنا .

فقال نوتسى مرتبكا :

- كيف اوضح لك ؟ اعتقد ان الامر ليس كذلك تماما . . .  
وفى تلك الاثناء جاءت اتيليا وامها وشرعتا فى رص اطباق  
المزة على الطاولة . ودعت الام الضيفين الى المائدة اما نوتسى  
فاخرج من تحت التخت زجاجة تحوى سائلا شفافا . وعندما راتها  
العجوز على المائدة استولى عليها الفزع .

- لقد عاد الى عادته ! ياللفظاعة ! مهما قلت له ان هذا هو  
الهلاك بعينه وان كوب العصير افضل بكثير ، فانه مع ذلك  
يمصمص هذه القذارة ولو قتلته !

وضحك نوتسى ضحكة مذنبية ومع ذلك فض سداة الزجاجة  
على مهل . وسأل حايمى :

- هل سمعت يا حايمى ما هو «العرق» ؟ يشبه الى حد ما  
«التسويكا» الرومانية . . .

فقال اتيليا ضارعة :

- اوه يا نوتسى ، ان ماما لا تريدك ان تشرب . . . - وقالت  
لحايمى موضحة :

- انك تدرك اى مشروب هذا اذا كان البدو هم الذين  
يصنعونه ؟ !

\* سكان فلسطين الاصليون من اليهود .

فقال العجوز بغضب :

- انها فظاعة ! معدتى تنقلب بمجرد ان ارى البدوى ! اعوذ  
بالله ! انهم دائما قذرون ، لا يستحمون ، ولا يمشطون شعرهم ،  
وفيهم كل ما تشاء . . . اما هو فيشرب ولا يابه ! وكيف يشرب ،  
آه لو رأيتته يا للفظاعة ! انها قذارة حقيقية . . .  
وفرقع نوتسى بلسانه متوقعا اللذة ، وصب لحاييم  
ولنفسه . وقال بهيئة العارف :

- العرب يشربونه مع الماء . . . مثلما فى رومانيا ، فى ارقى  
المطاعم يملأون ثلاثة ارباع الكأس نبيذا ، والربع سيفون . . .  
فتحصل على شمبانيا !  
فقال حاييم بتواضع :

- على شبريتس !  
- مضبوط ، شبريتس ! - امن نوتسى على كلامه وظهرت  
فى صوته رنة اسى . - اذن فانت تذكر كل شىء يا حاييم ؟ !  
شاطر .

وصب نوتسى ماء فى الكاسين ، فتعكر لون الشراب . وافرغ  
ما فى الكاس فى فمه بهمة ، اما حاييم فاحتسى نصفه على مهل ،  
وقال بهدوء فاذهل اتيليا وامها اللتين كانتا ترقبانه :

- لا بأس . . .  
وصاحت العجوز وهى تقطب وجهها :

- مزا بسرعة ! يا للفظاعة !

اقترح نوتسى على حاييم :

- هل تريد بعض الماء ؟ جرعة ؟

وقالت اتيليا بقلق :

- هل تحس بسوء ؟ لا بد ان جوفك يحترق ؟

فاجاب حاييم :

- كل شىء على ما يرام ، والله ! شكرا .

وساد صمت . انكب الجميع على الطعام . واكل حاييم واويثا  
على مهل البيض المخروط مع دهن الدجاجة والبصل المحمر وكان

كل هذا موضوعا امامهما على طبقين منفردين . ووضعت العجوز في كل طبق قطعة دجاج وملعقتين او ثلاث من الفاصوليا المسلوقة . وعرضت على الضيفين :

- جربا الفاصوليا ! هذه ليست فاصوليا بل سكر ! تذوب في الفم . . .

وبعد المزة وطبق اللحم صبت في الاطباق مرقا من وعاء حديدى مغطى بطبقة سميكة من السواد .

- كانت دجاجة اليوم موفقة بشكل نادر . . . اوه ، لماذا لا تاخذان من البقسماط . انظرا اى مرق هذا ؟ ذهب خالص ! خذا بقسماطا ، هيا ! - قالت وهى تزحزح نحو حايمم طبقا به قطع مربعة صغيرة من الخبز المحمص - ضع ايضا لزوجتك . . . يبدو انها قليلة الاكل . افهمها اننى انا التى اعددت هذا البقسماط . . .

- يا سلام ! . . - صاح نوتسى وهو يمصمص شفثيه لكى يرضى حماته . - لن تجد امهر من ماما فى الطبخ ! شىء غير عادى ! لقد استضفنا سيمون ذات مرة .. اتذكرين يا اتيليا كيف اكل ؟

- كيف لا اذكر ؟ ! - اجابت اتيليا وكان الحديث كان يتناول حدثا خارقا - كان يلحس اصابعه . . . وتلملمت حماة نوتسى فى جلستها وقالت :

- كم يسرنى مديحك يا ابنائى ، وهبكم الله الصحة والسعادة ، ومع ذلك اقول لكم ان جميع الاطعمة كان من الممكن ان تكون افضل والذ ، لو لم يكن لدينا مثل هؤلاء الجيران الملاعين . . . نعم ، نعم ، لا تندهش ! - وحدقت العجوز فى عينى حايمم . - اليوم عشية السبت ! بالطبع قبل وصولى الى هنا ، لم اكن اراعى هذا التقليد بدقة . ليس ذلك لاننى ضعيفة الايمان ، معاذ الله ! بل لاننا تعودنا ذلك . اما هنا ، فسواء شئت ام ابيت ، فعليك ان تراعى تقاليد لا احد بحاجة اليها ، تقاليد ربما ظهرت من آلاف السنين ! وتصورا ان السكان المحليين ما زالوا يراعون هذه التقاليد مثلما كان اجدادهم يفعلون فى وقت ما ! والا فما الذى يجعلنى اراعيها ؟ انهم جيرانى . . .

وقالت اتيليا مؤيدة :

- لدينا هنا جيران ، خير للمرء الف مرة الا يعرفهم قط !  
اعوذ بالله لو عرفوا مثلا ان احدا اشعل النار يوم السبت ، ودعك  
من باقى الاعياد . . .

فقاطعتها امها :

- يا للفظاعة ! وماذا اقول ! هؤلاء ليسوا بشرا ، ولا اعرف  
حتى كيف اسميهم . . . صدقونى انهم اسوأ من العرب !  
فقال نوتسى مصححا حماته بحذر :

- لنقل انهم ليسوا اسوأ . ولكن ليست هذه هى القضية .  
العرب هم العرب ، ونحن جميعا نعرف كيف يحبوننا وكيف  
نحبهم . . . ولكن جيراننا هم ببساطة اناس متخلفون ومؤمنون  
بالخرافات .

فلم تهذا اتيليا ومضت تقول :

- وهل هذا فقط ؟ ماذا تقول يا نوتسى ؟ ! انهم ليسوا  
بافضل من العرب . . . الم تقل انت نفسك هذا مرارا ؟ !  
دفع نوتسى زوجته بقدمه قليلا من تحت المائدة فسكتت ،  
ولكن حماته الجالسة فى نهاية الطاولة كانت ابعد من ان تظال .  
وعلاوة على ذلك فقد كانت من النوع للبشر الذى لا يمكن ان يسكت  
اذا مست كرامته . . .

فقالته بحدة :

- لا تجعلوا منى بلهاء لو سمحتم ! انا لم اخرف بعد !  
ولعلمكم فانا لا ادري كم اعطى من هؤلاء «الفاتيكييم» امثال جيراننا  
مقابل عربى واحد . . . انظروا كم يساوى جارنا وحده ؟ يا له من  
طيب . . . لو وضعته على الجرح يبرا !

- لا احد يقول انه طيب . . . قال نوتسى بتزلف وحاول  
تغيير مجرى الحديث فقال لحاييم موضعا :

- انه والد ذلك الصبى الاسمر ذى السروال القصير  
والطاقية السوداء على راسه . وابوه يعتزم ارساله الى «اليشيوا» \*  
ولذلك يراعى بدقة كل اصول «قوانين الاجداد» .

\* مدارس دينية ذات تعليم فيسى ، مفرقة فى التخلف والتعصب .

فقلت العجوز بحذر :  
- وماذا كان يريد منك هذا المعتوه ؟ ما الذى كان يحتاجه ؟  
- وما الذى يمكن ان يريده ؟ لقد رأى السيارة ولهذا  
جاء . . .

فتساءلت العجوز بلوم :  
- وهل يمكن ان يأتى هكذا ؟ يا له من صبى . . فظاعة !  
من الافضل الا يولد امثاله ، صدقونى . . وعموما فاسرتهم اعوذ  
بالله ! . .

فعدت اتيليا تقول وهى لا تقوى على السكوت :  
- اتدرى كيف نسميهم ؟ «الصابرا» !  
حاول نوتسى ثانية ان يخفف من انتقادات زوجته وحماته  
الحادة بان يضيف على الحديث طابع المزاح ، فقهقه قائلا :  
- نعم . . نعم . . هنا يوجد نبات - كهذا . . الصبار . .  
ثمارة حلوة ولكنه حاد الاشواك . وهكذا سمي السكان المحليون  
«الصابرا» . . فهم ايضا شائكون الى حد ما . . . وان كان بينهم  
اناس محترمون ! ولكن جيراننا من نوع خاص . . . شائكون  
قليلا .

فقلت العجوز بسخط :  
- قليلا ؟ اتسمعين اتيليا ؟ الست مضطرة بسبب هؤلاء ،  
«الصابرا» ان اضع على النار عشاء مطبوخا وغداء كاملا من يوم  
الجمعة حتى مساء اليوم التالى ؟ ! ومن غيرهم يزعجنا دائما بطقوسه  
الحمقاء ؟ انك تدرك اننا لسنا كالكنازير حتى نأكل طعاما باردا -  
قالت العجوز مخاطبة حاييم بالرومانية - فقد تصاب بوجع فى  
المعدة ينغص عليك كل حياتك ! اما ان تشعل النار يوم السبت ،  
ودعك من اعداد طعام طازج ، بل مجرد تسخين الطعام . . اعوذ  
بالله ! اننا ايضا لا نريد ان يعلم هؤلاء «الشائكون قليلا» فيهيلون  
علينا القاذورات فى كل ارض اسرائيل . . . فى وسعهم ان يرتكبوا  
اى شىء ! يا للفظاعة ! . . ولكنى لا اخشاهم ، صدقنى . . لا

\* يطلق عليه ايضا : التين الشوكى .

ابالى بهم على الاطلاق . ولكن صهرى وابنتى وهبهما الله الصحة  
يؤكدان دائما انه من المحرج لهما مخالفة التقاليد . ولذلك فقط  
فنحن لا نشير معهم اية مشاكل . ترى اننا بسبب ذلك نضطر يوم  
السبت ، وفي ايام الاعياد خاصة ، الى اكل طعام بارد ، حامض ،  
بل وبتن وعفوا على ذكر ذلك على المائدة . . . . يا للفظاعة ! ولذلك  
فالطعام لا تفوح منه رائحة الدخان فقط او الشياطين ، بل ورائحة  
الكيروسين احيانا . . . .

تململ نوتسى على الكرسي ، ولما لم يجد وسيلة اخرى لوقف  
سيل الصراحة المتدفق من فم حماته ، راح يصب الكأس تلو الكأس من  
«العرق» ، ويفرغها في جوفه متعمدا . وتضرج وجه اتيليا وهى توجه  
الى امها بحذر نظرات تأنيب . واخيرا فهمت العجوز وبدأت  
تهدا .

وقالت بنبرة اقل عنفا :

- لكن لم يمت احد من جراء ذلك . لقد تعودنا ،  
وستتعودون انتم ! وكما يقال ليت هذه المصيبة وحدها تبقى  
ولا يرى احد مصائب اخرى . . . . فلتأكل اذن ولا تأنف . . . . بالهناء  
والشفاء . فهذا المرق من دجاجة موفقة تماما !

في نهاية المأدبة انتشى نوتسى بشكل واضح ، وعندما نهض  
الجميع عرض على حاييم ان يتنزها قليلا .

واشار بيده الى مبنى صغير في عمق الفناء لا يكاد يبين  
في الظلام وقال :

- ها هو الجناح الذى ستسكنانه . اقضيا الليلة عندى  
اليوم باى شكل ، وغدا نتفقدته . لقد قال سيمون انه مسكن  
مؤقت ، للبداية فقط ، فليس له سقف . . . . لكن السطح ممتاز  
يا حاييم ، والابواب ايضا . . . . صحيح ينبغي تركيب زجاج  
للنافذة . . . . وسنحصل لكما على حصيرة تفرشانها على الارض .  
عندى الكثير منها في الميناء . انها رخيصة ، تفوح منها رائحة  
العشب اللطيفة ، والتخلص منها لا يسبب اسفا . . . . الكثير من  
السكان المحليين يفرشونها حتى في الغرف ، اقسام لك . ولكن  
الامر اسوا بالنسبة لوسائل الراحة .

فصاح حاييم بشيء من الدهشة :

- ماذا تقول يا نوتسى ! اى حديث يمكن ان يكون عن وسائل الراحة ؟ ! هل انا لا ارى كيف تعيش غالبية الناس هنا ؟ اننى ممتن لك يا نوتسى جدا ، والله اقولها من كل قلبى . . .  
- لا يا حاييم ، لا ، وسائل الراحة التى اتحدث عنها ضرورية للجميع ، سواء كانوا عبيدا ام اباطرة ! فانت لست بدويا لا يحتاج لشيء ؟ وطالما ستعيشان هنا فيوجد غير بعيد هذا المكان .

- ماذا تقصد ؟ تواليت ؟

- وماذا تظن . . حمام ودش بماء ساخن وبارد ؟ ! - وضحك نوتسى - هذه الاشياء لا يستطيع ان يتمتع بها الى الآن سوى اناس مثل سيمون سلمونزون ! سنذهب الان واريك اين يقضى الفاتيكييم حاجتهم . . . وستضطرون ان تتمشى انت وزوجتك حتى هناك . ليس بعيدا . . .

خرجوا الى الشارع وسارا على الرصيف المليء بالحفر والذى تضيئه بوهن مصابيح قليلة متباعدة .

واستطرد نوتسى فى الحديث عن الموضوع السابق الذى خيل لحاييم انه يقلق نوتسى جدا لسبب ما :

- ما ان تنتظم فى العمل حتى نجد لك مسكنا آخر ، اكثر راحة . وعندئذ لن تعودا مضطرين الى القيام بهذه النزعات غير السارة . . . فى الحقيقة كان سيمون على وشك ان يشيد مبنى كهذا فى فنائنا ، ولكن عمالنا الاوغاد طلبوا اجرا خرافيا .

- من تعنى بعمالنا ؟ تعنى اليهود ؟

فاجاب حاييم بسخط :

- بالذات ! وعندئذ احضرت اثنين من البدو ، وكانا مستعدين للعمل لقاء بضعة قروش . ولكن فكرة طرات على ذهن ماما . . . فقد قالت لماذا نصنع مرحاضا عاما فى الفناء ، ونضطرون عندئذ شئنا ام ابينا ، للاختلاط بهؤلاء «الصابرا» القدرين ؟ ولو وضعنا قفلا فسينزعونه مع الباب والمفصلات فى اول ليلة ! عندئذ قلنا اليس من الافضل ان نخصص لذلك ركنا لدينا فى المطبخ ؟



وهذا ما صار . ليس هذا طبعا «شيك مودرن» . . بل انه ليس حتى مستورا باى حاجز . والمطبخ حتى بدونه ضيق لا يمكن ان تستدير فيه . وعليك فى كل مرة ان تطرد الجميع منه ، اما هم فيستعجلونك دائما ، لان هناك ثمة شىء قد يحترق او يشيط . . . وباختصار فليست تلك «غرفة تأمل» . . .

فهم حاييم الآن ما كان يزعج صديقه . لم تكن دهشته لسوء المساكن التى يقطنها السكان المحليون باقل من دهشته لبخل سيمون سلمونزون والنبرة العدائية التى تحدث بها نوتسى عن العمال اليهود وجيرانه فى المنزل . وادهشه كذلك جو الحسد الشائع هنا والتنافر والشجار . واسرع يطمئن نوتسى قائلا انه لن يستغل كرم ضيافته لا اليوم ولا بالاحرى فى الايام المقبلة عندما ينتقل مع زوجته الى الجناح .

وتنهذ نوتسى بارتياح وغير مجرى الحديث الى موضوعات اخرى ، وقال :

- كل شىء هنا فى البداية يا عزيزى حاييم ! العمل لا اول له ولا آخر . . . اينما تلفت فستجد كل شىء مطلوباً : التصليح ، والبناء ، واعداد الاساس لمكافحة الاعداء ايضا مطلوب ! تصور انه مطلوب ايضا استيراد المواد الغذائية . فالارض لدينا ، بصراحة ، سيئة .

فقال حاييم بسخرية :

- ارض الميعاد ! لقد كنت اظن ان ارض الاجداد حقا من عسل . . .

فقال نوتسى مغضبا :

- من عسل . . . اننى احدثك بصراحة وانت تسخر . . . ان اصلاحها يتطلب جهودا جهيدة ! . . وعندما تنظر الى مستوطناتنا يعتريك الفزع ! هذه ليست اوروبا . . فهناك تغرس عصا ، واذا بها تنبت شجرة . . هنا لا بد ان يسيل عرقك سبع مرات حتى تربي شجيرة حقيرة . وعلاوة على ذلك ينبغى ان تراقب كل شىء ! والا سوف ينهبك العرب فى لمح البصر . . ورجالنا ايضا . . فهؤلاء المحليون كذلك لا يقلون عنهم . . لا ينبغى تركهم

بدون رقابة دقيقة . . . وعموما فهم يمقتوننا نحن الوافدين ، بالرغم من اننا نحن الذين نصنع لهم كل الخيرات . فكل ما يملكونه هنا هو بفضلنا نحن ! ولكنهم بدلا من العرفان يرددون اننا مرفهون ومنحلون ، ونفسد عليهم كل الامور . ولهذا فان الواقد يذوق المر احيانا . . . ومع ذلك فالمكان هنا لا بأس به بالطبع . . .  
فسأل حاييم :

- حقا ؟ ما هو الحسن هنا ، اذا كان لا بد من العذر من العرب ، وبين رجالنا عدا ، والمشاكل والصعوبات لا حصر لها ؟ فقال نوتسى مضطربا :

- ما هو الحسن ؟ على الاقل ليس هنا من يهينك . . . وبالطبع لن يمسك ! اما عن الباقي ؟ . . . الباقي كما تعرف . . . فلن ترقص «الفريدهس» . اذا كانت الموسيقى تعزف لحسن الجناز . . . عملية حسابية بسيطة . بيد انه ينبغي ان اصارحك بانه عليك ان تتوقع من العرب طعنة خنجر في الظهر . والعملية الحسابية هنا بسيطة ايضا . فليس من الصعب ان تستنتج اننا نزيحهم شيئا فشيئا . . . وان تدرك ايضا ان الانجليز عموما يستفيدون من ذلك . فلكي يخفوا اعمالهم الدينية يبذلون ما في وسعهم لصب الزيت في النار وتسعير العدا . . . هؤلاء المتآمرون القدامى ! ولكنى اكرر : نحن قادرون على التغلب على العرب . والقوة هنا هي التي ستحسم كل شيء ! ونحن لدينا بعض القوة بالفعل ، وهي تنمو . . . بل وتنمو بصورة لا يمكن ان تتخيلها ! وبالمناسبة ، «فالصابرا» من هذه الناحية يكشفون عن افضل ما لديهم . انهم لا يدعون احدا يمسه . . . فلتجرؤ اذن ! على الفور يبرق النصل امام عينيك ! واصارحك القول : ان بعض رجالنا يعانون منهم بشدة احيانا .

فسأل حاييم بدهشة :

- ما معنى هذا في النهاية ؟ تقول علينا ان نتوقع من العرب خنجرا في الظهر ، ومن ذويننا خنجرا في الصدر !

\* «المرحة» - رقصة شعبية يهودية .

- كلا ، ليس هكذا تماما بالطبع . . ولكن الامر معقد مع ذلك . . معقد جدا . . - اجاب نوتسى مراوغا وهو ينعطف عن الرصيف جانبا .

كانا ينزلان الطريق فى اتجاه ما . وحجبت الاشجار آخر مصباح كهربائى تبقى خلفهما . وكان المكان يشبه بستانا مهجورا او غيضة . وظن حاييم ان نوتسى قد نسى على ما يبدو من تأثير «العرق» الى اين يقصدان ولماذا . وقال نوتسى بفخر :

- مع الوقت ستكون هنا حديقة . اتدرى من الذى تبرع لانشائها ؟ روتشيلد ! جاء بمليون كامل ! لكنك تعرف ان اورشليم لم تشيد فى لحظة واحدة . مع الزمن ستكون لدينا جنة . . سترى ! هناك خطط جبارة ! . . اما الآن فغير بعيد عن هنا مكان لقضاء الحاجة . . . اصبحت الروائح الكريهة التى شعر بها حاييم من قبل اكثر حدة الآن .

وتابع نوتسى حديثه :

- ليس بعيدا كما ترى . . محطة اتوبيس واحدة ، اقسام بشرفى . . .

وامسك حاييم نفسه عن الضحك بصعوبة ، ثم قال بلهجة جدية متصنعة :

- اذا كنت «مزنوقا» فيمكنك ان تلحق نفسك اذا ركبت الاتوبيس طبعاً .

ولكن نوتسى لم يلحظ السخرية فى لهجة حاييم فمضى يسدى له النصائح . وقال له ان الاتوبيس يسير من الخامسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء حسب مواعيده كل ربع ساعة تقريبا ، اما اجرة الركوب فتافهة .

واصغى حاييم الى صديقه فى صمت وفكر فى نفسه بمرارة : «هل كانت المسألة تستحق ان اجيء الى «ارض الميعاد» لكى انتقل الى التواليت بالاتوبيس ؟ ! حسنا ، فلنر ما الذى سيحمله المستقبل . . . على اى حال العسل هنا لا يجرى . . هذا واضح . .

يبدو ان توموف كان محقا حينما نصحنى بعدم السفر . . . «  
في طريق العودة بدأ يسقط مطر خفيف . فقال نوتسى وقد  
امسك بمرفق حاييم :

- هذا فال حسن يا حاييم ! بشير سعادة . . سترى اقسام  
بشرفى ! . .

فساله حاييم بكآبة :

- ما الذى تقصده ؟ المطر ام التواليت المزعج ؟

- المطر طبعا ، يا لك من غريب !

فاجاب حاييم بلا اكتراث :

- محتمل . . من اين لى ان اعرف على اى اسس تقوم

السعادة هنا . . . ربما كانت تقوم فعلا على البراز ؟ !

توقف نوتسى وحدث فى حاييم ببلاهة ، لكن «العرق» فيما  
يبدو لم يمكنه من فهم المعنى الحقيقى لما سمعه . واستدار بحدة  
ومضى بخطوات سريعة . واسرع حاييم للحاق به ، امسك بمرفق  
صديقه بدوره . وظل ممسكا به لحظة ثم اعترف له  
بصراحة :

- لا تغضب يا نوتسى . . هكذا افكر فعلا ، والله ! . .

وانت . . ما رأيك ؟

## ٦

سكن حاييم واويًا فى المبنى الذى سماه آل يونس  
وسيمون سلمونزون مالك المنزل لسبب ما بالجنح ، اما  
الجيران الصابرا فقد سموه عن حق بالكوخ . وكان فى هذا  
المبنى الصغير المربع ، القائم فى عمق الفناء من كتل حجرية بيضاء  
كبيرة منذ زمن غير معروف ، نافذة صغيرة وحيدة ، ضيقة  
كالكوّة وارض مكسوة بالبلاط الحجرى ، وجدران كسيت بالطلاء  
فيما يبدو منذ ايام الملك سليمان ، وسطح قرميدى كان فى  
الوقت نفسه بمثابة سقف . وقد كان هذا المبنى فى الغالب

مطبغا صيفيا في وقت ما ، ثم استخدم بعد ذلك لفترة طويلة ، كما يبدو من رائحته الكريهة ، مخزنا لجلود المعاز والغنم .  
ومنذ مجيء آل يوناس كانت حماة نوتسى تستحم هنا في الايام القائظة . وقالت العجوز لحاييم :

- تلك متعة عظيمة في ايام الصيف . اتعرف كيف يكون القيظ هنا ؟ فظاعة ! خلال ساعتين او ثلاث يسخن الماء من تلقاء نفسه . . . والاهم من ذلك انك لا تحمل هم تصريف المياه . . . فقد رأيت بنفسك اية شقوق هناك في الارضية ؟ ! ولكن هذا ليس فظيحا . . .

كان على الزوجين الشابين ان يكدحا جيدا حتى يجعلنا من المبنى مكانا صالحا الى حد ما للسكنى . غسلا الارضية ونظفها طويلا ، وغسلا ومسحا الجدران بالجير والرمل ، واخرجا من هناك اكواما من القاذورات وهدهما التعب ، ولكن لم يتذمرا . كانت اويًا تتقبل كل شيء بشكل طبيعي ، اما حاييم فكان يدرك جيدا ان هناك الكثير من الاسر ذات الاطفال ، بخلاف المهاجرين طبعا ، التي كان يسرها لو حصلت على مسكن كهذا ، وقد حدد سلمونزون بالمناسبة ايجاره .

وقال نوتسى مبررا هذه العجلة :

- الصداقة صداقة والعمل عمل . واذا كنت تظن اننى واتيليا لم ندفع مقابل جحرنا مبلغا اكثر مما يساويه هذا البيت كله فانت مخطىء جدا يا حاييم !

وشيئا فشيئا هيا الزوجان الشابان «قصرهما» هذا . وظهرت فيه ادراج ومشاجب بدائية صنعها حاييم بنفسه بدقة مدهشة ، واستخدمها الزوجان كطاولة وصوان وبوفيه . وبدلا من الحصران التي وعد بها نوتسى يوناس ولكن لم يجلبها ، غطيا الارضية بكارتون علب التغليف ذات الماركة الساطعة لجمعية «جوينت» الخيرية ، هذه العلب التي اتضح ان منها في الجناح اكثر بكثير مما لدى يوناس في الردهة الصغيرة في شقته .

وسرعان ما استدعى حاييم الى سلمونزون . ولم يكن هناك تضييف في هذه المرة . وامر سيمون حاييم بنبرة لا تقبل

المعارضة بان يبدأ العمل في مكتب التصدير والاستيراد . وقال له :

- خمسة وعشرون شلنا في الاسبوع . وبعد ذلك سنرى . كل شيء متوقف عليك يا صديق فولديتير . اذا لم يعجبك الوضع قل لنا .

كان حاييم سعيدا . فمثل هذا الالتحاق بالعمل بسرعة كان شيئا غير عادي لدرجة ان الجيران عندما سمعوا بذلك راحوا يقولون ان المتطوع القادم من بيسارابيا قريب بعيد لشخص واسع النفوذ في ارض اسرائيل . . . . وتهمس الحساد قائلين : «لم يكـد يصل حتى قدموا له كل شيء وهو راقد في فراشه تقريبا» .

وقالت حماة نوتسى ترد على الجارات الفضوليات :

- ولم الدهشة ؟ ان من فعل ذلك هو سيمون سلمونزون نفسه ولا احد غيره ! الافضل ان تسألوا : ما الذي لا يستطيع ان يفعله هذا الرجل ؟ ! يكفيه فقط ان يشاء . . . اتعرفون من ابوه ؟ وما بالكم اذن بخاله ! . . ولكن ليتهم كانوا بصحة طيبة ، فنصف ثرواتهم يذهب الى الاطباء . . . يالهم من اناس طبيين ! . لم يغمض لحاييم جفن ليلة ذهابه الى العمل . فقد كان بانتظاره عمل لا يعرف عنه الا صورة غامضة للغاية . الا ان قلقه كان عبثا . فقد اتضح ان واجباته في البداية تنحصر في اداء بعض المهام البسيطة المتعلقة بتسجيل استقبال وارسال الشحنات . صحيح ان هذه المهام كانت من الكثرة حتى انه كان يجرى طوال النهار كمكوك حاملا تارة حزمة من عقود استئجار السفن من الوزان الى الصراف ، وتارة اخرى رزمة ايصالات من المخزن الى رصيف الشحن لكي يراقب الشحن او التفريغ - ولم تكن لحاييم علاقة بعمليات السلع في الميناء ، فالعمل هناك كان اعقد بكثير . كان ميناء تل اييب قد انشى منذ ثلاث سنوات ، ولذلك كان معظم الشحنات يأتى عن طريق مينائى حيفا ويافا . وفي هذا القطاع كان يعمل اشخاص اكثر خبرة ويتمتعون بثقة خاصة من سلمونزون

ومعاونيه المباشرين ، الامر الذى لم يفتن اليه حايم بعد . وكان  
ساعده الايمن هناك بصفة خاصة نوتسى يوناس .  
وكان حايم يعمل دون تدمير ويتعود .

قبل حلول الظلام بوقت طويل كانت اويًا تقف على محطة  
الاتوبيس فى انتظار عودة حايم . ولم يكن لسعادتها حدود عندما  
هبط من الاتوبيس وسلمها الشلنات والقروش التى صرفت له  
مقدا كاجر اسبوع . وانطلقا على الفور الى البقال وابتاعا كعكتين  
كبيرتين من الخبز الابيض المجدول ، وعلبة سكر ، ولفة كاملة  
تقريباً من المرتديلا الملفوفة بورق مفضض التى كانا يتطلعان  
اليها بشوق فى واجهات المتاجر من قبل .

ولم تتمالك حماة نوتسى نفسها من القول عندما رأت قطعة  
المرتديلا فى يدى اويًا :

- انظروا اى اغنياء ظهوروا ! باية نقود ستعيشين بعد  
ذلك ؟ هذه لا يأكلها لدينا سوى نوتسى ، اتعرفين ذلك ؟ !

ومضت حياة العمل يوما اثر يوم . كان حايم يعود مرهقا  
تماما ، وربما لذلك نادرا ما كان الزوجان الشابان يخرجان من  
كوخهما . كانا يعيشان عيشة متواضعة ، ويحاولان الا يكونا  
ظاهرين . وكانت اويًا تركز كل جهودها فى هدف واحد : ان تهتم  
بزوجها الحبيب بكل نكران للذات وكان يسعدها سعادة بالغة ان  
ترافقه كل صباح الى محطة الاتوبيس على مرأى من الجيران وهى  
تحمل لفة افطاره ولا تسلمها له الا عند قدوم الاتوبيس . وفى  
احوال قليلة كان حايم يذهب مع نوتسى فى السيارة ، وعندها  
كانت اويًا تقف عند البوابة حتى تختفى السيارة عن عينها .

ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا . فقد كان نوتسى يوناس  
يرحل عادة بعد حايم بوقت طويل ، وكثيرا ما يعود الى المنزل  
قرب الفجر . ولم يكن يطلع حايم على اعماله ، وان كان احيانا  
يلمح الى انه مشغول بأداء بعض المهام «البالغة الاهمية» . فكان  
حايم يقول لنفسه : «ربما لا ينبغى ان يعلم بها كل من كان ا»  
ولا يغضب من نوتسى .

وكان يونس يزور سيمون سلمونزون في بيته كل مساء ،  
وكثيرا ما يبقى لمدة طويلة ، وعندئذ كان يعود الى البيت في سيارة  
سيده .

ولم يكن يشذ عن ذلك الا يوم الجمعة . فكان يعود الى  
البيت مبكرا عن حايم ، وحيانا معه . وفي كل مرة كانت تستقبلهما  
اويا المنتظرة عند باب السور .

وذات مرة ، عندما عاد نوتسى الى البيت في ساعة متأخرة ،  
دق باب الجناح .

- من هناك ؟ - سأل حايم .

فقال نوتسى :

- اسمع يا حايم ! هل تعرف انهم يستدعون زوجتك الى  
«المشتورا» \* ؟

فاجاب حايم بهدوء رغم ان قلبه غاص من الخوف :

- ليس عندي اى خبر ! ولماذا يستدعونها في اعتقادك ؟

- لا ادري شيئا ! لقد اخبرتنى ماما توا . قالت انها

نادت عليك عندما كنت مارا بجوار نوافذنا ، ولكنك لم تكلف

نفسك عناء التوقف . . .

فقاطعه حايم :

- هذا لم يحدث ابدا يا نوتسى !

- ليس هذا هو المهم الآن . . . لقد جاء في النهار شخص

من هناك وحاول التفاهم مع اويًا . وبالطبع لم يتمكن . ثم سأل

بعد ذلك ماما من اين جاءت زوجك ، ومن هسى ، ولاى غرض

ولماذا . . . ترى ما سبب ذلك ؟

وهز حايم كتفيه قائلا انه لا يتصور ابدا لماذا ولاى غرض

يهتمون بها . . . ولكنه لم يكن يقول الحقيقة . فمئذ هبوطهما

«ارض الميعاد» ظل حايم طوال الوقت نهبا لاحساس داخل بمتاعب

قادمة . وكان لديه الاسس لذلك ، فقد كان يعرف جيدا «ولى

نعمته» بن صهيون هاجرا ، وكان واثقا من ان الحاخام سيسعى

\* قسم الشرطة .



لمعرفة الشخص الذي هربت معه الفتاة اليونانية والى اين هربت ،  
وعندئذ لن ينجوا من السوء ، فقد كان الحاخام لا يغفر الاهدانات .  
وفي الصباح المبكر في اليوم التالي عندما كان الجيران لا  
يزالون نياما خرج حايبم واويًا من المنزل . واستقلا اتوبيسا  
صغيرا تفوح منه رائحة السجائر ، ومكتظا بالفلاحين وحدهم  
تقريبا ، المتوجهين من قرية بتاح تكوا الى تل ابيب .  
لم تكن اويا على علم بما حدث . ولما كانت قد تعودت  
منذ الصغر على المصائب المفاجئة فقد تنبه الحذر فيها ولكنها لم  
تكشف عن قلقها المتصاعد . جلست بجوار حايبم وراحت تنظر  
شاردة عبر الزجاج الذي لم يغسل من زمن طويل الى هياكل المباني  
الكنيية التي كانت تمر امام ناظريها غير واضحة ، والى المارة  
القلائل في هذه الساعة المبكرة .

كان الجو غائما ، ومال الى البرودة بشكل واضح ، بينما  
هبّت رياح شديدة . وعلى جانبي الطريق امتدت مناظر الطبيعة  
الفلسطينية الجهمّة بتلالها الصخرية الصفراء الرمادية والمحاجر  
المهجورة التي تشبه اطلال المعابد القديمة . واحيانا كانت خمائل  
الزيتون والنخيل الخضراء تقترب حتى تلاصق الطريق .

وقبل الوصول الى تل ابيب مباشرة انهالت قطرات مطر كبيرة  
على سقف الاتوبيس ونوافذه . انهمل المطر دفعة واحدة ، كانما  
قد فتح في الاعلى هويس ضخم .

وكف الفلاحون عن التدخين فورا ، ودمدموا بصلوات  
ما في خشوع . وراح احدهم ، وكان ذا وجه خددته تجاعيد عميقة ،  
ويضع على رأسه عقلا ضيقا على كوفية سوداء تتدلى من ثلاث  
جهات ، يتحدث واعظا بنى قومه الذين خلدوا الى الصمت ، ولما  
انهى كلامه ضجوا جميعا بصوت واحد .

تظاهر حايبم انه يصغى بانتباه الى احاديث العرب ويفهم ما  
يقولونه ، واخذ باهتمام متكلف يتفحص سراويلهم السوداء  
الغريبة ، واكياسهم الطويلة الضيقة كالوعية الفخارية ،  
والمصنوعة من قماش سميك منسوج يدويا ، والمملوءة حتى  
الحافة بسلع زراعية يبدو انهم يحملونها الى المدينة ليبيعوها ،

وكانت تنبعث منها رائحة بحر الجمال والماعز المنفصرة لابناء  
المدينة .

ولكن هدوء حاييم المصطنع لم يخدع اويًا . كانت تتطلع  
في عينيه بانتباه وهي تحاول ان تفهم لماذا اخذها هكذا بغتة الى  
المدينة .

وركضا تحت المطر الغزير من محطة الاتوبيس الى مبنى  
المشتورا الكنيب . ولم يعد بوسعهما ان يكتما عن بعضهما القلق ،  
وولجا الردهة المظلمة لمبنى ذى سقف عال كالمعبد وجدران  
رمادية كثيبة وهما مطأطأى الرأسين ومتقطعي الانفاس .

وانتظر حاييم واويًا اكثر من اربع ساعات قبل ان يستدعيا .  
وخلال هذه الفترة تجمع في الردهة خلق كثير . كان بعضهم قد  
جاء في حالة هياج ولم يبخل باللعنات المنتقاة التى صيها على  
السلطات المحلية ، بينما كان البعض الآخر ، مثل حاييم مهموما ،  
اما ينظر في صمت بعدم اكرثا الى من حوله ، واما ينفس عن  
نفسه بالحديث عن مضائبه .

وجاء اوان راحة الغداء ومضى . وبدأ الاستقبال من جديد ،  
ولكنهم لم يستدعوا اويًا . فظن حاييم يامل ان هناك خطأ فى  
الامر ، فربما لم تفهم حماة نوتسى جيدا . وهادات نفسه .  
وسرعان ما انتقل سكونه الى اويًا فابتسمت له بعينيهما السوداوين  
الحزينتين دائما .

ولم ينتبه حاييم الى دخول الشرطى الردهة ، الا ان الصيحة  
المنذرة : «من هنا فولديتير ؟ . .» عصرت قلبه .

وزار الشرطى مشيرا الى احد الابواب :

- ادخلوا هنا . . . وبسرعة !

دخل حاييم واويًا بوجل غرفة واسعة مقسمة بحاجز شبكى  
من السلك المجدول . وعلى الفور اقترب منهما شرطيان وقاما  
بتفتيشهما من الخارج بخشونة دون ان ينبسا بحرف وقد باعدا  
بينهما ووضعوا كلا منهما بظهره الى الحائط .

وانذرهما احد الشرطيين بصوت ابح من الصراخ وبالعبرية :

- لا تلمسا الحائط ! ممنوع الكلام !

ذهل حاييم واويًا لهذا الاستقبال القاسى غير المتوقع فوقفا شاحبين كالموتى وهما يفكران بقلق فيما ينتظرهما .  
وظهر خلف الحاجز رجل طويل فى حلة رسمية مكوية بصورة فائقة . كان مستقيما كالعصى ، واقترب بخطوة متأنية منتظمة من الطاولة الموضوعة بجوار النافذة المربعة الصغيرة المفتوحة فى الحاجز ، وجلس ببطء على الكرسى . كان وجهه الممطوط ، بعينيه الصغيرتين الباردتين الغائرتين ، وخصلات شعره الاشيب الخفيفة الملتصقة بجمجمته المستطيلة ، يعبر عن اللامبالاة التامة لكل ما يدور حوله . كان هذا الرجل موظفا فى مكتب المنسوب السامى البريطانى الذى يقوم بوظائف ادارة الانتداب فى فلسطين فى الادارة الانجليزية العربية اليهودية المشتركة . ووجه سؤال ما بالانجليزية دون ان ينظر لاحد ودون ان يحدد من المقصود بالسؤال .

لكز اويًا الشرطى الواقف بجوارها فى جنبها بقبضته وترجم السؤال الى العبرية :

- يسألونك ! هل تتحدثين الانجليزية ؟ ردى ! - ولكن حاييم هو الذى رد بدلا من اويًا ، فوضح ان هذه المرأة هى زوجته ، وانها صماء بكماء . كانت اول مرة يجبر فيها نفسه التفوه بهاتين الكلمتين . ثم اضاف بحزن : منذ ولادتها . . . تماما . . . فدمدم الانجليزى وقد فهم ما قاله حاييم :

- هذه المسألة لا تهمنى فى شىء . فلكى تستوطن الاراضى الخاضعة لقوانين الامبراطورية البريطانية لا ابد ان تكون لديك الوثائق التى تعطيك الحق فى ذلك . . . - قال عبارة محفوظة بلهجة رتيبة - من ليس فى حوزته هذه الوثيقة يُرحل من هنا الى الجهة التى جاء منها . وبلاضافة الى ذلك فان الاستيطان فى هذه الاراضى دون الاذن المطلوب يعرض صاحبه لعقوبته السجن حسب قوانين امبراطورية صاحب الجلالة التى تنطبق على اراضى فلسطين الخاضعة للانتداب .

وشحب وجه حاييم ، وراح يفسر للانجليزى باضطراب وقلق

ان زوجته جاءت معه على السفينة المعروفة «ترانس اطلانطيك»  
وانها فقدت كل وثائقها اثناء الاضطراب الذى وقع فى السفينة . . .  
طاف الانجليزى بنظرة شريرة على زائريه ، وظهرت على وجهه  
الاخضر ابتسامة ازدراء وادرك هاييم بوضوح ان مثل هذه الحكايات  
ليست بجديدة على الانجليزى .

وسأل الانجليزى وهو ينظر الى هاييم نظرة ثابتة :

- متطوع ؟

- نعم ! - قال هاييم بفرح ، ولكنه ادرك عندما لاحظ  
ابتسامة الازدراء على وجه الانجليزى ، ان اعترافه هذا جاء بنتيجة  
عكسية ، فاسرع يقول - ولكنى مرضت طويلا . . . وتخلفت عن  
المتطوعين . كنت مصابا بالتيفوس . . . ولو لا زوجتى لهلكت  
فى قبرص منذ زمن طويل . . . هذا حق ، اقسام لك ! هذا هو  
كل ما تبقى لدينا - قال هاييم بوجل وهو يمد فى النافذة المربعة  
فى الحاجز بطاقة السفر والشهادة - انظر من فضلك !

وطاف الموظف بنظرة باردة على الاسطر الاولى ثم القى  
بالورقة فى وجه هاييم باستهتار ، وقال بسخرية :

- اسمع يا فتى ! لا تظن اننى اغبى منك ، اذا كنت لا  
تريد ان نرحل صمءك او بكماءك على اول سفينة الى قبرص . . .  
لقد قلت لك : مطلوب وثيقة باسمها لا باسمك انت ! انت على  
ما آمل لست اصم ؟ من المدهش انك لم تظن بعد الى التظاهر  
بانك اصم او ابكم .

وعاد هاييم يدس بطاقته فى النافذة باصابع مرتعشة ويشير  
الى المكان الذى كان يحوى الخاتم البيضاوى الكبير ، وقال  
متوسلا :

- هنا من فضلك ، انظر هنا يا سيدى ! هنا حيث الخاتم  
ذو التاج . . . لقد وضعوه فى قنصليتكم فى قبرص . . . بوسعك  
ان تتأكد ! هل ترى يا سيدى ؟ هنا !

لم يحرك فى الانجليزى شيئا كون هذا الشاب الاحمر ذى  
الوجه الملىء بالنمش يحاول ان يثبت شيئا ما بعذاب وهو يكاد  
يبكى . فلم يكن الانجليزى شخصا عاطفيا . وعلاوة على ذلك

فقد شهد حالات الهستيريا ونوبات الصرع والاعماء ، وكان معظم ذلك في النهاية ادعاء لبلوغ غرض معين . لقد مل كل ذلك وخاصة المتطوعين ، هؤلاء القوميون المتعصبين . كان الانجليزى واثقا من انهم خطر على التاج البريطانى ، ولذلك اصغى الى حاييم شاردا . واخرج من جيبه ساعة وفتح غطاءها : لم يبق على انتهاء العمل سوى نصف ساعة . وتطلع الى حاييم ببرود ثم مر بعينيه على بطاقة السفر التى كان حاييم لا يزال يدسها فى النافذة ، وفجأة شد الوثيقة نحوه بحدة ، وقطب حاجبيه ، واخذ يتفحص شيئا ما فيها ، ثم طلب الشهادة ، ثم خرج بهيئة مهمومة دون ان يقول شيئا .

وامتدت دقائق انتظار معذبة . وتطلع حاييم مقهورا تعيسا الى حراس النظام الذين كانوا يتأملون مأساته بلا اكتراث ، وعندما رأى النجمة السداسية على صدر احد الشرطيين غلبه اليأس ، فقد داهمه خاطر بان هؤلاء المجانين يمكن ان يفرقوا بينه وبين حبيبته ! وامتقع لونه من هذه الفكرة . وكانت اويًا لا تحول عنه عينيه ، فاندفعت نحوه راكضة . ولكن الشرطيين ابعدها الى الحائط .

وخيل لحاييم انه يرى زوجته آخر مرة . وكان واثقا من انه لن يتحمل الفراق . كيف يمكن ان يعيش وحده ، فى بلد غريب ، وبدون الشخص الحبيب ! . . من بحاجة اليه ؟ نوتسى ؟ سلمونزون ؟ ومن الذى سيدافع عنه ؟ عن اويًا ؟ لا يوجد فى فلسطين شخص كهذا ، فى «ارض الميعاد» . انه وحيد بين غرباء ، بين اناس لا يفهمهم . هناك فى وطنه كان الامر مختلفا . . . كان هناك اصداؤه ! هل كان ايليا توموف مثلا يتخلى عنهما ، عن حاييم واويًا ؟ ابدا ، مستحيل ! ولم يلاحظ حاييم ، عودة الانجليزى الى الحاجز دون صوت ، ولا كيف جلس الى الطاولة وراح ينقل اشياء ما من بطاقة السفر . ودفع الشرطى حاييم فى جنبه فرأى الاخير وثائقه فى يد الانجليزى الممدودة والتى يكسوها شعر غزير احمر ، وسمع كلمات غير متوقعة قيلت بعدم اكتراث :  
- يمكنكما ان تنصرفا . . انتما احرار . . .

وبعد دقيقة كان حاييم واويًا يركضان الى محطة الاتوبيس تحت المطر الغزير متهللين من الفرحة قبل ان يفكرا بعد في اسباب كل ما حدث . وراحا يسيران في الوحل وبرك المياه العميقة والرياح تدفعهما . كانا يرغبان في الابتعاد باسرع ما يمكن عن المشتورا ، عن اولئك الاشخاص المرعبين بلامبالاتهم ، والذين كانوا جالسين هناك خلف الجدران .

كم مرة شعرا بعطف العمة الطيبة بيتيا الحكيم الذي لا يقدر بضمن عليهما خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا . فهذه المرأة الكادحة التي علمتها خبرة الحياة ، هي التي تمكنت من اضافة اسم اويا الى بطاقة حاييم . لقد احست هذه الحكيمة العجوز بقلبها انه ليس من السهل ترتيب الامور في هذه الدنيا كما يخيل احيانا للشباب ، حتى لو كانوا ذاهبين الى «ارض الميعاد» . . . .

وتذكر حاييم انه كاد يشك في الحاخام بن صهيون هاجرا ويعزو ذلك الى رغبته في الانتقام . وها هو الآن سعيد من كل قلبه لعدم صدق ظنونه وقال في نفسه : «ان لديه ايضا بنات ، كما انه حاخام مع ذلك . . . .» .

عادا الى كوخهما البارد مبللين تماما وجوعانين ومقرورين ، ولكنهما سعيدان . وشرعت اويا فوراً في اشعال موقد الكيروسين ، اما حاييم فقرر التوجه الى آل يوناس ليخبرهم بنتيجة زيارته للمشتورا . لم يكن يريد ان تنتابهم الظنون بشأنهما . . . .

وهمست حماة نوتسى وهي تفتح له الباب :

- حاسب ! الا تسمع . . . اتيليا تعطى درسا . . .

واعتذر حاييم وروى لها باختصار قصة زيارته للمشتورا . الا ان النبا السعيد لم يسعد العجوز ، بل وبدا له انه احزنها . واذهل ذلك حاييم ، فاغترت ثانية وهو مضطرب على ازعاجها وعاد ادراجه الى الباب . ولكن العجوز استوقفته وقالت بنبرة غير راضية :

- موليا جاءتكم مرتين . . . . مرتين في مثل هذا المطر !

وهز حاييم كتفيه . لم يكن يعلم عن تتحدث . . . .

فهمست العجوز بعصبية .

- موليا ! موليا . . . الا تعرف موليا ؟ يا للفظاعة ! قل لي من لا يعرفها ؟ من المجر ! ممثلة . . .

تذكر حاييم ان نوتسى قال له ذات مرة ان هناك عائلة من المجر تعيش في الفناء المجاور . وكانت موليا في وقت ما ممثلة ، اما زوجها - الذى اشتدت عليه وطأة المرض الآن - فكان موسيقارا . وقد رأى حاييم ابنيها الجميل ، الصبى ابن العاشرة . واذا كان احد قد جاء في هذا المطر فهو بحاجة الى مساعدة ، ومن ثم ذهب حاييم الى موليا . واتضح ان المرأة جاءت لغرض آخر تماما .  
قالت موليا بعطف :

- لقد خلا مكان عاملة لف الخيط في المصنع الذى اعمل فيه . وقد فكرت بانه ربما ارادت زوجتك ان تعمل . بالطبع ليس هذا عملا رائعا ، ولكنك لن تجد ما هو افضل منه في هذا المكان . اننا نعيش هنا منذ اربع سنوات . . .

لم يجب حاييم بشيء محدد . كان لا يصدق ان اويًا الضعيفة ستتمكن من القيام بهذا العمل ، وهل هى ستوافق اصلا ؟ لم يفكرا من قبل فيما اذا كان من الضروري ان تعمل اويًا ام لا . ولدهشة حاييم وافقت اويًا بسرور على عرض موليا . فقد كانت الحياة صعبة بمرتب حاييم فقط ، اذ كان يكفى بالكاد للطعام واجرة المسكن . وكانا قد ابتاعا منذ فترة قريبة موقد كيروسين ، فبدونه لا يمكن تدبير امور البيت ، واضطرا لمدة ايام الى شراء الخبز بالدين وشرب القهوة بدون سكر . والاستغناء عن اللبن . . . بالطبع كانت اويًا تريد ان تشتري بعض الملابس لحاييم ولها ايضا ، ولكن مهما قلبت الامر كانت تجد انه عليها ان تقضى عدة سنوات في توفير المبلغ المطلوب .

بعد عدة ايام بدأت اويًا العمل في المصنع المملوك لشركة «دلفينر» . واستقبلتها العاملات القدامى هنا بحرارة . وحاولن مساعدتها وارشادها وقد ظنن انه سيكون من الصعب عليها ان تتعلم حرفة جديدة وهى بعد شابة وفوق ذلك صماء بكماء . ولكن اويًا استوعبت بسرعة هذه الحرفة غير الصعبة وقامت بالعمل

بصورة سليمة وبدقة وبدون عيوب . واحبت النساء العاملات اويًا ، وقدرن فيها حبها للعمل وسرعة بديتها وهمتها الفائقة . وذات مرة شعرت بدوار . ولم يعرف احد ما السبب . فقد اخفت اويًا عن الجميع ، بمن فيهم حاييم انها حامل ، خشية الا يسمح لها بالعمل في المصنع . لكن نوبات الدوار اخذت تتكرر ، وعندئذ راحت العاملات يبحثن حتى عرفن انها حامل في الشهر الخامس . . . . واصبح من الصعب عليها الآن ان تدير الآلة يدويا ، ولم يوافق صاحب المصنع على نقلها الى عمل اسهل . قال بصراحة للنساء اللاتي رجونه من اجل اويًا انه بحاجة الى عاملة لف الخيط في المصنع . واذا كان هذا العمل صعبا عليها فلتذهب . ولكن موليا والعاملات الأخريات دافعن عن اويًا بصمود واعلن لرب العمل انه اذا لم يستجب لرجائهن ، فسيذهبن ليعملن لدى زاكس ، صاحب المصنع الآخر المنافس ل«دلفينر» . وكان رب العمل يعرف ان زاكس يحاول منذ زمن طويل ان يجذب اليه افضل العاملات ، لذلك تنازل لهن وحصلت اويًا على عمل اسهل .

اصبحت الآن تقضى النهار في جمع البكر الفارغ ونقله الى المكان المحدد في الورشة ، وفي الكنس والتنظيف . وبالطبع صار اجرها اقل بكثير ، لكن ذلك لم يقعدها عن القيام بواجباتها الجديدة بنفس الحمية التي عرفت عنها .

ومنذ ان علم حاييم بانه سيكون لهما طفل وهو يلح على اويًا ان تترك العمل ، لكنها كانت تهز رأسها نفيا بعناد وتتهم وتنظر لحاييم شزرا . ونزل حاييم عند رغبة حبيبته وهو متألم ، مؤملا انها ستدرك ان عاجلا ام آجلا ضرورة ترك المصنع . اما هي ، وقد ابهجها انتصارها الصغير ، فقد عانقت حاييم وهي تزر عينيها المشعطين ببريق السعادة .

وعندما علمت حماة نوتسى ان اويًا تنتظر طفلا ، اخذت تروح وتجيء في الغرفة طويلا وتردد متدمرة :

- هذه الصعلوكة سيكون لها قريبا كرش كبير ، الا فلينفجر ! . . . وعلى ابنتى المسكينة اتيليا ان تتعذب . . . اى



تعليم علمناها ، وكم تتقن الموسيقى ، ثم هى جميلة ايضا !  
وكم هى مهذبة السلوك ! وكيف تناقش الامور ! ما اشد ما يعجب  
الانجليز بها عندما يسمعونها وهى تعلم ابنتهم العزف على  
البيانو . . . ولكنها لا توفق فى ان يكون لها طفل مهما فعلت . . .  
رغم ان نوتسى لا بأس به . . . شاب قوى ، بشرة طافحة بالدم  
كما يقال . . . يأكل احسن الطعام والده وانفعه . . . على الاقل  
ليس مثل هذا الاحمر المسلول ! يا له من حكيم كبير ! يختار  
زوجة وينوى ان يعيش معها العمر كله دون ان يتبادلا كلمة  
واحدة . . . هذا الأبله ! ولكن من المحتمل ان يأتى ابنها طبيعيا ،  
مع انه . . . بوسع الله ان يهب اتيليا طفلا حلوا كالعسل ، ويعطى  
البكاء مولودا اعوذ بالله . . .

واطمانت العجوز الى اعتمادها على العدالة الالهية واقتربت  
من النافذة المفتوحة ، وحدقت خلال غلالة الغسق المتكاثف وهى  
تراقب حياة سكان الكوخ ، ومضت فى تدمرها :

- سوف نعيش ونرى . . . يقولون ليس هناك اله ،  
ولكن احدا لم يثبت ذلك . لا بد ان هناك شيئا ما رغم ذلك ؟ !  
واذا كانت الامور قد مرت بسلام فى المشتورا بالنسبة لزوجته  
هذا المسلول الجميلة البكاء ، فان هذا ليس كل شىء بعد . . .  
ابدا ! . . .

## ٧

كانت حماة نوتسى التى تهوى اغتياب الجيران ومنتف وبرتهم  
لا تملك الا ان تعترف بين الحين والحين وهى تراقب اويًا من  
النافذة :

- لو فتشت فى كل ركن فلن تجد كادحة مثلها !  
فضاعة ! ! . . . ليست انسانا بل ثور ! كلما نظرت وجدتها تغسل  
او تنظف او ترتب او تكوى . انها مجنونة ، فليهبنا الله انا  
واتيليا ونوتسى صحة كهذه ! . . . - ثم تضيف على الفور بعصبية  
وكانها تندم على ما بدر منها من كلمات طيبة فى حق الفتاة -

ولماذا هي هكذا في اعتقادكم ؟ لان الصم كلهم من حديد . لا بد ان فيهم قوة شيطانية !

كانت حماة نوتسى تفخر بنظافة بيتهم ، ولكنها لم تكن تسهم في اى عمل قدر ، اما ابنتها فقد منعتها عموما من مزاوله الاعمال المنزلية .

وعندما كانت ابنتها تحاول القيام بشىء ما من هذه الاعمال بدافع الملل فى الغالب ، كانت العجوز تزمجر :

- لا تفسدى يديك يا اتيليا ! سيكون بإمكانك ان تقومى بذلك كله عندما يصبح لديك ، ان شاء الله ، طفل ! الم يعدك الطبيب بذلك ؟ ! ليتنا لا نعرف غير ذلك من المصائب . . . . وعموما فعما قريب ستأتى الصماء من العمل . فهل كثير عليها ان تغسل الارضية وبعض الثياب ؟ ! ساهبها شيئا ما . . . كم مرة اعطيتها تارة شطيرة ، وتارة قرصة ، وحتى انت لم تعلمى بذلك . . . .

وكانت اويًا تعتبر نوتسى يوناس وعائلته اصحاب فضل تدين لهم هي وحاييم بالكثير ، ولذلك كانت تقوم بكل ما تشير به عليها العجوز ، حتى لو كانت اشاراتها بعيدة عن معنى الرجاء . اما حاييم فكان بطبعه خدوما . كان بكل بساطة يتناول المكسنة ويكنس الفناء ، ويحمل دلو القاذورات الذى كانت حماة نوتسى تواظب على وضعه على عتبة الباب . وعندما كان يصادف ان يعود الى المنزل مع نوتسى ، كان يحمل عنه كيس المشتريات ، بل ويقول له مازحا :

- لا تمنع يا نوتسى ! فانت على اى حال اكبر منى سنا . . . . باسبوعين !

فكان نوتسى يبتسم بتساهل ، ويترك له الحقيبة وكانما عن غير رغبة . وكان فى الواقع اكبر من حاييم بثلاث سنوات . وكان حاجباه الكشان السوداوان ، المعقودان قليلا عند اعلى انفه ، وعيناه السوداوان الماكرتان قليلا ، وانفه المستقيم ، وشاربه المقصوص على الطريقة الانجليزية ، كان ذلك كله يجعل الكثيرات ، وليس اتيليا وحدها ، يتطلعن اليه باعجاب . وكان عريض المنكبين ،

رشيق القوام . وكان حاييم يبدو بجسده النحيل وخصلاته الحمراء الى جواره مثل مراهق مضحك . وكان حاييم بشوشا وتلقائيا ، يثق في الناس ويتعايش معهم بسهولة ، واحيانا يصبح ثرثارا اكثر مما ينبغي . اما الآن فيبدو وكأنما استبدلوا به شخصا آخر . لقد تبدى له الاخوة المتطوعون اثناء سفره على ظهر «ترانس اطلانتيك» بصورة اسوأ ، على غير ما كان يتخيلهم من قبل . اما القلق النفسى الذى اثارته كارثة السفينة ، فقد حل محله تخمين غامض لكنه يعذبه باستمرار ، حول الاسباب الحقيقية والمتسببين الحقيقيين فى انفجار السفينة ومصرع مئات الاشخاص . اصبح حاييم صموتا وخجولا واقل ثقة فى الناس . وعلى الرغم من انه لم يجبل بفكره اطلاقا ان يستغل سابق معرفته بنوتسى يوناس ، الا انه لاحظ ان نوتسى ، وخاصة فى الفترة الاخيرة ، يحاول ان يفهمه بانه لم يعد نوتسى السابق ، وان علاقتهما الآن ينبغي ان تقوم قبل كل شىء على اساس الاقدمية فى الخدمة .

وفى ايام السبت بصفة خاصة ، عندما كان نوتسى يفرط قليلا فى احتساء «العرق» ، كان يدعى الاهمية ويحاول ان يصور نفسه بانه شخصية بارزة ، مثقلة بالاعباء الجسيمة . ومع ذلك فلم يحل هذا بين حماته وبين ان تفضحه حتى فى حضرة حاييم . فكانت تقول باستياء :

- خبرونى اين رايتم يهوديا سكييرا . . . هه ؟ هذا شىء لم نسمع به ، يا للفظاعة !

وكان نوتسى يلوذ بالصمت ، فلا حيلة له ، اذ كانت العجوز تمتلك مبلغا كبيرا كان يدره بفضل مهارتها دخلا لا بأس به . وكثيرا ما كان يقول لحاييم :

- انت بالنقود انسان ، ومن غيرها لا شىء . . . صفر ! لو اضطررت انا الى ترك مكتب التصدير والاستيراد فجأة فلن اضيع ! افتتح مشروعا صغيرا ونعيش . . . ان حماتى تعرض على ذلك منذ وقت طويل . . .

وفى هذه المرة ايضا انتظر نوتسى بصبر حتى تهدأ نائبة

حماته ، ثم المح بصورة مبهمة الى دوره الخاص في بعض الشئون الخارجية عن مجال الاعمال الرسمية لمكتب التصدير والاستيراد . وكان حاييم قد سمع منه مرارا مثل هذه التلميحات ، ولكن نوتسى صارحه ذات مرة بأنه يعرف علاقة خال سيمون سلمونزون بموسولينى نفسه . وصمت حينذاك عن ذكر اية تفاصيل . اما اليوم ، وبعد غداء السبت الدسم الذى زاد الكحول من لذته ، فلم يطق نوتسى صبرا على كتمان انطباعاته وافكاره التى اثارها «حديث كبير» آخر جرى عند سيمون سلمونزون : فقد كان الرئيس الكبير يهوى الافصاح عن دستوره فى الحياة .

وقال نوتسى وهو يدلف الى مسكن حاييم :

- الاعمال العظيمة لا يمكن انجازها الا اذا وجدت النقود ! ولكن المال وحده لا يكفى ، لا بد من عقل ثاقب . ولكن العقل وحده ، مهما كان صائبا ، فهو لا يكفى ايضا ، تصور ! ففى ايماننا هذه لا بد ايضا من القوة ! القوة الكبيرة المعدة بدقة ! لا بد من قبضة حديدية ! فليس هناك طريق آخر لتحقيق برنامجنا ، ولا يمكن ان يكون . . .

كان نوتسى يوناس يعيد بحماس هذه الاقوال دون ان يدري ان سيمون سلمونزون كان فقط يكرر ما كان خاله يجب قوله . وغمز نوتسى بعينه غمزة ذات مغزى وقال باقتضاب فى النهاية :

- تلك هى احوالنا يا حاييم ! النقود ! والعقل الذكى ! والقوة القادرة على سحق الاعداء السافرين والمستترين لبعث وطننا ! هكذا !

وضحك حاييم بخبث . فيا لها من حكمة تضمنتها هذه الكلمات التى تفوه بها يوناس . من ذا الذى لا يعرف انه من الافضل ان يكون معك نقود ، وانه بدون النقود تسوء الاحوال ، وان العقل الذكى افضل بكثير من الغبى . . . ولم يتبادر الى ذهن حاييم ابدا ان هذه الثرثرة كلها لها علاقة ما بشخصه هو . بيد ان اليوم السابق بالذات ، والذى تحدث فيه اصدقاء سلمونزون

المقربون بحماس حول هذه المواضيع عندما كانوا مجتمعين لديه ، هو الذي رسم منعظا حادا في حياة هاييم فولديتير . وحسبما ادرك هاييم فقد تحدث سيمون قبل كل شيء عن انشاء «قبضة حديدية» يمكن بها في النهاية التحول من الكلام الى العمل .

وقال نوتسي مكررا كلمات سلمونزون بتلذذ :  
- ان الاشتراكيين القومييين لم يتورعوا عن استخدام اية وسيلة لانشاء الرايخ . وعندما ضموا النمسا سلمم الجميع بانهم كانوا قد بصقوا من قبل بكل بساطة على القيود التي وضعتها معاهدة فرساي واسسوا الفيرماخت ثم احتلوا ثانياة منطقة الراين . . . . وفيما بعد علم العالم بدخول الالمان الى تشيكوسلوفاكيا ، ومرة اخرى كادت تهب عاصفة ، ولكنها اصبحت زوبعة في فنجان ، ولذلك سرعان ما شرع هتلر في احتلال بولندا . . . . واذا كان هناك اليوم من يتذكر هذه الاجراءات فما ذلك الا لأن الخطر يتهدد اراضي فرنسا ، بل واذا شئت اراضي انجلترا ايضا ! ان عظمة استراتيجية ادولف هتلر وتكتيكة هي انه ، بالاعتماد على قوة حقيقية ، كان يضع العالم في كل مرة امام الامر الواقع ، تاركا لخصومه فرصة التلويح بقبضاتهم بعد انتهاء العراك والتمرين على التعبير الكلامي عن السخط والاحتجاج والادانة وما اشبه ذلك . . . .

وشرح نوتسي لهاييم سبب خوض سيمون في هذا الحديث على الرغم من انه نادرا ما يتكلم ، ويفضل ان يبقى «خلف الستار» ، ويحب التقاط الجمرات باصابع الآخرين . فمنذ فترة قريبة ، بأمر من قيادة «اكسيونس كوميتي» انفصلت عن منظمة الهاجانا العسكرية الجماهيرية ، مجموعة صغيرة من اكثر العناصر عدوانية . وقد رفضت هذه المجموعة «المنشقة» عن الهاجانا رفضا قاطعا سياسة التقارب مع العرب والانجليز . وبعبارة اخرى فقد عزم انصار هذه المجموعة على مواصلة اعمال التخريب والارهاب ضد الانجليز والعرب ، ولكن مسئولية ذلك لن تقع على عاتق الهاجانا . واصبح سيمون سلمونزون احد اقطاب هذه المجموعة السريين .

ومضى نوتسى يعيد حديث سلمونزون :  
- لقد قال باننا سنتظاهر فقط باننا ساخطون على مواقف الهاجانا وتكتيكها ، ولكننا سنبقى فى السر بكل قلوبنا معها . وهم بدورهم سيتظاهرون ايضا بانهم يدينون موقفنا لتطرفه فى العدوانية ، ولكنهم معنا حتى النهاية . . . اننا نسير الى غاية واحدة بطرق مختلفة يكمل بعضها البعض ! واذا كنا نكتفى الآن بالمطالبة بجزء صغير من اراضى دولتنا القادمة ، فان ذلك لا يعنى اننا فى حال اقامة الدولة والاعتراف بها ، لن نواصل بكل الطرق والاساليب العمل على توسيع رقعتها الى اقصى حد . . . فالمطالبة بالكثير دفعة واحدة تنطوى على خطر فقدان القليل المضمون ! فليس الوقت الآن مناسباً «لاثارة غضب ذكور الاوز» ! بالعكس . . فنحن اذ نطالب بالقليل فانما نضعف يقظة الاعداء ، ونجمع القوى خفية استعدادا للخطوة التالية ، بل وربما للوثبة القادمة ! وعندئذ ، فسواء شاء اعداؤنا ان يعترفوا بحقنا فى ضم اراضى جديدة ام ابوا ، فسوف يكونون آنذاك امام الامر الواقع . . .  
وتوقف نوتسى لحظة عن سرد حديث سيمون ، وابتسم برضى وقال :

- وعند ذلك قلت انا : «المنتصرون لا يحاكمون ، هذا هو قانون التاريخ !» فاكد سيمون على قولى : «هذا صحيح ، ولكن لكى نصبح منتصرين لا بد من اعداد القبضة الحديدية بكل السبل ، دون ان نضيع دقيقة واحدة ! هذا هو واجبنا المباشر ، وهذا ما كلفنا به ، ونحن جميعا مسئولون عن ذلك امام شعبنا المعذب !»  
كان يوناس ، وهو ينهمك فى حديثه اكثر فاكثر ، يتخذ اوضاعا استعراضية ويلوح بيديه ، وكأنه يخطب فى جمع غفير .  
وروى لحاييم باعجاب خاص كيف ان سيمون عندما اشار الى الاحداث الاخيرة فى اسبانيا ، اكد انه لا يوجد ولن يوجد اى قضاء يمكن ان يحاكم موسولينى وهتلر على مساعدتهما للجنرال فرنكو بالطائرات والدبابات ، او يحاكم فرنكو نفسه على استقدام القوات المغربية الشهيرة يقسوتها الى اسبانيا .

ومضى نوتسى يقول بانفعال :

- تصور يا حاييم ؟ لقد ظهر بين الحاضرين مع ذلك اشخاص خافوا من هذه الاجراءات الحاسمة التى رسمها سيمون فى برنامجها ! لدرجة ان واحدا منهم ، وهو رجل كبير السن وقدير ، حاول ان يثبطه . . . فاكد انه ليس من المستبعد ان يأتى اليوم الذى يقدم فيه كاوديليو اسبانيا وفوهرر المانيا ودوتشى ايطاليا الى «المحاسبة الكبيرة» ويقتص منهم على كل افعالهم . . . اتفهم الى اى شىء كان يلمح ؟ ! لقد كان من الممكن الا نهتم بمثل هذا الكلام لو لا ان هذا الشخص بالذات تدرّب على ايدى مدرس موسى موسولينى ، وقام هناك بعمل بطولى فقد فيه ذراعه ! انه لم يقف هذا الموقف عبثا . . .

فقال حاييم مصدقا :

- اكيد ! اذا كنت تقول انه رجل قدير فما الذى يجعله يلقى الكلمات عبثا ؟ . . .

فوافق نوتسى :

- تلك هى المسألة ! اتدرى ماذا قال ايضا ؟

- ذلك الاكتع ؟

- نعم . قال ان مأساوية هذا المستقبل ليست فى ان هتلر وموسولينى وفرنكو وامثالهم من الشخصيات سوف يعاقبون بشدة ، بل ان المأساة هى ان الشعوب التى سمحت بجر نفسها الى هذه المغامرة سوف تدفع الثمن هى ايضا ! . . . واستند فى كلامه الى قول حكيم لاحد الانبياء بان الانسان يعرف فى الظهر كيف بدأ يومه ، ولكنه لن يعرف ابدا كيف سينتهى . . . اما نحن فحسب ادعائه ، ما زلنا فى فجر تحقيق حلم القرون للشعب اليهودى ولم نعش بعد حتى الظهر ، اما الى نهاية اليوم فما زال الطريق بعيدا .  
وسأل حاييم :

- من هو هذا الرجل ؟ ام هو سر ؟

- انه محام . شخصية كبيرة ، ومع ذلك اعتقد ان قيادتنا لن تطبق وجود شخص كهذا بينها . . . فموقفه فى الواقع هو خيانة ! صحيح انه لم ينكر ضرورة العمل على انشاء وطن قومى

مستقل فعلا ، ولكنه تحفظ فورا فقال : «دون ان ننساق الى التطرف ابدا . . .» . وقال ايضا ان الاشياء المبالغ فيها لا داعي لها . وادعى ان خطط «اكسيونس كوميتي» تنطوي على اجراءات متطرفة مبالغ فيها ، وليس من الصعب ان نرى فيها استهتارا بما حذر منه نبينا العظيم موسى ابناء شعبه منذ اثنين وثلاثين قرنا . . .

غطى الزبد اللزج شفتي يوناس الجافتين ، وكان بحاجة الى جرعة ماء ، ولكنه لم يابه بذلك ، اذ كان يتحرق الى ان يروى لحاييم المشهد الذي كان هو بطله .

- ربما ظل هذا الاكتع يجمع طويلا ، داعيا الى الحذر والتأني وغير ذلك ، لكن صبرى نفذ عند هذا الحد . فصحت به اول الجميع - قال نوتسى مؤكدا - «لا تخوفنا ! لسنا من الجبناء ، وحذرك هذا سيجعلنا ننتظر اثنين وثلاثين قرنا اخرى !» .

وروى نوتسى متباهيا كيف ايده جميع انصار سيمون سلمونزون ، وكيف غطوا على صوت المحامي بالدق الرهيب على الارض وبالصياح ، واجبروه - حسب قول نوتسى - على الجلوس مكانه دون ان يكمل حديثه ، وكيف ان الاشخاص الذين يسمون انفسهم عن جدارة المراجعين البيتاريين قد تبنوا في خاتمة المطاف خطا ثابتا لتأييد «الاكسيونس كوميتي» تأييدا تاما ومطلقا تحت شعار : «ما دام السلاح موجودا فليستخدم !» .

وقال نوتسى عرضا انه قضى مع سيمون سلمونزون وبعض الرفاق الليل كله في اتخاذ «اجراءات صارمة» كان من نتيجتها تنحية بعض المتذبذبين من مناصبهم ، كما سيفصل البعض من مكتب التصدير والاستيراد . ولكن يوناس لم يذكر شيئا عن انه قد بحث آنذاك امر شغل المناصب الشاغرة ، وان الحديث دار بهذه المناسبة عن حاييم فولديتير ، هذا المتطوع الذي قضى فترة التدريب ضمن فوج يوسف ترومبلدور . كذلك لم يذكر شيئا عن انه قد كلف «بجس نبض» فولديتير و«تهيئته» واعداده



للمشاركة الفعالة في الاعمال السرية لـ«ارجون تسفاى ليومي» .  
وفهم هاييم من اعترافات نوتسى التالية ان من يقف خلف  
ظهر سلمونزون الجبار ليس والده بقدر ما هو خاله الذى سمع  
به من قبل . اما سيمون فليس الا شخصا موثوقا به ، واحد  
الاقطاب السريين لمجموعة «ارجون تسفاى ليومي» المتخفية بعناية ،  
والمنفذة للخطط الخاصة «للاكسيونس كوميتى» والى حد ما لهذا  
الخال الغامض .

كان من الواضح ان نوتسى يتحاشى الحديث عما سينبغى ان  
تقوم به مجموعة «ارجون تسفاى ليومي» بشكل محدد ، ولكنه اراد  
ان «يجس نبض» هاييم فبدأ يتحدث عن الحدث الذى اثار ضجة ،  
الا وهو غرق «ترانس اطلانطيك» . وربما بسبب عدم الحذر ، او  
تحت تأثير ابخرة الخمر فقد افترط فى الثرثرة وباح باكثر مما  
كان يريد . وادرك هاييم ان الانفجار الذى وقع فى «ترانس  
اطلانطيك» كان من تدبير اشخاص من «ارجون تسفاى ليومي»  
وان هذا العمل الوحشى قد تم بموافقة قيادة «الاكسيونس  
كوميتى» .

وقال نوتسى :

- اتظن انه لم يكن بوسع رفاقنا ان يجدوا لغة مشتركة مع  
الانجليز لو ان المسألة كانت تتعلق بالمهاجرين فقط ؟ هراء !  
بالطبع ليس الامر بهذه السهولة . فهؤلاء الاوغاد ، مهما كان  
الامر ، يعاقبون بقسوة على مخالفة القيود الموضوعية على  
الهجرة . . . ومع ذلك كان الامر سيمر اننى واثق من ذلك !  
- وكان من الممكن تدبير الامر ايضا بالنسبة «للاسمنت» ؟ -  
سأل هاييم وهو يقصد الاسلحة التى اكتشفها الانجليز فى  
براميل الاسمنت .

فاجاب نوتسى بغضب اذ لم يفهم على الفور عم يتحدث  
هاييم :

- اى اسمنت ؟ الاسمنت كان من الممكن نقله على سفينة

• منظمة عسكرية ارامية صهيونية .

شحن عادية . . . وعموما فانت محق . . . لقد رأيت ما كان في تلك البراميل . كانت العنابر مملوءة ! وكم نحن بحاجة اليه الآن ! ولكن ما العمل ؟ ! اضطررنا الى اغراقه . . . اتدرى لماذا ؟ فاجاب حاييم بتردد :

- ربما لكى لا تسلموه للانجليز .

- مضبوط يا حاييم ! الانجليز اعداؤنا ، وليس هناك اى داع لمدهم بالاسلحة ! ولكن ليس هذا كل ما فى الامر . . . المهم هو : من اين جاء هذا السلاح ، وماركة اى بلد يحمل ، ومن يسيطر على هذا البلد الآن !

وتذكر حاييم ان السلاح الذى اخرج الانجليز من عنبر «ترانس اطلانطيك» كان يحمل ماركة مصنع «شكودا» التشيكوسلوفاكى للأسلحة ، وان بعض الركاب ابدوا دهشتهم آنذاك ، اذ كيف وجد هذا السلاح فى سفينة مخصصة لنقل المتطوعين الى فلسطين . وتذكر حاييم ايضا ان الركاب اعربوا ساعتها عن شتى الظنون فى هذا الصدد ، الا ان احدا لم يدر بخلده ان هذا السلاح قد جاء من الالمان مباشرة . . . فهذا غير معقول ابدا ! صحيح ان بعض الركاب ابتسم بسخرية ، ولا شئ اكثر . ولكن احدا سواء من المرافقين لبراميل «الاسمنت» ام نوتسى يوناس نفسه الذى كان يستعد لاستلامها ، لم يكن يعلم ان هذا السلاح مرسل من «الابفر» ، اى من ادارة المخبرات التابعة للاركان العامة الالمانية . فقد كانت هذه المسألة من اختصاص الدوائر العليا للمتطوعين ، وخاصة بعض الاشخاص العاملين فى مكتب الرفيق سلمونزون للتصدير والاستيراد . . .

الا ان نوتسى كان يشعر بمتعة حقيقية فى ان يتباهى امام صديقه باطلاعه ، فباح له فى ثقة ببعض الظروف والاعتبارات التى حتمت اغراق «ترانس اطلانطيك» . اخبره بصفة خاصة ان الانجليز صادروا السفينة والاسلحة المكتشفة فى عنابرها ، وانهم كانوا عازمين عند وصول السفينة الى حيفا لا على مصادرة السلاح فحسب بل واثارة ضجة عالمية حول ورود هذه الاسلحة من المانيا الهتلرية

والبلدان التي تحتلها ، وان ذلك قد تم بالطبع بعلم الزعماء النازيين  
ومخصص طبعا لا لمكافحة النازيين بل لمكافحة الانجليز والعرب .

وقال نوتسى :

- كانوا حتما سيعقدون مختلف المؤتمرات الصحفية ويعرضون  
فيها نماذج هذه الاسلحة باعتبارها ادلة مادية على صلاتنا  
بالنازيين ! . . . فهل تتصور في اى وضع احمق كان رفاقنا من  
«اكسيونس كوميتى» سيجدون انفسهم ؟ ! «فالوكالة اليهودية»  
نفسها موجودة في واشنطن بالذات - صاح نوتسى - ولكننا افسدنا  
كل خطتهم ، فقد اغرقنا الادلة المادية وانتهى الامر ! وعلاوة على  
ذلك ظلت الهاجانا بعيدة عن الموضوع ، ولن يستطيع احد الآن ان  
يثبت علاقتها بهذه القضية ، كما بقى رفاقنا «وراء الستار» . . .  
هل فهمت يا حاييم ؟ اما الانجليز فقد لزموا الصمت ! بالطبع كان  
بوسعهم ان يثيروا ضجة كبيرة حتى بدون الادلة المادية ، ولكن . . .  
كل شىء يمضى وكل شىء يتغير ، وليس من صالحهم الآن ان يفعلوا  
ذلك .

واوضح نوتسى ان الالمان قد ضيقوا على الانجليز بشدة في  
الآونة الاخيرة ، ولذلك فليس من صالحهم الآن ان يؤزموا موقفهم في  
فلسطين ، خاصة وان قيادة «الوكالة اليهودية» في امريكا تؤيد  
فلسطين .

وقال نوتسى مؤكدا .

- لم يعد من صالح بريطانيا الآن ان تؤزم علاقاتنا مع  
العرب ، كما كانت تفعل من قبل ، فهذه العلاقات متأزمة حتى اقصى  
درجة . . . ومفتى القدس ، عميل برلين ، لا ينام هو الآخر ، ويا  
حبذا لو سنحت له فرصة كهذه .

وهذا هو السبب في صمت الانجليز وتظاهرهم بانهم قد صدقوا  
بان الانفجار وقع على ظهر «ترانس اطلانطيك» بالصدفة البحتة . . .  
اربكت اعترافات نوتسى الثمل حاييم تماما . واذله ان  
نوتسى ، وهو يتحدث عن هذه المأساة ، لم يشر بكلمة واحدة الى  
مصرع مئات الابرياء . وافزعه ادراكه بانه هو واويثا كان من الممكن  
ان يلقيا حتفهما كمخلوقين صامتين بائسين لا حاجة لاحد بهما .

ولم يعد يلقي بالا الى معنى العبارات التي ظل يتشدد بها نوتسى ،  
ودون ان يتوقع ذلك من نفسه قاطعه بسؤال بدا كأنما فى غير  
محلّه :

- والناس ؟ كان هناك كثير من الاطفال والنساء ! ام انهم  
ايضا كانوا يحملون ماركة اجنبية ؟ !

نظر نوتسى مستغربا الى حايميم . ثم قطب حاجبيه وظل يفكر  
بجهد عدة لحظات ، ترى عن اية نساء واطفال يتحدث صاحبه ، وما  
دخل الماركة الاجنبية هنا . وعندما ادرك اخيرا تنفس الصعداء وقال  
بنبرة لامبالية :

- تقصد الركاب ؟ . . الانسان لا يستطيع ان يهرب من قدره  
يا حايميم ! لقد كانت المراهنة على اشياء اكبر بكثير من حياة  
افراد . . . وعموما ففى الحياة يكتب على البعض ان يغوصوا الى  
القاع ، وعلى البعض الآخر ان يطفوا على السطح ، وعلى البعض  
الثالث ان يقود ويبقى «وراء الستار» . . . ولو لا هذا الفريق  
الثالث لظللنا جالسين فى الاماكن التي جئنا منها ومنتظر من الله ان  
يبعث الينا بالخلاص . . . وعندئذ ما كنت انا او انت لنكون هنا ،  
ولما التقيت انت باويثا ، ولما حصلت على عمل فى مكتب التصدير  
والاستيراد ، بل ان المكتب نفسه ما كان ليوجد قط ! . . اتسألنى  
لماذا اتحدث هكذا ؟ حسنا ، ساجيبك . انا انسان غير متكبر ،  
ولكنى اريدك يا حايميم ان تفهم كل شىء كما ينبغى !

اخيرا شرب نوتسى فنجان القهوة الذى قدمته له اويثا بعد ان  
برد ، وتنفس الصعداء ، ولكن يبدو ان نشوة السكر لم تفارقه  
ولم تشبع حاجته الى الكلام ، لذلك فقد توقف امام حايميم بعد ان  
تمشى قليلا فى الغرفة ، وقال وهو يحدق فيه مباشرة :

- تصور مثلا لو ان نشاط شخص مثل تبليتس لم يكن مخفيا  
«وراء الستار» ؟ ياله من شخصية ! لن تجد فى العالم كله عملاقا  
مثله سوى واحد او اثنين . . وحسب ! وانت ، هل سمعت هذا  
الاسم من قبل ؟ هل تعرف من هذا الرجل ؟  
فقال حايميم بسخرية :

- ومن اين لى ان اعرفه وهو «خلف الستار» ؟ !

- انت شخص ريفى يا حاييم ! ولكن لا بأس . . . ساجعل  
منك انسانا ! اسمع اذن . . . ان تبليتس عملاق ، عملاق اسطورى !  
ينبغى ان تعرف ذلك . . .

لم يبالغ يوناس تقريبا . فقد كان تبليتس بالفعل شخصية  
فذة وذا سطوة كبيرة حتى بين عمالقة اصحاب المال القلائل . فقد  
استطاع فى حينه ، وخلال فترة زمنية قصيرة جدا ان يغطى سلسلة  
جبال الالب ، بانهارها وبحيراتها العديدة بشبكة كثيفة ومعقدة من  
محطات توليد الكهرباء المائية بتوربينات الجهد العالى . ونتيجة  
لذلك اصبحت ايطاليا ، التى كانت تعاني فى السابق من نقص  
شديد فى الطاقة الكهربائية ، مستعدة لتصديرها الى الدول المجاورة .  
وتحررت الصناعة الايطالية من ارتباطها المرهق باستيراد الفحم  
الحجرى من الخارج . واصبح جوزيبى تبليتس وابنه لودوفيكو  
المالكين الحقيقيين لاهم ميادين اقتصاد البلاد . وبالطبع فقد ازداد  
نفوذهما السياسى بما يتناسب وسيطرتهما الاقتصادية . . . . وقبل  
ان يزحف زعيم القمصان السود المقبل برجاله من «فاشىو دى  
كومباتيمنتو» \* من ميلانو الى روما بوقت طويل ، كان البنكير  
جوزيبى تبليتس يمول له جريدته «يوبلو ديتاليا» ثم اصبحت فيما  
بعد الخبير المالى الاول «للامبراطورية الرومانية الشرقية» .

ومضى يوناس يسرد باعجاب مزيدا من المعلومات التى تؤكد  
جبروت اسرة تبليتس ، وارتباط بنيتو موسولينى نفسه بها ،  
وصداقته الشخصية مع جوزيبى ولودوفيكو تبليتس .  
وفجأة انفجر حاييم وقد نفذ صبره :

- فليذهب الى الشيطان آل تبليتس هؤلاء ! الاغنياء فى العالم  
ليسوا قليلين . واذا كانوا اشخاصا اذكياء كما تقول فلن يفيدنا  
هذا او يضرنا . اليس كذلك يا نوتسى ؟  
حملق نوتسى يوناس فى حاييم ببلادة ، وصمت طويلا ، ثم  
قال اخيرا بصوت خافت وهو يتنهد ، وكأنه يحدث نفسه :

\* «مقاتلو الحزب الفاشى» .

- اخشى الا يكون هذا المتطوع ريفيا حتى النخاع فحسب ،  
بل واسوأ من ذلك بكثير . . .  
انزعج حاييم . لقد احس في هذه العبارة التي قالها نوتسى  
عفوا بنبرة جفاء ، بل وعداء نحوه من شخص كان يعتبره صديقه  
المخلص .

فقال حاييم متوسلا :

- لا تغضب يا نوتسى ! لقد قلت ذلك دون قصد والله !  
ان كل ما رويته شيق جدا ، ولكن ما يهمنى اكثر هو مصيرى انا ،  
والاهتمام بلقمة الخبز . لذلك قلت انه لا شأن لى بآل تبليتىس  
هؤلاء . . .

فقاطعه نوتسى بغضب :

- تصور اذن ان لك شأننا مباشرا «بآل تبليتىس هؤلاء» ! شأن  
مباشر جدا !

- اعذرنى ولكنى لا استطيع ان افهم ، والله !  
- اعتقد انك ولدت في قطار بضاعة . . . كل شىء يصل الى  
فهمك متأخرا ! .

- لم تقول ذلك ؟

فقال نوتسى غاضبا :

- اقول ذلك لانه لو لا جوزيبى ولودوفيكو تبليتىس هؤلاء ،  
لظلمت انت واويا جالسين في «نقطة التجمع» نصف جائعين تنتظران  
متى يأخذونكما اخيرا الى احد الكيبوتسات (المستوطنات) على الحدود  
مع سوريا ، حيث يعملون نهارا في الحقل دون ان يرفعوا قاماتهم ،  
وليلا يقفون بالبنادق للحراسة وهم يرتعدون رعبا خشية هجوم  
مباغت من البدو !

فقال حاييم بصوت خافت :

- اننى مدين لك بالشكر غير المحدود على احضارك لنا الى  
هنا . وانت تعلم ذلك . ولكنك لا تفصح دائما عن اشياء ما . فاننى  
لا افهم حقا يا نوتسى لماذا ينبغى ان اكون مدينا لمن يدعى تبليتىس  
على معروف فعلته انت لى ؟ ! والله ، هو كذلك فعلا يا نوتسى !  
فهتف نوتسى :

- ذلك لان جوزيبي تبليتس هو جد سيمون وابنه لودوفيكو  
خاله ! آمل ان تكون قد فهمت الآن .

حك حايم قفاه ، وقطب جبينه ، وهز كتفيه ، ثم قال :  
- ربما كنت قرويا فعلا يا نوتسى ، ولكنى اعترف لك  
بصراحة اننى حتى الآن لا افهم كيف يمكن ان يكون اشخاص مثل  
جوزيبي ولودوفيكو اقارب مقربين لسيمون سلمونزون ؟ !  
لا افهم ابدا ! . .

وجن جنون نوتسى من الغيظ ، وراح يروى لحايم بضيق  
صدر كيف ان تبليتس الشاب الذى لم يكن حينذاك جوزيبي هاجر  
بعد احدى المذابح من جاليسيا وتشرد طويلا حتى جمع رأس مال  
وتحول الى جوزيبي تبليتس .

وقال حايم بدهشة لا تخلو من اسى :  
- وما الذى يحدث الآن ؟ اعداء السامية يضربونه واذا به الآن  
شريك الفاشست ؟

فتنهذ نوتسى وقال :

- كيف ستعمل فى منصبك الجديد ، لست ادرى . . . احيانا  
تناقش بصورة عاقلة ، وتفكر كشخص طبيعى تماما ، وحيانا  
تتفوه بأشياء بليدة ! . . هلا اخبرتني ما اهمية ان يكون شخص ما  
فاشستى والاخر يهودى اذا كان كلاهما يستفيدان اكبر فائدة من  
صفقة متبادلة ؟ ام تراك تظن ان الاسلحة تسقط علينا من السماء ،  
واننا نجتمع الجنيهات والدولارات كما يجمع نبات الفطر فى الغابة ؟  
ينبغى ان تحرك ذهنك قليلا ايها المتطوع حايم بن اسرائيل  
فولديتير !

احس حايم وكأنه تلميذ ادخلوه خطأ اكاديمية التجارة .  
فأخذ يصغى باذعان ولم يدهش عندما راح نوتسى ، على سبيل  
المثال ، يذكر اسماء بعض مديرى البنوك الضخمة فى اوربا ، وفى  
ايطاليا بصفة خاصة ، مثل البرتو ادلر وتشيزارى جولدمان .  
وقال نوتسى متسائلا بتهكم :

- ربما ظننت انهما رومانيان خالصان ؟ كلا البتة ! انهما من  
رجالنا . ومن هو فى رأيك رجل الاعمال المالى المعروف كاستليونى ؟

انه ابن حاخام ترييست . . . نعم ، تخيل ذلك وبالمناسبة فان  
ايساي ليفى يراس ادارة اشهر المصانع الحربية الايطالية  
«انسالدو» . . . ولكنه للحقيقة لم يغير «ماركته» ! وعلى فكرة ،  
فلا بأس ان تعرف ان سيموننا لم يصبح سلمونزون الا هنا ، اما  
والده الذى يعيش الآن فى رومانيا فقد اتخذ اسم سالومسن منذ ان  
كان فى فيينا مفوض رجال الصناعة فى الروهر ومدير «دويتشه بنك»  
هناك ، وهو الآن فى احسن حال !

لم يعد حايم يدعش لشيء ولم يسأل عن شيء خشية ان يفصح  
عن سداجته مرة اخرى ويكشف عن «قرويته» . اما نوتسى فقد  
ظن انه تمكن اخيرا من اقناع حايم فانهى حديثه بنبرة انتصار :  
- والآن هل تتخيل اية ادمغة تفكر من اجلى واجلك ؟ لا تحمل  
هما يا حايم ، فكل شيء يتم هنا على اساس محترم ! وليس صدفة  
ان يقول سيموننا منذ ايام انه ليس ببعيد ذلك اليوم الذى سيسيطر  
فيه ذوو القمصان الزرق من رجال «ارجون تسفاى ليومى» على اراضى  
فلسطين من الفرات الى النيل ! . . هل فهمت الآن ايها القروى  
البيسارابى ؟ !

فهم حايم . فهم ان ذوى القمصان الزرق الذين يراسهم  
سيمون سلمونزون فى فلسطين ، مثلهم مثل ذوى القمصان السود  
بزعامه الدوتشى الايطالى ، وذوى القمصان البنية بزعامه الفوهرر  
الالمانى ، وعصابات زعيم الفرق الرومانية الفاشية خوريا سيما ، التى  
كان افرادها يخطرون فى قمصانهم الخضراء ، يعربدون دون ان يرحموا  
احدا مستخدمين المفرقات والرصاص والخناجر . . . وفهم ايضا  
انهم جميعا اقرباء وان وراء ظهورهم تقف بالفعل «ادمغة» مثل صاحب  
الملايين تبليتس . . فهم حايم ذلك وروع . . .

## ٨

كان حايم فولديتير حتى فترة قريبة جدا يشك فيما يقوله  
نوتسى يوناس حول خطط اقامة دولة يهودية تضم عدة ملايين . وكان  
يقول لنفسه : «عن اية دولة ذات انهار من حليب وشيطان من مهلبية



يمكن ان يدور حديث جدى اذا كان لا يوجد هنا حتى مرحاض عادى ؟»  
ولكنه يراجع نفسه فورا فيقول : «بالطبع ان امثال سلمونزون  
يعيشون فى هناع ! منزل كالقصر ، وسجاد وخدم وتليفونات  
وسائقون . . . ترف ! بالنسبة لهم فهذه جنة على الارض حقا . . .  
وبوسعهم ان يعيشوا ، لم لا ؟!» .

ولم يكن حاييم يعلم شيئا عن النشاط السرى للقيادة  
الصهيونية التى انشأت شتى المنظمات السرية . ولم يكن يعلم ان  
هذه المنظمات تملك شبكة واسعة من العملاء فى الاوساط الحاكمة  
والدوائر الحكومية فى كثير من بلدان العالم . ولم يكن يعلم الغرض  
الحقيقى لمكتب التصدير والاستيراد الذى اصبح موظفا فيه منذ  
الايام الاولى لوصوله الى فلسطين .

وثناء ذلك كانت المنظمات الصهيونية السرية توسع بفعالية  
يوما بعد يوم نطاق نشاطها الرامى الى اقامة «وطن قومى» يهودى  
فى فلسطين . وخصص مكان خاص فى نظام هذه المنظمات لقسم  
العمليات الخاصة التابع لاركان الهاجانا ، والذى كان يقوم بدور  
الادارة السياسية السرية ويعمل على تجميع المعلومات . وقد حصل  
هذا القسم منذ سنتين عن طريق اشخاصه الموثوق بهم على وثيقة  
تحمل عبارة «Strictly confidential» \* من الموظفين البريطانيين  
فى «المفوضية السامية لشئون الانتداب فى فلسطين» .

واشارت الوثيقة الى قرب وصول مراسلين اثنين لجريدة  
«برلينر تاجبلات» الالمانية الى فلسطين .

ولم يعيروا فى لندن اهمية خاصة لهذه الزيارة القصيرة التى  
سيقوم بها الالمانى . ولكن رجال قسم العمليات الخاصة التابع  
للهاجانا والاركان الخاصة «للماساد» \* الخاضعة مباشرة للادارة  
السياسية «للكالة اليهودية» اهتموا بهذا الخبر .

لقد اعيد مؤخرا تنظيم قسم الهاجانا هذا الذى اصبح يعرف الآن  
باسم «شبيروت لى اسرائيل» ، وسمى للتمويه اختصارا «شائى» .

\* سرى جدا .

\*\* جهاز المخابرات السياسية الصهيونى المسئول عن تهريب المهاجرين  
والاسلحة الى فلسطين .

وبناء على طلب من مديره روفيم شلواح ، الذي كان الى فترة قريبة ضابطا في «الانتلجنس سرفيس» حصل الانجليز العاملون في «المفوضية السامية لشئون الانتداب في فلسطين» من زملائهم في لندن ، الذين كانوا بدورهم يستقون معلوماتهم من اشخاص يعملون في المخابرات الالمانية حصلوا على معلومات بان كلا المرسلين المتوجهين الى فلسطين ليس لهما اية صلة بصحيفة «برلينر تاجبلات» . وقد وردت برقية شفرية اضافية من لندن وعليها عبارة «Top secret» \* تضمنت معلومات مفصلة للغاية عن المرسلين . واستعدوا في فلسطين بكل عناية وبمشاركة مباشرة من قادة «الماساد» و«شائي» لاستقبال الضيفين الاجنبيين . ومنذ ان هبط الالمانيان الى «ارض الميعاد» صاحبهما مندوبو هاتين المنظمتين السريتين ، سواء عند تفقدهما حيفا ام في زيارتهما لتل ابيب ام اثناء تجولهما في حارات يافا الملتوية القذرة . وهنا تشعب طريق «الصحفيين» الالمانيين : فقد اتجه احدهما الى القدس لكي يصور المعابد القديمة والاديرة ، وخاصة الحجاج الوافدين من شتى انحاء الكرة الارضية لتحية «تابوت الرب» . وكان «الصحفي» يتحدث عن ذلك بسرور لدى كل فرصة سانحة ، ويتكتم بالطبع هدفه الرئيسي الا وهو الالتقاء برجال امين الحسيني مفتي القدس ، الذي كانت برلين تعلق عليه امالا كبيرا بمناسبة قرب تنشيط «الطابور الخامس» في هذه المنطقة .

اما «الصحفي» الالمانى الثانى ، وهو رجل نحيل شاب ، اشقر فقد استقل اتوبيس خطوط الى شاروا ، وهى مستعمرة المانية صغيرة غنية . وكان المستوطنون الذين استقروا هنا منذ امد طويل يعتزون بالدير القديم وباقتصادياتهم المنظمة جيدا ، وبتمسكهم بالعادات والطقوس القومية القديمة . الا ان الضيف الشاب لم يتوقف هنا طويلا ، وفي اخر النهار رحل الى القدس حيث كان عليه ان يلتقى بزميله . وبات ليلته في الطريق في بلدة صغيرة هادئة استوطنها مهاجرون يهود جاءوا من اوربا منذ فترة قريبة .

\* سرى للغاية .

ارتدى «الصحفي» الشاب سترته وتمدد باستمتاع على السرير العريض المريح . ولكنه لم يتمكن من النوم ، فقد دق الباب ، ودلف على الفور ثلاثة اشخاص . كان هؤلاء عملاء قسم العمليات الخاصة للهاجانا . وكان مندوب «شيروت لي اسرائيل» طويلا وشاب الملامح ، وخلف زجاج نظارته السميك اختفت عينان خضراوان . وبرزت سوائفه البيضاء بجمال لون وجهه الداكن . واعلن بلهجة برلينية خالصة ان ضيف فلسطين المحترم ليس هو الشخصية التي يحاول ان يتقمصها ، وان الهدف الحقيقي من مجيئه الى فلسطين لا علاقة له البتة بالصحافة . . .

- هذا استفزاز حقير ! - صاح «ضيف فلسطين المحترم» بغضب - اننى احذركم من ان مثل هذه الدسائس تجاه رعايا الرايخ الالمانى العظيم لا تمر دون عقاب ! . . .  
ابتسم رجال الهاجانا بوقاحة وهم يتفحصون «الصحفي» الاشقر . وبقي احدهم عند الباب ، وبرز جيب سترته الايمن بشكل واضح الدلالة .

وقال مندوب «ثنائى» :

- سواء اردت ام لم ترد فسيكون عليك ان تسمعنا . وهكذا فنحن نعرف كل شىء عنك . . . مثلا نعرف انك ولدت في زولينجن في التاسع عشر من مارس عام الف وتسعمائة وستة . واسمك هو ادولف ، واسم عائلتك ليس ايكمان كما هو مكتوب في جواز سفرك ، بل ايخمان . اليس كذلك ؟

لزم الالمانى الصمت وهو يصغى بقلق الى نبرة رجل الهاجانا المتسللة .

- ليس من صالحك بالطبع ان تأتى الى فلسطين باسمك الحقيقى يا هر هاوبتشار فوهرر اس . اس ايخمان . وعلاوة على ذلك فما دخل الصحافة هنا اذا كنت تعمل فى احد اقسام ادارة الامن ، او (الاس . د .) وتنشط بنجاح فى الكشف عن الماسونيين ، اليس كذلك ؟

كان الالمانى يبدو فى الظاهر بارد الاعصاب ، اما فى الحقيقة فكان يشعر بقلق متزايد بعد كل كلمة وكل جملة يقولها محدثه

الوقح ، باستثناء العبارة الاخيرة التي تلقاها فجأة بزفرة ارتياح خفية . فقد كانت المعلومات عن عمله في قسم مكافحة الماسونيين قديمة رغم انها كانت مطابقة للحقيقة . فهو منذ عامين تقريبا يراس الادارة المكلفة «بوضع حل للمشكلة اليهودية» .

لم يكن في البرقية الشفوية التي تضمنت بيانات عن رجل الاس - اس ادولف ايخمان حتى مجرد اشارة الى هذه النقطة البالغة الاهمية . وقد اغفلها الانجليز الذين كتبوا البرقية عن قصد . فقد كانوا يعلمون مسبقا ان المعلومات عن الصحفى المزعوم من جريدة «برلينر تاجبلات» مخصصة ل«شيروت لى اسرائيل» ، وانها قد تصبح في متناول العناصر المتطرفة فى الهاجانا . . . فكيف سيفسر الانجليز فيما بعد ، لو وقع تجاوز ما ، منحهم ايخمان تأشيرة دخول الى فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطانى ؟ وبلاضافة الى ذلك فقد كانت الظروف انذاك لا تجعل من صالح لندن ان تؤزم علاقاتها بالمانيا .

وعندما ادرك ايخمان ان مقتحمى غرفته لا يعرفون عنه اهم نقطة هدا قليلا ، ومع ذلك لم يكن يعرف كيف يتصرف مستقبلا ، وأخذ يخمن كيف ستكون نهاية هذا كله . كان فى الواحدة والثلاثين من عمره فقط ، ولم يعمل فى الاس . د . الا منذ اقل من ثلاث سنوات ، وخلال هذه السنوات لم يغادر حدود الرايخ .

وخلافا عن الالمانى كان محدثوه اللحوحون اساتذة فى مثل هذه الاعمال . . . تطلع مندوب «شيروت لى اسرائيل» بسخرية الى وجه ايخمان الذى كان يبدو هادئا فى الظاهر ، ومضى ، كما فى السابق ، بنبرة متسللة وبفواصل قصيرة ، يمارس الضغط عليه بجرعات متزايدة . فذكر ايخمان بان اياه جاء به صغيرا من زولينجن الى لينس وانه انهى هنا المدرسة الابتدائية بصعوبة ، ودرس اربع سنوات فى المدرسة الثانوية التكنيكية ، ولم يتردد الا عامين فقط على المعهد الصناعى الاتحادى الذى كان يعد مساعدى المهندسين الكهربائيين . وقام ايخمان الاب ، وكان آنذاك مدير «شركة الترام الكهربائى» فى مدينة لينس بتعيين ابنه ، وكان فى التاسعة عشرة ،

بانعا بشركة للمعدات الكهربائية . وبعد عامين استقال ادولف ايخمان من العمل ورحل الى فيينا .

وذهل ايخمان من القائمة الطويلة والدقيقة التي ذكرها محدثه المجهول للاشخاص الذين اما صادقهم او كان يختلط بهم احيانا . وكان من بينهم يهود يذكرونه بالخير - كما اكد هذا الضيف الثقيل - وخاصة اباه الذي كان مشهورا في لينس بـ«اليكترو - ايخمان» ، وما زال يعيش في المنزل رقم ٣٢ بشارع لاندشتراسي . اصغى ايخمان في صبر وهو يشعر بتزايد القلق مع كل لحظة . وعصر الخوف الجنوني قلبه ، وراودته الرغبة في ان يغمض عينيه ويدس رأسه تحت الوسادة فلا يسمع هذا الصوت الرقيق الذي يدفع بالقشعريرة في بدنه . ولم يخنه حدسه : فقد دسوا اولا تحت انفه بصفحة مصفرة من القدم من جريدة مدينة لينس ، وبها صور لوالده وهو يحضر كضيف شرف في الهيكل الرئيسي بالمدينة . ثم اجبره معاونا مندوب «شائي» الاشيب الصامتان على قراءة التحقيق الصحفى المنشور عن منح السلطات النمساوية جائزة كبيرة لرئيس الطائفة اليهودية المحلية بنيدىكت شفاجر ، الشخصية المعروفة في المنظمة الصهيونية بمدينة لينس . وقرأ ادولف : «وقد القى اوتو ايخمان كلمة تحية في الاحتفال نيابة عن البلدية والكنيسة المشيخية» . نعم كان ذلك والده . . . وادرك ايخمان انه وقع في فخ لا يرى منه مخرجا حتى الآن . اما ذلك الصوت المتسلل الرقيق فمضى يسرد لحظات مشهودة من حياة الآرى الاصيل ايخمان . واتضح انه كان ضالعا في قضية «حساسة» للغاية تمتد جذورها الى ما وراء المحيط . ليس هذا فحسب . . . بل والى السجل الخاص «للوکالة اليهودية» . صحيح ان ذلك حدث عندما كان ايخمان شابا يعمل في مكتب فرع شركة «فاكوم اويل كومباني» الامريكية في النمسا . وقد حصل على عمله هنا بمساعدة مباشرة من بنيدىكت شفاجر المذكور . وكانت هذه الرعاية تبدو في الظاهر كأحد فروض الشكر لـ«اليكترو - ايخمان» على الحفاوة التي لقيها هو - شفاجر - اثناء الاحتفال الاخير ، ولكنها كانت تستهدف غرضا خفيا عن غير المطلعين على شئون الدوائر الصهيونية العليا .

كانت تلك ايام سارة بالنسبة لايمان ، وفي الوقت نفسه محزنة . ففي كل انحاء النمسا ، وخاصة في القسم الاعلى منها ، اخذت تتكاثر الجماعات القومية الاشتراكية كما ينمو الفطر بعد المطر . وقال بنيديكت شفاجر المحترم آنذاك : «ينبغي ان يكون لنا رجالنا حتى في بلاد الاعداء . وكلما كان عددهم اكبر توصلنا الى هدفنا اسرع واسهل . . .» .

واصبح ادولف ايمان الشاب «احد رجالنا» المندسين في جماعة من هذه الجماعات .

وبعد ذلك بفترة طويلة ، عندما ادت بعض علاقات ادولف ايمان الخارجة عن اطار الصفقات التجارية لشركة «فاكوم اويل» الى القاء ظلال الشك عليه ، اضطر القنصل الالمانى في لينس ، السيد ديرك فون لانجن ، الى الدفاع عنه ، ولم يخل الامر ايضا من تدخل بنيديكت شفاجر المذكور . وبالطبع فقد كان لتأكيد القنصل بان ايمان يعتبر عضوا مثاليا في الحركة القومية الاشتراكية السريية الدور الاكبر في تبرئة ايمان ! وظل سرا بالنسبة للجميع ان ادولف ايمان نفسه ، وبايعاز من الاشخاص الموثوق بهم في اوساط رئيس «الطائفة اليهودية» بمدينة لينس ، كان في الوقت نفسه عضوا في المنظمة النمساوية الالمانية المعادية للماركسية .

وفي اول ابريل عام الف وتسعمائة واثنين وثلاثين ، التحق ايمان ، ظاهريا حسب رغبته الخاصة ، وعمليا بايعاز من رعاته في «فاكوم اويل كومبانى» بالحزب القومى الاشتراكى و«Schutzstaffeln» \* واخذ يخطر اسياده الحقيقيين سرا بالاوزاع في «اس . اس . شتاندارت ٨٩» \* الذى الحق به ، ويمدهم بالمعلومات عن افراده وروحهم المعنوية وتسليحهم والاعمال التى يزعمون القيام بها . وقد اسياده السابقون هذه الخدمة حق قدرها . . .

وعندما روى مندوب «شירות لى اسراييل» كل هذا ، لم يشر

\* فصائل الحراسة التابعة للحزب النازى ، والمسماة اختصارا :

اس . اس .

\*\* لواء الاس . اس .

بالطبع الى ان بنيدىكت شفاجر ، الذى دبر هذه العملية قد كوفىء  
هو ايضا مكافاة سخية من زملائه الامريكيين فى «فاكوم اويـل  
كومبانى» . . . فقد كان من الضرورى ان يظل هذا الجانب من علاقات  
رئيس «الطائفة اليهودية» . بمدينة لينس «وراء الستار» . . .  
وقال رجل الهاجانا :

- لقد استمر نشاطك هذا عمليا حتى اول اغسطس عام ثلاثة  
وثلاثين ، ثم صدر امر من جاوليتز النمسا العليا البارتناي  
جينوسى \* بولليك بالرحيل الى معسكر ليشفيلد للتدريب  
العسكرى . . . اليس كذلك ؟ والآن الكلمة لك يا هر ايخمان . . .  
ولعلك تدرك انه على هذه الكلمة يتوقف مستقبلك ، وفى الغالب  
ليس مستقبلك فقط !

كان رجال قسم العمليات الخاص التابع للهاجانا ، والمدربون  
جيدا على عمليات الابتزاز السياسى يبسطون بحساب المعلومات  
التي تفضح الالمانى . وكانت اكثر من كافية . . .

وفى هذه البلدة اليهودية الصغيرة بدأ فوهرر الاس . اس .  
الصغير يدرك ان كل هذه البيانات «الصغيرة» عن حياته يمكن ان  
تلعب دورا كبيرا جدا فى مستقبله اذا وصلت الى الدوائر المعنية  
فى الرايخ . . . عندئذ فليقل لحياته الوداع ! ولن تشفع له  
الكلمات البليغة عن انه «ذو معارف هامة فى مجال تخصصه» والتي  
سجلت منذ عامين فقط فى بطاقته الخاصة المحفوظة فى خزانة غير  
قابلة للحريق فى هيئة اركان الاس . د . فى برلين .

احس ايخمان فجأة بخوف طاغ هنا ، وهو بعيد عن المانيا التي  
كان فيها ، وسط اناس له السلطة المطلقة عليهم . وادرك انه  
وقع فى فخ .

كانت فترة الصمت التي حلت شديدة الوطأة عليه . وكان  
ادولف ايخمان يبحث عن مخرج من وضعه اليائس .  
واخيرا لفظ :

- الامر كذلك يا سادة . . . كل هذا صحيح . ولكن ايخمان

\* الرفيق فى الحرب .

السابق لم يعد موجودا . وهذا ايضا صحيح . . . ان من يقسف امامكم هو ايخمان المثالي ! وانتم ايضا ، كما اعتقد ، مثاليون . وصدقوني ، هذا شيء سار جدا . لدينا اشياء كثيرة مشتركة . وليس هذا مجرد ذكر حقيقة ، بل هو امر مبهج ! فلو كنت يهوديا لاصبحت بلا ادنى شك صهيونيا من اشد المتحمسين . . .

كانت هذه الاجابة جديرة بالاهتمام ، فقد ادى رجل الاس . اس . ايخمان بعض الخدمات للصهيونية من قبل . ومما استمال زوار الليل ايضا تلك النبيرة المسالمة التي قال بها ايخمان هذا الاعتراف . والتقط ايخمان هذه الثقة التي ظهرت نحوه فالتقى بمهارة باوراقه الرابحة المجربة ، اذ نطق متباهيا ببضع كلمات باليديش ، ثم قال عبارتين او ثلاث بالعبرية من تلك التي حفظها عندما كان يختلط كثيرا باليهود العاملين في «فاكوم اويل كومباني» . ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي يلجأ فيها ايخمان الى مثل هذه المناورة . فمنذ حوالي اربع سنوات وصل الى النمسا سرا الرايخ فوهرر اس . اس الجنرال هيملر لتفقد مدى الاستعداد القتالي لرجال الاس . اس . النمساويين من «الفرقة السوداء» . وعند ذاك اقسم له ايخمان يمين الولاء وادهشه واسره باستعراضه لمعارفه «الواسعة» بلغة ذلك الشعب الذي اعتبرته النازية العدو «رقم واحد» .

ومنذ ذلك الحين صعد نجم ادولف ايخمان عاليا . ولكن بمجيئه الى فلسطين ، حيث التقى لسوء حظه البالغ ، باناس يكادون يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة وكل ما حاول ان يخفيه ، احس بامكانية حقيقية لان يهوى من ذلك «الارتفاع» الى الهوة السحيقة . ولكي يكسب بعض الوقت للتفكير في الخطوة التالية وجد من الصواب ان يلمح الى انه لو حدث له او لزميله سوء خارج حدود الرايخ الثالث ، فان ذلك سيؤدي حتما الى اتخاذ اجراءات خطيرة ضد اليهود . فهل مثل هذا الامر لا يثير قلق اخوانهم في العقيدة ؟

فاجاب رجل الهاجانا ببرود وصفاقة : اذا توفي الهر ايخمان فجأة بالذبيحة الصدرية او بضربة شمس في بلدة غير معروفة في فلسطين ، واعدم لهذا السبب الرهائن اليهود الابرياء ، فلا اظن ان ذلك سيخفف عن ايخمان في شيء .



وسأل ممثل «شائى» بينما عبرت عيناه عن التعاطف المخلص مع محدثه بل وعن الحزن :

- اليس كذلك يا هر ايخمان ؟ ولذلك الا تظن ان الوقت قد حان اخيرا للانتقال الى الحديث العملى ؟  
فسأل ايخمان :

- وماذا تريدون منى يا سادة ؟  
- شىء تافه . . . وعلى قدر فهمى فان عرضنا سيكون ذا فائدة لك ولألمانيا . . .

- كلى انتباه يا سادة ! ولكنى اريد ان اقول لكم مسبقا انه اذا كان الامر الذى تريدون اشراكى فيه سيعود بالفائدة على الرايخ الالمانى العظيم ، فسوف ابذل بالطبع ما فى وسعى . . .  
فجاء الرد الهادى على وعده الملتهب :

- لا ضرورة يا هر ايخمان للتأكيدات والعهود . فكما تدرك الآن لدينا ضمانات اقوى من ذلك بكثير . وانا على ثقة من اننا سنتفق . . . لقد وعد القيصر غليوم فى زمانه الدكتور هرتزل بتأييد انشاء «الوطن القومى اليهودى» ، اذا ما اصبحت اراضى فلسطين محمية المانية . وقد عارض الانجليز ذلك . اذ كانوا يخشون ان تصبح المانيا امبراطورية اقوى مما كان يريد لوردات داوننج ستريت . . . اما الآن فاننا واياكم نستطيع تحقيق الكثير ! ولكننا بحاجة الى السلاح من اجل هذا ! ونحن نريد ان تساعدنا فى الحصول عليه من المانيا . . . فبريطانيا هى العدو المحتمل للرايخ الالمانى .

وبعد ان سمع ايخمان ما قاله محدثوه ارتفعت معنوياته : فقد فشل الابتزاز ، لان هذه الصفقة كانت تتفق والمهمة التى كان يؤديها هنا فى فلسطين ، والتى يبدو من الدلائل ان محدثيه لا يعلمون بها . وكان الاداء الناجح للمهمة المكلف بها يبشر بمنافع كثيرة . واذن فمن المبكر ان ينعى نفسه ، فما زال امامه المجال للصعود الى القمة . . .

فى تلك البلدة اليهودية الصغيرة ، التى نشأت حديثا ، جرى بين فوهرر الاس . اس . ومندوب «شيروت لى اسراييل» وبمشاركة

رجلين من قسم العمليات الخاصة بالهاجانا والاركان الخاصة «للماساد» وضع اساس اتفاقية ذات اهمية عالمية ضخمة . . . وقد تم التوصل الى الاتفاق المبدئي بسرعة ، اذ كان لكلا الطرفين مصلحة فيه : فقد انشأ النازيون «طابورا خامسا» في فلسطين لمكافحة بريطانيا ، اما الصهاينة فكانوا يتحرقون لتقريب مجيء ذلك اليوم الذى يمكنهم فيه ان يتحدثوا مع الانجليز بلغة المدافع الرشاشة . وكان من المفروض تحديد تفاصيل الاتفاق بعد سفر ايخمان الى القاهرة التى كان يزعم التوجه اليها من القدس بمصاحبة رفيقه . وهناك كان من المقرر ان يلتقيا بالعميل الرئيسى المقيم لفوهرر الاس . اس . هيملر فى الشرق الاوسط . ومع هذا العميل بالذات كان ينبغى ان يدور الحديث حول تنشيط «الطابور الخامس» فى فلسطين .

فى الصباح الباكر غادر ادولف ايخمان البلدة دون عراقيل وفى مزاج رائع . لم يراوده الشك فى تأييد برلين لخطته . واخذ يفكر وهو راض عن نفسه : «لو ان كل رصاصة او قذيفة تطلقها ايدى الصهاينة من سلاح المانى تصيب انجليزيا ، فهذا وحده كاف ! . . . اما اذا رد الانجليز على اليهود بالمثل - وذلك ما سيحدث فى الغالب - فهذا اكثر من كاف !» .

الا ان اشاعة تسربت الى لندن عن اتفاق سرى بين رجل الاس . اس . الزائر وقسم العمليات الخاصة فى الهاجانا . ولذلك رفضوا فجأة اعطاء تصريح دخول آخر الى فلسطين «لمراسل» صحيفة «برلينر تاجبلات» الموجود فى القاهرة السيد ايكمان .

وعلى الفور علم بذلك شخص من اركان «الماساد» . كان ذلك هو الضابط الشاب ابا ايبانس ، الذى كان يعمل فى «الانتلجنس سرفيس» ويقيم مع قسم العمليات الخاصة فى الهاجانا علاقات اوثق مما كان مسموحا به لموظفى هاتين الادارتين القريبتين . فقد ارسل برقية شفرية قصيرة بعبارة «Read and destroy» • ابلغ فيها قيادة «شائى» بالمنصب الذى يشغله ادولف ايخمان حاليا فى الاس . د . وبالامكانيات والصلاحيات الهائلة التى يتمتع بها فيما يخص اليهود المقيمين فى «الرايخ الثالث» .

• يعدم بعد القراءة .

وعلى الفور اسرع شخصان الى القاهرة للالتقاء بايخمان :  
احدهما موظف قيادى فى «الماساد» ، وهو الذى تعرف عليه ايخمان  
عندما اقتحم عليه غرفة الفندق ذات ليلة ، والثانى رجل بدين  
تجاوز الشباب ، كان يشغل منصب كبير وكلاء مكتب التصدير  
والاستيراد . وناقشا خلال لقائهما بايخمان عددا من القضايا  
الهامة ، وحددوا تفاصيل تنفيذ الاتفاقية الثنائية التى تم التوصل  
اليها من قبل .

وكان من نتائج مباحثات القاهرة والتقارير المفصل الذى رفعه  
ايخمان فيما بعد الى الاس . د . د . حول زيارته لفلسطين ، والذى  
عرض فيه بخطط عامة خطة استخدام انصار مفتى القدس امين  
الحسينى وكذلك استخدام الصهاينة ضد الانجليز والانجليز ضد  
اليهود . . .

كان من نتيجة ذلك ان قررت قيادة النازيين البدء باعداد هجرة  
جماعية لليهود من الرايخ وارسال الاسلحة الى فلسطين .  
ثم اتفق مندوب اركان «الماساد» ومبعوثو قسم العمليات  
الخاصة الذين جاءوا فيما بعد الى المانيا على انشاء معسكرات عمل  
هنا لتصنيف واعداد اليهود للسفر الى فلسطين . وقد وضعوا  
بصورة وقحة سافرة اساس اختيار الاشخاص لهذه المعسكرات :  
اذ لم يكونوا يختارون لها سوى الرجال والنساء القادرين على العمل  
والذين بوسعهم ان يعملوا ويؤدوا الخدمة العسكرية معا ،  
والاخصائيين فى عدد من الميادين ثم بالدرجة الاولى الاشخاص الذين  
ادوا خدمات للصهيونية (اي البرجوازيين ممولي الصهاينة) ،  
والاشخاص الاعضاء فى المنظمات الموالية للصهيونية مثل «هاردونيا»  
و«مكاييا» .

وهكذا كان اختيار المهاجرين يستهدف ثلاثة اغراض : الحصول  
على اكبر قدر من المقاتلين ، وعلى اقطاب المال ، وعلى الكوادر  
المخلصة للافكار الصهيونية .

وبالنسبة للفئة الاولى ، وهى الاكثر عددا ، فقد نظم فى  
المعسكرات تدريب عسكرى على غرار التدريب العملى (الاكشارا) .  
وكان من المفروض ان يرحل كل هؤلاء بعد فترة الى فلسطين

بأيد ليست خاوية . ولهذا الغرض كان الفيرماخت الالمانى يرسل الى الصهاينة بالاسلحة الاجنبية التى يستولى عليها . وقد وافق النازيون على تسليمه كتعويض عن الاملاك التى تركها المهاجرون اليهود فى المانيا .

ومن جديد بلغت مسامع لندن شائعات عن احدى الصفقات ، ثم بلغت مسامع العرب عن طريق الانجليز . وتوتر الوضع . واندلعت الصدامات الدامية بين الصهاينة والعرب فى عدد من المدن والقرى الفلسطينية . وحينئذ اضطرت لندن الى اصدار «الكتاب الابيض» الذى وضع قيودا مشددة على الهجرة اليهودية الى فلسطين . وردا على ذلك تظاهرت الهاجانا بانها تضع فصائلها فى حالة التأهب . . . وكلما ازداد العداء الظاهرى بين الانجليز و«الوكالة اليهودية» التى كانت الهاجانا وكذلك القسم السرى للمخابرات والتخريب فى «شيروت لى اسرائيل» يعملان بمعرفتها ، اصبح ادولف ايخمان ورؤساؤه من قادة الاس . اس . وادارة الاميرال كاناريس اكثر استعدادا للتفاهم مع الصهاينة ومساعدة مخططاتهم . وفى الوقت نفسه لم تكن «الوكالة اليهودية» بكل المنظمات السرية والعلنية التابعة لها عازمة على التخلص من الانجليز بقدر ما كانت تحرص على الابقاء على التحالف معهم لكى تطرد العرب من فلسطين .

تدفقت الشحنات المختلفة الى الموانى الفلسطينية بصورة مستمرة . كان هناك السيارات الواردة من امريكا ، والعلف واللحم من اوستراليا ، والسلع الصناعية من كثير من البلدان الاوربية . وكانت السفن العائدة تملأ عنابرها عادة بالبرتقال والزيتون والمنتجات الحرفية لاهل البلد .

وكان الحمالون يهرولون كالنمل على الطرق الممهدة من السفن الى المخازن ومن المخازن الى السفن . وكان الحمالون يتدفقون باحمالهم الثقيلة ويهدثون سرعتهم عندما يمرون بجوار المراقبين الذين يفحصون بدقة ماركات الصناديق والشحنات . ووفقا لعلامات خاصة لا يعرفها غيرهم كانوا يوجهون الشحنات بحركة من ايديهم الى مختلف الاتجاهات ، رغم ان هذه الشحنات كانت تبدو من

الخارج متشابهة تماما ، وعند ذلك تنقطع فجأة سلسلة العمال لتحل محلها سلسلة اخرى .

وكان يشرف على هذا التصنيف الغامض للشحنات كبير وكلاء النقل بمكتب التصدير والاستيراد دافيد كنوخ البدين ونوتسى يوناس . ومنذ فترة قريبة عين حاييم فولديتير مساعدا لهما . وقد سببت له هذه الوظيفة الجديدة متاعب كثيرة . فقد اصبح مضطرا للسفر الى يافا ، والى البقاء فى الميناء كثيرا الى ساعة متأخرة . واثناء تفريغ او شحن السفن يصبح تماما تحت رحمة كبير الوكلاء ، وهو شخص فظ صارم . ولكن ما اغراه بالطبع هو زيادة المرتب ، فقد كان هو واويا ينتظران طفلا ، ومن ثم كانت زيادة المرتب فى وقتها تماما .

وكان نوتسى يوناس يردد له باصرار ان وظيفته الجديدة ذات مسئولية كبيرة جدا ، وان مرتبه قد زيد لهذا السبب بالذات .  
كان يقول له :

- ان «دكاننا» هذا مفتوح فقط بفضل طبيعة الشحنات التى نتسلمها . والا لما كان هناك اى معنى لان يحتفظ بنا سلمونزون ، فضلا عن خاله تبليتىس .

وكان حاييم يصغى بصبر الى اىحاءات نوتسى ولكنه لم يجرؤ على سؤاله عن «طبيعة» هذه الشحنات . فقد ادرك حاييم منذ اللحظة الاولى لظهوره فى الميناء ان الفضول هنا غير مستحب .

كان دافيد كنوخ كبير وكلاء مكتب التصدير والاستيراد من المحليين ، اى «الفاتيكيم» ، وكان لا يطيق «العولم خدش» اى الوافدين . كان يعتبرهم مرفهين ، غير صالحين للعمل فى الميناء . وبعد مرور عدة ايام من تولى حاييم العمل ، وعندما رأى كنوخ انه عامل مجد خدوم ، استدعاه اليه ، وقال بصوت اجش غليظ :  
- اذا كنت تنوى الاستمرار فى العمل فلتتذكر انه لا توجد بالنسبة لى كلمات مثل «لا اعرف» ، «لا استطيع» ، «لم ار» او «نسيت» . ينبغى ان تعرف ، وتستطيع وترى ، وتتذكر ، حتما كل شىء ! انا لا اعترف بالتبريرات . سوف تعمل معى وحسب تعليماتى انا فقط . اذا دعت الحاجة للسؤال فلتسأل . واذا سألتنى

سأجيبك ، لكنى لم اتعود تكرار الاجابة . فليفعل ذلك صديقك  
يوناس . . . اما انا فمشاغلي كثيرة بدون ذلك . اذا لم يعجبك  
العمل قل . وكلما كان ذلك مبكرا كان هذا افضل بالنسبة لك . . .  
ولا انصحك ان تخفى عنى شيئا او تكذب على . . .

كان حاييم ، وهو يصغى الى كنوخ ، يهز راسه ويطرف  
برموشه الحمراء ، بينما خفق قلبه من الرعب .

كان كنوخ قليل الكلام ، يعتبر ما يقوله واضحا ابلغ  
الوضوح . وكان يعرف عمله بصورة ممتازة ويعمل بغيرة  
المهوسين . وقد اطلق عليه عمال الميناء لقب «القاطرة» نظرا  
لحركته واندفاعه - رغم وزنه البالغ مائة وعشرين كيلوجراما !  
وبالفعل كان اللقب مناسباً تماما . فقد كان كنوخ يهرول زاما شفته  
الغليظة ويزفر بمنخاره بصوت عال ، وهو مندفع لا يلوى على شيء  
وكانه يجرى فوق قضبان . وكان جسده البدين يلوح تارة على  
السقالات ، وتارة في العنبر ، وتارة على سطح السفينة ، وتارة في  
المخزن . ولم يكن يتوقف بل يلقي التعليمات العملية المقتضبة  
اثناء سيره ، اما اذا توقف ففقط لكي يصب سيل لعناته على  
رأس شخص ما ارتكب خطأ .

وكان «القاطرة» قاسيا لا يرحم بالنسبة للكسالى ، ويمقت  
المحتالين والمتأففين ويتخلص منهم بسرعة . وكان من العيب  
استعطافه لكي يرجع عن قراره ويراف بحال اطفال العامل المطرود .  
كان كنوخ يرد دائما بنفس العبارة :

- العمل في الميناء للاصحاء فقط ، كما ان المستشفى للمرضى  
فقط . . .

ولم يكن كنوخ يتساهل حتى مع احب الحمالين اليه اذا ما  
لاحظ اي تقصير من جانبه ، فكان ينحيه عن العمل فورا ويتخذ  
مكانه لكي يرى الاخرين كيف يجب ان يؤدي العمل .

وكان حاييم فولديتير يخشى كنوخ ، ويتحاشى اللقاء معه  
مثله مثل بقية موظفي وحمالي مكتب التصدير والاستيراد . لقد  
عرفوا عاداته ، وعندما يلمحون من بعيد قامته القصيرة ، كانوا  
يصمتون على الفور ، ويشدون قاماتهم ويطفئون اعقاب السجائر ،

ويخفونها بعناية . واذا حدث ان التقى به الحمالون في ممر السفينة الضيق ، او لا قدر الله على سلم الباخرة ، كانوا يقفزون جانبا ، والا فان كنوخ يزيح من طريقه بكتلته الضخمة كل من يقابله ، ما لم يكن طبعا من الرؤساء .

وحتى نوتسى يوناس ، الشخص الموثوق به من سيمون سلمونزون ، كان يخاطب كنوخ بشيء من الرهبة . صحيح ان الاخير كان يتغاضى عن الاخطاء التى يرتكبها يوناس .

وفي المقابل كان سيمون سلمونزون معجبا كبير الوكلاء ، وكثيرا ما كان خال سيمون العجوز جوزيبى تبليتس شخصا يسأل عنه . ومن الغريب انهما كانا يعرفان بعضهما البعض جيدا . فعندما سافر دافيد كنوخ ذات مرة الى ايطاليا بتكليف من الشركة الملاحية «اللويدي البحرى الاسرائيلى» لشراء سفينة قديمة كان الايطاليون يعترمون «تكهينها» ، اولى ابن جوزيبى نفسه ، تبليتس الاصغر اهتماما لكنوخ . وبهذه المناسبة ترددت شائعة تقول ان كنوخ ، ما ان رأى زوجة الملياردير فى لفاع من الفراء حتى اشترى لزوجته معطفا ثقيلًا من الفراء غالى الثمن ، فارتدته عندما ذهبت الى الهيكل فى يوم خريفى حار من ايام عيد «روش - جا - شاننا» . وقيل ايضا ان كبير الوكلاء كان يؤمن ايمانا شديدا بما جاء فى التلمود : «كما يكون يومك فى «روش - جا - شاننا» ، يكون عامك المقبل كله !» ولذلك كان كنوخ وكل اسرته يرتدون فى عيد رأس السنة ملابس كلها جديدة . . . .

وكان من المعروف ان كبير الوكلاء ، هو الوحيد من بين جميع موظفى مكتب التصدير والاستيراد الذى كان يتقاضى ، بخلاف المرتب ، نسبة معينة لقاء اعمال «هامة» لكن احدا لا يعرف ما هى . واكد الحمالون ان دافيد كنوخ كان غنيا جدا ، يملك منزلين او ثلاثة تدر دخلا طيبا . ولكن كان من الصعب تصديق ذلك ، لانه كان يرتدى دائما حلة مبعدة متسخة وحذاء باليا ذا طرف ملوى ومشدود الى اقصى مدى . هكذا يبدو منذ عيد الفصح الربيعى حتى الخريف ، عندما يحل عيد «روش - جا - شاننا» فيأتى دافيد كنوخ فى حلة جديدة . ولكن بعد عدة ايام يعود كبير الوكلاء الى مظهره

الرت السابق . ولم يكن ثمة حدود لاهماله لثيابه مثلما لم تكن حدود لفظاظته . وعلاوة على ذلك كان اكلوا شرها بصورة غير معقولة ، وكان يلتهم الطعام بعجل وكان احدا يطارده . . . .

وكان كنوخ لا يكثرث بالنقود . وقد لاحظ حايمم غير مرة ان كبير الوكلاء كان يستخرج من جيوبه العميقة الاوراق المالية المجددة المتسخة مع ايصالات الشحن المتكورة وقصاصات ورق التغليف المشحمة .

واذا ما حلت فترة هدوء في الميناء كان دافيد كنوخ يسمح لنفسه ان يمزح بطريقته الخاصة مع احد العاملين القدامى ، ويتفكه به ، او يطلق لقباً ما مهينا على احد العاملين الجدد . وكان دافيد يحب تدبير المصارعات ، فقد كان في صباه مصارعا جيدا . وقيل انه بضربة واحدة اودى بحياة العثماني الغنى الذي كان يعمل عنده ، وهرب من بيته بصندوق مجوهرات . وقد جرب كثير من العمال وقع قوة كنوخ الدببية على اجسادهم فاقسموا مرات عديدة ان يجهزوا على «القاطرة» ، الا ان احدا لم يجرؤ بعد على تنفيذ وعيده .

وقيل ايضا ان كنوخ يتصرف بهذه الوقاحة والثقة بالنفس لان من ورائه عصابة ينفق هو عليها وتعمل وفق اوامره ، وتنتقم بقسوة من كل من يجرؤ على الوقوف في وجهه .

وذات مرة قال احد الحمالين :

- ان من يدفع هو الذي يطلب الموسيقى !

فايده آخر قائلا :

- نعم ، وعليك ان ترقص على موسيقاه شئت ام ابيت . . . .

فلتحاول ان تفعل غير ذلك . . . . سيعزفون لك حينئذ نشيد

الوداع ، ولن ينبس احد بكلمة . وبعد ذلك يعتبرونك وغدا !

لم يكن كبير الوكلاء يلقي بالا الى حايمم فولديتير ، وكانما

لا وجود له . وحتى في الصباح ، عندما كان حايمم يحييه لم يكن

كنوخ يرى من الضروري ان يرد عليه ، فهو لا شيء ، وانتهى

الامر ! ودهش حايمم : «هل هو حقا لا يسمع ؟» . واصبح حايمم

يحيى بصوت مرتفع ، ولكن كنوخ ظل لا يرد . وذات مرة كان



حاييم يقف بين الحمالين المحيطين بكبير الوكلاء وبنوتسى يوناس الذى كان يتحدث عن قرب وصول سفينة من اوستراليا . وفجأة اندفع كنوخ من الحلقة وكاد يطرح حاييم ارضا ، ومضى لا يلوى على شيء ، وكأنما لم يكن لحاييم وجود فى المكان الذى مر منه لتوه .

واثار ذلك ضحك الحمالين وتعليقاتهم المواسية . وحاول نوتسى ان يجعل من تهور كبير الوكلاء مزحة ، لكن حاييم لم يعد الى نفسه بسرعة . وظل واقفا على جنب فترة طويلة وتعابير الرعب على وجهه ، وهو يتلفت حوله فى ارتباك ويحاول السيطرة على ارتعاش ساقيه .

وفى نهاية ذلك اليوم وصلت الى الميناء سفينة محملة بعلف الماشية ، قادمة من اوستراليا . واخبر نوتسى يوناس الحمالين بضرورة تفريغها بسرعة .

كان المساء قد حل عندما وقف حاييم بأمر من نوتسى على المرسى قرب الجزء الاسفل من سلم السفينة فى انتظار بدء التفريغ . واستعد الحمالون للانتقاض على عناير السفينة وكأنهم جنود يحتشدون فى مواقع الانطلاق لشن هجوم مباغت .

لزم الجميع الصمت . وتناهى بوضوح صوت الامواج وصرير السلالم وصوت مكتوم من ارتطام جانب السفينة بالجدوع المهترئة فى جدار المرسى .

وظهر دافيد كنوخ كالعادة مندفا ، واولى اهتماما بحاييم ، الامر الذى كان مفاجأة تامة له . اذ دمدم له دون ان يتوقف عن سيره :

- راقب التفريغ وافتح عينيك . هل سمعت ؟  
- نعم ، طبعا ! - اجاب حاييم وهو يهرول خلف كبير الوكلاء . - لقد شرح لى الرفيق يوناس كل شيء . ينبغى ان اراقب بحيث تكون البالات المربوطة بسلك نحاسى . . .

فقاطعه كنوخ وهو سائر :

- لا تركز ورائى كالجرو . افعل ما امرت به .  
وسرعان ما بدأ التفريغ ، وانطلق السير البشرى المتحرك .

سار الحمالون بانتظام محافظين على الفواصل بينهم ، فوق السقالات الخشبية الضيقة ذات العوارض . ساروا صامتين على ضوء شاحب وكانهم يسيرون في جنازة وكان كل منهم عندما يمر بحاييم حاملا على ظهره بالة ضخمة من القش المضغوط يقول :

- الرباط سلك نحاسي . . اتوجه الى الساحة .

- الرباط سلك عادى . . . اتوجه الى الطابق العلوى .

وكان على حاييم ان يتأكد من الرباط ، على الرغم من انه كان من العسير ان يميز السلك العادى من السلك النحاسى فى هذا الضوء الضعيف . وغير مسموح باى تأخير ، فخلف هذا الحمال يسير آخر وثنان وثالث . . . اما الخطا فكان ينطوى على عواقب وخيمة ، كما حذر نوتسى . وكان كل حمال يعرف ذلك ، ولكن احدا لم يجرؤ ان يسأل عن السبب فى كل هذه الدقة والتشدد فى تصنيف بالات عادية من القش المضغوط .

ولاحظ حاييم ان الميناء كان خاليا من الغرباء ، فقد كان كل العاملين فيه من السكان المحليين الاصليين ، وكلهم ممن ذوى الخبرة الكبيرة . وكانت هنا نظم خاصة . فقد كان ممنوعا على اى شخص من غير العاملين فى التفريغ ان يقترب من مكان التفريغ اثناء العمل حتى ولو كان من العاملين فى مكتب التصدير والاستيراد . وكان كل شخص من العاملين فى هذا القطاع مسئولاً عن تنفيذ هذه القاعدة بكل دقة .

وكان دافيد كنوخ ينقض كالأعصار بين الحين والحين ، ومن سطح السفينة ، حيث كانت السقالات تمتد الى المرسى فى الاسفل ، يحدد بنظرة واحدة مدى نجاح العمل .

وسمع حاييم صوت كنوخ الابح وهو يقترب :

- اسرع يا آشير . مالك تسحب ساقيك ؟ الم تاكل منذ

وقت طويل ام ان «السفاردا» \* لم تجعلك تنام ؟

كان آشير من «الفاتيكييم» ولكنه تزوج يهودية من طرابلس .

\* المرأة اليهودية المنحدرة من جنوب غرب اوربا وتحدث ما يسمى باللغة الاسبانيولى .

ولم يكن كبير الوكلاء يطيق هذا النوع من بنى قومه ويعتبرهم كسالى ، ووقحين للغاية وثرثارين . ولم يرد عليه الحمال بشيء فقد كان يعرف انه من المفروض ان تسكت في مثل هذه الاحوال . ولم يرد الا ان اسرع الخطى .

وصاح كنوخ في حمال آخر :

- وانت الى اين تجرى ؟ هل انت مسرع الى حفل عرس ام تريد ان تسبب اختناقا في المرور ؟

وعلى الفور ابطا الحمال خطواته ، ولم يرد هو الآخر بشيء .

- لا تستعجل يا شايا . دعه يختبر الرباط جيدا . . . .

وفجأة سمع حايم من خلفه صوت كبير الوكلاء الابح :

- وانت ايها الأشكنازى \* ، هل انت نائم ؟ لا تدع الحمال

يمر قبل ان تتأكد من السلك ، والا قطعت رأسيكما معا !

وقال الحمال باعتذار وهو يعود الى حايم :

- لقد اختبره يا رفيق دافيد كنوخ . وانا قد قلت ان السلك

عادي واذهب الى الطابق العلوى . . . .

فصاح به كنوخ :

- لا احد يسألك يا اورل \* . انتبه الى عمك .

خيل لحايم من الانفعال ان غلالة غشيت عينيه ، وانه لم ير

بالفعل هذا السلك الملعون .

ومن جديد دوى صوت كنوخ :

- الآن فقدت عقلك تماما . اين عيناك ، فى قفاك ؟

واسرع حايم يربت على كتف الحمال علامة الاذن بالسير .

بالطبع كان السلك عاديا ، ولكن لا حايم ولا الحمال لم يقولا

كلمة واحدة لكنوخ .

واصدر كنوخ تعليماته وهو يمر بجوار حايم :

- ستكثر الآن البالات ذات السلك النحاسى . انتبه ! سجل

كل بالة ، احسبها بالعشرات ، واحذر ان يقع اى خطأ !

لم يكن على حايم ان يسجل فقط ، بل وان يتابع حتما الحمال

\* اليهودى المنحدر من وسط اوربا .

\*\* الأغلف ، الذى لم يختن (كلمة سباب مهينة) .

بحيث ينعطف يسارا ويتجه الى الساحة حيث يلقي بالحمل هناك قرب الميزان . ولم يكن مسموحا لهم بالسير الى ابعد من الساحة . ومن هناك يقوم رجال آخرون غير معروفين للحمالين مطلقا بوضع البالات على عربات بعجلتين وينقلونها الى المخزن الذي كان تحت سيطرة نوتسى يوناس المطلقة . فقد كان يتابع بنفسه فتح كل بالة .

كثرت البالات ذات السلك النحاسى ، ولم يكن حاييم يلاحق تسجيلها فى الدفتر وحسابها بالعشرات الا بالكاد . . . .

ولم يسمحوا بفترة راحة الا بعد بدأ التفريغ بثلاث ساعات ، وحتى هذه الاستراحة لم تمتد الى اكثر من خمس عشرة دقيقة . وتهالك الحمالون على الارض حيثما ادركتهم لحظة الاستراحة وكانوا حصدتهم دفعة من مدفع رشاش . وكانت كلمات كبير الوكلاء اقوى من سلطة القانون . قال لهم :

- لا بأس ، سترتاحون عندما تنتهون من تفريغ البالات ذات السلك النحاسى ، أتسمعون ؟ ينبغى ان تفرغوا قبل الفجر .  
لم يعارض احد .

واحيانا كان كنوخ يقول :

- من لا يعجبه الحال فليذهب ! لن ابقى احدا بالقوة . اننى امنحك مطلق الحرية .

ولكن العامل الذى كان يقرر الذهاب لم يكن يذهب ، بل يختفى دون اثر . فبالفعل كان كنوخ يعتمد على عصابة من السفاحين تابعة لـ «أرجون تسفاى ليومى» .

واستؤنفت عملية التفريغ ، وتتابع البالات ذات السلك النحاسى .

أخذ الحمالون يهرولون الى اعلى فوق السلالم وهم يتنفسون بصعوبة ثم يظهرون على السقالات بعد ثوان معدودة محملين بالبالات . وكانت صيحات كنوخ تحثهم وتبث فيهم الرعب . فقد كان غضب كبير الوكلاء يعنى اكثر من مجرد فقدان الاجر الجيد نسبيا . ولذلك كانوا يعملون ، ويلوذون بالصمت . وكان بعضهم يذكر كيف خالف كبير الوكلاء مبداه ذات مرة وقبل احد «المهاجرين»

للعمل لديه . كان ذاك رجلا مفتول العضلات ، معروقا ، من المهاجرين المغاربة . وكان يعمل هناك في الميناء ايضا . ويبدو ان ذلك هو ما اغرى كنوخ الذى اطلق على الحمال المغربى هذا لقب «فرنك-سكين» \* . وكان الحمال يحمل في حزامه دائما سكيننا حادة يستلها فورا عند نشوب اقل خلاف مع احد الحمالين . ولكن ما ان مر اسبوعان حتى بدا لكبير الوكلاء ان «فرنك-سكين» ليس سلس القيادة وثرثار اكثر مما ينبغى ، وعندما نهره كشر المغربى عن اليابه . كان ذاك حادثا لا مثيل له ! وعلاوة على ذلك فقد وقع على مرأى من الحمالين . وامر دافيد كنوخ المغربى بان يغادر المرفأ فورا . ولكنه رفض واستمر في عمله . وعندما اندفع كبير الوكلاء نحوه كالقاطرة لمعت شفرة السكين امام عينيه . وافلح كنوخ بالكاد فى تجنب الطعنة ، وبعد فترة من الزمن مضت زوجتا الحمال وحشد من اطفاله يبحثون عنه . . .

ودون اى وازع من ضمير قال دافيد كنوخ :

- الميت لا يبحثون عنه فى الميناء ، بل فى البحر الميت . . .  
ومنذ ذلك الحين لم يخرج كبير وكلاء مكتب التصدير والاستيراد عن مبدئه : الا يقبل للعمل فى الميناء الا ذويه «الفاتيكيم» .

وبحلول الفجر كان قد تم تفريغ الجزء الاكبر من العنبر المشحون بالبالات المربوطة بسلك نحاسى . ومع ذلك لم يأمر كنوخ بالاستراحة التى وعد بها على الرغم من انخفاض وتيرة التفريغ بشدة . كان الناس يعملون بآخر ما تبقى لديهم من قوة . وحتى حاييم كان لا يكاد يقوى على الوقوف وهو يغالب بصعوبة النعاس الذى داهمه .

وصاح كبير الوكلاء وهو يندفع مارا بجواره بأنه لم تعد هناك بالات بسلك نحاسى . ولكن حاييم لم يجرؤ على ترك مكانه بدون اذن دافيد كنوخ .

وكان الوقوف بلا عمل اشد وطأة على حاييم . وغلبه النعاس

\* لقب اليهود «السود» ؛ وسكين هى السكين .

عدة مرات فكان يترنح ثم يستيقظ . ومن خلال النعاس سمع احدا يناديه . واتضح ان نوتسى يوناس كان يدعو للذهاب الى المخزن .

لم يتوقع حايم ان يرى في المخزن هذه الكثرة من الناس . كان شبان وشابات ما يهرولون من طرف المبنى الضخم كالسوق المسقوفة الى طرفه الآخر . وبجوار الطاولة الطويلة الموضوعة في وسط المبنى وقف عدة اشخاص مزودين بالكماشات . وكانوا يتلقون البالات باستمرار ، فينزعون عنها فورا السلك النحاسي ، ثم يشقون «بطن» البالة بسكاكين حادة كمبضع الجراح . ثم يستخرجون بعض الأشياء الملفوفة في ورق اسود مزيت . وعلى الفور كانوا يحملونها من على المائدة بعيدا . وتفحص حايم جيدا فرأى بعد فترة مواد حادة مصقولة وسوداء اللون مرتبة بعناية وقد نزعت عنها اوراق التغليف . ونقل بصره الى الطرف الآخر من المخزن واذهلته الدهشة والخوف . فهناك ، وبجاء الجدار رصت المدافع الرشاشة والبنادق والمسدسات في صفوف ملتصقة واكوام اقراص الذخائر والخزانات ، وغير بعيد عنها تكدست صناديق الطلقات وفيما يبدو قطع الغيار .

والقى حايم نظرة سريعة ، ولكنها فاحصة ، على ما يقوم به هؤلاء الاشخاص في المخزن ، والى اين ولماذا ينقلون هذه المواد ، فادرك ان انطباعه الاول عن الفوضى والازدحام السائدين هناك كان خاطئا . اما في الواقع فكان يجرى تجميع السلاح من الاجزاء والقطع المستخرجة من البالات ذات السلك النحاسي التي كان حايم يسجلها في دفتره . وكانت عملية التجميع تجرى بدقة كما في خطوط الانتاج .

الآن فقط ادرك حايم ما كان نوتسى يوناس يعنيه عندما راح يؤكد له المسؤولية الخاصة الملقاة على عاتق جميع العاملين في الميناء . الآن فقط اتضحت له تماما اسباب النظم والقواعد الصارمة في الميناء التي وضعها كبير الوكلاء ، والاختيار الخاص للحمالين ومعدلات العمل المنهكة والعمل بدون توقف لتفريغ السفينة . احس حايم بالخوف عندما ادرك انه قد اصبح منذ الآن شريكا

في اعمال سرية ضد القانون . ومرقت في ذهنه صور الماضي القريب  
الواحدة تلو الاخرى : شراء السلاح في كونستانسا ؛ الحاخام بن  
صهيون هاجرا بمسدسه الضخم تحت ذيل قفطانه ، هجوم المدمرتين  
الانجليزيتين على «ترانس اطلانتيك» ، اطلاق النار ومصراع البحارة  
الانجليز وطفل المهاجرة النمساوية الماساوى ، اكتشاف الانجليز  
للاسلحة في براميل الاسمنت ، واخيرا الظروف المريرة لفرق  
«ترانس اطلانتيك» بمئات الركاب وبالسلاح الموجود في العنابر . . .  
وعاد بذهنه الى وقوفه امام الموظف الانجليزى الذى هدده هو  
واويا منذ فترة قريبة بالسجن والطرده بسبب مخالفة القوانين  
المعمول بها في اراضى فلسطين الخاضعة لانتداب بريطانيا  
العظمى . . .

استولت هذه الافكار على حاييم تماما ، لدرجة انه نسي لماذا  
جاء الى هنا ، فظل واقفا في مكانه دون حراك حتى رآه نوتسى يوناس  
فصاح فيه بلهجة آمرة :

- حاييم ! فولديتير ! الى بسرعة ! - وعندما اقترب حاييم  
منه وهو يناور بخوف بين صفوف الاسلحة امره :  
- اجمع اوراق التغليف ، واربطها بالسلك بشدة . . .  
وباسرع ما يمكن ! هل فهمت ؟ ليس امامنا الا وقت قصير جدا . . .  
تحرك !

واطاعه حاييم دون تردد وبدأ يعمل . كان يريد ان ينتهى  
من ذلك بأسرع ما يمكن ويغادر ارض الميناء ، وكأنما هذا سيحرره  
من مسئولية المشاركة في كل ما حدث هنا .

وعندما اوشك العمل ان ينتهى وكان معظم الفتيان والفتيات  
قد رحلوا سأل نوتسى حاييم وهو يبتسم :

- هل يعجبك «علف المواشى» هذا ؟ قل يا حاييم !

فسأله حاييم بدوره متهربا من الاجابة :

- العلف الاوسترالى ؟

فاشار نوتسى براسه الى الاسلحة :

- بل هذا ؟

- آه ، نعم . . .

فقال نوتسى وهو يضحك :

- يا لك من مضحك ! العلم فقط اوستراالى . . . اما الباقى فهذا هو ، انظر . . .

ورفع نوتسى مسدسا من كوم الاسلحة و اشار الى علامة المصنع .

فقال حايم مندهشا :

- ايستر راينخ . . . نمساوى اذن ؟ ! ولكن النمسا . . .

فقاطعه نوتسى ساخرا :

- هكذا بالضبط يا حايم . النمسا لم تعد هى النمسا

منذ وقت طويل . لم يبق منها شىء . . . اللهم الا العلامة . . .

- انا لا افهم شيئا . ايمكن ان تكون كل هذه البضائع من

المانيا ؟

فابتسم نوتسى قائلا :

- ولم لا ؟ تذكر انه عندما يتعلق الامر بالسياسة العليا

والتجارة ذات المنفعة لا توجد اية قوانين او قيود ، ولا اية قواعد

او مبادئ . . .

او ما حايم موافقا دون رغبة ، واغتصب ابتسامة متأخرة ،

اذ لم يكن يريد ان يفصح عن افكاره حول هذا كله ليوناس .

ولكن لم يدر بخلد نوتسى ان المتطوع فولديتير كان غير

معجب بما رآه ، فربت على كتفه وقال بحماس :

- ليكن فى علمك ان هذه ليست سوى البداية ! نعم ، نعم .

فبواسطة هذا «العلف» - و اشار الى اكوام الاسلحة و صفوف صناديق

الذخيرة - سنبدأ قريبا فى ارسال بعض «المواشى» الى المذبح !

صبرا يا حايم وسوف نرى العالم من نحن . سوف ترى !

وعند الظهر ، وبعد ان اعلن دافيد كنوخ استراحة لمدة ساعتين

فى موقع التفريغ ، رأى حايم من بعيد السيارة المعروفة تقرب

من المخزن . وتعرف فى راكبها على سيمون سلمونزون .

وقفز حايم من فوق البالة التى اتخذ منها مجلسا مريحاً فى

الظل لكى يغفو قليلا . ولكن سيمون لم يلق عليه مجرد نظرة

ومضى الى المخزن . وقال حايم فى نفسه : «ليس صدفة ان نوتسى



وكنوخ بقيا هناك عندما انصرف الجميع للغداء . يظهر انهما كانا يعرفان ان السيد سيأتى . . . .» .

وعاد هاييم يستلقى على البالة . كان هذا اول يوم حار حقا . وداهمه النعاس ، ولكن الافكار المزعجة طردت النوم . كان قد تلقى بالامس رسالة من بولجراد وقد قراها عدة مرات والآن راح يقرأها من جديد . قال ابوه واخته انهما بصحة طيبة ، ولا يشكوان من حياتهما ، وينتظران «ضيوفا» ، وادرك هاييم ان الالمان سينقضون بين لحظة واخرى على رومانيا . وكتب ابوه يقول :

«بخصوص المواد الغذائية فلدينا الخضروات الطازجة متوفرة بكثرة . وهناك تشكيلة كبيرة منها عند العجوز بوبا . وهو وابنه بصحة جيدة . . . .»

وفهم هاييم جيدا ما معنى «الخضروات» ، فهم ذوو القمصان الخضر وزعيماهم فى بولجراد ، المسئولون عن هلاك كثير من الاشخاص ، بمن فيهم والدة هاييم . . . .

وختم الأب رسالته بالتمنيات لابنه وزوجته بموفور الصحة والتوفيق التام ، وذكر الاب هاييم فى ملحوظة بان يهتم بارسال «الدعوة» التى وعد بها اذا ما تمكن من ترتيب اموره بنجاح وبدأ يتقاضى اجرا طيبا . . . .

وارتاح هاييم قليلا عندما اعاد قراءة رسالة اخته القصيرة . لقد كتبت تقول : «زميلك فى المدرسة الذى كان مريضا بشدة عاد اخيرا من المصححة . وقد استقبله اخوة السيد ستاتسكو بحفاوة خاصة ومروا به عبر البوليفار . ولكن اطباء ذلك المستشفى الذى نزلت به انت ذات مرة يعتبرونه معديا ويستدعونه مرتين فى الاسبوع للعلاج . وبسبب مرضه لم يشأ احد فى المدينة ان يقبله للعمل . فعمل حمالا فى محطة ترانفال للبضائع . . . .» .

لم يساور هاييم شك فى ان المقصود بذلك هو ايليا توموف . اما «المصححة» فهى بالطبع السجن . اذن فقد ظل صديقه امينا مع نفسه . وقال هاييم فى سره : «نعم ، فى زمننا هذا لا يجلس الناس فى السجون الفاشية عقابا على سرقة ، بل على النشاط الثورى السرى . اما الآن فان ايليا موضوع تحت رقابة الشرطة والمخبر

ستاتسكو . . . . .» . لقد حاول ايليا ان يقنعه ، هو حاييم ، في  
كونستانسا آنذاك بالا يسافر الى فلسطين ، ووعده بالبحث له  
عن عمل مناسب في بوخارست . وقال له : «لن تعيش حياة رغدة ،  
ولكن ستكسب ما يكفي لخبزك . . . . .» واعتمد في ذلك على صديق  
له ، ميكانيكي يدعى فيما يبدو ايليسكو . . . . . نعم ، نعم  
ايليسكو . . . . . كان على وشك ان يصل ، فاصر ايليا ان ينتظر  
حاييم لعرفه به . وقال توموف آنذاك : «هذا الرجل يمكنك ان  
تعتمد عليه في كل شيء !» .

شعر حاييم الآن بالاسف لانه لم يتمكن من انتظار هذا  
الميكانيكي ويتعرف به . فقد فهم حاييم من كلام ايليا ان ايليسكو  
ليس مجرد زميل طيب لصديقه بل هو معلمه وموجهه ، وان ما  
يجمعهما هو شيء اكبر من مجرد العمل معا في الجراج . . . . .  
وفكر حاييم بانه لو انصاع آنذاك لكلام ايليا توموف وبقي  
في بوخارست لكان على الأرجح قد سار معه في طريق واحد . . . . .  
ومع القلق اخذ الشك يتسرب الى قلبه اكثر فاكتر ، ترى هل  
اصاب عندما تصرف بهذا الشكل في كونستانسا وقرر الرحيل عن  
دياره ؟ ولكن لم يكن لديه مخرج آخر . كان قد خلف تدريبا  
شاقا في «الاكشارا» وراء ظهره ، واخشوشنت يدها من العمل ،  
وكانت في جيبه تأشيرة القنصل البريطاني بالدخول الى ارض  
الانتداب ، وكذلك بطاقة سفر حصل عليها بعد جهد . . . . . ثم انه  
لو عدل عن السفر الى فلسطين ، لاضطر ابوه واخته الى الهرب من  
بولجراد دون تردد . ولكانت الطائفة اليهودية قضت عليهما  
بالهلاك . علاوة على ما كان سيصيبه هو . . . . .

لم يلاحظ على الفور ، وهو مستغرق في افكاره ، كيف خرج  
سيمون سلمونزون من المخزن في صحبة كنوخ . وقفز حاييم وسوى  
قميصه وياقته بسرعة وكأنه جندي يقابل ضابطا ، واراد ان  
يخف لمقابلتهما ، ولكنه لم يجرؤ ، فانتظر واقفا في مكانه . ولحسن  
حظه انعطف كنوخ الى سلم السفينة ، اما سيمون فقد رأى حاييم  
فاقترب منه وسأله بنبرة حماية ودون ان يحييه :  
- كيف الحال ؟ تتعود ؟

انحنى حاييم واحمر . هناك في كونستانسا ، بعد اداء  
«الاكشارا» كان يعتبر سيمون ندا له ، اما هنا - وقد ادرك ذلك  
بوضوح - فالوضع تغير : كان امامه سيد يتوقف مصيره هو ،  
حاييم ، على مزاجه وارادته . ولهذا فقد اجاب باحترام :  
- نعم يا رفيق سيمون سلمونزون . . . اتعود شيئا  
فشيئا . . . اشكركم .

فسأل سلمونزون بغضب مصطنع :  
- ولماذا «شيئا فشيئا» ؟ - واذاف على الفور وهو يربت  
على كتف حاييم - ينبغي ان تتعود بسرعة يا فولديتير ،  
وعندئذ يكون هناك جدوى ، اما اهم شيء - وهنا تلفت سلمونزون  
حوله ثم رفع سبابته وقال معقبا بجدية غير مصطنعة هذه المرة -  
ان يكون كل شيء في مكانه وفي الوقت المناسب . او كما يقال يجب  
ان يكون كل شيء على ما يرام .  
فاوما حاييم . وهتف سيمون برضى :  
- ممتاز يا فولديتير . بالمناسبة ، هل اخبرك فوتسى بزيادة  
مرتبك ؟

- نعم يا رفيق سيمون ، اشكركم .  
- انا لا اذكركم ، ولكنك ستكسب جيدا على ما اظن .  
وفي المستقبل سيكون كل شيء متوقفا عليك . . .  
- اشكركم . . .  
- لا بأس ، لا بأس . . . اننى اعرفك وأثق فيك . . . وهذا  
هو المهم الآن . بالطبع لا بد من العمل دون حساب لشيء ، واحذر  
ان تتفوه بشيء . اسمع كلام الرفيق كنوخ وتعلم منه ، فليديه ما  
يمكن ان تتعلمه . . . نعم .

تطلع حاييم الى سيمون بعينين محمرتين من السهاد . وفكر :  
ترى ماذا كان يقول سلمونزون المرفه عن «القاطرة» ، لو لم يكن  
ابوه وخاله من اصحاب الملايين واضطر للعمل عند هذا «الرفيق»  
كنوخ ؟ ترى اى لقب كان سيمنحه كنوخ «للاشكنازى» سلمونزون ؟  
وتطلع سلمونزون بنظرة حرص الى صفوف بالات القش

المضغوط التي كان الحمالون ينامون عليها كالموتى ، وقال وهو يتوجه الى السيارة :

- ستكون امامنا يا فولديتير اعمال هائلة . لقد قدر لنا ان نؤدى رسالة البرهان بقوة السلاح على اننا شعب واحد ، وامة واحدة ذات دولة واحدة : اسرائيل ! تذكر مبدأنا المقدس هذا ! وتذكر ايضا انك ، وانت متطوع في «ارجون تسفاى ليومى» ، ينبغي ان تعرف ذلك كما تعرف «وصايا الفصح الاربعة» الرئيسية !

وسرعان ما انطلقت السيارة بصاحب مكتب التصدير والاستيراد ، مخلقة وراءها سحابة من الغبار والدخان الكريه الرائحة . وهذا الغبار تدريجيا ، وانقشع الدخان ، بينما ظل حاييم واقفا يفكر وهو يردد في ذهنه الكلمات التي قالها سلمونزون لتوه : شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل ! في مكان ما سمع حاييم هذه الكلمات او شيئا مثلها ، ولكن اين سمعها ، ومن ؟ «واحد . . . واحدة . . . اسرائيل !» نعم قطعاً لم يسمع ذلك لاول مرة ! ومضى حاييم الى التواليت ليغتسل وينعش ذهنه المتعب بعد ليلة مسهدة . ولكن ذلك لم يفده شيئا ، فراح يردد في ذهنه من جديد : «شعب واحد ، امة واحدة ذات دولة واحدة : اسرائيل» .

ولم يتمالك حاييم نفسه فبصق وهو يسب بغيظ :

- اللعنة ! يا للوباء !

وخرج احد الحمالين من المرحاض . ولم يكن في التواليت احد غير حاييم ، فنظر اليه الحمال متفهما وقال :

- هذا حق . الاوبئة هنا والروائح الفظيعة . وبصق الحمال ايضا بصقة كبيرة .

٩

ظل المبدأ الذي قاله سيمون سلمونزون : «شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة» يلح على ذهن حاييم . وكلما شحذ ذاكرته محاولا ان يتذكر اين سمع هذه العبارة ذات مرة ، ازداد تكراره لها بالحاح مثل اسطوانة مشروخة .

ولم «تتركه» هذه الكلمات التي اثارت ملله الا عندما دوت صيحة كنوخ المبحوحة ، عندما اعلن «القاطرة» عن استئناف تفريغ العلف المضغوط من السفينة الاسترالية . ودبت الحركة من جديد في كل شيء على المرسى ، ولكن لم يعد هناك ذلك الاستعجال الخاص ، ولا النظام الدقيق ، ولا الهدوء والغموض اللذان احاطا بالتفريغ ليلا . فبين الحين والحين كانت تدوى زمارات الشاحنات الحادة الآتية لاستلام العلف وسباب وصيحات السائقين ، وهدير محركات السيارات الراحلة ، وكان الحمالون يثرثرون ويتسابون اثناء سيرهم .

وقال كنوخ وهو يمر بجوار حاييم :

- اسمع يا انت ! رفيقك هناك يكاد يتمزق قطعاً . . .

ومرة اخرى لم يكن حاييم واثقا من انه فهم كبير الوكلاء الفهم الصحيح وما اذا كان يريد منه ان يذهب الى يوناس ، ام انه قال ذلك لمجرد حثه على العمل .

فجري حاييم حتى لحق به وقال :

- عفوا يا رفيق دافيد كنوخ ، لم اسمع ما قلته بسبب ضوضاء السيارات .

فأجاب كنوخ بغضب :

- ماذا بك ، هل شاركت زوجتك في صممها؟ لقد سمعت انها فيما يبدو صماء بكما .

توقف حاييم مذهولاً . واندفع الدم الى وجهه . وفي تلك اللحظة فقد سيطرته على نفسه ، وكان على استعداد لكي يرد الصاع صاعين على وقاحة كنوخ الفظة ، ولكن الاخير انعطف بحدّة نحو السلم ، وصعد بسرعة كعادته ، بينما بقي حاييم في الاسفل ، وهو يبتسم بمرارة ، اذ كان يفكر كيف ان كنوخ كان سيفتك به لو انه رد على خشونته بالخشونة .

وصاح به كبير الوكلاء من السطح العلوى :

- انت ايها الاحمق ! هل تحتاج الى دعوة خاصة ؟

لم يجب حاييم بشيء ، واندفع الى المخزن ركضاً وكان احدا لسعه بسوط .

استقبله نوتسى باللوم ، فلم يحاول حاييم ان يلتمس لنفسه  
الاعذار . كان يعطف على صديقه مخلصا ، اذ اتضح انه فى المخزن  
ايضا كانت تجرى عملية شحن «علف الماشية» .

ودس نوتسى فى يد حاييم قميصا مبللا وقال :  
- انشره بسرعة على تلك الشجرة - و اشار الى تل احمر  
تنمو عليه شجرة وحيدة كان الحمالون عادة يعلقون عليها قمصانهم  
المبللة بالعرق - واذا رأيت اشخاصا مريبين انزعه ! فهمت ؟  
وصعد حاييم تلا شديد الانحدار ، الهبته الشمس ، وعلق  
القميص على الشجرة وتلفت حوله . من هذا المكان كان من الممكن  
بوضوح رؤية الطريق الى المخزن وكل المساحة المحيطة بمنطقة  
الشحن والتفريغ ، وكذلك جزء من الرصيف . ولم يكن هناك اى  
شئ مريب فى المنطقة .

ولم يمر نصف ساعة الا وغادرت المخزن ثلاث شاحنات محملة  
حتى النهاية ، ولم تظهر من تحت اغطيتها المشمعة الا بالات قش  
رخوة ، وحلت محلها ثلاث شاحنات فارغة وقفت لصق باب المخزن  
العالى مباشرة .

اوشكت الشمس على المغيب عندما عاد حاييم الى المخزن  
بالقميص الذى كان قد جف منذ فترة طويلة . لم يبق هنا اثر  
للاسلحة ، الا ان يوناس ظل لسبب ما منفعلا ، متعجلا يروح ويجىء .  
واغتسل على عجل وسوى شعره على الماشى وسأل :

- هل تعبت ؟ - واستطرد دون انتظار للرد - انا ايضا .  
جدا ! لم اتمكن من اغماض عيني حتى اثناء الراحة . لقد جاء  
سيمون ، وتفقد كل ركن وطاف هنا . وعموما فقد رأيتك انت !  
لم اتمكن حتى من ازدراد لقمة . بالطبع كل هذا ليس مهما ، رغم  
انهم يقولون ان الجوع كافر . . .

فقال حاييم باعتذار :

- لم يبق لدى شئ يا نوتسى مع الاسف . اكلت كل ما  
كان معى مساء امس ، والله !

- لا ، لا ! . . . على اى حال ليس لدينا وقت . انظر كم  
الساعة الآن ؟

وانقبض قلب حاييم ، وومضت في راسه : «امن المعقول انهم يدبرون شيئا آخر ليوم كامل ؟» .  
ومضى نوتسى يقول :

- علينا اليوم ان نزور مكانا آخر . على الارجح ان السيارة تنتظرنا عند رصيف التفريغ . وكنوخ ايضا سيذهب . ستري كم سيكون ذلك ممتعا . . هيا بنا !

وبصعوبة شدا الباب الثقيل الذى كان ينزلق بصريير على بكر صدى . وشبك نوتسى قفلا ضخما في حلقتى الباب واوصده ، وحث حاييم على الاسراع بينما انطلق وهو يكاد يركض الى رصيف التفريغ ، اذ كان من المحتمل ان يسافر كنوخ وحده : ذلك لانه تحل عشية السبت . . .

ولم يجرؤ حاييم على ان يقول ليوناس انه متعب وجائع وقلق جدا على اويا .

تبادل نوتسى عدة كلمات مع سائق في السيارة . وكالعادة رد السائق عليه باقتضاب شديد ، وكأنما هو عازف عن الحديث ، وبنبرة لا تدل ابدا على وضعه كمرؤوس . وفي هذه المرة ايضا فكر حاييم بان هذا السائق الصامت لا يقوم فقط بوظيفة السائق في مكتب التصدير والاستيراد .

لم ينبس حاييم طوال الطريق بكلمة . كان يفكر في اويا فيساوره القلق : «لعلها الآن تبكى ثانية . تخاف من البقاء بمفردها . . انها في الشهر السادس . . اما انا فربما اضطرت للعمل عدة ايام وليال في استلام «علف الماشية» . لقد تحدث نوتسى عن ذلك بالامس . . .» .

توقفت السيارة بجوار بيت عتيق ، غير بعيد عن وسط تل اييب .

وقال نوتسى وهو يجتاز العتبة :

- خازاك ! \*

- فاجابه الشاب الفارع الواقف عند الباب بحيوية :

- خازاك !

\* شد حيلك ! (تحية بالعبرية) .

وسار حاييم في اثر يوناس وهو يجرجر ساقيه من التعصب  
والجوع ، وردد وراءه آليا :  
- خازاك !

ونظر الشاب الواقف في الباب باحتقار ودهشة الى هذا الرجل  
الاحمر الشعر المحدودب من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وكاد  
ان يشده من كفه ، ولكن يوناس السائر في المقدمة توقع ذلك  
فيما يبدو فالتفت وصاح بنبرة آمرة :  
- انه معى ! رفيقنا .

عندئذ تعطف الشاب بالرد على حاييم :  
- خازاك !

وانحسر حاييم في طرقة ضيقة مظلمة ، وخرج منها الى غرفة  
كانت بائناها اشبه بالمطاعم ذات الاطباق الشهية المنتشرة في تل  
اييب على نطاق واسع .

كان الزحام شديدا هنا ، ولذا فقد استند الى الجدار مرهقا ،  
وتفحص هؤلاء الاشخاص الغرباء بنظرة لامبالية . واستنتج حاييم من  
متابعته لنوتسى انه من المترددين على هذا المكان وان الجميع  
يحترمونه ، اذ كان ينحنى بعظمة للبعض ، ويربت بود على اكتاف  
الآخرين ، ويصافح بوقار البعض الثالث . . . . . وها هو قد وصل  
الى طاولة مجاورة للحائط المقابل للمدخل ، وبحث بعينه عن حاييم  
حتى وجده ، فلوح له بيده مناديا . وعندما جاء حاييم ، قدمه نوتسى  
لرجل يجلس الى الطاولة بجوار امرأة شابة في بلوزة شبه عسكرية .  
- تعرفوا . . . هذا رفيقنا . . حاييم فولديتير .  
فقال الرجل :

- أهو مستجد ؟

فأكد نوتسى مبتسما :

- نعم ، بالطبع ، ولكن هذا «المستجد» قد تدرب في  
«الاكشرا» - ثم استطرد وهو يميل على اذن الرجل كأنما يفضى بسر  
ولكن بصوت عال - وبالمناسبة فهو لم يؤد «الاكشرا» عن نفسه  
فحسب ، بل عن رفيقنا سيمون سلمونزون ايضا . . . . نعم ، نعم !  
هذا «بالمناسبة» . . . .



فأبدى الرجل دهشة حقيقية ونهض مصافحا حاييم :  
- هكذا ! تشرفنا يا رفيق ! امثال هؤلاء الشبان مطلوبون  
هنا ، نعم ، نعم !  
وتضرج حاييم بالحمرة .  
وسألت المرأة :  
- هل من الممكن تسجيله ؟ ام انه سيحضر اجتماع اليوم  
فقط ؟

فهتف نوتسى وربت على كتف حاييم بحماية :  
- ماذا تقولين ؟ سجله طبعاً . انه يعمل عندي في الميناء !  
وفجأة احس حاييم الجائع المتعب بانه نجم الحفل . اخذ الناس  
الذين لا يعرفهم يصفحونه ويبتسمون ، ولسبب ما يتطلعون اليه  
بحسد . وعموماً كان اليوم الماضى بالنسبة له بالفعل اشبه  
«بالتعميد» . . فقد اطلعوه على كثير من الاشياء التى كانت سرا حتى  
لكثير من المتطوعين القديرين .  
ودون ان يدري اصبح حاييم فولديتير عند «منابع الاحداث»  
كما قال له نوتسى يوناس عشية انتقاله الى العمل في الميناء .  
صحيح ان حاييم اجابه انذاك مازحا بانه «ما زال على ان اتبين اى  
حادث هذا الذى تورطنى فيه !» .

ولكن نوتسى يوناس ، لحسن الحظ ، لم يدرك معنى التهكم  
في هذه المزحة . وعموماً فقد كان يغفر الكثير لمرؤوسه معتبرا انه  
شخص «قصير النظر» وغير عملي ولكنه شاب مخلص ونزيه الى ابعد  
الحدود . وعندما علم انه تزوج بفتاة صماء بكماء ازداد يقينا بان  
حاييم رجل «من عالم آخر» ، فسماه دون حرج غيبيا شريفا حكم على  
نفسه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . ولكن هذه الخصال بالذات هى  
التى كانت تناسب نوتسى . ولذا فقد اخذه للعمل في مكتب التصدير  
والاستيراد . اما حاييم فلم يفتن بعد الى ان نوتسى لم يلحقه  
بالعمل بدافع الرغبة البسيطة والطبيعية ، كما هو مفروض ، في  
مساعدة رفيق . بل كان يظن بسذاجة انه اصبح في وضع متميز عن  
المتطوعين الآخرين فقط لانه ادى «الاكشارا» نيابة عن سلمونزون  
الذى لم يره آنذاك ، وان هذا عندما التقى به في فلسطين عامله

بمودة ودبر له المسكن والعمل كرد للجميل ، وعندما تأكد فيما بعد ان حاييم فولديتير دؤوب ونزيه ومطيع ، لم يرفع راتبه فحسب ، بل اولاه ثقة كبيرة بنقله الى ميناء يافا في عمل يتصل باستلام شحنات خاصة لم يكن يعرف بها الا القليلون جدا .  
ولما كان حاييم يفكر بهذه الصورة ، فقد اعتبر نفسه محظوظا ، ولكن شيئا ما في اعماقه كان يقلقه ، ويعذبه ، بل واحيانا يرعبه . وهمس نوتسى يوناس في اذنه وكأنما استشف حالته :  
- لقد نلت ورقة رابحة نادرة يا حاييم ! اتدرى اى اناس سيكونون هنا اليوم ؟ ان الاعمال العظيمة التى سيجرى عنها الحديث لم تراودك حتى فى الاحلام !

هز حاييم كتفيه الهزيلتين في صمت . وطافت بشفتيه الشاحبتين ابتسامة خجلى ، ولمعت عيناه الرمايتان بدهشة قلقة . تذكر الآن فقط ان سائق سلمونزون انزل في البداية دافيد كنوخ ، ثم انزله هو ونوتسى بعد بضعة احياء وانهما دارا طويلا عبر الازقة قبل ان يبلغا البيت المطلوب من الجهة الخلفية . واصبح من الواضح له ان هذا الاجتماع يعقد سرا ، وانه صار فجأة ودون ان يتوقع في عداد مجموعة من المتأمرين .

استند حاييم الى الجدار كيتيم وتطلع الى الناس المهرولين من حوله وهم منفعلون ، ولكن افكاره كانت بعيدة عما يدور هنا . كان يفكر في انه من المستبعد ان يكون الرجل والمرأة اللذين قدمه اليهما يوناس منذ قليل مخلصين في اعرا بهما له عن الاحترام الخاص عندما علما انه ادى «الاكشارا» نيابة عن صاحب مكتب التصدير والاستيراد . فهما يعرفان جيدا انه لم يكده بدل اثنين الا مضطرا بدافع العوز . كما لم تكن المشاعر الوطنية السامية هى الدافع الى ذلك ولكنها كانا يعرفان ان مبعوثى مختلف الجمعيات الصهيونية كانوا يسلطون دعايتهم على هؤلاء المتطوعين امثاله من ابناء الاسر الفقيرة ، فيوحون اليهم بان «الواجب الوطنى السامى لكل يهودى هو ان يشارك فى خلق وطنه القومى» ، وان هذا وحده هو ما يستحق ان يعيش المرء من اجله ويموت . ولم يبخل المبعوثون بالوعود لاستمالة الشباب ، وكانوا يجبرونه على اداء التدريب العملى الزراعى

والذى لم يكن يسمح لاحد بدون ادائه بالحصول على «شهادة السفر» و«التأشيرة» التى تخوله حق التوطن فى «ارض الاجداد» .

وقد شمل مثل هذا «الاجراء» حايمم ايضا . فقد تشكل فى حينه «الفوج» الدورى بمساعدة المبشر السمسار فى «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» . وتشكل «الفوج» من بعض اعضاء جمعية «هاردونيا» ، واطلق عليه اسم «يوسف ترومبلدور» . والحق حايمم متطوعا بهذا «الفوج» . وعقد المبشر السمسار ، الذى كان يعمل باسم «الفوج» ، اتفاقا مع مدير مزرعة كبيرة قرب مدينة تيرجو-جيو الرومانية . وبموجب هذا العقد تعهد «فوج يوسف ترومبلدور» بان يقوم خلال موسم واحد باداء جميع الاعمال الزراعية ، ابتداء بالبدار وانتهاء بجمع محاصيل الحبوب والعلف والخضروات والكروم والفواكه . ولم يكن صدفة ان يخلو العقد من النص على عدد المتطوعين المكلفين بهذه الاعمال ، فقد كان عددهم فى القائمة اكبر بكثير من عددهم الفعلى . وكان افراد فصائل العمل هذه من ابناء الاسر الغنية لا يؤدون التدريب العملى بل يكتفون بدفع بدلات نقدية لصندوق «الفوج» . وكثيرا ما كانت الفصائل التى نظمتها الفروع الصهيونية فى كثير من بلدان العالم تضم الى عضويتها متطوعين متنكرين ، فقد كان ممثلو «اكسيونس كوميتى» السريون الذين يعملون اما بارسال ابناء قومهم الى فلسطين (بالتحايل على القوانين بالطبع) او كانوا يؤدون مهام سرية لقسم العمليات الخاصة التابع للهاجانا ، بل وحتى لاركان «الماساد» نفسه مباشرة ، كانوا يؤدون التدريب باسماء مستعارة . وكثيرا ما كانت هذه المؤسسات ، عندما تتلقى من رجالها هذه المعلومات او تلك ، ذات القيمة بالنسبة للمخابرات البريطانية او الامريكية ، تتنازل عنها لها فى اطار تبادل المعلومات من هذا النوع . وبالطبع ظل هؤلاء المندوبون السريون «للاكسيونس كوميتى» مجهولين الى الابد بالنسبة للمتطوعين العاديين . وكان البدل النقدى يدفعه عنهم بالتضامن اصحاب الحوانيت والتجار احيانا ، وحيانا اخرى يدفعه حتى الحرفيون والموظفون الذين فرضته عليهم الطوائف اليهودية المحلية .

وكان المتطوعون الفقراء ، الكادحون امثال حايمم ، يؤدون

التدريب العملي (الاكشارا) عوضا عن الاشخاص «الخفيين» ، ابناء  
الاسر الغنية . ولم يكن حايم يحب تذكر تلك الايام . واثارت  
الاشارة اليوم الى تدريبه العملي الالم والاهانة في قلبه . وقال في  
نفسه : «فليذهبوا الى الشيطان ! انهم يحابوننى لا لاننى حصلت  
بالعمل الشاق الشريف على حق المجيء الى هنا ، بل لاننى تحملت  
هذه الاشغال الشاقة بدلا من سلمونزون الثرى !» .

وتذكر حايم بابتسامة مرة ذلك الشعار المعلق على مدخل  
العنبر الذى استقر فيه المتطوعون اثناء اداء «الاكشارا» . كان  
مكتوبا على الشعار «اربايت ماخت جليكدخ» \* . ولكن العمل لم يجلب  
اية سعادة منذ ذلك الحين وحتى الآن . . . ومن المستبعد ان يحصل  
عليها في المستقبل المنظور . وقال حايم لنفسه : «نوتسى يعتبر  
اننى ما دمت شريفا ، فلا بد ان اكون غبيا . . .» . وتذكر كيف  
عرضوا ذات مرة اثناء التدريب العملي فلما تسجيليا . ولفت انتباهه  
شعار معلق على مدخل معسكر اعتقال هتلرى لليهود . وكانت  
كلمات الشعار تقول «اربايت ماخت فراى !» \* \* . وذهل حايم  
انذاك من هذا التماثل الغريب .

واجاب نوتسى على ملاحظته بلا رغبة : «الدنيا مليئة بالتماثل .  
هذا تطابق بالصدفة لا اكثر» .

فبسط حايم ذراعيه قائلا : «يا له من «تطابق» . . ان تكون  
شعاراتنا وشعارات الفاشيين واحدة !»

فقاطعه نوتسى انذاك بغضب : «هلا سكت ! وعموما عليك ان  
تفكر قبل ان تقول شيئا . . .» .

ومنذ ذاك الحين لم يعد حايم يسأل احدا عن شىء ولا يدهش  
لشىء . ادرك انه عليه ان يتحمل فهو لم يقسم فقط امام اللجنة  
التي قبلته على الطاعة التامة فحسب ، بل ووقع كذلك عقدا يلتزم  
فيه بالعمل بدقة والمحافظة على قواعد السلوك والنظم المتبعة في  
«الفوج» حتى لا يسبب حرجا للذين زكوه من قيادة جمعية «هاردونيا»

\* «العمل يجلب السعادة !» (باللغة اليديش ) .  
\* \* «العمل يجلب التحرر !» (بالالمانية) .

والطائفة اليهودية المحلية . وقد جرى ذلك كله في حضور والد  
حاييم . وكان الامتناع عن اداء التدريب في «الاكشارا» مستبعدا ،  
اذ كان ذلك يجبر متاعب كبيرة على حاييم واسرته .  
وقبل سفره الى فلسطين ، عندما كانت عظامه تؤلمه من  
المجهود الشاق التقى في كونستانسا بايليا توموف وافضى له بما  
يعتمل في نفسه .

«انظر الى يدي وستدرك كم كلفني هذا التدريب . . . لقد  
كان الاقطاعي في العادة يستأجر مائة شخص ، اما نحن فكنا ثلاثين  
متطوعا فقط . ارأيت الفرق ! وكان الاقطاعي مستفيدا من ذلك ،  
لان عملنا كلفه اقل بكثير من عمل الفلاحين . ولكن لو رأيت يا ايليا  
كيف كرهنا فلاحو القرى المحلية ! من هنا ينشأ العداء للسامية !  
اليس كذلك ؟ يمكنك ان تقول اننا نهبنا هؤلاء الفلاحين ، اى  
والله ! فهم لا يعيشون الا على الاعمال الموسمية . هل تصدقني  
لقد كان قلبي يتمزق ! . . وفكرت اكثر من مرة ان اهرب من  
هناك ، ولكنى كنت اواجه بالسؤال : «وما فائدة ذلك ؟ لا شيء .  
لا لى ولا للفلاحين . سيرحل المتطوعون الى فلسطين وابقى انا .  
ويأتى هتلر فيقتلنى . انت نفسك ترى ماذا يجرى هنا . . . واضطرت  
للتسليم والاستمرار في هذا التدريب الشاق بصعوبة لكى احصل  
على الحق بالرحيل الى فلسطين ! وها انذا مسافر ! ان رجالنا الكبار  
يؤكدون ان العسل يجرى هناك انهارا ! سوف نرى . ولكنى اخشى يا  
ايليا ان اجد ذلك العسل حنظلا . . .»

تطلع حاييم الى الصورة المعلقة في مواجهته لرجل ذى لحية  
سوداء ، وقد عقد ذراعيه على صدره . وتحت الصورة علق شعار  
ابيض في طرفيه نجمتان زرقاوان كبيرتان سداسيتان «لدرع داوود» .  
وفي وسط الشعار كتب :

«لقد اقامت الدولة اليهودية في بال . وربما تثير هذه الكلمات  
الضحك اليوم ، ولكنها بعد خمسين عاما ستصبح بالتأكيد امرا  
واقعا .

هرتزل»

قرأ حاييم هذه العبارة عدة مرات . وحول نظره ثانية الى الصورة ليدرك كنه العبارة . وبعد ان حدق حاييم في هذا الرجل مليا ادرك اخيرا بمن يذكره هذا الميل القليل للرأس ، والنظرة الصارمة ، واليدين المعقودتين على الصدر . . انه يشبه بالضبط نابليون في صورته . وقال حاييم لنفسه : «هل كان يقلده ؟ ايريد ان يصبح بونابرت ؟» ، وتذكر ان هتلر في الملصقات يبدو في هذا الوضع ، ويعقد يديه على صدره عاليا هكذا بالضبط ! وحتى العبارة المكتوبة هناك تحت الصورة تشبه هذه . لقد كان حاييم وتوموف يقومان ليلا بنزع هذه الملصقات ، ولذلك تذكر جيدا تلك العبارة الرنانة :

«لقد اسست في ميونيخ نواة الحزب . . . وقد قدر لي ان اقوم بالمهمة المقدسة ، مهمة اقامة دولة بمائة مليون الماني يعيشون في اراضيها عيشة راسخة . . . وربما اثار هذا ضحك البعض اليوم . . . ولكن امهلوني اربعة اعوام واقسم لكم . . .»  
ومسح حاييم على جبينه وهو يقول لنفسه : «ما هذا ؟ توافق آخر ؟»

في تلك الاثناء تفرق الاشخاص الواقفون تحت الصورة ، فرأى حاييم الطاولة التي يجلس اليها بضعة اشخاص . وفي وسطهم كان سيمون سلمونزون . وراح رجل في حوالى الخامسة والاربعين يرتدى قميصا حائل اللون ، يتحدث دون مقدمات عن الوضع الراهن في فلسطين .

وكان ما اثار اهتمام السامعين بصفة خاصة ما ذكره عن ان الانجليز اكتشفوا وصادروا مخزنا للأسلحة والذخائر في قرية بن شمش تابع «لارجون تسفاى ليومي» .  
وقال الرجل ذو القميص الحائل اللون بنبرة ايقاعية مبرزا كل كلمة :

- انها لحقيقة مؤسفة ان هذا الفشل ليس الاول من نوعه . . .

واعاد الى الازهان انه منذ عدة اشهر ، وعلى وجه الدقة في اواسط اكتوبر ، احتجز الانجليز خمسة واربعين متطوعا كانوا

يؤدون التدريب العسكري ، وصادروا جميع اسلحتهم وعتادهم .  
واشار الى حادث آخر وقع بعد ستة اسابيع عندما القي القبض على ثمانية وثلاثين شخصا من البيتاريين المراجعين كانوا يؤدون التدريب العسكري قرب احد الكيبوتسات وصودرت اسلحتهم وذخيرتهم .

وقال المتحدث بهدوء وايقاع ، دون ان يرفع صوته او يخفضه ان السبب في كل هذه المصائب هو الثقة المفرطة وعدم الحرص لدى الاشخاص الذين عهدت اليهم «اكسيونس كوميتي» عمليا بتنفيذ المهمة التاريخية . وادانهم لانهم سعيا وراء الربح يحملون واجباتهم المقدسة وكثيرا ما يعهدون بها الى اشخاص عابرين لم يتميزوا باى شىء في حركة «التحرير» ولم يؤدوا اية خدمات للصهيونية عامة .

- ان هؤلاء الاوغاد الذين تمكنوا من كسب ثقة رجالنا فاطلعوا على خفايا الاسرار ، يبلغونها لاعدائنا اللدودين مقابل مكافآت تافهة . . .

وغابت كلمات المتحدث الاخيرة في هدير الاصوات الغاضبة ، ولكن الرجل ذو القميص رفع يديه فصمت الجميع .

- وعلاوة على ذلك فان المعلومات التي يزود بها هؤلاء الاوغاد اعداءنا لا تقتصر على تحديد اماكن هذا المخزن او ذاك للأسلحة التي خبأناها ، بل وتحتوى ايضا على بيانات بمصادر هذه الاسلحة ! ونحن جميعا نعرف من اين تأتي الاسلحة . ولهذا السبب يديننا الكثيرون . بيد اننا لن نستطيع ان نحصل من اى طرف آخر على اسلحة بهذه الشروط المجزية وبهذه الكمية الكبيرة ! ولهذا ، ولهذا السبب وحده ، فاننا لا نتورع عن عقد صفقة مع البلد الذي تعرفونه ومع الحكام الذين تعرفونهم . اننا نقدم على هذه التضحية الاخلاقية من اجل تحقيق هدفنا النهائي . اما اولئك الذين يخونوننا فيقدمون مادة دسمة لاعدائنا الذين يدعون ان الصهيونية لا تتفق ومصالح الشعب اليهودى في الشتات .

واشار المتحدث الى ان الانجليز ربما ما كانوا ليلجأوا الى اقصى الاجراءات لولا اضطرارهم الى مغازلة العرب وتقديم تنازلات

طفيفة لهم . واعلن استنادا الى «مصدر موثوق به للغاية» ان هناك شائعة تدور في اوساط قيادة القوات البريطانية بان السلاح والذخيرة والمفرقات تتسرب من المخازن الحربية ومن مختلف المنظمات العسكرية المنتشرة على اراضى الشرق الاوسط .  
ومضى المتحدث يقول :

- منذ ايام القى الانجليز القبض على اثنين من رجالهم العسكريين وهما هاريسون وستونر . ولقد ذكرت اسميهما لان على بعض الجالسين هنا ان يتخذ ما يناسب من الاجراءات . . . .  
لقد بدأ التحقيق ، وليس من المستبعد ان يمثل امام القضاء اشخاص آخرون . فمثلا هناك مختار احدى القرى العربية متورط في هذه القضية . وبالطبع فقد علم العرب بكل ذلك ، فتوجهوا باحتجاج جديد الى المفوض السامى البريطانى . وقد تناول الاحتجاج نشاط «ارجون تسفاى ليومى» والهاجانا . ويؤكد العرب ان الخلاف بينهما مجرد خدعة ، وان الاتصالات بينهما مستمرة . واكد الاحتجاج ان عصابة «شتيرن جانج» الارهابية التى تساندها «الوكالة اليهودية» ما زالت تعربد . . . . وخصص العرب في احتجاجهم قسما كبيرا للحديث عن شبكتنا التى تعمل على تهريب الاسلحة والذخيرة الى فلسطين . وبالمناسبة ورد هناك ذكر قاعدتنا في قبرص كما انهالت اللعنات على الحاخام بن صهيون هاجرا المحترم الذى يستحق كل ثناء ! . . .

وعندما سمع حاييم هذا الاسم تملعل ، ونظر الى نوتسى يوناس الواقف بجواره فهمس هذا له :

- انه لم يتكلم ابدا بمثل هذه الصراحة . . .

- ومن هو ؟

- صه ! اسمع . . . هذا مهم للغاية !

ادرك حاييم ان نوتسى تهرب من الاجابة . ولكن الامر كان سيان بالنسبة له ، فقد كانت جفونه تنطبق ورأسه يطن ومعدته تعوى .

ولكن ما سماه يوناس «مهما للغاية» انتهى . فقد ختم المتحدث كلمته بعدة عبارات عامة حول ضرورة التمسك الشديد



بالسرية ، وبالذقة والحكمة في اختيار الاشخاص الذين سيزداد عددهم باستمرار باتساع مجال نشاط المنظمات العسكرية السرية . . .

وهمس نوتسى فى اذن حايميم :

- ستسمع الآن . . . سيتحدث ممثل قيادة «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» . لقد وصل توا من واشنطن . . . ها هو !

ونفض من خلف الطاولة رجل ربعة ممتلي\* ، بشعر اشيب متموج . وعلى غير المتوقع تحدث بصوت شاب رخيم وراح يشرح للسامعين المهمة الملحة لقيادة منظمتى الهاجانا و«ارجون تسفاى ليومى» ، وكذلك منظمة «شتيرن» التى اعيد تشكيلها مؤخرا ، الا وهى استغلال الظرف المواتى نتيجة دخول بريطانيا الحرب ضد المانيا . و اشار المتحدث الى جانبين من جوانب نشاط هذه المنظمات : ضرورة القيام بمبادرات واسعة للتوصل بسرعة الى تفوق عددى لليهود بين سكان فلسطين ، وتدعيم الدفاع الذاتى عن اراضيها بكل الطرق .  
وقال المتحدث :

- ان الهجرة الجماعية ستظل هى اساس كل شىء ، لانه بهذه الوسيلة فقط سنستطيع فى المستقبل القريب ان ننشئ\* وطننا قوميا لليهود يعترف به القانون الدولى ، ثم بعد ذلك نوسع مساحته كما اوصانا الاجداد من نهر مصر\* الى نهر الفرات .

لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يسمع فيها الحاضرون هذه الجمل الرنانة ، بل كان الكثيرون قد ملوا سماعها . وربما لذلك لم تشر فيهم للوهلة الاولى اى حماس . وحلت فترة صمت محرجة ، قطعها شخص نحيل اسود الشعر يجلس فى الصف الاول . فقد بدأ يصفق متأخرا ولكن بعنف وعناد حتى تحول التصفيق المنفرد لبعض من ايدوه الى تصفيق جماعى من كل الحاضرين .

\* نهر النيل (حسب التوراة) .

ومضى المبعوث القادم من وراء المحيط يقول :  
- ينبغي زيادة حجم الهجرة يوما بعد يوم باى ثمن وباية  
وسيلة ، دون التفات الى اية كتب «بيضاء» او اية كتب من لون  
آخر !

فصاح الرجل النحيل الاسود الشعر ، الجالس فى الصف  
الاول :

- مضبوط !  
وقفز من مقعده واستدار ليواجه القاعة ومضى يصيح :  
- بالضبط ، باى ثمن وباية وسيلة ! علينا ان نجبر  
الانجليز بقوة السلاح على ان يكفوا الى الابد عن اعادة المهاجرين  
من حيث جاؤوا ! كفى اهانات ! كفى تنازلات ! كفانا هذا التردد  
الاحمق وعدم الثقة !

وهمس نوتسى وهو يلكر حايم بكوعه :  
- انه شتيرن ! . . فتى ممتاز . . بارود !  
تطلع حايم بفضول الى ذلك الرجل المعروف ذى السحنة  
المقلوبة من الحقد . لقد سمع من قبل عن هذا الصهيونى  
المتعصب . وتناقلت الالسن الاساطير عن قسوة «رجال شتيرن»  
وشهوتهم الى الانتقام والمذابح التى كانوا يرتكبونها ضد  
المسلمين والمسيحيين . وكان البوليس البريطانى يبحث عن  
شتيرن والعرب يهددون بشنقه ، وكان هناك كثيرون من بنى  
قومه يتوقون الى التخلص منه ، الا انه ظل حيا يرزق وازداد  
شراسة .

وقال مبعوث واشنطن بنعومة مخاطبا شتيرن :  
- ان صحة مطالبنا لا شك فيها ، ولكنك ستوافقنى على  
اننا محتاجون لا لمئات الشبان بل لآلاف كثيرة من امثالك الغيورين  
والمتفانين فى النضال من اجل قضيتنا المقدسة . والا فلن نوفق  
فى مهمة استعمار الاراضى الجديدة التى ستنتقل منذ الآن  
وباستمرار الى ملكية وطننا . وانت وانا ندرك ضرورة ذلك ومدى  
اهميته . . .

كان يتحدث بهدوء وتؤدة ، وكانت حركات يديه المنعمتين  
رشيقة وانسيابية .

وعندما تأكد العجوز ان شتيرن راض عن اجابته ، انتقل الى  
الحديث عن وسائل واساليب التأثير على الاقارب القاطنين في  
الشتات بهدف التوصل الى هجرتهم الجماعية الى فلسطين .  
- لا ينبغي ان نخجل من تصوير الحياة على ارض الاجداد  
لاخوتنا في العقيدة بانها نعيم . صحيح انه لا توجد هنا انهار من  
لبن او شطآن من مهلبية ، والحياة ابعدها ما تكون بعد عن النعيم ،  
ولكن كل ذلك سيتحقق بمجرد ان يدرك رجالنا انهم امة واحدة ،  
فيقفون تحت راية الصهيونية ، وينتقلون الى ارض الاجداد ،  
وينشئون الدولة الموحدة لشعب الله المختار !

توقف العجوز قليلا وطاق ببصره على الحاضرين . وخفض  
صوته قليلا ومضى يقول :

- ولكن الطريق الى تحقيق هذا الهدف ليس مفروشا  
بالورود . . . وانتم تعرفون ذلك ، وتعرفونه جيدا ! ولكن  
المصاعب والتضحيات الضرورية في هذا الطريق لا تقاس في صغرها  
بما يعانیه ابناء عقيدتنا في الشتات من عذاب ابدى . ونحن نعرف  
ذلك ايضا معرفة جيدة . . . ولهذا يكون من حماقة التي لا تغتفر  
ان نكف عن اقناع اخوتنا في الدم الموزعين في شتى انحاء العالم  
بالهجرة الى ارض اسرائيل ، وان نشنيهم عن ذلك بتخويفهم  
بالمصاعب والحرمان . . .

وقدم المتحدث درسا في «الدبلوماسية» الصفيقة التي  
تستهدف بعد ظهور الدولة اليهودية في المستقبل - تصوير مستوى  
التطور الاقتصادي والثقافي الراهن في المنطقة على انه ثمرة الهجرة  
الجماعية والعمل المتفاني للمهاجرين ، ثمرة الحضارة الحديثة التي  
حملوها معهم الى «ارض الميعاد» . . .

وترددت صيحات استحسان ، ولكن المتحدث رفع يده آمرا ،  
واخذ يتحدث عن وسائل «غسل مخ» ابناء العقيدة الذين يمتنعون  
عن العودة الى ارض الاباء ويرفضون افكار الصهيونية .  
ومضى المتحدث يقول بحماس :

- علينا ان نشوه سمعة هؤلاء في اعين المحيطين بهم من  
ابناء قومنا ومن غير ابناء قومنا ! علينا ان نخيرهم بين امرين :  
اما ان يتركوا اعشاشهم المألوفة وينتقلوا الى ارض الاجداد بغض  
النظر عن موقفهم المتشائم او حتى المعادى للحركة القومية ولافكار  
الصهيونية ، واما ان يذووا هناك في اماكنهم وسط اعداء سافرين  
او محتملين ، ويبقوا في حالة من العزلة المعنوية والمهانة ! . .  
ولكن اذا قلتم ان هؤلاء الناس لا يذوون هناك في اماكنهم ، وانه  
ليس هناك ظل للعداء ، كما ان العزلة المعنوية والمهانة لا وجود  
لهما ، فاننى اقول لكم : علينا واياكم ان نوجد كل هذا ! . . .  
ودون ادنى حرج اوصى العجوز باستخدام كل الوسائل لبلوغ  
هذه الاهداف ، بما فيها الوسائل الثقافية وصلات القرابة  
والعلاقات الدينية والابتزاز والاستفزاز .

- اننا ننطلق قبل كل شىء من مصالح الشعب اليهودى  
كشعب واحد لا يتجزأ ، ولا يمكننا ان نفرط فيها لصالح بعض  
المنشقين المعادين للحركة القومية . بالعكس ! علينا بكل الوسائل  
ان نجعل منهم ادوات طيعة لتنفيذ ارادة «الوكالة اليهودية» وبالتالى  
الافكار العظيمة للصهيونية .

وتناهت بعض عبارات مترددة :

- ولكن ذلك قد يشير الشقاق بين الاقليات اليهودية !  
- وقد يعرضهم لمزيد من الاضطهاد من جانب الآخرين !  
فمسح المندوب الامريكى بيده على شعره الاشيب الكثيف  
وابتسم بسرور وقال :

- وهل هذا سيبى ؟ كلما ازداد الماضى سوءا يصبح الحاضر  
احسن ! وهذه هى مهمتنا بالضبط . فلتصبح ظروف معيشة  
اخوتنا في الشتات غير محتملة . وهذا بالضبط ما سيجعلهم  
يحولون انظارهم الى فلسطين .

ومن جديد صاح شتيرن :

- مضبوط ! اقترح ان يتعرض اليهود الذين يرفضون  
اقامة علاقة مع وكالتنا ويعارضون الهجرة الى ارض اسرائيل لاقصى  
انواع الاضطهاد الدينى وللمقاطعة المدنية الشاملة والمطاردة

القاسية ! . . بل وحتى للتصفية الجسدية ! - وتوقف قليلا  
وطاف على الحاضرين في الغرفة الخائقة بنظرة قاسية ، ثم رفع  
صوته الى درجة الزعيق قائلا :

- فليكن هذا تحذيرا صارما لكل اليهود الحقراء المصابين  
بمرض الاندماج . . .

وايده نوتسى يوناس :

- صحيح ! برافو يا شتيرن ! انهم على اى حال لم يعودوا  
يهودا بل من ملة اخرى ! لا يأتى منهم الا الضرر . . .

ومن زاوية الغرفة البعيدة جاء سؤال :

- الا يعتقد الرفيق شتيرن ان مثل هذه الاجراءات الصارمة  
قد تنفر منا المترددين ؟

وقال صوت شاب رنان مؤيدا :

- ان هذا التطرف عموما لا يعود في رأى بالفائدة الا على  
اعدائنا . . .

لم ترق هذه الملاحظات لشتيرن فهب واقفا وكانما صبوا  
عليه ماء يغلي . وراح يشيح بيديه وينثر رذاذ لعابه وهو ينهال  
بالسباب على اولئك الذين «يدعون الى الحذر لا لشيء الا خوفا على  
جلودهم» على حد تعبيره .

حاولوا تهدئته مؤكدين له انه ليست هناك خلافات جوهرية ،  
ولكن الجدل الناشب تحول الى سباب جماعى متبادل . ونهض  
الحاضرون من مقاعدهم وهم يشيحون بايديهم بعنف ويحاول كل  
منهم ان يطغى بصوته على الآخرين . وبدا وكان عراكا وشيكا  
سينشب .

وضاعت هباء دعوات رئيس الجلسة بالالتزام بالنظام رغم  
منصبه الكبير الذى يشغله في «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» .  
وكان شتيرن يندفع من ناحية الى اخرى وقد شوه الغضب سعنته ،  
فيهدد البعض بقبضته ، وينعت البعض الآخر بارذل الشتائم . . .  
راقب سيمون سلمونزون باضطراب هذه المعمة وهو يحاول  
ان يضفى على وجهه تعبيرا بالازدراء واللامبالاة . وقرز ان يستغل  
الاضطراب الناشئ ليظهر للجميع ، وخاصة مبعوث واشنطن ، مدى

هيبتة العظيمة . لقد كان يقيس تأثيره على المتجادلين المتعصبين ،  
ومن ضمنهم شتيرن ، بمعيار واحد يفهمه الجميع ، الا وهو تبعيتهم  
المالية لمكتب التصدير والاستيراد .

فنهض سلمونزون بحزم ، وشرع يده عاليا ، وظل على هذا  
الوضع عدة ثوان الا ان الضجة لم تهدأ . وذهل سلمونزون من  
هذا التجاهل له . فانزل يده ببطء وتردد ، وراح ينزع النظارة  
دونما حاجة ويضعها من جديد على انفه المشتعل بحمرة الغضب .  
وكان يود لو جلس ، ولكنه ادرك ان الحاضرين قد يرون في ذلك  
هزيمة نهائية له . ولم يكن سيمون يريد ان يحدث ذلك ، ولذا  
فقد استمر واقفا في انتظار السكون . وكان وجهه المتغطرس اشد  
بياضا من الورق .

راقب حاييم رب العمل وفهم حالته ، ولكنه اكتشف فجأة  
ان الوضع المزرى الذي وجد فيه نفسه سيمون سلمونزون رب  
نعمته ، لا يشير فيه عطفاً عليه . احس حاييم بالشماتة ، ومضى  
هذا الاحساس يزداد ويتحول الى كراهية واضحة لكل ما يدور  
حوله .

وادرك نوتسى يوناس ايضا مدى حرج موقف سيمون ،  
فاصبح لا يالو جهدا لكي يثبت له ولاءه . وراح يتململ على الاريقة  
وهو لا يدري ما العمل ، واخيرا قفز من مكانه ورفع الى اعلى  
قبضتيه المشدودتين بقوة وصاح بلوعة :

- صمتا ! اتسمعون ؟ صمتا والا اطلقت النار !

تلقت الواقفون بالقرب وتطلعوا الى نوتسى المتقد بحمرة  
الانفعال ، واستداروا عنه بلا اكرات وواصلوا صخبهم .

وكاد حاييم ان يقفز فرحا . وقال في نفسه : «ها هو قد اراد  
ان يتزلف فلم يفلح ! شرب المقلب ! هذه الجماعة لا يمكن تفريقها  
بالصياح . . . كلا . . . ينبغي بالفعل اطلاق النار عليها ! . . انهم  
في وقاحة افراد العصابات الفاشية الحقيقية !» .

وتصور حاييم ما الذي يمكن ان يحدث لو ان هؤلاء المتهورين  
استولوا بالفعل على السلطة . . . وتنهى بعمق ، وفتح زر ياقة  
قميصه المبللة بالعرق .

وعندما هدأت حدة المشاعر قليلا بدأ سيمون سلمونزون يتحدث بعد ان فقد الامل في الانتباه العام والصمت التام ، ومضى يشرح وجهة نظره حول مبادئ ووسائل تنظيم الهجرة الشاملة لليهود .

وبعد ان اعرب عن اتفاهه مع المبعوث الامريكى ، واكد بصفة خاصة ان مقترحات شتيرن صحيحة للغاية وفي وقتها تماما ، عارض بشدة ان تشمل المطالبة بالهجرة الالزامية الى ارض الاجداد جميع اليهود بلا استثناء .

- لماذا يهاجر الى ارض اسرائيل شخص مثل مورجنتاو ؟ فمن ذا الذى لا يدرك انه وهو يشغل منصب وزير المالية فى حكومة روزفلت اكثر فائدة لنا من وجوده هنا مهما كانت صفته ؟ والبارون روتشيلد ؟ اليس من الواضح انه لو هاجر الى هنا لما كان فى وسعه ان يستخدم لصالح قضيتنا عشر ما يملكه من نفوذ ضخيم وهو موجود هناك فى اوربا ؟

ظهر على وجه حايميم ظل ابتسامة ازدراء . فلم يساوره الشك بان سلمونزون ، وهو يحاول ان يثبت ضرورة اجراء بعض الاستثناءات من القاعدة العامة ويذكر على سبيل المثال اسماء مورجنتاو وروتشيلد ، انما يعنى فى المقام الاول والديه ، وخاصة خاله ، الذى لا يفكر ابدا فى الهجرة الى فلسطين كما قال نوتسى . واستطرد سيمون قائلا :

- بل اقول لكم ما هو اكثر ! فمن بين رجال العلوم والفنون المعروفين فى العالم يوجد يهود يرفضون للاسف افكارنا واهدافنا القريبة المحددة . ولكن من الخطأ ان نحاول اقناعهم جميعا بالتخلي عن افكارهم وان نشتمهم ونبتزهم ونشوه سمعتهم ، وباختصار ان نضطرهم للهجرة الى هنا . بالذوق او بالعافية كما يقال . فعندما سئل عالم الفيزياء المشهور اينشتين مثلا عن السبب الذى جعله يهاجر من المانيا الفاشية الى الولايات المتحدة وليس الى فلسطين حيث كان سيصبح فى الغالب رئيس الدولة اليهودية التى ستأسس قريبا ، فان هذا العالم لم يبد اسفه لهجرته الى الولايات المتحدة . . . ليس هذا فحسب ، بل وسخر من فكرة اقامة الدولة اليهودية

وكذلك من افتراض ان يشغل فيها اعلى منصب . وانا اسالكم هل هناك فائدة من بذل الجهود لارشاد هذا اليهودى المرتد ؟ كلا ، والف كلا !

وقال سيمون مدعما وجهة نظره انه بالنسبة لاشخاص مثل اينشتين لا ينبغي لاعتبارات تكتيكية دفعهم الى القاء الاحاديث العامة لان الناس تسمع اراءهم . ان هذه الآراء ، ولتكن خاطئة بوضوح ، تبدو ذات ثقل وهيبة ، ولذلك فبوسعها ان تحول بسطاء الناس عن طريق الصواب . اما فيما يخص ثمار عمل عمالقة العلم هؤلاء ، فقد اكد سلمونزون بصفاقة انها سوف تسلم في اللحظة المناسبة لرجال «الوكالة اليهودية» بواسطة اشخاص يعملون الى جانب اينشتين وامثاله ويؤمنون باهداف الصهيونية وتكتيكها .  
واعلن سلمونزون بمهابة وتلذذ :

- سيقدمونها لنا جاهزة ، «على طبق» كما يقال ! وبدون اية نفقات !

ومضى سيمون سلمونزون يصور نفسه على انه وطنى نزيه بينما كان في الواقع خلفا جديرا بخاله الذى كان يسعى دائما وفي كل الاحوال الى المنفعة الشخصية . وكذلك كان سلمونزون الآن متظاهرا اكثر منه مخلصا امام الرجل الجالس بجواره الاحمر الشعر الانيق وذى الاربعين عاما ، والقادم ايضا من الولايات المتحدة ، ولكنه توقف في الطريق لفترة قصيرة في المانيا . وبالطبع كان سلمونزون يعلم ذلك هو وعدد محدود جدا من الاشخاص . . .

واستطرد سلمونزون قائلا :

- من المعروف ان اشخاصا مثل روتشيلد في اوربا ومورجنتاو في امريكا ليسوا افرادا ولا حتى عشرات ، بل هم في العالم مئات والوف . وهم يملكون قسما كبيرا من احتياطي الذهب في العالم وهم يملكون ايضا اضخم البنوك والمصانع والشركات التجارية وليس هذا بجديد ولا هو بسر . . . كما انه ليس جديدا او سرا ان الكثيرين منهم ، بسيطرتهم على حصة كبيرة من الاسهم ، يعتبرون الملاك الحقيقيين للشركات المساهمة المسيطرة في العالم ،



سواء الشركات التجارية والصناعية ام شركات السكك الحديدية  
والملاحة والطيران والشركات الائتمانية وشركات التأمين وغيرها ا  
ومن خلالهم ، وفقط من خلالهم نملك الامكانية الفعلية للتأثير من  
هنا بشكل حاسم على سياسة حكومات البلدان المختلفة ،  
ولتوجيهها الوجهة التي نريدها ، وتشكيل الراى العام العالمى  
لصالحنا . . . ولهذا فعندما نتحدث مستقبلا عن الهجرة ينبغى ان  
ندرك ان هذه المسألة ليست بتلك البساطة التي قد تبدو لنا  
للوهلة الاولى . . .

وقطع سيمون كلامه بحدّة ، وجلس ، وشرع على الفور فى  
كتابة شىء ما فى النوتة الموضوعة امامه ، وكأنما يظهر عدم اكتراثه  
باولئك الذين اضطروه منذ قليل الى الوقوف انتظارا لفرصة  
الكلام .

ومن جديد نهض الضيف الامريكى الاشيب الشعر الذى  
قوتعت كلمته فى البداية بملاحظات من الصالة ثم بمدير وصاحب  
مكتب التصدير والاستيراد سيمون سلمونزون الذى اقتحم الحديث  
دون لباقة ليقدم توضيحاته .

- انا لا اعتزم الدخول فى جدال مع المتحدث السابق - قال  
المبحوث الامريكى بهدوء وهو يومئ برأسه بسخرية ناحية  
سلمونزون - ساقول فقط انه ليس هناك داع لاقتحام باب مفتوح  
فمن الواضح كالشمس للجميع ومنذ زمن بعيد ان امثال روتشيلد  
وتبليتس ومورجنتا وغيرهم ليسوا مطلوبين هنا . ليس لديهم  
هنا ما يفعلونه . ان هؤلاء الاشخاص هم ابناء جديرون بشعب الله  
المختار ، واذا كانوا باعمالهم واجسادهم يعيشون فى الشتات ،  
فان قلوبهم وخواطرهم ملك خالص لصهيون !

وترددت فى القاعة اصوات استحسان .

واستطرد المبعوث الاشيب الشعر :

- ولكن الحديث الآن لا يدور عنهم . . ان ما يقلقنا هو تلك  
الفئة الكثيرة العدد التى تعيش فى الشتات ولا تنتمى الى امثال  
روتشيلد واينشتين . . هؤلاء اليهود ، اذا جاز ان نسميهم كذلك ،  
الذين يتبراون من اصلهم ولا يؤمنون بتفوق امتهم على الشعوب

الآخري التي تعيش في العالم ، يديرون لنا ظهورهم ويرفضون الهجرة الى ارض الميعاد . هؤلاء هم الذين سنتحدث عنهم ! هؤلاء الاشخاص بالذات هم الذين يشكلون الجماهير الاساسية المدعوة لاستيطان وتعمير ارض الاجداد ، ثم توسيع حدودها وحمايتها من الاعداء . . . . ولهذا فنحن مطالبون بالبحث عن الطرق الكفيلة بوضع كل فرد من ابناء قومنا تحت سيطرتنا المستمرة وتأثيرنا ، سواء اراد هو ذلك ام لم يرد ! . . . صحيح ان جزء منهم لا بد ان يستثنى . انهم اولئك الذين اضلتهم اوهام الشيعوية فلوثوا بذلك نقاء العقيدة اليهودية وفقدوا تماما انتماءهم الى شعب الله المختار . ومهما كان الواقع مؤلما فعلينا ان نعترف بان هذه القرحة النازفة في جسد شعبنا الصحيح ترجع في بدايتها الى رجل تربطه بنا قرابة الدم ، وان كان عموما سليل عائلة ليست يهودية بحتة . . . اننى اقصد ماركس . . . .

ترددت الهمسات من جديد وبدا كأن صرصارا طن في الصالة .  
وصمت المتحدث فلفت صمته الانتباه وساد السكون على الفور .

فمضى العجوز يقول :

- اما المصيبة الآخري التي لا تقل ضخامة فهي ان افكاره قد انبتت براعم في الدنيا كلها ، وقبل كل شيء في ابلد ضخم لا نهاية لاراضيه تقريبا ، الا وهو روسيا ! . . ان مكافحة هذا الداء امر عسير للغاية ولكنه ضرورى للغاية . ويبدو انه سيتوجب علينا في اقرب وقت ان نعود الى هذه المسألة بصفة خاصة لتحديد مدى هذا العائق الذى يعترض طريقنا . . . .

احس حايم ان قلبه يدق بسرعة . وتذكر سنوات المدرسة ، وصديقه الوفى ايليا توموف ، وقبو الشرطة الذى القوا به ، اى حايم ، فيه لتوزيعه المنشورات . ما ابعد ذلك الزمن رغم انه لم يمر عليه سوى ثلاث سنوات فقط ! هناك في عالم الناس البسطاء كان كل شيء واضحا : من هو الصديق ، ومن العدو . فماذا الآن ؟ مع من انت يا حايم فولديتير ؟ والى اين القى بك مصيرك ؟ الا ترى حقا انك لست بانسان بالنسبة لهؤلاء السادة المنعمين الذين يملكون الملايين بل بهيمة للعمل ؟ فلماذا تقف هنا ، وتصغى

لهذه الخطب الكاذبة ؟ تسمع سلمونزون وهذا المعتوه شتيرن .  
ما الذى يربطك بهما ؟ وطاف حاييم بنظره على الصالة فى دهشة :  
ولا وجه واحد يعرفه . انه غريب بين قطيع الذئاب هذا .  
قرب منتصف الليل ، عندما انتهت الخطب الرسمية غادر  
القاعة سلمونزون وشتيرن والرجل الطويل الاحمر الشعر ذو الحلة  
الرمادية الفاتحة البالغة الاناقة . واختفى ايضا نوتسى .  
كان الجو خانقا بصورة لا تطاق . ونهض حاييم وبحث بعينه  
عن نوتسى يوناس فوق بصره لاراديا على صورة كبيرة  
لجابوتينسكى معلقة على الحائط ، كان حاييم يوليها ظهره طوال  
المساء . وتحتها ايضا ، مثلما تحت صورة هرتزل على الحائط  
المقابل ، مد شعار ابيض طويل بنجمتين زرقاوين ساطعتين فى  
طرفيه وخط عليه بحبر اسود ثقيل :

«شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل !»

كانت تلك هى العبارة التى الحت على حاييم طوال النهار .  
وفجأة تذكر حاييم بتداع غير ملموس اين سمعها اول مرة . كان  
ذلك فى كونستانسا ، فى يوم رحيله الى فلسطين . فقد ذهب الى  
السينما مع المتطوعين الآخرين . وعرضت عليهم هناك جريدة  
سينمائية ظهر فيها ميدان ضخيم يغص برجال «الاس . اس .» ،  
ووقف ادولف هتلر امام الميكروفون على المنصة المزينة بالاعلام  
ذات الصليب المعقوف . وراح جمع رجال «الاس . اس .» يهتف :  
«آين فولك ، آين رايبخ ، آين فوهرر - دويتشلاند !» \* .

١٠

عندما خرج حاييم الى الشارع كانت الساعة جاوزت منتصف  
الليل .

وفجأة ناداه من الظلام نوتسى يوناس :  
حاييم ! الى اين ؟ لا تذهب ، اسمع ؟

\* «شعب واحد ، دولة واحدة ، زعيم واحد - المانيا !» (بالالمانية) .

ورأى حاييم غير بعيد عن يونس ، بجوار السور ، دافيد كنوخ  
وسائق سلمونزون . وفكر حاييم : «حسنا ، ترى لماذا يتسكع  
السائق هنا ؟ لقد حل السبت منذ المساء . . . هناك شيء ما  
يدبر» .

وقال نوتسى بلهجة آمرة وهو يمضى مع كنوخ فى المقدمة :  
- اتبعنا ! لا تتخلف يا حاييم !  
ولم يعد السائق معهما .

ومضى حاييم باذعان اثر نوتسى وكنوخ عبر حارات مظلمة  
وازقة ملتوية مجهولة . وحاول ان يرتب خليط الافكار والمشاعر  
المزعجة التى جاشت بها نفسه فى هذا المساء . فكل ما سمعه وراه  
فى الاجتماع السرى الذى عقد بمناسبة وصول مندوب «الوكالة  
اليهودية من اجل فلسطين» وضيف آخر من امريكا ايضا ، اخرجه  
بشدة من حالة الاتزان الروحى النسبى التى كان فيها فى الفترة  
الاخيرة . كان حاييم قبلا ، اثناء تأدية «الاكشارا» ينظر بشك الى  
ادعاءات الدعاة الصهيينة بان اليهود المتناثرين فى العالم موحدون  
وتجمعهم اخوة الدم بغض النظر عن المستوى المادى والثقافى لكل  
منهم ومكانته فى المجتمع . ولم يكن يمنى النفس من قبل ابدا  
بوعود جامعى الانصار الصهيينة بالحصول على حياة النعيم فى «ارض  
الميعاد» . ولم تلهمه من قبل دعواتهم الى الكفاح من اجل اعادة  
تأسيس «الدولة اليهودية الكبرى» . ولكن ، اذا كان قبلا يصغى  
الى ذلك كله بعدم اكرات ودون انفعال داخلى ولا يفكر الا فى ان  
هجرته الى ديار الغرب التى تصورها بلابل الصهيونية على انها  
جنة الله فى ارضه ، ستجنبه خطر معسكر الاعتقال الفاشى الذى  
كان يتهدهده ، فانه الآن بدا وكان شيئا ما تبدل فيه . لقد احس  
باقوى من ذى قبل بانه لم ولا ولن تربطه صلة اخوة بسلمونزون  
وشتيرن وامثالهما . وبات اوضح له وهم الامل الكاذب بالحصول  
لا على حياة «النعيم» هنا فى فلسطين بل على مجرد حياة كد هادئة .  
وادرك اخيرا ، انه كعشرات الآلاف من اليهود الفقراء ، اصبح  
ضحية لخداع حقير ، وان الخداع والاستفزاز ، وباختصار كل  
الوسائل والاساليب المقززة ، بما فى ذلك الاغتيال غدرا ، التى

رفعها الايديولوجيون الفاشيون الى مصاف امجاد وفضائل الاريين  
الانقياء ، هي ايضا مميزة لزعماء الصهيونية الذين يبررونها  
ويروجون لها باجتهاد عظيم .

لم يلاحظ حايمم انهم انعطفوا الى الشارع الذى تضم احدى  
فيلاته مكتب التصدير والاستيراد . كانت جميع نوافذ الفيلا مغلقة  
باحكام ومسدلة الستائر بحيث لم يتسرب شعاع ضوء واحد الى  
الشارع .

وعندما دخلوا البيت همس يوناس بشيء ما لكنوخ ثم اقترح  
على حايمم ان يبقى فى ردهة الطابق الاول والا يغادر مكانه .

ونصح يوناس حايمم هامسا فى عجلة وهو يمضى على اطراف  
اصابعه اثر كنوخ فى طرقة ضيقة :

- اياك ان تفتح نافذة او ترفع شيش الشباك . . . وعموما

لا تلمس شيئا هنا .

وظل حايمم واقفا بعض الوقت فى وسط الردهة المضاءة بنور  
خافت وهو يتلفت حواليه . ولم يتناه الى هنا اى صوت من الشارع  
او من الطابق العلوى . فتسلل الى قلبه خوف غير مفهوم ، وعذبه  
احساس بقرب وقوع احداث شريرة سيكون شريكا فيها رغما عن  
مشيئته وضد ارادته . وكان مستعدا للتخلي عن العمل فى مكتب  
التصدير والاستيراد والتنازل عن جميع الامتيازات التى حصل عليها  
مقابل ان يتخلص من الاحساس المتصاعد بالخوف الذى هرب من  
رومانيا بسببه .

وانتفض حايمم عندما وجد نفسه يفكر فى ذلك . وتراءى له

انه ليس وحده فى هذه الردهة الواسعة الخاوية ، وان هناك من  
يراقبه . وعلى الفور اضفى على وجهه تعبير الهدوء التام . ووضع  
يديه فى جيبه ومضى يسير ببطء فى الردهة حتى وصل الى كنبه  
طويلة ضيقة من خشب فاتح اللون مطعمة على ايدى صناع مهرة .  
وتوقف هنا متظاهرا بانه يتفحص باهتمام هذه التحفة الفنية ،  
وتلفت حوله . . لم يكن هناك احد غيره فى الردهة .

لم يتمكن حايمم من الجلوس والاستراحة ، فقد ظهر يوناس

في باب الطرقة المفتوح . ودعا حايم اليه وهو يضع سبابته على فمه محذرا ، وأشار اليه بيده ان يتبعه .

وعبرا الطرقة على اطراف اصابعهما وهما يخطوان بحذر وصعدا الى الطابق الثاني على سلم حلزوني حاد ، وبعد ان مرا بباب واسع في جدار زجاجي مخشن دخلا غرفة مستطيلة هي غرفة الاستقبال .

وضع فوتسي اصبعه على شفته من جديد وجلس على كرسي بجوار الباب المفضى الى مكتب سلمونزون ، وأشار برأسه لحايم الى كرسي اخر على الجانب المقابل . وكان مسموعا هنا بوضوح الصوت النشيط المؤلف قادما من وراء الباب . وعرف حايم على الفور صاحب الصوت . كان هو مندوب «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» الاشيب .

وتناهى بوضوح وكان المتحدث كان على مقربة :

- انتم الصهاينة تعتبرون ان الشعب اليهودى شعب الله المختار . ونحن الاشتراكيين القومييين ، نؤكد ان الشعب الالمانى وحده هو الاكمل بين جميع الشعوب الاخرى التى تعيش على الكرة الارضية .

وحملق حايم بذعر ، وكان احدا ايقظه من نومه ببركلة . ومط عنقه وحبس انفاسه وهو لا يصدق اذنيه . . . .

- انتم الصهاينة تتحدثون عن تفوق شعبكم على جميع الشعوب الاخرى . ونحن الاشتراكيين القومييين نؤكد نفس الشئ بالنسبة للالمان . وانتم الصهاينة تعتمدون في كل افكاركم واعمالكم على مفهوم تفوق شعبكم . ونحن الاشتراكيين القومييين نعتمد على مفهوم مشابه حول تفوق الشعب الالمانى باعتباره منتميا الى اسنى الاجناس . . . .

- وانطلاقا من هذا كله تؤكدون ، انتم الصهاينة ، ان ما يحل لليهود ازاء الشعوب والامم الاخرى حرام على هذه الشعوب والامم ازاء اليهود . ونحن الاشتراكيين القومييين انطلاقا من مواقع مماثلة نؤكد ايضا ان ما هو مسموح به للالمان تجاه جميع الشعوب الاخرى ، غير مسموح به لهذه الشعوب تجاه الالمان .

وعلى هذا فانتم الصهاينة تعتبرون ان الشعوب الاخرى اقل كمالا ، ونحن الاشتراكيين القوميين نؤكد نفس الشيء ، ولكننا نعتبر العرق النوردي كله من العروق الكاملة والشعب الالمانى اكملها ! اما بخصوص اليهود ، فهم كما اثبت العلم ، يحتلون المركز الثالث في ذيل القائمة ضمن الشعوب الاخرى غير الكاملة .

مسح حايميم بشدة جبينه المتغضن وارهدف السمع . وخيل اليه انه جن او انه يرى حلما غير معقول . ومضى الصوت الرخيم يقول بتلذذ وكان صاحبه يقرأ من ورقة :

- وانتم الصهاينة ، مثلنا نحن الاشتراكيين القوميين ، تعارضون اندماج شعبكم في الشعوب الاخرى .

- انتم الصهاينة تدافعون عن نقاء دماء شعبكم ، ولا تعتبرون من اليهود اولئك الذين يولدون من زيجات مختلطة . اما نحن الاشتراكيين القوميين فقد سرنا ابعدهم من ذلك في هذا الاتجاه فشرعنا قانونا باعتبار زواج الالمانى او الالمانية بيهودية او يهودى خيانة وطنية ، علاوة على ان هذا القانون يسرى ايضا على ذريتهم كلها .

- وانتم الصهاينة تضعون فكرة الشعب اليهودى الواحد المؤلف من اخوة في الدم ، في مواجهة تعاليم الشيوعيين الانحلالية عن الطبقات المتعادية ، ونحن الاشتراكيين القوميين نضع الفكرة السامية بوحدة الامة الالمانية المؤلفة من ابناء اسمى جنس في وجه تلك النظرية المفرقة والمفسدة للشعب .

- وانتم الصهاينة تريدون انشاء دولتكم الخاصة بشعبكم وحده . اما نحن الاشتراكيين القوميين فقد انشأنا هذه الدولة التى يعتبر فيها الالمان وحدهم رعايا كاملى الحقوق ، ولهم وحدهم الحق فى العمل فى اجهزة الدولة .

- وانتم الصهاينة تعتبرون انه بالاستيلاء على القدس عام سبعين حلت نهاية الدولة اليهودية ، ومنذ ذلك الحين تمتد مرحلة «دولتكم الثانية» ، دولة الشعب اليهودى الذى فقد استقلاله وتشتتت فى العالم كله . وتعتبرون انه بعودته الى فلسطين ستنشأ «الدولة اليهودية الثالثة» ، الدولة التى سيعود اليها شعبها . . .

ونحن الاشتراكيين القوميين ، كما هو معروف ، قد انشأنا «دولتنا الثالثة» التي بدأ يعود اليها الالمان المشتتون في العالم كله . . .

- وانتم الصهاينة تعتبرون ان اليهودى وحده هو الذى يستطيع ان يكون مواطنا فى دولتكم القادمة ، وتفضلون من بين جميع اليهود من هم من سلالة كوهين وليفيت ، باعتبارهم انقى ابناء شعبكم دما واكثرهم كمالا من الناحية البيولوجية . ونحن الاشتراكيين القوميين نؤكد ان الذى يحق له ان يكون مواطنا فى الدولة الالمانية هو فقط من ينتمى الى الشعب الالمانى ، وتجرى فى عروقه الدماء الالمانية ، وفى المقام الاول نفضل الآريين من بينهم فهم ممثلو الشعب الالمانى الانقى دما والاكثر كمالا من الناحية البيولوجية .

- وانتم الصهاينة تعتبرون انه لا ينبغى ان يعيش على اراضى دولتكم القادمة اشخاص من اصل غير يهودى ، وتعتبرون اقرب هدف لكم هو التخلص من العرب . ونحن الاشتراكيين القوميين نعارض كذلك فى هجرة الاشخاص ذوى الاصل غير الالمانى الى المانيا ونطالب مثل هؤلاء الاشخاص الذين استوطنوها بعد الثانى من اغسطس عام الف وتسعمائة واربعة عشر ان يغادروا اراضيها .

- وانتم الصهاينة تحلمون باقامة دولة يهودية كبرى عن طريق اغتصاب اراضى الشعوب الاخرى ، ونحن الاشتراكيين القوميين نسعى كذلك الى اقامة الرايخ الالمانى الكبير ولا نخفى نوايانا بتوسيع المجال الحيوى امام السكان الالمان الزائدين وذلك على حساب اراضى الشعوب غير الكاملة .

- وانتم الصهاينة تعملون على تهجير جميع اليهود القاطنين الآن فى العالم كله الى فلسطين ، ونحن الاشتراكيين القوميين نتبع سياسة مماثلة لتوحيد جميع الالمان والمهاجرين الالمان فى ارض الاجداد ، ونخصص لهؤلاء العائدين دورا ثانويا مثلكم ايضا ايها الصهاينة عندما لا تساوون بين اليهود الاشكنازى والسفاردىم .

- وانتم الصهاينة تربون متطوعيكم والصابرا على اساس ان يصبحوا «سوبرمان» ، ونحن الاشتراكيين القوميين نربى «هتلر يوجند» (شبيبة هتلر) والاس . اس . لكى يصبحوا كذلك «سوبرمان» .



- ان كل ما سبق ذكره يعطينا الاساس للقول بانكم ، انتم الصهاينة ، ونحن الاشتراكيين القوميين ، نتمسك في جوهر الامر بنفس المبادئ وننطلق من مواقع قومية وسياسية متشابهة ، ونعتمد على مفاهيم متقاربة ، الا اننا نقف على طرفي نقيض ، كقطبين متضادين ، ويرى كل منا في الآخر اخطر منافس له ، ولذلك يعادى بعضنا البعض . ولكن في الواقع فاننا واياكم نعتبر «سدا» يقاوم ضغط شعوب الامم الاخرى . . . وهكذا فان مصالحننا متفقة بهذا المفهوم العام وفي المرحلة الحالية . . .

اصغى حاييم بانتباه وتوتر وهو لا يستطيع ابدا ان يفهم ما الذي يجري وراء الباب . من هو في آخر الامر هذا الخطيب الاشيب : أهو مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» ام عميل للنازيين ؟ وهل المجتمعون هناك في غرفة المكتب يهود ام خونة ؟ الا يكون الفاشست قد تستروا بلافتة «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» ؟

وعاد حاييم يتذكر من جديد «ترانس اطلانتيك» والانفجار ومصرع مئات الاشخاص . وتذكر قبرص ، والحاخام التقى بن صهيون هاجرا بمسدسه الاتوماتيكي تحت ذيل معطفه . ولم يستطع حاييم ان يركز افكاره ويتوصل الى استنتاج محدد . كانت كل عبارة تتناهى من خلف الباب تستحوذ على انتباهه كله وتولد في الوقت نفسه افكارا وظنونا مشوشة متلاحقة ، كل واحدة افزع من الاخرى . ووراء الباب مضى الصوت المألوف يقول بتؤدة وايحاء :

- وبعد ان استمعت الى الدكتور جوبلز اكدت له ان كل ما قاله سانقله الى «مركزنا» . وبدوري اثرت امامه باسم «المركز» ثلاث مسائل جئت الى برلين من اجل حلها .

وكاد حاييم ان يصرخ من شدة الدهشة : «جوبلز ؟ ! هذا اذن من وضع الفاشية والصهيونية على قدم المساواة ! هذا هو اذن من كان مندوب «المركز» المحترم يتحدث معه ا» .

واستطرد مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» يقول :  
- كانت المسألة الاولى تمس امكانية توسيع علاقاتنا المتبادلة مع برلين . وفهمت من الرد ان قادة الاشتراكيين القوميين

عازمون على اقامة اتصالات بنا وان توسيعها مرتبط بمدى اسراعنا بالقيام بالاعمال المناهضة للانجليز والتي وعدنا بها .

وتناهى صوت حاد عرف فيه حاييم على الفور صوت شتيرن :

- كان ينبغي ان تقول للدكتور جوبلز اننا قد الغينا كل ارتباطاتنا السابقة مع الانجليز منذ ان وضعوا القيود على الهجرة الى فلسطين ! ونحن مستعدون للسير مع الاشتراكيين القوميين ، ولكن عليهم ان يقولوا كلمتهم ! . . .

- لقد تحدثت عن ذلك كله يا رفيق شتيرن ، كما تحدثت عن مخططاتنا لطرد الانجليز من الشرق الاوسط ولكنهم في برلين ينتظرون اجراءات فعالة . . .

فصاح شتيرن :

- اذن فليعطونا السلاح !

- هذا ما تطرقت اليه في المسألة الثانية . كنت مهتما بمعرفة مدى امكانية الاسراع بارسال الاسلحة التي وعدوا بها والتي استولت عليها القوات المسلحة الالمانية في البلدان التي اصبحت الآن في دائرة النفوذ الالمانى . وقد رد الدكتور جوبلز على ذلك بان مسألة توريد الاسلحة تلقى تأييدا من الدوائر القيادية للاشتراكيين القوميين وانه حسب المعلومات التي لديه قد ارسلت منذ عدة ايام سفينة تحت علم اوستراالى تحمل كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر .

وعند سماع هذه الكلمات نظر نوتسى يوناس الى حاييم وابتسم بفخر ، اما حاييم فقد ادرك لاول مرة بصورة كاملة انه يعمل في الميناء ومشاركته في تفريغ سفينة ارسلها الى هنا زعماء الفاشية الالمانية قد اصبغ ضالعا مع سيمون سلمونزون ومندوبى «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» المتآمرين مع النازيين ومع شتيرن المستعد لارتكاب اى عمل فظيع . . .

ومضى المبعوث يقول :

- اما السؤال الثالث الذى طرحته على جوبلز فكان بخصوص هجرة رجالنا من المانيا والبلدان الخاضعة لها . وكان على ، كما لعلكم تخمنون ، ان استوضح الامكانيات العملية لارسال هؤلاء

الناس الى شواطئ فلسطين . وقد اخبرني الدكتور جوبلز  
بالنسبة لهذه المسألة ان امكانية نقل اليهود بسفن المانية هي  
للاسف امكانية محدودة جدا بسبب العمليات الحربية ، الا ان  
الارسال سيجرى في اطار الاتفاقية الثنائية التي تم التوصل اليها .  
وفي اليوم التالي التقيت بايخمان ، رئيس القسم اليهودي في  
الجستابو . وخلافا من الدكتور جوبلز ، الرجل الواسع الاطلاع  
والمهذب ، قال لي هذا الغر ان اعداد الاشخاص للهجرة ينبغي ان  
يقوم به «مكتب فلسطين» في برلين ، وانه هو ايخمان شخصيا  
ليس لديه وقت لتصنيف المهاجرين ، وان ذلك من اختصاص  
رجالنا المعتمدين في المراكز . . . والادهي من ذلك ان ايخمان هذا  
اعلن ان شحن السفن بالمهاجرين سوف يتم من الآن فصاعدا  
حسب القوائم الاسرية . . . وقد عارضت ذلك بشدة واستندت  
الى الحديث الذي دار بالامس مع الدكتور جوبلز ، والى الاتفاقية  
المعقودة سابقا بشأن اولوية تهجير الشباب الذين ادوا التدريب  
العملي من المانيا ، وكذلك الاشخاص القادرين بمجرد وصولهم  
الى فلسطين على الانخراط في الكفاح المسلح ضد الانجليز ! ولزم  
ايخمان الصمت ، وكدت اميل الى الاعتقاد بانه سيتوصل الى  
الاستنتاجات المناسبة مما قلته له وذكرته ، الا انه اثناء الحديث  
التالي سألني فجأة بحدة : «ومن الذي سيتولى امر شيوخكم اذا هاجر  
الشباب كله ؟ ام انكم تريدون ان نطعمهم نحن الالمان بالملعقة  
ونعني بهم ونهددهم ؟ ليس لدينا وقت لذلك ، اننا نحارب !» .  
فقاطعته وافهمته ان الشيوخ هم تلك الغصون التي ينبغي ان  
تترك مكانها للنبت الجديد . . . وعلاوة على ذلك فقد قلت له بصورة  
قاطعة للغاية انه «بالثقل» الذي شحن به السفن السابقة فلن نحقق  
النتيجة المرجوة لألمانيا . ولن يشتعل الشرق الاوسط بالنار  
تحت اقدام الانجليز كما يريد فوهررركم ! فامتقع ايخمان وأخذ  
يبرر موقفه مدعيا ان مندوبنا في «المكتب» كان مهتما شخصيا  
بارسال بعض الاشخاص المتقدمى السن من اقربائه وبعض كبار  
الاغنياء المرتبط معهم بالتزامات معينة . كان ايخمان يلمح الى  
اشياء غير شريفة . . . وانا لا اميل الى تصديق هذه الخرافات .

الاحتمال الاقرب هو ان ايخمان نفسه يود ان يتخلص بسرعة من كبار السن . . . على اى حال ، فلدينا الآن اتفاق محدد وهو هجرة الشباب فقط وكذلك اولئك الذين نضعهم في قائمة خاصة . والا فسوف نعيد السفن من حيث جاءت . . .

باعد يوناس بين يديه وكانما يسلم بضرورة القاء المسنين الى التهلكة ، اما حايم فقد فكر وقلبه يخفق في الآلام التي سيتعرض لها والده الذي ينتظر عبثا الالتحاق بابنه . . . ومضى الضيف من واشنطن يقول :

- لقد اكد لي ايخمان ان سفينة المانية كبيرة قد نقلت منذ وقت قريب الى كورفو مجموعة كبيرة من المهاجرين الذين سيستقلون هناك سفينة اخرى تحمل علما محايدا . وخلال الشهر القادم ستقوم سفينتان اخريان بنفس الطريقة بنقل المتطوعين وعدد قليل من الاشخاص المسجلين في القائمة الخاصة . وتناهى صوت سيمون سلمونزون قائلا :

- ايخمان شخصية صغيرة . وفوق ذلك فهو ينتمى الى «الاس . اس .» ولا يستطيع حل مسائل ذات ابعاد اكبر . والا لكان قد فعل الكثير . . . انه في قبضتنا تماما ! الا يجب علينا ان نقيم صلة بشخصية اكبر في الرايخ الثالث ؟ فسارع شتيرن الى تبني الفكرة :

- لو شئتم الصراحة فمنذ وقت طويل تراودنى فكرة ارسال شخص الى المانيا يستطيع ان يقيم اتصالا بشخصية اكبر ، ربما مع هتلر نفسه ! عندئذ سنتوصل الى نتائج ايجابية محققة ! وتناهى صوت شخص ما يتحدث بلكنة اجنبية واضحة ذكرت حايم بالانجليزى الذى حقق معه ومع أويا في قسم الشرطة :

- اشك بأن يتمكن احد ما في هذا الوقت العصيب من السفر من هنا الى المانيا . هذا امر بالغ التعقيد .

فاجابه شتيرن متحديا :

- لا تخوفنا ، هذا الامر ، كما تقول ، بالغ التعقيد بالنسبة لك ، اما بالنسبة لنا فسهل جدا . سارسل الشخص الى ليبيا ، ولدى هناك اشخاص يمكنهم ان يتوصلوا الى القائد العام للجيش

الاطالى . . . فسأل بدهشة نفس الصوت ، والذي كان فيما يبدو صوت الامريكى ذى الحلة الرمادية الفاتحة :

- الى الماريشال بالبو نفسه ؟

فاجاب شتيرن بنبرة لا مبالاة متصنعة :

- نعم ، هو نفسه . اما هو فبوسعه ان يوصل رجلى الى

برلين سليما ! ولن يوصله باى طريقة كانت بل باقصر الطرق !  
يمكنكم الا تشكروا فى ذلك . . .

- ربما ، ولكنى لا انصح بذلك . ليس هذا وقتا مناسبيا .

فتناهى صوت شتيرن يقول بدهشة وسخرية :

- ماذا تقول ؟! يا سلام !

فاجاب الامريكى بكبرياء : - كما تشاء . ان الوضع الآن لا

يتجه لصالحنا الى درجة تفرض علينا الحذر فى تعاملنا مع النازيين ،

وبالطبع لا ينبغى ابدا ان نسير على سياسة تأزيم العلاقات مع

الانجليز ، بل وربما مع العرب ايضا .

فصرخ شتيرن وكأنما لدغ :

- ماذا ؟ ماذا ؟! هل نحنى رؤوسنا للانجليز ونستسلم

للعرب ؟! هذا ما لم نسمع به !

فسأل بتحفظ مندوب «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين»

الاشيب الذى كانت دهشته فيما يبدو لا تقل عن دهشة شتيرن

لنصيحة زميله :

- ولكن لماذا تعتقد ذلك يا مايكل ؟ بودنا ان نعرف . . .

فتحدث مايكل عن الوضع غير الملائم الذى نشأ نتيجة

للعمليات الهجومية الاخيرة التى قامت بها القوات الالمانية فى

فرنسا .

فقاطعه شتيرن من جديد بصفاقة :

- وهل هذا سيبى ؟ يبدو انه ينبغى ان يكون المرء احمق

تماما لكى لا يدرك انه اذا ساءت احوال فرنسا فان احوال انجلترا

تصبح اسوأ . واذا تردى وضع انجلترا تماما سهل علينا ان

نزيل القيود المفروضة على الهجرة ، وتلك هى مهمتنا الرئيسية !

فقال مايكل معارضا :

- ولكنك تنسى انه اذا بدأ الحلفاء الانجليز والفرنسيون في تلقي الهزائم فان الايطاليين هنا ، في الشرق الاوسط ، سيتحركون فوراً ! وانت تعلم في الغالب ان هتلر قد اقترح اكثر من مرة ارسال لواء او لوائين «لمساعدة» الايطاليين بمجرد ان يبدأوا الهجوم ! . . . وموسوليني يرفض بالطبع هذه الخدمة ، فهو يدرك جيداً انه ما ان يسمح للالمان بأن يضعوا قدماً واحدة في هذه المنطقة ، حتى يضعوا هم انفسهم القدم الاخرى . . . . بيد انه ينبغي ان نضع في حسابنا ان هتلر لم يتخل عن فكرته . . . . واعتقد انه لا حاجة الى ايضاح معنى وجود القوات الالمانية بالقرب من فلسطين . اما بخصوص الاسلحة التي يبعث بها الالمان لكم فينبغي بالطبع تسلمها وتخزينها .

فصاح شتيرن :

- لكي يصادها الانجليز عاجلاً ام آجلاً ؟ هذا ما تريده ؟  
- ليس امامي الا ان اهزكتفي ، او ارد عليكم بكلماتكم نفسها : ينبغي على المرء ان يكون احمق تماماً لكي يفكر بهذه الصورة من عدم الجدية ، ويخزن الاسلحة بهذا الشكل السيئ . . . .  
- قال مايكل بهدوء - ابحثوا عن وسيلة تخزين اكثر اماناً ! فسيكون السلاح مطلوباً . ان الوضع الناشئ في فرنسا يجعلنا نفكر في اشياء كثيرة . . . .

فصرخ شتيرن :

- وما دخل فرنسا ؟ اننا لا نتلقى الرجال والاسلحة منها بل من عدوها ! . . . مع من ينبغي ان نكون ؟  
فقال مايكل موافقاً :

- هذا صحيح . ان مربى المواشى الجيد يعلف حيواناته المعدة للذبح بسخاء . . . .

فانفجر شتيرن :

- اذن فنحن حيوانات ؟

فاجاب مايكل بتحفظ :

- هذا لا شك فيه من وجهة نظر حكام المانيا . ففي اول فرصة مناسبة سيرسلون بنا بكل سرور الى المذبح . . . .

- فصرخ شتيرن بهستيرية :
- كذاب ! يمكنك ان تروى هذه الخرافات كما تشاء في امريكا ! لقد سمعت هنا حوالى ساعة تأكيدات الدكتور جوبلز ، فماذا بك ؟ هل تتظاهر بالصمم ؟
- فقاطعه مايكل :
- كل هذه التاكيدات خداع !
- فصرخ شتيرن وقد فقد اعصابه :
- والمدافع الرشاشة ؟ والبنادق ؟ والمسدسات ؟ والالغام والطلقات والمتفجرات ؟ ما هذا ؟ اهو ايضا خداع ؟ وماذا عن ارسال سفينة بعد سفينة تحمل المتطوعين الى كورفو ؟ ألم يصل الكثيرون من الموجودين هنا بفضل المانيا ؟
- فقال مايكل وقد رفع صوته قليلا :
- من الافضل ان تنظر ما الذى يحدث لاختوتنا واخواتنا في بولندا بفضل المانيا !
- فقاطعه شتيرن :
- وما الذى يحدث في بولندا ؟ ماذا هناك ؟
- تراق دماء رجالنا . . . لقد وضع السكان اليهود كلهم ، بغض النظر عن الجنس والسن واللقب والوضع الاجتماعى في الجيتو !
- وماذا يعنى «الجيتو» ؟
- كيف «ماذا يعنى الجيتو» ؟ هناك معلومات بأن هتلر يزعم حل «المشكلة اليهودية» بقسوة متناهية . واذا كان حتى الآن لا يقوم على تنفيذ ذلك فانما فقط لانه يخشى رد فعل الولايات المتحدة غير الملائم له !
- فسأل المندوب الاشيب القادم من واشنطن بشك :
- اتظن ذلك ؟
- لست وحدى الذى اعتقد ذلك ، بل اشخاص اكثر معرفة بالامور منى ومنكم . . . ولهذا ينوى رئيسنا اثاره قضية قبول نصف مليون او مليون مهاجر يهودى . . .
- فسأل الاشيب بحذر :

- وقد ذهبت انت الى المانيا لهذا الغرض بصفتك مساعدا  
للرئيس لشئون اغاثة ضحايا النازية ؟ هل فهمتك بشكل صحيح  
يا مايكل ؟

- مضبوط .

فصاح المبعوث بحسرة :

- هذا ما كنت اظنه . الرئيس يريد ان يكسب رصيذا  
سياسيا اضافيا . انه يتحرق الى الحصول على اصوات يهودنا في  
الانتخابات وما الى ذلك . . . مفهوم !

فرد مايكل بحماسة : - قبل كل شيء نحن نرغب في انقاذ  
الناس ! امن الأفضل في اعتقادكم ان نعرض للخطر مليوننا من  
الابرياء من ان نقلهم الى امريكا ؟  
فصرخ شتيرن :

- نعم ! افضل ، تصور ؟ لقد هاجر من المانيا اربعمائة  
الف من الخمسمائة الف يهودى المانى ! فكم عدد الذين وصلوا  
الى هنا ! لا يكاد يبلغ الخمسين الفا ! . . . اى عشرة فى المائة  
فقط . . . قطرة فى بحر ! فالى اين ذهب الباقون ؟ لقد ابتلعتهم  
امريكتكم ، فلتأكلها النيران هى وانتم !

- انت يا مايكل لا تريد ان تتفهم جوهر المأساة - قال  
زميله الاشيب بلهجة مسالمة - ان اليهودى الاوربى لن يقدم  
مرتين فى حياته القاسية على عبور المحيط ليستقر فى ارض اجداده  
حتى لو افترضنا ان حياته ستكون عسيرة فى امريكا التى ستنقلونه  
اليها . انا وانت نفهم جيدا الوضع الحقيقى فى امريكا ، فهذا المهاجر  
البائس سوف يسوح ويتشرد من ولاية الى اخرى ويعمل فى الحرف  
او التجارة ، ويقبل هذا العمل مرة وذاك مرة اخرى وكل يوم يلعنكم  
ويلعن نفسه ولكنه لن يقدم على القيام برحلة ثانية . سيظل يأمل  
فقط فى ان يدعوه وشأنه ! اما نحن الصهاينة فعلينا ان نعيد  
تأسيس دولتنا لتبقى الى الأبد ، ولن نستطيع اعادة تأسيسها الى  
ان يتحقق فى فلسطين تفوق اليهود العدى على العرب !

فاجاب مايكل بحسرة :

- ان ما يدهشنى انكم جميعا هنا كما ارى لا تدركون مدى



ضرورة الاسراع بانقاذ رجالنا دون ابطاء من خطر الهلاك الذى يتهددهم ، وبعد ذلك نفكر فى النسبة العددية لليهود والعرب وتأسيس الدولة !

فهتف سيمون سلمونزون :

- انك تخون المثل العليا للامة يا مايكل ! هذا لا يغتفر ! ..  
- انقاذ الناس من الهلاك فى نظرك خيانة ، اما انا فاعتبره ابسط مبادئ الانسانية ، ودعك من القول بان المقصود هنا ابناء قوميتنا !

فصرخ شتيرن :

- انت لست المدافع عن الشعب اليهودى ، بل آخر خونته ومكانك على المشنقة !

فاجاب مايكل ببرود اعصاب :

- لا تخوفنى . . . من الافضل ان تحافظ على رأسك المتهور قبل ان يضيعك تماما . . .

ودوت صرخة وحشية من شتيرن :

- أتهددنى ايها الخائن !؟

وتبع ذلك صوت ارتطام كرسى بالأرض ودبيب اقدام ، ثم تناهت صيحات :

- شتيرن !

- مايكل ! ..

- يا رفيق شتيرن امنعه . . .

ودوت طلقة ، ثم أخرى . . .

كان نوتسى قد قفز من مكانه وفتح الباب بعنف . ومن وراء كتفه رأى حاييم دافيد كنوخ ممسكا بمسدس فى يده وبجواره تمدد الرجل ذو الحلة الرمادية على الارض منطويا على نفسه . وعرف فيه حاييم على الفور ذلك الرجل الانيق الاحمر الشعر الذى عانقه وقبله فى اجتماع الامس مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» وسيمون سلمونزون وشتيرن . ولاحظ حاييم ان الدم كان يسيل من ذقن شتيرن .

ولعدة ثوان ساد صمت مطبق في جو الغرفة ، وعندئذ سمع الجميع ما يكل يئن على الأرض ويهمس :

- يا فاشيست . . . يا قتلة . . .

ودوت طلقة . ورأى حاييم بوضوح مسدسا في يد شتيرن . واستدار نوتسى الى حاييم الممتقع من الرعب وامره ان يهبط فورا الى اسفل وينتظره في الردهة .

هبط حاييم كالشمع على الدرج الحلزوني الحاد وركض عبر الطرقة المظلمة وهو لا يدري ما الذى يحدث في غرفة مكتب سلمونزون . وقبل ان يسترد انفاسه جاء نوتسى راكضا .

- هناك صيدلية خلف الناحية . اسمع يا حاييم ؟ بجوار مدرسة بلفور . . . تعرف اين ؟

- اعرف ، اعرف .

- اركض الى هناك . سيارتنا وسائقنا هناك . قل له ان يأتى على الفور . فاهم ؟ احذر ان يتوجه الى المكان الذى اتفقنا عليه بالامس ! فاهم ؟ اياك ان يفعل ! أرسله الى هنا ! لا تقل له شيئا اكثر من ذلك . . . اما انت فاذهب الى البيت . . . لا تخف ستصل . . . لا تتفوه بكلمة ! انك عائد بعد العمل من الميناء . . . وهذا كل ما فى الأمر ! عندما نلتقى فى البيت سنتحدث . فاهم ؟ اركض .

وركض حاييم بكل قواه . ورأى وهو لا يزال بعيدا سيارة سلمونزون واقفة بجوار الصيدلية . حرق السائق مليا فى حاييم الممتقع المدعور ، وأعاد الاستفسار عما اذا كان لا حاجة لذهابه الى فندق جات ريمون كما كان متفقا عليه مع يوناس من قبل . وعندما تأكد اخيرا ان المتطوع لم يختلط الأمر عليه انطلق بالسيارة على الفور .

بقى حاييم وحده وسط الشارع المظلم . وعلى الفور أحس بالانهك الشديد بعد عناء النهار . خارت ساقاه وارتعش بدنه بشدة وكان التيفوس داهمه ثانية . . .

وفكر فى نفسه وهو يغالب الرعشة بصعوبة : «شعب واحد ، أمة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل» .

لم يهدأ لحاييم فولديتير بال بعد ان ادرك انه اصبح متورطا في الاعمال المشبوهة لرؤساء مكتب التصدير والاستيراد وعذبتة ظنون رهيبة حول العواقب المحتملة للخروج على القانون والجرائم التي شارك فيها على غير ارادته . وفكر حاييم برعب : «اننا قطاع طرق حقيقيون ، اى والله ! كنت اظن اننى اتابع عملية تفريغ قش مضغوط ، بينما فى الواقع كنت اتسلم أسلحة مهربة . . . يا لها من أمور ! ثم ذهبت ، كما كان يبدو ، الى اجتماع شيق واذا بى أصبح شاهدا بل وشريكا فى جريمة قتل انسان ! ان ذلك ينذر بالسجن ! بل بأكثر من السجن . . . فلماذا جرت الأمور هكذا ؟ هل هذا صدفة ؟ لا يبدو كذلك . . . فى البداية اثاروا شجارا ، ثم راحوا يطلقون النار . . . وبجوار الصيدلية تقف سيارة سلمونزون فى ليلة السبت . واضح كالشمس أن هذا كله بتديير . . .» .

لم يخطئ حاييم عندما اعتقد ان القادة قد ازاحوا الضيف الامريكى من طريقهم عمدا . فقد أفضى له نوتسى يوناس بذلك فى اليوم التالى بثقة ، باعتباره أحد الشركاء ، وكان ذلك عندما انتحيا ركنا وراء جناح حاييم . كان الوقت بعد الغداء يوم السبت والجميع قد آووا للراحة . ورغم الشمس اللاهبة فقد كان يوناس فى حالة رائعة . فبعد أحداث الامس غط فى نوم عميق حتى الغداء ، ودهش عندما علم ان حاييم لم يذق طعم النوم من جراء ما عاناه بالأمس . وقال نوتسى :

- عبنا تنفعل هكذا يا حاييم . يجب ان تفهم وتتعود على أننا ، من أجل تحقيق هدفنا العظيم ، ملزمون بأن نزيل من طريقنا دون رحمة كل من يعرقلنا . لقد بلغتنا من قبل بعض الاقاويل عن تذبذب مايكل ، ولكن لم يخطر ببال أحد اطلاقا انه يمكن ان ينحدر الى الخيانة !

وباح نوتسى لحاييم بان سيمون سلمونزون وكل قيادة «اكسيونس كوميتى» كانوا واثقين قبلا من مايكل ، وأثبت هو

اكثر من مرة انه جدير بثقتهم . ولم يشك احد ان مايكل ،  
صنيعتهم في واشنطن ، لا يشاركونهم معتقداتهم فحسب ، بل  
ويساعدهم بنشاط .

واكد نوتسى وهو يحاول بشتى الطرق ان يبرر باكثر ما  
يمكن من الاقناع ضرورة تنحية مايكل :

- لقد كان الرفاق الكبار واثقين تماما بان هذا الامريكى  
الحقير يشاركنا كلية استعدادنا للتعاون لا مع الاشتراكيين  
القوميين الالمان فحسب ، بل ومع الشيطان نفسه من اجل تحقيق  
المهمة الموضوعية ، الا وهى اقامة «الدولة اليهودية الثالثة» !  
وعندما وصلت الى هنا أقاويل بأنه يتردد فى حل بعض القضايا  
المبدئية ، ويقول احيانا شيئا ويصنع شيئا آخر ، قرر الرفاق فى  
«اكسيونس كوميتى» التأكد من ذلك بأنفسهم .

وسأل حاييم بصورة مفاجئة لم يتوقعها هو نفسه :

- واذا تأكدت الاقاويل يقتلونه ؟

- وهل هناك حل آخر؟! ان هذا الوغد كان يقوم بالمهام  
الشخصية لرئيس الولايات المتحدة . فتصور ما الذى يمكن ان  
يحدث لو انه قدم لواشنطن معلومات غير مرغوب فيها من جانبنا  
عن وضع اليهود فى المانيا والاراضى التى تحتلها؟! اذن لاتخذ  
الرئيس فى الغالب اكثر التدابير فعالية لتهجير مليون يهودى من  
اوربا وربما اكثر! انه محتاج بالدرجة الاولى الى رصيد سياسى . . .  
ويكون ذلك معناه : انظروا ايها السادة الناخبون ، كم انا انساني،  
أنقذ مليون شخص من الطاعون البنى وما الى ذلك . . . وبالطبع  
لن يقول كلمة عن ان هؤلاء المهاجرين أيد عاملة مجانية لرجال  
الاعمال الامريكيين . ومقابل هذا «الاحسان» يظل يهودنا طوال  
حياتهم يدفعون مقابل عيشتهم البائسة عملا قاسيا وشتى انواع  
الذل . . . بصراحة نحن لا نبالى بالمصير الذى كان سيواجهه  
ابناء قومنا وراء المحيط ! الشيء الاسوأ هو ان آفاق هجرة اليهود  
الجماعية من اوربا الى امريكا تجعل من كل مخططات قادتنا فقاعات  
صابونية . . . ولن توافق «اكسيونس كوميتى» أبدا على مثل

هذه الخطوة مهما كان الثمن الذي سيدفعه اخواننا في العقيدة مقابل ذلك !

ولم يذكر نوتسى يوناس شيئا عن الأمر الأهم وهو يبوح لحاييم بمكنون أفكاره . لم يقل ان شتيرن ، الذى يعتبر زعيم جماعة «شتيرن جانج» احدى الجماعات الشديدة التطرف بين البيتاريين ، كان فى الوقت نفسه رئيسا لما يسمى بالمركز القيادى الذى كان يضم ايليك فريشمان المسئول عن القضايا التنظيمية ، والياس نيسكى ، المسئول عن الاتصالات الخارجية ، والمدعو الدكتور شوبر موجه النشاط الايدولوجى . وكان هذا الثالث ، وخاصة رئيسه شتيرن ، يبقى فى الظل مهما كانت الظروف ويقود العمل من وراء «الستار شبه المسدل» . ولكن نوتسى لم يجد من الضرورى ان يخطر حاييم بذلك كله . وقال نوتسى بلهجة غامضة :

- ان رأسك لا يستطيع ان يستوعب على الفور كل ما يمكن ان اقله لك يا حاييم . فليكن واضحا لك شىء واحد حتى الآن : لا يمكن ان نتصرف بشكل آخر مع المرتدين والخونة أمثال مايكل . كان يوناس يعلم تمام العلم ان مايكل الذى كان عائدا من العانيا الى امريكا قد سحبه الى «ارض الميعاد» بحجة ضرورة «دراسة الموقف» فى فلسطين لان معلوماته مخصصة للرئيس الأمريكى . وكان نوتسى يعرف ايضا ما الذى ينتظر مايكل فى فلسطين فى حالة ما اذا ثبتت صحة الاقاويل حول «ازدواجيته» ، وقد عين نيسكى ، الذى كان من الاسهل عليه اقامة العلاقات مع العملاء فى الخارج نظرا لطبيعة عمله الرسمى ، مسئولاً عن «اختبار» مايكل وتنفيذ ما يترتب على ذلك من «اجراء خاص» . وكان نيسكى مثل شتيرن ، يعتبر الارهاب اقصر الطرق لبلوغ الهدف . ومع ذلك اقصى نيسكى عن المشاركة فى الحديث فى اليوم الذى تعين فيه اجراء لقاء حاسم مع مايكل ، وأخذ شتيرن نفسه على عاتقه فجأة مهمة «اختبار» مايكل . وقد ظلت الظروف التى ادت الى هذا التغيير سرا حتى على يوناس . أما جوهر هذه الظروف فهو ان نيسكى

بالذات هو الذي سعى من خلال رجاله في الولايات المتحدة الى تعيين مايكل في هذا المنصب الكبير رغم علمه بتذبذبه .

وكان هذا كافيا لشتيرن لكي لا يطمئن الى الياس نيسكي في تقرير مصير مايكل . وهذا ما يفسر ان شتيرن الذي اختفى عن الانظار تقريبا قبل مجيء المبعوث الامريكى الى فلسطين ، فجأة جاء في ذلك المساء المنكود بنفسه ليحضر اجتماعا موسعا كهذا . ولهذا فقد ذهل نوتسى يوناس آنذاك لحضوره .

ولما لم يكن نوتسى متأكدا بعد من ان حاييم قد ادرك ضرورة وحكمة مثل هذه العقوبة القاسية ضد المخالفين في الراى ، فقد وجد ان أفضل شىء هو ان يستشهد بماكيا فيلى الذى كان يبرر أية وسيلة في الصراع على السلطة . وسأل حاييم :

- على الاقل هل سمعت بهذا الاسم ؟

فدمدم حاييم بسخط :

- سمعت .

وفجأة راودته رغبة بان يضيق الخناق على صاحبه الذى يكاد يظن انه المتصرف في مصائر الامة اليهودية فقال :

- ماكيا فيلى نيكولو دى برناردو . . . بالمناسبة ، ان فون ريبنتروب يذكره دائما بالاعجاب ! ورجال الحرس الحديدى الفاشى في رومانيا ايضا . . .

فقاطعه نوتسى بعصبية :

- أنا لا أعرف من الذى يعجب به ! الذى أعرفه انه كان على حق ، ونحن ايضا تصرفنا بطريقة صحيحة عندما ازحنا من الطريق مايكل المرتد . . .

وحلت فترة صمت محرجة . وابتسم حاييم بمرارة ، وتذكر كيف استقبل سيمون سلمونزون وشتيرن وغيرهما من زعماء «اكسيونس كوميتى» بالحفاوة وبالقبلات ذلك الشخص الذى كانوا قد حكموا عليه سرا بالموت . وقال حاييم لنفسه : «انه دهاء ونفاق ماكيا فيلى حقا . . .»

ويبدو ان نوتسى قد ندم على احتداده ، فصمت قليلا ثم قال بصوت خافت وتفكير :

- من المؤسف بالطبع ان الخطة المعدة بدقة للتخلص من الضيف الامريكى قد فشلت . . . ولكن كما يقال ، الخيرة فيما اختاره الله . . .

وروى نوتسى انه بمجرد وصول السيارة نقلت جثة مايكل الى ضواحي يافا .

- في البداية كان من المفروض ان نلقى بها في مكان ما بين السجن ومستشفى الحميات . . . انسب مكان للمرئد ! ولكن كنوخ الذى كان يشرف على هذه العملية غير رايه . فاجتزنا حين آخرين . هناك ، حيث تنتهى جبانة المسلمين وتبدأ جبانة اليونانيين من ناحية والجبانة اللاتينية من الناحية الاخرى . . . وعدنا من طريق بات بام . القينا بالجثة في خندق الطريق بعد ان نزعنا عنها السترة ونظفنا جيوب السروال . . . والآن يتضح لكل شخص ان مايكل قد قتل في عملية سطو .

وانقطعت رواية نوتسى بصرخات النساء مولولة تنهت من الفناء المجاور . وركض نوتسى وحاييم الى هناك فشاهدا طفلا أسود الشعر ممتددا على درج المنزل . وكانت موليا منحنية عليه وهى تصرخ بيأس ، بينما يداها الضعيفتان تحاولان بعصبية فك الحبل من رقبتة النحيلة .

نحى حاييم موليا بحذر ، وفك الحبل ، ورفع جسد الصبى الذى فارقتة الحياة . وأخذ نوتسى أبريق ماء كان مع امرأة واقفة بالقرب منهم ورش وجه الصبى البائس الذى شوهته ارتعاشة الاحتضار . وخيل لحاييم فجأة ان الدموع طفرت من تحت جفنى الطفل الزرقاوين المطبقين بشدة .

- يا بنى الحبيب . . . يا ولدى الغالى . . . - راحت موليا تندب وتمسد رأس الطفل ووجهه المبللين وتقبلهما ، وتضم الى صدرها جسده النحيل .

وتجمعت الجارات ونزعته بصعوبة عن ابنها وهن يحاولن عبثا ان يهدئنها . وحمل الرجال جسد الصغير الى البيت ومددوه على الأرض .

وظهرت في الفناء حماة نوتسى وقد علمت فيما يبدو

بالمأساة . واندست في الحشد الصغير الذي أسكته الخوف وأعلنت  
قطعا :

- ومن الذي دفع الصبي الى هذا ؟ هي ! هل هذه أم ،  
اننى أسألکم ! فظاعة ! . . ليس عجيبا ان يقدم على هذا التصرف .  
فليغفر لي الله . . . لم أظن ابدا ان الصبي الصغير يفهم  
شيئا ! كم كان عمره ؟ لقد كان يذهب الى المدرسة الابتدائية !  
اذن فقد كان يرى ويفهم كل شيء . . . .

وصاح الناس في العجوز محاولين تهدئتها وتوبيخها . ولكن  
حدث العكس . فقد صاحت حماة يوناك كالمردوغة :

- لماذا تمنعوننى من الكلام ؟ ثم خبرونى من فضلکم ما  
الذى يجعلکم تدافعون عنها فجأة ؟ من ذا الذى لا يعرف هذه  
العاهرة ! اوصلت زوجها الى درجة انه لا يغادر المستشفى ، اما  
هى فلا تبقى ليلة في البيت ! هل انا اكذب ؟ هل وجدتموها مرة  
في البيت مساء ؟ واذن فما معنى هذا ؟ ولكنى متأكدة من انه كان  
يخرج من عندها كل صباح اكثر من رجل ! فهل هذه زوجة في  
نظرکم ؟ هل هذه أم ؟

وتدخلت امرأة بمنديل رمادى ، بعينين باكيتين حزينتين :  
- لماذا تدعين عليها ؟ انها تتردد على المستشفى مرتين  
في اليوم ، وهذا يعرفه كل من يعمل معها في «دلفينر» . تذهب في  
الصباح مع مطلع النهار ، وفي ساعة الغداء ، رغم انها لا تكون قد ذاقت  
شيئا بعد . وتعود مع صفارة المصنع . . لا تستطيع كل امرأة  
ان تتصرف هكذا ، وانت تتقولين عليها . . . اشياء فظيعة . .  
عيب عليك !

فصرخت العجوز :

- لا تجعلى منى حمقاء من فضلك ! اننى لم افقد عقلى بعد  
والحمد لله ! وبالمناسبة فلا أنوى ان افقده . . نعم ، ليكن في  
علمك . على اى حال انا اعرفها احسن منك : في النهار تجرى الى  
زوجها في المستشفى ، وفي الليل تنام مع الرجال . . .  
- وحتى لو فعلت ذلك ؟ فهل هذا بسبب حياة النعيم ؟



فمن أين لهذه المسكينة بالنقود لتنفق على المستشفى والأطباء  
والأدوية؟ من أين لها إذا كانت تتقاضى قروشاً؟ هه؟  
فتساءلت العجوز بخبث ووضعت يديها على خصرتها بصورة  
عدوانية:

- من أين؟ فظاعة! انظروا اليهن! انهن لا يعرفن من أين  
يحصل الناس على النقود... كأنهن نزلن من السماء...  
فليهبني الله العافية... ينبغي العمل! الكد! لا ببيع الجسد  
والاستمتاع باللذة؟ فماذا كانت تفعل مولياكم؟ تظن انها طالما  
كانت ممثلة في المجر في وقت ما، فلا يليق بها ان تعمل كما يعمل  
الناس جميعاً. كانت تتوقع ان تأتي الى فلسطين فيقدمون لها  
كل ما تريد على طبق وهي في الفراش؟ نعم؟ ألا تريد شيئاً  
آخر؟ الناس هنا يكدهون من الفجر للفجر! فماذا، هل كانت  
تجف يداها لو أنها بعد المصنع مثلاً غسلت الأوعية او الملابس  
عند احد ما، او زاوت اي عمل آخر كما يفعل الناس الشرفاء؟  
واقتربت امرأة فارعة تبدو في شبابهها من العجوز وقالت:  
- الافضل الا تتكلمى عن الشرف ايتها النمامة العجوز!  
ماذا تفعلين أنت؟ تقرضين النقود بفائدة، واذا تأخر أحد في  
السداد يوماً واحداً تسليخينه ثلاث مرات! انا أعرفك حق المعرفة  
ايها المرابية الملعونة! من غيرك الذى استولى على دبله خطوبة  
موليا التعيسة التى ترمينها الآن بأقذع الكلمات؟ تسكتين أيها  
الجنية؟ والحلق الماسى لأرملة صاحب الصيدلية الاعرج في شارع  
رابى أكيف... ألسنت انت التى ابتزته؟ ومن الذى يحمل هذا  
الحلق الآن؟ ابنتك العاقر!

والقت حماة نوتسى نظرة احتقار على النساء المتجمهرات  
حولها وصاحت:

- فظاعة! ما دخل ابنتى هنا؟ وماذا، ربما تظنين اننى  
أقرض نقود الآخرين لا نقودى؟ من لا يعجبه دفع الفوائد فليمتنع  
عن الاقتراض. لا أحد يجبركن على ذلك يا صعاليك. لست أنا  
التى اذهب اليكن بل انتن اللائى تهرولن الى وتبكين وتقسمن انكن  
سترددنها في الموعد، وتستجدين الى درجة القرف! وبعد كل هذا

فأنا مرايية ؟ فماذا تردن اذن ؟ بدون فائدة وبدون رهان ،  
اعتباطا . . . - وهزت العجوز قبضتها وصاحت : - خذن !

وجاء صوت خجول لرجل من الحشد :

- يا ناس . . . يا ناس . . . عيب عليكم ! هنا مصيبة

وأنتم تصفون حساباتكم !

وجذب نوتسى حايبم من كوعه قائلا :

- هيا بنا ! دعهن يثرثرن . . . لا شأن لنا بذلك .

سيصرخن ثم يهدأن . هذا شأن النساء ، ماذا ترجو منهن ؟ يثرن  
ضجة كبيرة والمسألة في الحقيقة لا تساوى فلسا .

ولكن في فناء منزل نوتسى ايضا تجمهر الجيران وراحوا

يناقشون الحادث الأليم . وعلم حايبم من هذه الاحاديث ان زوج  
موليا ، وهو عازف نفير في الاوركسترا السيمفونى الشهير في  
فلسطين كان يعزف ثلاثة او أربعة ، بل وحتى خمس حفلات  
في الاسبوع . وهذا ما قوض صحته . فالحر هنا غير مألوف  
للشخص الأوربى ! وكان العازف اثناء فترات الاستراحة يعب الماء  
المثلج وقد جف حلقه . وبدا ان كل شىء على ما يرام . ولكنه  
مرض قليلا فجأة ، فلم يعر ذلك انتباها ، وقد ظن انها نزلة برد  
عادية وستمر . وربما لو استراح قليلا ورعى نفسه لمرت  
بالفعل . ولكن من أين له بالراحة ! لا بد من كسب النقود .  
وهكذا سقط . . . والآن كم شهرا مر عليه وهو في المستشفى !  
ربما أصيب بالسل او بمرض آخر أسوأ . . . باختصار سيضع  
الموت نهاية لعذابه ربما اليوم او غدا .

هكذا كان يردد الناس المتجمعون في الفناء . وكان حايبم

يفكر وهو يصغى اليهم : «مايكل . . . ابن موليا . . . العازف

المسكين . . . اليست كثيرة كل هذه الوفيات ؟ وما سبب هذا  
كله ؟»

وأحس حايبم ان هناك سببا ما مشتركا ادى الى هذه المآسى

المختلفة الظروف ، ان هناك علاقة ما . ولكن كيف يدركها ؟

بينما كان الناس يتحدثون بهدوء ويعربون عن تعاطفهم

ويتنهدون . وصفقت حماة نوتسى باب السور ودلفت الى الفناء  
وعلى الفور قالت بصوت رفيع :

- حسنا ! اننى اسالكم من كان على حق : انا ام هم ؟ لقد  
شئق نفسه من العار الذى جلبته عليه امه . . .

واتضح أن العجوز تمكنت وهى عائدة الى البيت من سؤال  
صبى الصابرا الأسود الشعر ، زعيم الصبية المحليين ، الذى  
التقت به فى الطريق .

كان يستعد للالتحاق بمدرسة التلمود الدينية ولذلك كان  
يؤنب الجيران على أقل خروج على قواعد السلوك الدينى . وهو  
الذى تجسس على موليا حتى عرف الى أين تذهب فى المساء ، واخبر  
جميع الصبيان بأنها تقضى الليل فى بيت دعارة ، وعذب ابن موليا  
ناعتا امه بأقذع الكلمات . واقسم هذا الصبى أنه  
يقول الحق .

وقال بسرعة وهو ينثر رذاذ لعابه : «انا نفسى تصنت  
فسمعت أخى - وهو سائق تاكسى - يحكى لزميله انه دخل ذات  
مرة بيت دعارة . . . وهناك رأى أمك . فى تل ابيب ، قرب  
الميناء . . . فى آخر شارع لاسال شفييس . . . على مقربة من  
ياردن هوتيل ، عند الهيكل القديم ! . . . أتريد ان اقول لك  
كيف يدعو الرجال أمك ؟ «سيلفا» ! وأعرف ايضا انهم يدفعون  
لها فى الليلة عشرة جنيهات . . . أقسم بحياتى أننى لا أكذب !  
لقد ذهبت الى هناك لأتفرج . هناك كثير من هؤلاء النساء . أتعرف  
كيف يمشين ؟ كما على البلاج ! اذا كنت لا تصدقنى فأنا مستعد  
ان اذهب معك عندما تخرج أمك من البيت فى المساء ! وستأكد  
بنفسك . أقسم بحياتى !»

وهتفت حماة نوتسى مهللة :

- وقد اقتنع ! . . . اقتنع لدرجة انه لعن امه العريزة  
وشئق نفسه . . .

وقاطعتها جارتها التى دخلت الى الفناء فى اثرها :

- أوى ، أوى ، أوى ! ماذا تقولين ؟ انك تعرفين ان الصبى  
ترك رسالة لأمه ! ويالها من رسالة طيبة ! لقد كتب انه لا يتهم

أمه بشيء ، ويدرك كم من النقود كان يتطلب علاج أبيه ، وانها من أجل انقاذه فقط ضحت بشرفها وصحتها . . . وطلب منها ان تغفر له فعلته ، لأنه لم يستطع ان يتحمل هذه المصيبة . . . وانت تدعين انه لعن أمه ! هذا غير صحيح !

وحاولت حماة نوتسى أن تفسر هذه الرسالة أيضا بطريقتها الخاصة . ونشب الجدل ثانية ، ولكن حاييم لم يرغب في الاصغاء فانتحى جانبا . أحس بخجل شديد من سلوك حماة نوتسى ، وبالمرارة والمهانة من أجل موليا ، وبالأسى الأليم للطفل المنتحر . وعندما رأى أويا المنزعجة عند باب الجناح هرع الى نوتسى يوناس وقال برهبة :

- لا أدري كيف أشرح لاويا ذلك . . انها الآن لا يجب ان تنفعل بأى حال من الاحوال . . .  
ونظر نوتسى الى حاييم بدهشة وقال :

- يا لها من مسألة هامة ! هدى روعها بأى طريقة . .  
ليس صدفة ان قد جاء في التوراة «وهذا أيضا سيزول !» سيزول ولا يبقى مجرد أثر . كلام فارغ . الألمان يقتربون من باريس ، وحتى هذا ليس مخيفا . لا ينبغي علينا ان نفكر في اشياء كهذه اذا كنا نريد إعادة تأسيس دولتنا ! . . المصلحة العامة فوق المصلحة الشخصية يا حاييم ! لا تنس ذلك . . .

## ١٢

« . . لم تعد الطلقات في الظهر ، ولا الاعدام المباشر عن قرب يدهشان احدا . وايا كانت صبغة البلطجة ، سواء تمت بقصد السلب ام بدافع الانتقام ، فلن تحطم ارادة اليهود ان امر العلى القدير «مضرجا بدمائك ستعيش» قد علم شعبنا التسليم والصبر ، اما خطيئة قابيل فتلازمه منذ اقدم العصور . . . واذا كانت دماء رجالنا تسيل في شوارع المدن أم على رمال الصحراء ، فهذا أيضا ليس بجديد كما هو ليس بجديد صبرنا . ولكن ، كما

ان كل خير وشر ليسا دائمين ، كذلك ينبغي لتسليم شعبنا ان ينتهى . وسيأتى اليوم المنتظر الذى يهب فيه العلى القدير شعبه المختار القوة والشجاعة . ولقد اصبحتنا جميعا نرى ونلمس بوادر هذه الساعة العظيمة كما تلوح اشعة الشمس المشرقة من خلف الجبال ! وعندها سينتقم شعبنا انتقاما مضاعفا لكل ما ناله من عذاب وآلام . فاذا كان أمر العلى القدير يقول : «مضرجا بدمائك ستعيش» فيمكننا ان نستنتج من ذلك بكل ثقة ان اعداءنا سيغرقون ايضا في هذه الدماء ! فليقرب عمل العنف الجديد الذى راح ضحيته هذه المرة ابن مخلص لاسرائيل جاء من وراء المحيط ، فليقرب ساعة الانتقام ! فلتصرخ مطالبة بالثأر دماء اخينا في العقيدة الذى غاب عنا في اوج قوته وفي زهرة شباب روحه . . .»

قرأ حاييم هذه الاسطر بعد مرور يوم من شهوده مقتل مايكل في الاجتماع السرى الليلي بمكتب سيمون سلمونزون . قرأها وهو لا يصدق عينيه . فقد كان التوقيع باسم الحاخام بن صهيون هاجرا . بن صهيون هاجرا الذى كيل له المديح في الاجتماع السرى في حضور مايكل الذى كان لا يزال على قيد الحياة . وما هو اليوم رئيسا لجوقة الكذابين الذين يؤكدون في الصحافة بشتى الطرق ان الجريمة قد ارتكبتها اعداء شعب اسرائيل ، ويلمحون بوضوح الى ابناء الديانات الأخرى القاطنين معهم جنبا الى جنب .

استولى القلق على حاييم عندما فكر بان الحاخام ربما يكون قد انتقل من قبرص الى «أرض الميعاد» . وكلما ازداد تفكيرا فيه تصاعد رعبه : «أمن المعقول حقا ان كل شىء هنا يقوم على الكذب والدماء؟» وحاول ان يصرف ذهنه ، فقلب الورقة . ولفت انتباهه خبر مطبوع بأحرف ثقيلة ومحاطة بإطار أسود . كان ذلك بلاغ رسمى قصير يخبر القراء المحليين بما حدث ويؤكد للامريكيين ان الادارة قد اتخذت كل الاجراءات للكشف عن القتلة وتسليمهم الى ايدي العدالة .

وأدرك حاييم أن هناك لعبة سوداء معقدة تدبر حول هذا الحادث . ولكنه لم يكن يعرف ان الجميع في ذلك اليوم كانوا لا يكفون عن الصراخ «حول المأساة التى وقعت في شارع مقفر في تل

أييب» . وصدرت جريدة «مزراح» متأخرة بصورة لم يسبق لها  
مثيل . فبدلا من الصباح لم توزع الا في المساء ، وكانت خالية من  
الملحق . . . اما في الواقع فقد وزع بطريقة سرية ، ولم يتطرق  
الى الحادث الا ببضعة أسطر .

وطرح كاتب هذه الأسطر المجهول التي دوت كالرعد في سماء  
فلسطين الصافية سؤالا غير متوقع : «نود ان نعرف لماذا تلتزم  
الشرطة الصمت حول واقع ان الضيف الامريكى الذى اغتيل بوحشية  
قد وصل الى ارض الاجداد قادما لا من وراء المحيط ، كما كان  
الجميع يظنون ، بل بعد توقف طويل في عاصمة «الرايخ الثالث» ؟  
ونود كذلك ان نعرف لماذا لم تذكر سلطات التحقيق كلمة واحدة  
عن الغرض الذى سافر هذا الشخص من اجله الى المانيا . ولا يقل  
عن ذلك أهمية ان نعرف ما هى المباحثات التى اجراها هناك مع كبار  
المسئولين فى الاوساط المقربة من المستشار الالماني . .  
وأخيرا من هو الطرف الذى لم يرق له : هل هم الرؤساء الامريكويون  
الذين أرسلوه الى المانيا ، ام القادة النازيون الذين تباحث معهم ،  
ام عملاؤهم فى فلسطين برئاسة مفتى القدس امين الحسيني . .  
ينبغي ان نسمى الاشياء بأسمائها ، بالرغم من ان واقعة اكتشاف  
الجثة بين الجبانة اليونانية ، والجبانة اللاتينية والجبانة الاسلامية فى  
يافا القديمة يدل ابلغ دلالة على اصحاب تلك الايدى الملتخية  
بالدم ! . . .»

وعلى الفور أحدثت هذه المقالة الأثر المطلوب ، فقد خدمت  
فجأة وبذعر الضجة التى أثارها مقتل المواطن الامريكى والتى هزت  
مشاعر الافراد . كان الكثيرون يعرفون ان الجريدة التى نشرت  
المقالة الغامضة رغم انها تدعى الاستقلالية الا انها كانت فى الواقع  
لسان حال جماعة شتيرن .

وقال حاييم :

- انظر يا نوتسى ، لم يعد احد ينسب ببنت شفة عن  
مايكل ، وكان شيئا لم يكن .

فأجاب نوتسى بلا اكتراث وكان الحديث يجرى عن امر تافه :  
- وماذا فى ذلك . . . انا نفسى نسيت كل شىء . . . وعموما

كلما تذكرنا ذلك اقل كان افضل . . . لدينا اعمال اهم . اليوم ،  
بالمناسبة ، سنتسلم كمية كبيرة من اللوز لشحنها الى اوربا .  
ثم هناك سفينة مستأجرة لحساب «هيكال ليمتد ان سيتروس»  
لشحنها بقرون الخروب . صحيح انها ستشحن في حيفا ، وسأذهب  
الى هناك بنفسى . وعلاوة على ذلك فمن المنتظر ان تصل بين لحظة  
وأخرى سفينة تحمل شحنة قيمة جدا . . . وهكذا فالعمل كما ترى  
يا حاييم كثير بما فيه الكفاية ! أما بخصوص المرتد مايكل فقد  
قال رفيقنا شتيرن بحق : «جثة العدو لا تفوح منها رائحة العفن !» ،  
هل فهمت ؟ وبالمناسبة يا حاييم لا يضيرك ان تتذكر ذلك . . .  
لاحظ من الذى قاله !

دار هذا الحديث في مخزن الميناء في الصباح الباكر . ثم سرعان ما  
رحل نوتسى يوناس الى حيفا . وبقي حاييم في منطقة الشحن التابعة  
لمكتب التصدير والاستيراد «في محل الرئيس» اذ لم يكن دافيد كنوخ  
قد وصل بعد . حالة نادرة ! فقد كان كبير الوكلاء يأتى في العادة قبل  
الجميع وينصرف آخرهم ، اذ كانت لديه دائما أشغال ما فى الادارة  
او جمارك الميناء . وكالعادة كان يتسكع هناك قبل بداية العمل  
وبعد انتهائه . وكان دافيد كنوخ يستغل هذا الظرف للتفاخر في  
نطاق ضيق من الاشخاص الموثوق بهم . كان يقول : «انا لست  
كالاشكنازى المرفه يوناس . فهو يأتى الى الميناء كما يأتى الطبيب  
لعيادة مريض ، ما ان يتجاوز العتبة حتى ينتظر منك ان تدس في  
يده ورقة بخمسة جنيهاً وعينه تتطلع الى باب الخروج . . .  
فهل يمكن بهؤلاء الكسالى ان نعيد تأسيس دولتنا ؟ لو كان الأمر  
بيدى لفرمتهم جميعا أقسم بشرفى ! على الأقل قد يصلحون لتسميد  
صحراء النقب ! وهذه فائدة على أية حال» .

كلف نوتسى قبل سفره حاييم فولديتير بان يحصل من خزنة  
البضائع فى الميناء على استثمارات تأجير لانجاز الشحن . ولم تكن هذه  
الاستثمارات تصرف الا فى النصف الاول من النهار . ولكن لسوء  
حظه بدأت افواج السيارات المحملة باكياس اللوز تصل الى رصيف  
الشحن . فاضطر حاييم ان يبقى هناك ، اذ لا بد من متابعة رص  
صفوف الطابق الاول .

لم تكن السفينة قد وصلت بعد ، لذلك اسرع حايبم الى  
الميناء . وعند المستودع سبقه كنوخ فحياء حايبم بشيء من  
التزلف :

- شالوم يا رفيق دافيد كنوخ !

وكالعادة لم يسمع ردا . ولم تكن فظاظة كنوخ جديدة على  
حايبم ، ومع ذلك أحس بالمهانة . فبعد ان أصبح حايبم يشارك في  
تنفيذ بعض العمليات الحساسة بدأ كبير الوكلاء يعامله بصورة  
انسانية الى حد ما . وبدأ انه اقتنع بقدره هذا «المعتوه» كما سماه  
كنوخ ، على الاداء وبأنه يجيد الحفاظ على الاسرار . وكانت تلك اول  
«وصايا» كبير الوكلاء . ولكن يبدو انها الآن أصبحت اقل أهمية .  
فقد كان ذهنه مشغولا بشيء هام . وفي مثل هذه الاحوال يتغير تماما  
بالنسبة لمن حوله . كان العمل يستغرقه حتى ان تبليتس نفسه ،  
خال سيمون سلمونزون ، كان يقول بطريقة لا تخلو من الفخر :  
«ان كبير وكلائنا يستغرقه العمل وينهمك هو فيه حتى انه لا يرى  
شيئا غيره ، ولا يسمع شيئا يعترف بأحد . حتى بي أحيانا !»

ورغم ذلك كان الجميع يدركون جيدا انه ليس العمل في حد  
ذاته هو الذي يستغرق دافيد كنوخ بقدر ما هو الدخل الذي ينتظر  
ان يعود عليه منه . ولكنهم كانوا يغضون الطرف متظاهرين انهم لا  
يلاحظون شيئا . . .

وما ان ظهر كنوخ على المرسى حتى انطلق كالسهم الى رصيف  
الشحن ، واجتازه كالأعصار من أقصاه الى أقصاه وهو يفتش في  
جميع الزوايا ، ثملقى نظرة على طابق اكياس اللوز المتزايد ،  
وعندما تأكد ان العمل يسير على ما يرام وليس هناك ما يمكن ان  
يتمحك به ، أسرع الى المخزن .

وقال لحايبم على الماشى :

- اننى مسافر . اذا سألوا عنى فى الميناء قل لهم اننى ذهبت  
الى الطبيب فى المدينة ، واذا سأل عنى آخرون قل لهم اننى فى  
الجمارك . . . لا تقل للعمال اننى سافرت ! افتح عينيك جيدا !  
ستدفع من جيبك الخاص ثمن كل كيس يسرق !



فاجاب حاييم بعجلة :  
- لقد فهمتك يا رفيق دافيد كنوخ . سافعل كل شيء كما

قلت . . . .  
قدمدم كبير الوكلاء دون ان يسمع بقية كلام حاييم :

- ساعود غدا .

وانصرف .

وكان حاييم يعرف انه اذا قال كنوخ انه سيعود في الصباح  
التالي فاعتبر انه سيعود في مساء اليوم . واذا قال انه سيأتي بعد  
ساعة ، فيمكنك ان تعتبر انه سيرحل لمدة طويلة . كان كنوخ  
واثقا من انه ينبغي جعل المرؤوسين في حالة توتر مستمر .

وتنفس حاييم الصعداء وهو يرى كبير الوكلاء يبتعد بسرعة .  
ولكن مساعد الوزان ظهر على رصيف الشحن ، واقترب من حاييم  
وسلمه رسالة تنبئ بقرّب قدوم سفينة اوسترالية مؤجرة لشركة  
«أتيد» ومحملة بالعلف لحساب مكتب التصدير والاستيراد .

ارتبك حاييم لحظة ثم أدرك ان تفريغ شحنة العلف لا يمكن  
ان يقوم بها سوى كبير الوكلاء فانطلق في اثره . وراى كنوخ من  
بعيد وهو يستعد لركوب السيارة التي كانت في انتظاره عند مفترق  
الطرق . وكان الطريق المؤدى الى المدينة يسير بحذاء رصيف الشحن  
تقريبا ، فانطلق حاييم على الرصيف ليلحق بالسيارة وهو يلوح  
بيديه ليلفت الانتباه .

- ماذا هناك بعد ؟ - صاح كنوخ بعصبية عندما توقفت  
السيارة - ما الذي جرى هناك ؟ - وخرج من السيارة وترك الباب  
مفتوحا .

فقال حاييم وهو يلتقط انفاسه بصعوبة :

- رسالة مستعجلة يا رفيق دافيد كنوخ ! سفينة . . .  
بشحنة علف . . . من اوستراليا ! مؤجرة ل«أتيد» .

اخرج كنوخ نظارته وقرأ الرسالة وتجهم وجهه . وتهدلت  
شفته السفلى .

- من الذي جاء بها ؟

- مساعد الوزان . . . وقال ان السفينة ستصل الميناء عند منتصف الليل .

ومر كنوخ بعينيه على الرسالة مرة اخرى ، وطاف ظل ابتسامة استحسان لا تكاد تلاحظ على وجهه المحمر العرقان الملىء بالبثور .  
ودمدم :

- حسنا فعلت اذ لحقت بى ، اذهب الى المخزن وقل اننى سمعت لك بان تتصل بمكتبنا . وسيكون الرفيق سيمون فى المكتب اليوم حتى الغداء ، ابلاغه اننا تسلمنا اخطارا بوصول سفينة علف . . . هل فهمت ؟ لا تقل شيئا عن انها مؤجرة لـ «اتيد» او انها تسير تحت علم اوستراالى . . . - وهم كنوخ بان يمضى الى السيارة ، ولكنه توقف واضاف دون ان ينظر الى حايم - فليتلفن الرفيق سيمون الى حيفا ليحضر يوناس الى هنا فى المساء ! يمكنهم هناك ان يعملوا بدونهم ، فيا لها من مهمة هذا الخروب النخر ! وقل لمساعد الوزان اننى سأفرغ السفينة دون تأخير . دعه لا يصرخ ، فلن يحدث تعطيل للسفينة ! هكذا بلغه ، مفهوم ؟

واستدار كنوخ الى السيارة ليجلس . ونظر حايم الى داخل السيارة فصعق : فبجوار شتيرن على المقعد الخلفى كان يجلس ذلك الشاب المجعد الشعر ذو النظارة ذات الزجاج السميك ، الذى حرض ركاب «ترانس اطلانطيك» على تمزيق وثائقهم ، والذى كان يهيب بالمسافرين اليانسين ان يتعقلوا ، اما هو نفسه فقد تسلل من السفينة كاللص واخذ معه بالطبع وثائق سليمة . ولكن الذى اقلق حايم اكثر هو وجود شخص آخر فى السيارة ، بلحية كثة ، راح يحدق فيه بنظرة ثاقبة شريرة من تحت حاجبيه المقطبين . كان ذاك الحاخام بن صهيون هاجرا ! . . .

قبيل المساء ظهر دافيد كنوخ فى الميناء فجأة كعادته وانتشر نبأ وصوله فوراً . وفى الحال صممت اصوات الحمالين الذين كانوا يشجعون بعضهم البعض بالنكات ، وشد الناس المتعبون بعد عناء النهار قاماتهم ، وازدادت يقظتهم ، وسار العمل بوتيرة شديدة ولكنها فى الوقت نفسه دقيقة كعدة ساعة مضبوطة جيداً .

واسرع حايم لمقابلة كبير الوكلاء بمجرد اقتراب الاخير من  
الطابق وقال له :

- كل شيء على ما يرام هنا يا رفيق دافيد كنوخ ! نرص  
الطابق السادس ! ابلغت الرفيق سيمون كل ما امرتني به . . .  
صمت كنوخ كان هذه الكلمات لم تكن موجهة اليه . ولم  
يتكرم على حايم بنظرة بل اتجه الى السلم المؤدى الى المرسى ،  
وعندما بلغه قال باقتضاب :

- لم يعد لديك هنا ما تفعله . . . انس الطريق الى الميناء  
الى الأبد !

لم يدرك حايم لأول وهلة ان هذه الكلمات موجهة اليه ،  
ولذلك مضى آليا خلف كنوخ . وعندما أدرك ذهنه المعنى الرهيب  
لهذه الكلمات التي سمعها توا ، أحس بقواه تخور . وبدأ يتخلف  
عن كنوخ ثم توقف أخيرا . وجاءه الحمالون يسألون عن أشياء ما  
ولكنه لم يسمع ما يقولون . وعندما رأى كبير الوكلاء منطلقا الى  
الطابق من جديد تغلب حايم على خوفه وتردده واندفع ليلحق به .  
- اعذرني من فضلك يا رفيق دافيد كنوخ - قال حايم وقد  
تقدمه قليلا - أنا لم أفهم ما قلت . . .

فزمجر كنوخ اثناء سيره :

- قلت اغرب من هنا ! هل سمعت الآن ؟ أم تريد ان القى  
بك من الرصيف ؟

كان الندم يعذب دافيد كنوخ . وقد اعترف بذلك بصراحة  
لسيمون سلمونزون عندما جاء هذا في المساء الى الميناء بمناسبة  
قرب تفريغ السفينة الاوسترالية وسأل لماذا لا يرى المتطوع  
فولديتير .

ومسح كنوخ على صدره المشعر ، وانقلبت شفته المتهدلة  
بنفضب :

- لا أستطيع ان اغفر هذا لنفسي ! لا ينبغي ان نضيع الوقت  
مع هؤلاء الاوغاد ، بل يجب ان نمسك بهم من أرجلهم ببساطة ونلقى  
بهم طعاما للأسماك . . . لست أدري لماذا لم يقترن القول بالعمل

عندى بالنسبة لهذا المافون ! لقد انقذه بالطبع انه لحق بى فى الصباح عندما وصل خبر قدوم السفينة . وحسنا فعل ، لان المناوب فى الميناء كان ذلك المصرى ذو الشوارب . . . . كان من الممكن ان تحدث تعقيدات . . . .

وعندما عاد نوتسى يوناس مساء من حيفا وسمع رواية حاييم القلقة ربت على كتفه مهدئا ، فقد كان نوتسى ثملا ويبدو له كل شىء هينا ويسيرا .

- لا تقلق يا حاييم ، ستمر على خير . . . سوف ترى . . . خاصة وانك لم تفعل شيئا سيئا . بل ان «القاطرة» امتدحك ، لم يحدث ابدا ان امتدح احدا ! بل ستمر على خير . . . فى آخر الامر سيحسب حسابا لرأبى يا حاييم ! لا تقلق . . . سنسوى الامر !

راى حاييم ان نوتسى قد شرب فتشجع دون ان يخمن بالطبع سبب طرد حاييم . ولم يقرر حاييم ان يبوح له بمخاوفه . وقال فى نفسه : «ربما تمر على خير هذه المرة ايضا . فى المرة السابقة ، فى قسم الشرطة ، كنت اظن ان المتاعب بسبب بن صهيون هاجرا ، ثم اتضح ان الحاخام لا دخل له بالموضوع . . . .»

ومع ذلك لم يذهب حاييم الى العمل فى اليوم التالى . كما ان نوتسى بعد ان افاق ، نصح حاييم بالانتظار قليلا حتى يعرف بنفسه حقيقة المسألة . وقال له قبل سفرة الى الميناء :

- ينبغى ان نتشمم السبب فى اقدامه على ذلك . مهلا . وسنوفق فى تسوية الامر . فانت تعرف ان «القاطرة» اذا حرن فمن الصعب زحزحته من مكانه ! لكن دعنا لا نخمن . سأبذل جهدى ، اعتمد على . . . . ولم يعد نوتسى الى المنزل الا بعد اربعة ايام . وظل حاييم طوال هذه الايام قلقا ، وبصعوبة اخفى عن اويثا حقيقة الامر . افهمها كما لو ان حركة النشاط قد خفت فى الميناء فسمحوا له بالراحة بضعة ايام . وكانت اويثا سعيدة تتألق بالفرحة وهى تسرع بالعودة من العمل فى المصنع .

ولم تكن المرة الاولى التى يقول فيها حاييم لنفسه : «ينبغى

ان تترك العمل ، فهي الآن في الشهر السابع ، ولكن الآية انعكست ،  
فانا الذى جنحت على الرمال . . . .»

كان الوقت مبكرا جدا عندما وصل يوناى . ولم يكن حايمم  
نائما ، وعندما سمع صوت السيارة خرج الى الفناء فرأى نوتسى  
يوناى ولكنه لم يجرؤ على ان يناديه . كان يعلم ان يوناى وكنوخ  
ظلا طوال هذه الايام يتسلمان ويصنغان ويوزعان الاسلحة على  
عناوين سرية وهى مختبئة فى بالات القش المضغوط ، او ربما الآن  
فى «عبوة» اخرى . . . .

واوى حايمم الى الفراش من جديد واغمض عينيه ، وعلى الفور  
راى ، وكان ذلك امامه ، رصيف التفريغ ، ومجىء الحمالين ببالات  
القش المربوطة بسلك نحاسى تارة وسلك عادى تارة اخرى . . . .  
والمخزن ، والاطية المشمعة الكبيرة وعليها اكوام الاسلحة المزينة  
وصفوف الصناديق المعدنية المستطيلة التى تحتوى على قطع الغيار ،  
والصناديق الخشبية المربعة المعبأة بالذخيرة ، والشبان والشابات  
الصامتين الذين جىء بهم من احدى المستوطنات وقد انحنوا فوق  
الطاولات التى يجرى عليها تجميع الاسلحة . ومن جديد تسرب  
الخوف الى قلبه ، ومر على ظهره كثعبان بارد مقزز وضغط على زوره  
كاتما انفاسه .

ود لو يهرب توا ، يهرب الآن ، يهرب على غير هدى ، المهم  
الا يرى هؤلاء الاشخاص القساة ، والا يشارك فى اعمالهم السوداء .  
ولكن الى اين المفر . . . من ذا الذى ينتظر يا حايمم . . . انت  
وزوجتك المسكينة اويًا . . . وظل بصيص من الامل يومض فى  
قلبه : ربما يساعده نوتسى . . . الم يساعده ذات مرة . . . .

ظل حايمم طول النهار قلقا لا يهدأ له مستقر وينتظر بفارغ  
الصبر مجىء نوتسى وهو يضرب اخماسا فى اسداس .

ولم يات اليه يوناى الا فى المساء ، والقى نظرة متلصصة  
على اويًا المنهمكة فى اشغال البيت ، ودعا حايمم الى الخروج كأنما  
على كره منه . وجلسا على الأحجار الضخمة الملقاة وراء كوخ حايمم .  
وبدا نوتسى الحديث بكسل وهو يتشاءب ، فسأل عن صحة  
اويًا ، وعما اذا كان يراسل والده ، وهل اخته بصحة طيبة . وتطرق

في حديثه الى شئون الايام الخوالى ، ولكنه لم يتفوه بكلمة عن سبب غيابه الطويل .

لاحظ حايم كل ذلك بينه وبين نفسه وقد ادرك ان نوتسى لم يفلح ، فيما يبدو ، في اقناع كبير الوكلاء باعادته الى العمل في الميناء .

وفجأة ودون اى ارتباط بالحديث السابق سأل نوتسى دون ان ينظر الى حايم :

- واذن فأويًا هذه ليست من اهلنا . . ولكنك أخفيت ذلك . . ففهم حايم على الفور : «اذن فقد عرفنى الحاخام ! انه هو بن صهيون هاجرا السبب في فصلى من العمل . . .» فقال معترفا :

- نعم يا نوتسى ، انها يونانية . . . ولكنى لا افهم على الاطلاق ما أهمية ذلك ! هى التى انقذت حياتى ! هل تفهم ما يعنى هذا . . على اية حال ثمة قيم اخلاقية معينة !

شمل يونس حايم بنظرة احتقار ، ولكن حايم لم يلاحظ ذلك فمضى يقول :

- وعلاوة على ذلك فانا احبها ! انها زوجتى ! زوجتى التى ستصبح قريباً اما لطفلى ! هل تفهم هذا يا نوتسى . . فأسرع نوتسى بالرد :

- نعم ، نعم يا حايم ، طبعا افهم . . . وهى ايضا تجبك . الجميع يعرفون ذلك . وهى كادحة ممتازة ، وفى المصنع راضون عنها جدا ، وفى المنزل تعمل كالنملة . اننا ندهش دائما من قدرتها على العمل ودأبها ، اى والله ! كل هذا مضبوط . . . ولكن الا توافقنى على أنك ، باعتبارك متطوعا فى فوج يحمل اسم رفيقنا يوسف ترومبلدور ، قد خالفت قواعد السلوك المتبعة ! والأكثر من ذلك . . .

ولكن حايم قاطع صديقه وهو يهز كتفيه باندهاش :  
- مهلا يا نوتسى ! كيف خالفتها ، خبرنى . . هل نهبت احدا أو قتلته . .

- لا ، لا ، ما دخل النهب وخلافه هنا . . على الرغم من ان المصالح العليا ، بالمناسبة ، تضطرننا احيانا الى الاقدام على هذا

وذاك . . . ولا تتظاهر بأنك لا تفهم ، لا تتعب دماغى أرجوك !  
فأنت لست محدثا فى هذه الامور والحمد لله . اما المخالفة التى  
أتحدث عنها فهى أولا : ان زواجك بأويًا غير شرعى ! . . هل تفهم  
ما معنى هذا . . .

- وماذا فى ذلك . . .

فاستطرد نوتسى بعصبية :

- ربما لا يعنى هذا شيئا بالنسبة لك . ولكن لا يمكن لآى  
يهودى شريف ان يسمح لنفسه بذلك . . . نعم ، نعم ! وثانيا هى  
يونانية ! ونحن واياهم متباعدون كالسما والارض ، كالليل  
والنهار ! هل تستطيع ان تفهم هذا . . .

- مهلا ، مهلا يا نوتسى . . انك تؤكد ان زواجى بأويًا غير  
شرعى ، وانها من قومية اخرى ، وفى ذلك جريمتى . . فليكن . ولكن  
احدا لم يسألنى عن ذلك من قبل ! ما الذى حدث حتى جعلكم جميعا  
تفزعون . . .

- لم نسألك لأنك متطوع ، ويهودى مؤمن كشىء بديهى ! هكذا  
على الأقل كنا نعتقد انا وسيمون وكنوخ والآخرون . ولم يخطر ببالى  
أبدا ، انا المغفل السريع التصديق ، ان المتطوع يمكن ان يرتكب  
شيئا كهذا !

- ولكنى انا ايضا لم يخطر ببالى هذا أبدا ، لأننى لم ار ،  
وما زلت لا ارى ، اية جريمة فى كون زوجتى يونانية ، أى والله !  
اغتاظ نوتسى من عناد حايميم فقال :

- لا تلف على . انت كنت تعرف جيدا من قبل ان عاداتنا  
تعلم الزيجات المختلطة ! وهى هنا ليست محرمة فقط ، بل ويعاقبون  
عليها بمنتهى الشدة ! لا تحاول اذن ان تدعى الجهل ! وعموما فان  
وقاحتك تدهشنى ! صحيح ! فلا يمكن لأحد غير الفوغائيين الحمر  
ان يتحدث هكذا ، والاسوا مليون مرة ، ان يفكر هكذا ! . . ان  
هذا ببساطة شىء مخيف ! . . فانت مع ذلك متطوع ادى «الأكشارا»  
ومنح ثقة كبيرة وقبل فى انظف وأشرف وأفضل منظمة من بين احسن  
منظماتنا ! فانت تعرف ان الاختيار لعضويتها يتم بكل دقة فما هذا  
الذى ارتكبته انت !؟

- ولكنك تبالغ وتعقد الامور يا نوتسى ، أقسم لك . ما الذى ارتكبته . . لست أفهم .  
فقفز نوتسى واقفا :

- وبعد كل هذا ما زلت تسأل . . لو كنا نعرف أنك متزوج من يونانية هل كنا نوليك كل هذه الثقة . . هل كنا نطلعك على قدس الاقداس وسر الأسرار . . ابدا ! فاهم . . لقد خدعت كل رفاقنا . . ولوثت بأخس صورة كل المثل النبيلة «لارجون تسفاى ليومى» . هل تعرف ما معنى ذلك ؟ هذا يكاد يبلغ مستوى الخيانة ! وعندنا لا يمسخون على الرأس على هذه الأفعال ! هل تفهم هذا على الأقل ؟

وتذكر حايميم كيف صرخ شتيرن فى مايكل فى مكتب سلمونزون فى تلك الليلة المشهودة : «أنت خائن ومكانك على جبل المشنقة !» وانتفض حايميم عندما راودته فكرة انهم من الممكن ببساطة ان يرموه بالخيانة ويقتلوه كالكلب ، رغم انه لم يحس بأى ذنب ارتكبه عملا أو قولا . وبدت له الاتهامات القاسية التى رماه بها نوتسى سوء فهم رهيب .

فبدأ حايميم بلهجة مسالمة وهو يحاول ان يتحدث بهدوء :  
- مهلا يا نوتسى ! اهدأ . تعال نبحت الأمر كله كما ينبغى .  
ها أنت تقول : ان الزيجات المختلطة تحرمها عاداتنا . حسنا ، ليكن . ولكنك انت وزوجتك وحماتك لستم من الصابرا . . كما انكم لا تقدسون كل هذه العادات القديمة البالية . . ولست أنت وعائلتك فحسب ، بل الكثيرون ! ولا بأس ، فلا أحد يوبخهم على ذلك او يعدمهم . ولكن هل أجمت أويًا لانها ولدت من أبوين يونانيين . ان ذنبها فى ذلك مثل ذنبى وذنبك اذ ولدنا من أبوين يهوديين ! لقد كانت عصايات الحرس الحديدى الفاشى تلاحقنا فى رومانيا لهذا السبب ، وماتت والدتى فى المذبحة التى دبرها الفاشست . ثم تهددنى انت الآن ، وتلمح الى شىء رهيب فقط لأن زوجتى يونانية . . ان هذا صورة طبق الأصل مما فعله ويفعله الفاشست . اعذرنى ولكن الأمر كذلك فعلا !

بدا حايميم كلامه باتزان ، ولكن الانفعال الذى كان يتاجج فى



كلماته فضح مشاعر الاحتجاج والغضب المتزايد التي نمست في داخله . وفي مثل هذه المواقف بالذات كان لين طبعه وسلاسته بل وحتى ضعف ارادته ، كانت تتحول الى عناد تجعله قادرا على تحمل المحن الشديدة ولا يستسلم . وهذا ما حدث في بولجراد عندما ضربه رجال الشرطة مطالبينه بأن يذكر أسماء رفاقه الذين ساعدوه في توزيع منشور «تسقط الفاشية!» آنذاك لم يرشد عن رفيقيه في العقيدة ايليا توموف وفالتر آدامي . وهذا ما حدث في قبرص . فلم يذعن لارادة الحاخام الشريرة ولم يتزوج ابنته المدللة وذاد عن حبه رغم ان المرض قد هدئه وكان بلا حول .

صحيح انه في بولجراد لم يشعر انه وحيد : كان معه والده واخته واصدقاؤه الذين كان يثق في تعاطفهم ومساعدتهم . وفي قبرص كانت العمه بيتيا الطيبة بقربه . اما هنا في فلسطين فكان وحيدا وسط اناس غرباء قساة من المتعصبين الدينيين والجشعين والوصوليين وأساتذة التهريب والابتزاز والاغتيالات . وكان مصيره وسعادته مع حبيبة قلبه يتوقفان على هؤلاء الاشخاص . وكان حايم يعرف انه لا يمكن ان يتوقع رحمة من أمثال الحاخام بن صهيون هاجرا . ومجرد التفكير في ذلك جعل الخوف يتسلل الى قلبه ، ولكنه لم يعد قادرا ولا حتى راغبا في كتم الغضب والاحتجاج اللذين فاضت بهما نفسه .

ولم يكن نوتسي يوناس قلقا الا على مستقبله الشخصي الذي أصبح نجاحه موضع شك . فأيا كان الأمر فيوناس هو الذي ضمن حايم في وقت ما ، ولذلك مضى الآن يخوفه فقال :

- سأقول لك شيئا واحدا يا حايم : لا تمزح ! أنت هنا لست في رومانيا ، وعلى الأخص لست في بيسارابيا . لقد اجتمع هنا الرفاق المطلوبون ، النخبة في العالم كله ! ولا وقت لديهم للمزاح عندما يوضع كل شيء في كفة الميزان من أجل الهدف العظيم ! ولن يسمح اى منهم بتضليله ، كما قد يتراءى لك . . .

باعد حايم بين يديه وقد أراد ان يقول شيئا ولكن نوتسي لم يمهل . كان منفعلا ، يشيح بيديه ويمسح بمنديل بين الحين

والحين جبهته وعنقه المبللين بالعرق ، ويبصق . واخيرا قرر ان يفصح عن الفكرة التي جاء من اجلها الى حايميم :

- ليس امامك سوى مخرج واحد من الوضع الحالي . دعها ترحل من حيث جاءت . . . هذا افضل . صدقنى . وسينزاح عن كاهلك هذا العبء ! انك تريد ان تعيش معها هنا فى ارض الاجداد الذين اوصونا بالمحافظة على نقاء العقيدة ! لا فى مكان ما فى اوربا . فهل هذا يصعب فهمه حقا ؟

استمع حايميم الى يوناس صامتا مطاطا الرأس . ولم يغير من وقفته ، ولم ينبس ببنت شفة حتى عندما أنهى يوناس خطابه العاصف واصفا حايميم «بالأحمق الشريف حقا» .

واعتبر يوناس صمت حايميم علامة طيبة ، ولكى يحطم تردده تماما قال بغضب وحدة مشددا على كلماته :

- ضع فى اعتبارك ان احدا لن يترفق بك ! لن يساعذك سلمونزون بملايينه ولا حتى أنا . . . وبالمناسبة فان فعلتك هذه قد جلبت لى قدرا كبيرا من المتاعب . ألسنت أنا الذى ضمنتك ! ولهذا اولوك الثقة ، واية ثقة ! مجرد التفكير فى ذلك فظيع ! وبدلا من ان تشكرنى تخوننى بأحط صورة !

فقال حايميم بهدوء :

- بوسعك ان تتعجب وترمينى بأقذع الكلمات ، وبوسعك ان تهددنى بالموت ، ولكنى لن اترك أويًا ابدا . . . أقسم لك ! اذا قلت لك انى احبها فليست تلك هى الكلمة المناسبة . اننى لا اتصور حياتى بدونها . . .

فقد يوناس السيطرة على نفسه فأمسك بتلابيب حايميم وشده اليه بعنف وهمس ورذاذ لعبه يتطاير :

- إما انك ايها المتطوع فولديتير ضعيف الارادة وغبى ، أو انك ببساطة خائن ! ان جونلة فتاة يونانية حقيرة أغلى عليك من قضيتنا العظيمة ! فلتعلم ان هذه الافعال تنتهى نهاية مفاجئة هنا ! وستندم ولكن بعد فوات الأوان . أقول لك لآخر مرة : اترك هذه المرأة وينتهى الأمر !

- ابدا !

ونظر يوناى بعينين مليئتين بالازدراء والغضب الى هياة  
حاييم البائسة المحدودة ، والى حاييم الحزين والصامد فى قراره .  
ودمدم يوناى من بين اسنانه :  
- لقد كان الرفيق دافيد كنوخ محقا عندما قال انك دبرت  
هذا كله عن عمد لتسى الى سمعتنا . حسنا ! استدفع ثمن ذلك . .  
وئنا باهظا !

وادار ظهره لحاييم بحدة ومضى مبتعدا .  
كان نوتسى يوناى يكذب . صحيح ان دافيد كنوخ قال شيئا  
مقاربا لا عن حاييم بل عن نوتسى يوناى الذى ربما اخفى عنهم عمدا  
وقائع مشينة فى حياة المتطوع المكلف به . واتهمه كنوخ بسوء  
استغلاله لمركزه كشخص موثوق به من سلمونزون . فقد كلف  
نوتسى بالذات بمراقبة حاييم مراقبة يومية ودراسة طباعه ومزاجه  
ومتابعة تصرفاته ومعرفة جميع علاقاته واعداده بانتظام وبصورة  
خفية للقيام باخطر المهام السرية للغاية . ولذلك اسكنوا حاييم  
فى بيت واحد مع يوناى .

ورغم ان حاييم كان منزعجا من الحديث مع يوناى ، الا انه  
تنفس الصعداء لادراكه بأنه لم يتردد لحظة فى رفضه الافتراق عن  
اويًا ، وأنه لم يعد منذ الآن مرتببا بعصابة من القتلة والمهربين  
المتكرين الذين يخفون أعمالهم السوداء بالثرثرة عن «المثل  
العليا السامية وآمال الشعب المشرد» .

استقبلت اويًا حاييم بنظرة حذر ولكنها لم تر على وجهه  
علامات القلق ، فمضت تعد الطعام .

واستلقى حاييم كما كان يفعل عادة بعد عودته من العمل ، فى  
انتظار ان تفرغ اويًا من اعداد العشاء ، واغمض عينيه . ودارت  
فى رأسه افكار قاتمة تزاحم وتلاحق بعضها بعضا . وأحيانا كان  
اليأس يتملكه ولكنه يحاول على الفور ان يهدى نفسه قائلا :  
«سينصلح الحال ! الدنيا فيها اناس غير يوناى وسلمونزون . ومن  
يدرى كيف كان يمكن ان تكون نهاية عملى عندهم . ربما كان  
«القاطرة» قدلقى بى طعاما للاسماك ، كما فعل مع الآخرين الذين  
كانوا لا يروقون له . فلم يكن صعبا على هذه الجماعة ان ترسل

الى العالم الآخر برجل مثل مايكل ، اما انا فمن اكون ؟ ذرة . . .  
كلا ، لقد فعلت خيرا اذ قطعت صلتي بهذه الجماعة . ومهما سأت  
أحوالى أنا وأويثا فلن نموت جوعا . سأعمل فى اية مهنة ! العمل  
لم يرهبنى أبدا . وسأجد عملا ، حتما سأجد . . . ولو حفرت  
واستخرجته من باطن الأرض . . .»

١٣

غادر حايم البيت فى الصباح قبل ان تذهب اويثا الى العمل  
بوقت طويل . ولم يخبرها عن تسريحه من مكتب التصدير  
والاستيراد وانطلق الى يافا . كانت هذه المدينة اقرب الى قلبه من  
تل ابيب الصاخبة اللامبالية المتعجرفة ، حيث تسير الحياة وكأنها  
حلبة سباق الخيل ، فيندفع الجميع نحو خط النهاية ، يزاحمون  
بعضهم بعضا من اجل الفوز بالجائزة الكبرى .

اما يافا الواقعة على بعد حوالى ميل ونصف فقط من تل ابيب ،  
فكانت مدينة عريقة ذات ازقة ضيقة ملتوية ومنازل فى معظمها  
بائسة . وقد جذبت هذه المدينة حايم قبل كل شىء لان سكانها ،  
كما خيل اليه ، كانوا بسطاء ومتعاطفين . وقد ادرك ذلك حينما كان  
يعمل لبعض الوقت فى محطة السكة الحديدية المحلية ويختلط  
بالحمالين الذين كان بينهم كثير من العرب واليهود الذين كانوا  
يزاولون هذه المهنة البسيطة بالصدفة ، فقد دفعتهم الحاجة جميعا  
الى هنا .

وكثيرا ما كان حايم يتعامل مع موظفى خزنة السلع والعاملين  
فى المحطة وخاصة الوزانين وعمال التحويلة وذلك عندما كان يقوم  
ببعض اعمال مكتب التصدير والاستيراد . وها هو الآن يؤمل فى  
نصائحهم ومساعدتهم . وقال فى نفسه : «انها محطة صغيرة ، ولكن  
يبدو ان الناس هناك ليسوا سيئين ، وسيجدون لى عملا ما . وهل  
انا بحاجة الى الشىء الكثير ؟ ابدا ، حاجة بسيطة . . . ان اكسب  
ما يكفى للقمه الخبز والا يزعجنى او يهددنى احد ، والا اسير وانا

اتلفت كأنما ارتكبت جريمة . وسأقول لهم شكرا على ذلك ، اى والله ! انا لم آت الى هنا من اجل تحقيق سعادة كبيرة . . . . . وها انذا ارى اى «سعادة» يمكن ان يحصل عليها البسطاء . . . . . لقد اكلت منها حتى غص حلقى ! . . . . .»

فى اليوم الذى وصل فيه حايم الى يافا وتوجه مباشرة الى محطة السكة الحديدية لم يكن هناك عمل حتى للحمالين المحترفين . وكان هؤلاء يسبون :

- كل هذا بسبب الحرب ، فلتأكلها النار هى ومن اخترعها ! كانوا جالسين على الارض فى الظل ، يتحدثون بسلام ، وينتظرون بصبر ان يحضر احد لاستلام شحنة من المخزن . فاذا سنحت مثل هذه الفرصة ينقطع الحديث الودى على الفور . ويندفع الجميع الى الزبون ويطوقونه حلقة محكمة ، ويحاول كل منهم ان يستولى لنفسه على العمل من الآخرين عارضا اجرا اقل مقابل عمله . وكان الجدل ينشب ، وحيانا يستعر شجار عنيف .

وسرعان ما ادرك حايم انه لا عمل له هنا . فعندما كان يأتى الى المحطة كموظف فى مكتب التصدير والاستيراد ، كان الحمالون يتملقونه ويتوددون اليه على امل الفوز بعمل ، اما الآن وقد عرفوا انه مثلهم يبحث عن عمل ، فقد اداروا له ظهورهم بلا اكرثات ، بل والمحوا له بوضوح انه لا مكان له هنا .

وذهب حايم الى الوزان ، وتحدث مع موظفى الخزنة ، فاصغوا اليه وعندما طلب منهم مساعدته فى الالتحاق بالعمل اشاحوا بايديهم معربين عن عجزهم .

وبعد ان طاف حايم بكل من يعرفهم ، جر ساقيه عائدا الى المدينة مهموما ومتعبا . وكل ما بدا له بالامس سهل المنال اصبح يراه الآن فى ضوء آخر تماما . ومن جديد عصر الخوف قلبه كعادته فى المواقف الصعبة ، فكان يقف مترددا مدة طويلة امام باب المكتب الذى يعرفه قبل ان يقرر الدخول . وبحث عن عمل فى مستشفى القديس لويس الفرنسى ، وذهب الى حى المستوطنين الالمان ، وعرج فى الطريق على سمسار يعرفه كان يقطن مقابل مسجد حسن بك . ثم اخبره شخص ما انه يبدو انهم يحتاجون الى رسول فى شارع تارشيش ،

فمضى الى هناك ، ولكن بلا جدوى ! كان كل من يتوجه اليهم يستمعون اليه بتعاطف ، ويشاركونه الحديث عن مشاكلهم ، وفي النهاية اما يعربون عن املهم بتحسن الاحوال تحسنا كبيرا في المستقبل القريب وعندئذ يصبح في الامكان التفكير في تدبير وظيفة مناسبة له ، واما لا يبخلون بالارشاد الى الاماكن التي سيجد فيها وظيفة بالتأكيد كما يدعون .

ونصحه بواب سينما «اوديون» :

- اسمع كلامي ، ستجد هناك حتما ما يلزمك ! لا تسال احدا ولا تذهب الى اى مكان آخر ولا تضيع وقتك عبثا ، بل اذهب مباشرة الى هناك !

و«هناك» كان يتكرر كل شىء . وارهق البحث في شوارع يافا المتربة التي الهبتها الشمس حاييم تماما ، وفي نهاية النهار كان رأسه يطن من النصائح والوعود والقيظ غير المحتمل . واشتكى حاييم الى احد معارفه الجمالين :

- كل من حولي «محامون» . يبدو من هياتهم انهم اناس جادون ، يؤكدون لك بل ويقسمون ان شخصا مطلوبيا في هذا المكان او ذاك ، وعندما تذهب تقابل بنظرات استنكار وكأنك شخص هبط فجأة من السماء او انك مجرد نصاب . . .

ومع ذلك طمأن حاييم نفسه : حسنا ، اذا لم اوفق اليوم فساوفق غدا ، وعلى اى حال فقد اصبحت اعرف الاوضاع الآن . وعاد الى البيت بهذه الافكار . ولاحظ وهو بعد في الفناء ان اويًا قد عادت من العمل . وسرته مفاجأة رجوعها قبل الموعد . فتح حاييم باب كوخه بحذر ، واطل برأسه ، والبسمة تملأ وجهه ، ولكنه لاحظ على الفور ان اويًا منزعجة ، وقد استقر الرعب في عينيها .

وافهمته بالاشارات ان الاسطى طردها من المصنع . . . فما السبب ؟ انها لا تعرف . ولكن حاييم خمن ما حدث . وحاول ان يهدئها قائلا ان الخير فيما اختاره الله ، وانها كان ينبغي ان تترك العمل منذ فترة طويلة ، فها هو بطنها اصبح

كبيراً ! وان الاسطى فيما يبدو اشفق عليها . . . وهذا كل ما هناك !

ولكن ذلك لم يجد شيئاً . قطبت اويًا حاجبيها وراحت تصور بحركات يائسة كيف صاح فيها الاسطى السمين وهددها بقبضته ، ثم امسك بكتفيها وجرها الى بوابة المصنع ودفعها الى الخارج . . . ولم تدافع عنها اية امرأة من العاملات ، بمن في ذلك جارتهم التي انتحرت طفلها . وقفن جميعاً جانبا ينظرن في صمت الى ما يحدث . ومضى حاييم يقنع اويًا مدعياً ان ذلك مجرد سوء تفاهم لا ينبغي ابدا ان تقلق بسببه ، وبصق بقوة ليؤكد لها تفاهة الامر ، اما المهم فهو انه يحبها اكثر من اى شىء فى الدنيا ، ولذلك فليس هناك ما يمكن ان يخيفهما وهما معا ! وضمها اليه برقة وهى ترتجف من الانفعال ، وقبلها بحذر وكأنه يلمس زهرة يخشى ان تتساقط وريقاتها . وفى تلك اللحظة دق الباب شخص ما بخشونة ، ودون ان ينتظر ردا فتحه على مصراعيه . والتفت حاييم واويًا فشاهدا على العتبة عجوزاً طويلاً نحيفاً ، فى قفطان اسود طويل ، وبلحية بيضاء ، وسالفين زيتيين مصفرين طويلين اما من النيكوتين او من شىء آخر يتدليان من تحت جانبي قبعته السوداء الرثة العريضة الحوافى . واتجه العجوز الى المقعد دون ان يستأذن ، وكأنه فى بيته ، والقى نظرة عابرة على حاييم واويًا المتسمرين من الدهشة ، واخرج من تحت قفطانه قطعة اوراق مجعدة وفرشها على مهل فوق المقعد وجلس بحذر . وتفحص المكان بنظرة كراهية ، وهو لا يزال صامتاً بعد ، ونظر شزراً الى الاحجار التى كانت موضوعة تحت السرير بدلا من الارجل ، وحك رقبتة تحت ذقنه . وكانت هيئة القادم كلها تفصح عن سخطه الشديد .

وسأل العجوز بنبرة لا تعبر عن شىء وكأنه يواصل حديثاً انقطع ودون ان يقول من هو ولماذا جاء :

- من اين تفضلت بالمجىء ايها الشاب وهل تعيش من مدة طويلة فى ارض الاجداد ؟

وما كاد حاييم يجيب على هذا السؤال حتى انهالت عليه اسئلة اخرى : اين تعلم الشاب اللغة العبرية ، وهل يعرف

اليديش ؟ وما اسم ابيه وامه ؟ ومن منهما على قيد الحياة ؟ وهل لديه اخوة واخوات ؟ وهل لديه اقارب في ارض اسرائيل ؟ وهل كان في اسرته احد من اصل غير يهودى ، وما مدى ايمان والديه ؟ . . . حاول حايم ان يرد بهدوء ، ولكن الى جانب الاحساس بالقلق تنامى في نفسه شعور بالسخط على الوقاحة التى كان يتصرف بها هذا الغريب . ولذلك اخذ حايم يرد ردودا مقتضبة جدا وبعدة متزايدة .

وادرك العجوز هذا التحول فاخذ يطالبه بنبرة ابعد ما تكون عن اللامبالاة بالاجابة عن اسئلته بالتفصيل ، اذ انه لم يأت الى هنا للهو ، بل ارسلته الحاخامية التى يعمل فيها مساعد ديان ، الى جانب كونه «خاسيدا» اصيلا .

ادرك حايم ان قلقه لم يكن بلا مبرر . كان يعرف ان شخصية مساعد الديان شخصية هامة للغاية فى سلم المناصب الدينية . وكان من صلاحياته المحافظة بدقة وبلا كلل على نقاء دين الاجداد ، والاهتمام باستمرار بان يتقيد اليهود بكل دقة بتعاليم التوراة وبالتقاليد العريقة . وكان حايم يذكر ، منذ ان كان يدرس فى مدرسة التلمود قبل التحاقه بالمدرسة الثانوية ، ان مدرس الديانة اليهودية قال ذات مرة ان «الخاسيد الغبى ، مثله مثل المارق الخبيث ، يدفع العالم الى الهلاك . . . فعندما يرى الخاسيد امرأة تغرق فسيمتنع عن انقاذها لمجرد ان يقى نفسه من شر النظرة الحرام الى جسدها العارى . . .» .

وسأل العجوز بتقزز وهو يومئ نحو اويّا المرتجفة رعبا :

- ومن هذه المرأة الواقفة هنا ؟ من اين هى ؟

اربكت وقاحة العجوز حايم . وقبل ان يجمع شتات افكاره ليقاطع مساعد الديان كان الاخير قد حدج اويّا بنظرة احتقار وسأل من جديد :

- وهل حقا يعيش معها المتطوع كزوج وزوجة ؟

- نعم ، طبعا . . .

وانهال على حايم سيل من السباب : اتهمه العجوز بارتكاب اكبر معصية وهى الزواج بامرأة من دين آخر . ورغم ان مساعد



الديان كان يرى الى مدى يضيق به حاييم وينزعج منه ، الا انه تجاهل ذلك واستمر يسأله باصرار عن التفاصيل الحميمة في حياتهما الزوجية . ومضى بلا حياء وبالبحاح يستقصي كل جوانب حياة حاييم ووالديه . كان يريد ان يعرف بلا جدال هل يتردد والد حاييم يوميا على الهيكل ام ايام السبت فقط ، وهل يذهب لاداء صلاة الصبح ، ام يشهد فقط صلاة العشاء . وبنفس الاصرار راح يستفسر عما اذا كانت والدته حاييم امرأة متدينة ، وهل كانت تحلق شعرها تماما وتحمل «باروكة» كما تقضي الطقوس التقليدية بالنسبة للمرأة المتدينة حقا ، ام انها ابقت على شعرها الاصلى ، وهل كانوا يراعون التقاليد والطقوس في المنزل ، وهل كان ابوه يدخن يوم السبت ، وهل كانت امه تطبخ في هذا اليوم ، وهل لاحظ حاييم ان اياه اختلط بنساء اخريات ، وخاصة من قوميات اخرى ؟

وبعد ان تلقى راعى الحاخامية اجوبة شافية الى هذا الحد او ذاك على كل هذه الاسئلة راح يستفسر عما اذا كان حاييم قد تعرض عند مولده للختان ، وهو الطقس الذى يرمز الى «الاتحاد بين الرب واسرائيل» ؟

ورغم القلق الذى كان يعذب حاييم فقد جعله سؤال العجوز هذا يبتسم بتحفظ . فاجاب مازحا بحزن :

- انا شخصيا لا اذكر بالطبع هذا الحادث في حياتي ، ولكنى اخمن اننى لم استثن منه . . . لقد قلت لكم ان والدى يهوديين طبيعيين !

لم ترض هذه الاجابة مساعد الديان ، فزر عينيه بشك وسأل بتهكم حاقد بعد فترة صمت :

- ألم يتحدث ابوك عن ذلك ابدا ؟ غريبة ! الا يقول لابنه الغالى ان الامة كلها خلال القرون الطويلة تفخر بهذه العملية الطقوسية التى تجرى للمولود الذكر فى اليوم الثامن اولادته ؟ هل هذا يجوز ؟ أتدرى انه حتى ملوك الانجليز اخذوا عنا هذه العادة الطقوسية ! وانه حتى عندما اقترح بابا روما نفسه فى سورة غضبه على نجاشى الحبشة ان يكف عن ختان الرجال فى بلده ، اجابه الامبراطور بانه «لن ترضى امرأة حبشية واحدة بالزواج من رجل

غير مختون» . . . اما انت ايها المتطوع فلا تعرف شيئا عن ذلك ،  
والادهي من هذا انك تتحدث بهذه اللامبالاة عن هذا !

لم يرد حايبم بشيء على العجوز ، بل هز كتفيه . ولكن  
العجوز اعتبر انه طالما ان رد المتطوع غير واضح فسيتحتم اجراء  
كشف في الايام القليلة القادمة .

- سيتمكن رجالنا الاتقياء بصورة ما من ان يعرفوا هل  
اجريت لك هذه العملية ام لا ! . . .

لم يرق لحايبم هذا الكشف القادم عليه ، خاصة وانه يجيء في  
وقت غير مناسب بالمرّة ، فهو بحاجة الى كل ساعة فعلا وهو يبحث  
عن مورد رزق . وتذكر لاراديا ان النازيين ورجال الحرس الحديدي  
الفاشي عندما كانوا يمسكون بشخص يرتابون في انه يهودي ، كانوا  
يحددون بمثل هذا الكشف انتماءه الى الديانة اليهودية .

ومضى العجوز يسأل بلا هوادة :

- حسنا ، وكيف الحال بالنسبة للطعام عندكم ؟ بالنسبة  
للاوعية مثلا ؟ اروني سكاكينكم !

فاخذ حايبم من على الرف سكيننا صغيرا واعطاه للعجوز .  
- اذن فانتم تستخدمون سكيننا واحدا لمنتجات الالبان  
واللحوم ؟ ايها المارقون ! آي - ياي . . . وانا ارى انه  
ليس لديكم اواني خاصة للالبان واخرى للحوم ؟ ! وتشترون  
اللحم طبعا من عند الاردنيين ؟ لانه ارخص ، هه ؟

كان العجوز ذو اللحية يتحدث وهو يتمايل فوق المقعد وكأنه  
مصاب بمغص حاد في معدته . وكان يندب بين الحين والحين :  
- آي - ياي - ياي . . . ما هذا الذي يجري في هذه الدنيا

الحقيرة ! . . . آي - ياي - ياي . . . ما الذي يجري !

واكد حايبم لراعي الحاخامية انهم لا يشترون شيئا من  
العرب ، اما بخصوص الاوعية فهم لم يتمكنوا بعد من اقتناء كل  
ما يلزمهم لانهم وصلوا من مدة قريبة نسبيا ودون اية امتعة .  
كان الديان عازفا عن السماع ، ومضى يتمايل بحسرة ويدمدم  
ببعض التعويذات . وامال رأسه جانبا وزر عينيه بخبث وسال  
فجأة بلهجة غامضة :

- حسنا ، وهل كنت اول رجل لديها . . . لدى هذه الغريبة ؟ ام انك ايضا لا تدري ؟  
وهز حاييم كتفيه من جديد باستغراب وقال :  
- انا لا افهم ابدا لماذا يهكم هذا الامر ؟ وعموما كيف يمكن القاء هذه الاسئلة ؟  
واتضح ان من وظائف الحاخامية الاشراف على هذه الناحية من نواحي الحياة الزوجية للمقيمين في ارض الاجداد .  
وقال العجوز في ختام شرحه :  
- وبالمناسبة ، هل يعرف المتطوع الشاب ما هو الشيء الذي يمكن ان يؤكد عذرية الزوجة ؟  
تضرج حاييم خجلا ولم يستطع ان يتفوه بكلمة . بيد ان العجوز استمر في الاستفسار بعناد دون ان يتحرج في استخدام الكلمات وهو يحدق في أويتا المرتجفة بنظرة فاحصة .  
وادرك حاييم انه ارتكب خطأ عندما لم يخبره على الفور بما حدث . فربما تركه العجوز الوقح عندهما في حاله . اما الآن فكان على حاييم ان يدفع ثمن خجله مجيبا على كل سؤال من اسئلة ممثل الحاخامية .  
وعندما رأى العجوز ارتباك حاييم وجد من الخير ان يشرح له سبب ارهاقه بهذه الاسئلة :

- ان والدك هو كوهين ، وانت تعرف هذا طبعا؟ الحمد لله . . . اذن فابنه ينتمى أيضا الى هذه الذرية المميزة من أبناء شعبنا .  
واذا كان الابن قد ضل سواء السبيل بسبب صغر سنه ، فهذا لا يعنى أنه لم يعد من ذرية كوهين . . . فهذه الذرية حسب التوراة تتمتع الى الآن بميزات : مثلا هي تدعى قبل الجميع لقراءة التوراة . . . وليس هذا فحسب !

وشرح العجوز بصوته المبحوح الممل انه بالاضافة الى المميزات فان التلمود يضع قيودا معينة على هذه الفئة الارستقراطية من اليهود . واوضح العجوز انه من المحرم على آل كوهين ان يمسوا الموتى وان يدخلوا بيتا فيه ميت اذا لم يكن الميت من اقرب الاقارب . ومن المحرم قطعيا على آل كوهين ان

يتزوجوا من المطلقات او الارامل العاقرات وكذلك من النساء  
والفتيات اللاتي ينتمين الى دين آخر . . .  
ومضى العجوز يقول :

- وبالإضافة الى ذلك لعلمك يحرم التلمود تحريماً باتسا  
الزواج من المعتوهين والبلهاء . . . وينتمى الصم والبكم الى هذه  
الفئة ! ألم تكن تعرف ؟ كلا ؟ لا أصدق . . . كلام فارغ . . .  
ولكن ربما لم يكن لدى والدك وقت لشرح كل هذا لابنه . او  
ربما لم يسمع الابن وصايا ابيه ؟ هذا يحدث احياناً ، اننى اعرف  
ذلك . ولهذا لا ندهش عندما نجد فجأة ان متطوعاً شاباً يتجاهل  
العادات والنظم المقدسة . . . وليس عبثاً ان قال اجدادنا  
الحكماء : «استعجل فى شراء الارض ، وتمهل فى اختيار الزوجة ،  
بع آخر ما تملك على ان تتزوج ابنة عالم» ، وقالوا أيضاً :  
«ارتفع درجة وانت تختار الزوجة ، وانخفض درجة وانت تختار  
الصديق» . فماذا فعلت انت ؟ من هذه التى اخترتها ؟ وابنة من  
هى ؟ هل فكرت قبل ان تختار زوجتك ؟ كلا بالطبع .

استمر هذا الحديث الشاق المعذب اكثر من اربع ساعات .  
واحس حايمم بالغثيان من الانفعال والتقرز اللذين عاناهما وهو  
يصغى لممثل الحاخامية . وعلاوة على ذلك كان دائم القلق على  
أويًا . بالطبع لاحظت المسكينة كيف كان يحمر تارة ويشحب  
تارة اخرى ، ويصمت منكمس الرأس تارة ثالثة . لم يكن من  
الصعب ان تدرك ان مصيبة جديدة قد دهمتهما .

وعندما نهض ممثل الحاخامية أخيراً من على المقعد كان المساء  
قد حل . وتفحص الحجرة مرة ثانية على مهل ، وركز بصره على  
أويًا مجدداً ، وامتعض مشمئزاً وهز رأسه بلوم ومضى الى الباب .  
وتوقف الديان عند العتبة ، وراح كالأعمى يتحسس قائم الباب  
بيده . واذا به يصرخ فجأة بغضب :

- ايها المارق ! لا يوجد على باب هذا المنزل حجاب !  
آى - يا - ياى ، ما الذى يجرى ، ما الذى يحدث ، اسمع يا  
اسرائيل : لقد نسى ان هذا الحجاب ضرورى لكل بيت مأهول ، اذا  
كان من يقطنه يهودياً بالطبع ! ولكن ما دامت الزوجة من الغرباء

فهو ايضا اصبح غريبا . . . آى - ياي - ياي ا  
آى - ياي - ياي . . .

وبعد ان اجتاز العجوز العتبة التفت ، وحجج حاييم بنظرة  
كلها احتقار ، أمره بصرامة :

- تعال صباح الغد الى الهيكل الرئيسى . انه يقع فى شارع  
النبى ، عند زاوية آحاد - حام . . . وخذ معك كتاب الصلوات !  
هل هو لديك أم أنك لم تمسكه بين يديك ابدا ؟ وعموما ماذا  
لديك ؟

- عندى «محذور» .

- محذور-ويترى ؟

- نعم .

- حسنا ، خذه معك . ربما تراك لم تردد ابدا صلاة الغائب  
على امك فى يوم الغفران ؟ وكذلك لا تعرف أيضا طقس صلاة  
الغفران ؟ اعترف بصراحة أيها الكافر !  
فدمدم حاييم متعبا :

- كل هذا اعرفه . لقد قلت لكم اننى تعلمت فى مدرسة  
التلمود . . .

- ودرست اسفار موسى الخمسة ، أم أنك لا تعرف حتى  
ما هذا ؟

- درسناها ، درسناها . . . ودرسنا أيضا الكتب الخمسة  
مع تفسير «راشى» . . . اطمئن !

نظر العجوز بريبة الى المتطوع ، ووقف لحظات مفكرا ، ثم  
خرج من الفناء دون ان يقول شيئا وعلى مهل كأنما يعتزم العودة  
ثانية .

وبعد انصراف الديان صفق حاييم الباب بغضب واوصده  
بالمزلاج الثقيل . وانفجرت اويًا بالنحيب فورا . وما كاد حاييم  
يتمكن من تهدئتها قليلا حتى دق الباب من جديد . وذعر حاييم  
وقد ظن ان العجوز عاد ، ولكن الطرق تكرر خافتا حذرا ، ففهم  
حاييم انه اخطأ ، فالقادم شخص آخر .  
كانت تلك موليا . لقد كان وجود هذه المرأة الطيبة فى

تلك اللحظة جد ضروري لأويّا . فقد كانت تفرح في وجودها وتهدي  
دائما وتنسى بلواها .

وسالت موليا :

- ما الذي جاء بهذا البعج اليكم ؟ لقد ظننت انه سيبقى  
عندكم للمبيت . . . ما اطول ما جلس !

وحدثها حاييم في بضع كلمات عن سبب مجيء راعي العاخامية  
وما الذي كان يهمه .

فهمت موليا بعد سماع حاييم :

- هذا ما كنت أظنه ! كلهم من عصابة واحدة ! . .

وروت له كيف جاء شابان في الصباح الى صاحب مصنع  
«دلفينر» وطلبا منه ان يفصل على الفور العاملة الصماء البكماء التي  
تدعى انها يهودية ولكنها في الواقع يونانية . وهددا صاحب المصنع  
اذا لم يفعل بأن يلحقا به اضرارا لا ينقذه منها حتى التأمين .

- كانا من الايشيبوت \* . . انتما لا تعرفان بعد اية عصابة  
هذه ! انهم على صلة بالارجونيين والشستيريين \* . . ويمكن ان  
تتوقع منهما كل شيء ، حتى الحرق والقتل ! . . كان هناك مبرر  
لخوف نساينا العاملات . . . من ذا الذي لا يخشى البقاء دون  
عمل ، أو لا قدر الله ، ضياع حياته ! لذلك لم يجرؤ احد على  
الدفاع عن أويّا عندما راح الاسطى يدفعها خارج الورشة . . .  
ثم انه لا فائدة من ذلك ! فالاسطى يتعلق صاحب المصنع ،  
وصاحب المصنع ايضا دعك منه . . . هل فهمت كيف حدث  
ذلك ؟ . . .

وصمتت موليا وخفضت رأسها بشدة وغطت وجهها براحتها  
كانما أذنت في حق حاييم لأنها لم تساعد أويّا . ولكن حاييم الذي  
كان مهموما لادراكه انه هو نفسه كان منذ وقت قريب منتميا  
الى هذه العصابة التي تعذب الآن جيبية قلبه ، لم يفهم حالة  
موليا . وظل يحرق في نقطة معينة بتجهم وصمت .

\* الايشيبوت مدرسة تلمود عليا .

\*\* منظماتا «ارجون تسفاي ليومي» و«شتيرن» الارهابيتان .

وقالت موليا دون أن ترفع رأسها :  
- أنت تديننى . . . ولكن صدقنى ، ما كان دفاعى عنها  
ليجدى شيئا . . .

وكانما افاق حاييم لتوه من اغماءة ، اذ لم يدرك الا الان  
مغزى ما كانت موليا تتحدث عنه ، فهتف بحماسة :

- ماذا تقولين يا موليا ! لم يدر ببالي ان ادينك ، وعموما  
فكيف يمكن ان افكر فى ذلك ؟ على اى شىء ؟ اى دفاع يمكن ان  
يكون ؟ لا يمكن ان يهدم المرء جدارا براسه ، اننى اعرف ذلك .  
وهل انا لا ارى من يقف ضدى ؟ . . . وتلعثم حاييم ، فهل يجرؤ  
لسانه على القول بأنه كان عضوا فى «ارجون تسفاى ليومى» ؟ وهل  
يمكن ان يبوح بذلك حتى لموليا هذه المراه الطيبة الرقيقة ؟  
وقطعت موليا صمت حاييم الممض :

- لا داعى لليأس . فلديك مع ذلك معارف ذوو نفوذ ، وهذا  
هو المهم هنا ، رغم مرارة الاعتراف بذلك ! عليك ان ترجوهم بان  
يتدخلوا ويسووا الامر بطريقة ما ، والا فسيصبح وضعكما سيئا ،  
فاويا ليست يهودية . . . هذه هى النظم هنا .

فأجاب حاييم وهو يبتسم بحزن :  
- اعرف . اما بخصوص معارفى فقد فصلونى من العمل منذ  
اسبوع ، وبالذات لأن زوجتى يونانية .

ازعج هذا الخبر موليا . وادارت ظهرها لاويا حتى لا تكشف  
لها عن اضطرابها ، واغمضت عينيها بارهاق . وقالت بعد صمت  
طويل مخاطبة حاييم بصوت خافت :

- لقد جئنا الى هنا بعد ان ملأوا آذاننا بالوعود وتوقعنا  
ان نعيش حياة صافية مشرقة . كنا نظن اننا سنكون بشرا بين  
بشر ، ان طفلنا سيكون بمنأى عن المذلة والاهانة . . . لم نكن  
نطمع فى سعادة اكبر من ذلك . وكان زوجى يقول : «اننا فى وطن  
اجدادنا ، على ارضنا !» . . . والآن لم يعد على قيد الحياة . مات  
فى المستشفى . . . وابنى ايضا ذهب . . .  
وعصرت موليا رأسها بذراعيها وراحت تمشى فى الغرفة وهمى  
تترنج .

وهتفت بصوت عال وكأنها لا تخاطب حاييم بل حشدا  
وهميا :

- أرض الميعاد ؟ ! أنهار الحليب وجبال العسل ؟ ! كل  
هذا كذب ! كذب رهيب ! أتسمعونني يا ناس ؟ ! خبروني اين  
هو الشعب الذي كان سعيدا هنا ومتى ؟ من هنا ، وقبل ظهور  
المسيح بوقت طويل ، تبدأ بلوى الشعب اليهودي كله !  
وبكت موليا ، وغطت وجهها براحتيها ، وتهالكت خائرة القوى  
على المقعد ثانية .

ولما لم يجد حاييم من الكلمات ما يطيب به خاطرها ويخفف  
عنها بلواها راح يردد آليا :

- اشربي ماء ! اشربي ماء يا موليا ! ستشعرين  
بتحسن . . . لا تعذبي نفسك هكذا . . اشربي !

وفجأة نهضت موليا بنشاط ، وشدت قامتها ، ومسحت  
دموعها بسرعة وسوت شعرها وشدت بلوزتها . وكانت حركاتها  
دقيقة منتظمة كأنها تستعد كالمعتاد للظهور على خشبة المسرح .  
كانت هذه موليا اخرى ، مسيطرة على نفسها ، مشدودة ، كأنما لم  
يكن هناك دموع أو ياس . وراحت تتحدث عن طيبة البقال الأعرج  
الذي كان يعطيها المواد الغذائية بالأجل عندما كان زوجها مريضا ،  
وعن الطبيب الذي رفض ان يأخذ اتعاب الكشف على زوجها المريض  
عندما علم أنها كانت ممثلة في بودابست . ونهضت مودعة ،  
فعاثقت أويًا بقوة وقبلتها طويلا ثم قالت لحاييم :

- ومع ذلك عليك ان تسوى الأمر مع الحاخامية . لقد جئت  
قبلك الى هنا وأعرف احسن منك هذه المؤسسة .

وفي اليوم التالي ، بدلا من ان يتوجه حاييم للبحث عن  
عمل ، ذهب في الصباح المبكر الى الحاخامية ولم يذهب الى الهيكل  
كما امره مساعد الديان . «ليس الجميع يذهبون الى هناك ؟ اما  
انا فلا احتاج اليه بتاتا» .

وعندما لم يجد هناك العجوز الذي جاءهما بالأمس خرج الى  
الشارع حيث تجمهر جمع غفير ، يبدو انه جاء ايضا بناء على  
استدعاء .



وصاح رجل طويل نحيل بصوت مبجوح متوتر عابث :  
- جماعة الديانين كلهم اغلقوا على انفسهم الهيكل  
الرئيسي ! حالة طوارئ ! انهم يؤدون صلاة «مى شى بيراج» طلبا  
لشفاء ابن احد الاثرياء الامريكيين . . . يضربون صدورهم  
بقبضاتهم بحماس ، والافضل لو ضربوا رؤوسهم في الجدار . . .  
على الأقل سيكون في ذلك فائدة لهم !

اصغى الناس الذين كانوا ينتظرون في سكينه عودة رعاة  
الهاخامية من الهيكل بانتباه الى هذا الشخص السليط اللسان  
العالم الواسع الاطلاع .

- لدى الامريكى تل من النقود ! منذ بضع سنوات تبرع  
بمبلغ ضخيم لشراء قطعة ارض هنا لاحدى المستوطنات ، والآن تبرع  
بمبلغ كبير لشراء النوط الفضى المذهب للتوراة . . . يا له من  
حمار ! يبذر نقوده على اشياء تافهة . . . كان من الافضل لو  
اقام ملجأ واطعم الشيوخ الذين لا يزالون ينتظرون المن من  
السماء ويتضورون جوعا عند «حائط المبكى» . . . ومن اين جاءوا  
بهذه الكثرة ؟

تلقت الناس المحيطون به بخوف ، خشية ان يقترب منهم  
خفية احد رعاة الهاخامية .

ومضى الرجل الطويل يقول .

- كان ابن الثرى الامريكى هذا يندفع بسيارته كالمجنون ،  
وهو الآن ممزق بالطول وبالعرض . وبينما هو طريح الفراش في  
امريكا يصلون من اجله في فلسطين . فلماذا هذا في راىكم ؟ انهم  
يريدون اعطاءه اسما ثانيا هو ليب \* . وذلك لكى تضل الارواح  
الشريرة التى كانت تعرفه باسم هارى فلا تتمكن من جره الى  
العالم الآخر ! . . . هل تعجبكم هذه الكوميديا ؟ انا مثلا احس من  
جاء ذلك بانقباض في المثانة ! . . . ولكن فى الغالب ستكلف هذه  
الكوميديا الامريكى عشرات الآلاف من الدولارات ! والا ما ذهب  
هؤلاء المتظاهرون بالتقوى لاداء الصلاة بهذا الحماس ! لو

• الحياة •

مزقتهم اربا ما كانوا لينذهبون . انا اعرف هذه الاشكال ! ولكن اطمئنوا ، لن يصل الى ايديكم فلس واحد من هذه الدولارات بل ستختفى كلها في الجيوب العميقة لخاصاماتنا وراسيديننا وديانينا الاتقياء . . . . واستطيع ان اؤكد لكم انه لو وقعت هذه المصيبة ، لا قدر الله ، ليهودى فقير فلن تقيم هذه الزمرة التقية صلوات «مى شى بيراح» بمثل هذه العظمة ولن تثار في الدعاء للعلى القدير من اجل شفائه . . . انها النقود ! والنقود وحدها ! . . .

علم حايم من الرجل الواقف بجواره ان هذا الشخص كان سمسار تاجير شقق ومبان وبيع وشراء مساكن ، وكان ، كما اعترف هو نفسه بصراحة ، لاعب زهر مقامرا . وهذا الامر الاخير هو الذى كان السبب في استدعائه الى الحاخامية .

وقال :

- هؤلاء الرعاة النتنون يريدون فضحى امام الناس كلهم . اما انا فابصق عليهم من اعلى قمة جبل صهيون ! اننى العيب بنقودى ، واذا حدث وصفرت الريح في جيوبى الخاوية فانا وحدى الذى اعض اصبع الندم ! فمن غير المعقول ان تطلب من هؤلاء هبة . انهم يبخلون عليك بكوب ماء حتى لو هلكت من العطش ! اننى اعرف هؤلاء الخاصيدين العظام . . . اتظنون انهم منزعجون من عيبي ويريدون ان يضمّنوا لى الجنة فى العالم الآخر ؟ هذا ابعد ما يكون ! هم يريدون فقط ان يحصلوا على نسبة من ارباحى !

تفحص السمسار فى وجوه المحيطين به ، ولما لمع فيها التعاطف ، استطرد بحماس اكبر :

- فلتحاول ان تخفى عنهم قرشا ! لا تستطيع ، اللهم الا فى المنام . . . ولا يغامر صاحب قهوة او دار دعارة واحد بان يخفى عنهم من الذى ملا جيوبه فى داره . واذا تجاسر احدهم واخفى عنهم فسوف يلتهمونه بأحشائه هو وبضاعته الحية . سيجدون ما يتمحكون به . انهم يجيدون ذلك . . نعم ! سيقولون مثلا ان فتياته لسن على ما يرام ! حدث ذلك غير مرة . . . اذا لم تسو امورك معهم ستكره عيشك . . .

وارتفعت معنويات حاييم وهو يصغى الى السمسار . وفكر :  
«وما شأن الحاخامية بزوجتي ؟ اننى ابصق عليهم من قمة جبل  
صهيون ! ما الذى يمكن ان يفعلوه بى ؟!» .  
كانت الشمس فى كبد السماء عندما ظهر رعاة الحاخامية على  
امتداد الشارع فى طابور مرتدين قفاطينهم السوداء الطويلة ومعاطفهم  
القصيرة .

وقال السمسار ساخرا :

- أوه الرعاة يبدون وكأنهم قادمون من عرس ! لا بد ان  
هؤلاء الملاعين شربوا اكثر من كأس فى صحة فاعل الخير الامريكى .  
ولم لا ؟ لو أعطيتهم غسالة لشربوها طالما هى بالمجان !  
وضحك الناس بتحفظ ، وعندما رأوا الموكب القادم راحوا  
يبتعدون تدريجيا عن السمسار . وحتى هذا الثرثار نفسه صمت  
بحكمة عندما اقترب رعاة الحاخامية .

ومر مساعد الديان بجوار حاييم والسمسار دون ان يعيرهما  
نظرة ، وقد نكس رأسه بشدة وحكت قدماه الأرض بعجل .  
وهمس السمسار وهو يغمز بعينه لحاييم :

- ساحر طيب !

واوما ناحية الشيخ الذى تجاوزهما ، وأطلق سبابا مقذعا .  
ومن خلف العجوز مر الحاخام الاكبر بنخى متزنة وهيأة  
أبية ، وقد عقد يديه خلف ظهره . وانحنى له باحترام كل من  
كان واقفا عند مدخل الحاخامية فرد عليهم بايماءة لا تكاد تلاحظ .  
واستدعى حاييم فولديتير فى الدفعة الأولى . وفى غرفة صغيرة  
قدرة ، تكاد تخلو من الأثاث ، رأى حاييم الديان العجوز المعروف  
يقبع على أريكة غير بعيد عن الحاخام الاكبر الذى استقر بعظمة فى  
كرسى ذى مسند يرتفع عاليا فوق رأسه .

لم يسأله لا هذا ولا ذاك لماذا لم يأت الى الهيكل .  
والاكثر من ذلك ، ولدهشة حاييم ، ان الحاخام لم يبد أدنى  
اهتمام بأويا ولا بعقيدها . ألقى عليه عدة اسئلة شكلية بكسل  
ونبرة لامبالية وهو يفكر فى شىء آخر ويتشاءب كثيرا . وبصوت  
نفسان تماما قال فى الختام مخاطبا الديان :

- ان روح الشاب الطيبة قد اساء اليها تصرف مشين . . .  
فليطلع المتطوع على «الجيتين» \* . ودعه يقرأ «الكيثبوت» \* .  
ان المذنب يحتاج الى الوحي اكثر من اى شخص آخر ! والله لن  
يتركه . . .

وعلى الفور أخذ الديان العجوز حاييم الى راع آخر من رعاة  
الحاخامية أصغر درجة من الحاخام ولكن أعلى من الديان . كان هذا  
الراعى سميئا وأحمر كخنزير عيد الميلاد ، وبدون اية مقدمات  
انهال على ضيفه بالتهديد للجريمة الشنعاء التى ارتكبها فى حق  
التوراة والشعب ، ثم بدأ فى القاء المواعظ . ولم يترك الديان الذى  
كان حاضرا فرصة لالقاء الزيت على النار بتعليقاته . واصغى حاييم  
اليهما متجهما ، ولكى يتغلب على الخوف المألوف الذى راح يتسلل  
اليه أخذ يردد فى نفسه : «أبصق من قمة جبل صهيون . . .» .  
وظل الراعيان اكثر من ساعة يترآن ويعلقان بالتناوب  
على مقتطفات من كتاب ميدراشى \* \* \* . عندما اعتبرا ان الشاب قد  
ارفق بما فيه الكفاية ، عرضا عليه بصورة قاطعة اما أن ينفصل  
عن اليونانية ، وعندئذ لن تثار مسألة مخالفته لوصايا الاجداد  
بهذه الحدة ، واما فعلى اليونانية أن تعتنق الديانة اليهودية .  
ولكن الديان قال كأنما عن غير قصد :

- ومن الافضل بالطبع ، ولا شك من الأسهل اختيار طريق  
المذنب النادم . فهذا اصح والطف وأسلم . . . فمهما كان الأمر  
فيونانيتك ليست شخصا سليما . . .

وعلى الفور التقط راعى الحاخامية السمين هذه الحجة وبدأ  
يتوسع فيها . وحذر حاييم من ان اعتناق اليهودية مرتبط بالعديد  
من الشكليات الطقوسية البالغة التعقيد . وذكر على سبيل المثال  
انه اذا ارادت المرأة التى تعاشر حاييم اعتناق اليهودية فسيكون  
عليه هو أن يقدم ما يثبت ان دخولها الدين اليهودى قد تم  
بمحض ارادتها وكامل ادراكها . ولما كان هو من آل كوهين

\* مبحث عن الطلاق فى التلمود .

\* \* مبحث عن الزواج فى التلمود .

\* \* \* من الأدب التلمودى الذى يوصى المؤمنين بالصبر والتسليم .

فسيكون عليه أيضا ان يقدم ما يثبت ان الفتاة التي يتزوجها لم تتزوج قبله . . . وبالإضافة الى ذلك فسيكون عليه ان يضمن ان لدى اليونانية من الجلد والصبر ما يكفي لان تراعى بدقة القوانين والقواعد التي تملئها التقاليد اثناء تأدية طقوس الانتقال من دين الى آخر .

وكان راعي الحاخامية يشير المسألة تلو الأخرى في وجه حايم محاولا تخويفه وارباكه واجباره على الاستسلام . فهل يستطيع المتطوع ان يضمن عدم معارضة المرأة الغريبة في الذهاب الى حمام التطهير لاداء طقس غسل الجسد ؟ وكيف يستطيع ان يضمن انها لن تكابر عندما يكون من الضروري تغيير اسمها ؟ وكيف يظن انه سيقدم للحاخامية العليا ما يثبت ان اليونانية التي تعاشره صماء بكما منذ مولدها ؟ وهل هو واثق من ان هذه المرأة لن تغير رأيها في الساعة الحاسمة ؟ وألن تعارض ؟ ألن ترفض ؟ وخيل لحايم انه لن تكون هناك نهاية لهذه «ألن» .

وأنتهى راعي الحاخامية حديثه الطويل الممل بأن أعطى حايم مهلة يومين للتفكير ، وسلمه كتابين ضخمين يحتويان على وصايا دينية للنساء لكي يطلع عليهما في البيت بعد أن جعله يوقع على ائصال باستلامهما . والزموه ان يقرأ هنا بصوت مسموع فصلا من التلمود يتناول اللعنات . وحسبما قال الديان فان ذلك يحمي حايم من ارتكاب أعمال غير حسيمة ويوقفه في الوقت المناسب . وانزعج حايم من اصرار رعاة الحاخامية على دفعه الى الطلاق من أويًا . ورغم انه كان بحالة سيئة ، ويشعر بدوار وقد خارت ساقاه المتعبتان فقد صمم على قراره : لن يفترق عن حبيبته . وبعد أن غادر حايم الحاخامية اخذ يهدى روعه وعادات افكاره تدريجيا الى ما كان يشغله بالدرجة الأولى : أين يجد عملا . فقد كان عليه ان يكسب ثمن لقمة الخبز .

غير ان نبأ رهيبا كان في انتظاره في البيت . ففي الصباح قطعت موليا شرايينها . . . وعثروا عليها فاقدة الوعي . وفي الطريق الى المستشفى لفظت انفاسها في عربة الاسعاف بسبب النزيف . . .

كان انتحار موليا صدمة عنيفة لأويًا فاصبح نومها قلقا متقطعا ، وبعد ان كانت قبلا لا تعرف الكلل وهى تعمل فى شئون البيت ، اصبحت الآن تجلس الساعات شاردة تحديق فى نقطة ثابتة ، او تتجول دون هدف فى الغرفة التى الهبتها الشمس ، وتبكي كثيرا .

وحاول حاييم تهدئتها بشتى الطرق وتظاهر انه غاضب منها لانها لا تبدي اهتماما بصحتها وصحة المولود المنتظر . وكانت أويًا تدرك انه من الصعب على حاييم الخروج الى العمل وتركها فى حالة حزن لا عزاء له ، بيد انها لم تستطع ان تتمالك نفسها . وعندما كانت تودعه كانت تحاول ان تبدو مرحة وتبتسم ، بينما تترقق الدموع فى عينيها وترتعش شفاتها . وكان حاييم ايضا يبتسم عند الوداع ، ولكن قلبه كان منقبضا .

توقف حاييم مفكرا بعد ان عبر البوابة ، فالى اين يمضى ؟ هل يتبع نصيحة المرحومة موليا الملحة ويذهب الى العاخامية ، ام يبصق عليها من قمة جبل صهيون ، كما كان يقول ذلك السمسار الذى سب الخاسيدين والديانين وغيرهم من رعاة العاخامية . وقال حاييم فى نفسه : «حسنا ، وما الذى يمكن ان يفعلوه بى لو انى ذهبت اليهم بعد بضعة ايام ؟ اننى لا اخشاهم . . . فانا لم اسرق احدا ابدا ولم اقتل احدا . . . بالفعل !» .

ومضى حاييم ليجت عن عمل . وتوجه من جديد الى محطة يافا . كان من الممكن ان يكسب جيدا فى ذلك اليوم ولكن العمالين كانوا قد وزعوا العمل على انفسهم منذ الصباح الباكر . وانها لوا عليه بالتقريع فى غمرة فرحهم وانفعالهم :

- قريبا ساعة الغداء وحضرته يأتى الآن . . .
- طبعا طبعا ، ألم يتعود على ذلك عند سلمنزون !
- الوكلاء يأتون عندما يريدون ، الا تعرف ذلك ؟!
- كلا ، كلا ! بل كان يتقلب فى احضان سمرانه ! انها قبرصية . . . اتعرف اى نساء هن ، اوووه !

ابتسم حاييم بخجل وهو يحمر ويصفر . لم يكن لديه ما يرد به . اما بينه وبين نفسه فقد فكر بحزن انه تاخر لانه كان يطيب خاطر اويًا . ومع ذلك لم يفلح كما انه وصل الى هنا متأخرا . ووراء ساحة التفريغ جلس في الظل الحمالون الذين جاؤوا متأخرين كحاييم وظلوا لذلك بلا عمل . كان بعضهم يلعب الزهر . والبعض الآخر يتحدث بحماس عن شيء ما . واقترب حاييم منهم وجلس بجوار حمال يعرفه وطلب منه ان يوضح له ما يقوله العربي النحيل ذو الوجه الذابل . لقد عمل في المحطة منذ عدة سنوات ، ولكن عندما نشب القتال في الخريف الماضي بين انجلترا والمانيا ونقص حجم العمل ، مضى يبحث عن حياة افضل . واراد ان يعمل في مصفاة البترول في حيفا . وقال العربي :

- المصفاة هناك كالمدينة وحياة النبي ! والعمال هناك اكثر من السحالي في الخرابة . . . . والبترول يجرى ليل نهار في الانابيب من العراق مباشرة ! . . . . وقلت لنفسي : اذا كان الامر هكذا فلي امل في الحصول على عمل . . . . ولم لا ؟ وظللت انتظر طويلا طويلا ، وبلا جدوى . ونصحتني فلاح فقير ان اذهب الى سدوم ، فذهبت . . . هناك امتياز لشركة . . . . ووجدت الاردنيين في سدوم كالرمل في الصحراء . . . . - ومضى العربي يتحدث وهو يلوح بيديه بعنف . وكانت يدها معروفتين نحيلتين ومن ثم بدتا طويلتين جدا - وقبلوني فورا . ولكن العمل هناك يحتاج الى جمل لكي يقوم به ، وحياة النبي !

وصاح عربي في عمامة بيضاء بدهشة :  
- واه يا فايق ! الم تسمع يا اخي انهم يستخرجون املاح البوتاسيوم في سدوم .

فقال المتحدث موافقا :  
- هذا صحيح . سمعت بذلك ولكني لم اصدق . ظننت انها السنة السوء تريد تضليل الناس . ولكني جربت ذلك على عظامي فصدقت . كان هناك انجليزي يقول : «اذا استخرجت يا فايق طنا من البوتاسيوم فستحصل على الجنيهات !» - ولكن عندما يحصل فايق على الجنيهات تكون عيونه اصبحت اكبر من

آذان البغل ، ويداها وساقاه نحيلة تتلوى كغصن الزيتون ،  
وركبته ومرفقاه منتفخة كسنام الجمل ، ويتحشرج فايق المسكين  
كالحمار المنهك . . . وحياة النبي ! انها شركة «بالستين بوتاس  
كومباني» ! امتياز . . .  
فقال شخص ما :

- كان من الافضل ان تذهب الى ناتانيا . . يقولون انه  
يمكن ان تكسب هناك بصورة لا بأس بها ، بل وتحصل على مهنة !  
فاجاب العربي ذو العمامة ساخرا :

- عندما ينمو للحمار قرنان يا اخي ستحصل على مهنة في  
ناتانيا . فهناك ورش الماس ، واصحابها يميلون الى تشغيل  
الاروبيين ، اما الفلسطينيون ، عربا كانوا ام يهودا ، فلا يقبلونهم  
الا في اعمال ليست اسهل من استخراج الاملاح في سدوم . . .  
وهمس جار حاييم في اذنه بان العربي ذا العمامة كان يعمل  
مدرسا في السابق . واضاف العمال بصوت خافت :

- انه رجل متعلم . ويقولون انه طرد من المدرسة لانه ذكي  
جدا ! . . انه يأتي الى هنا لفترة قصيرة فيعمل قليلا ، ثم يختفى  
ثانية . . . يعرف كل شيء !

لم يعر حاييم اهتماما لكلمات جاره هذه . فقد كان انتباهه  
كله منصبا على معرفة المزيد من المعلومات عن اماكن ونوعية  
الاعمال التي يمكن ان يجدها .

وقال العربي ذو الوجه الذابل :

- اشتغلت في القدس ايضا . في مصنع «نورا» للكبريت .  
كنت مستريح البال هناك ، وحياة النبي !

فقاطعته العربي ذو العمامة البيضاء ، الذي كانوا ينادون  
هنا بالمعلم :

- وما السبب يا ترى ؟ هل لانهم لم يسلموك ثلاثا بل  
مرتين ؟ ام انهم هناك لا يخدمون العمال ؟ ام ربما كانوا يدفعون  
لك وانت لا تعمل ؟ واه ، واه ! . .

ودوى ضحك عام .

فقال العربي ذو الوجه الذابل :



- كلا يا معلم ، وحياة النبي ! انت لم تعمل هناك فلا  
تتحدث هكذا . انت رجل متعلم ، رجل ذكى ، رجل طيب ، الجميع  
يعرفون ذلك . لكن لا داعى للحديث بهذه الصورة ! الناس في  
مصنع «نورا» ايضا اذكياء جدا . . . ففى عيد النبي موسى حدث  
ذلك . اراد صاحب المصنع ، ذلك الشيطان ، ان يطرد عاملا  
فلسطينيا ، فلم يمكنه العمال من ذلك ، العرب واليهود . الجميع  
وقفوا مع العامل كاخوة ! وعندئذ استدعى الشيطان الانجليز ،  
فوصلوا فى سيارات كبيرة فما حققوا شيئا . وعندئذ بدأوا يطلقون  
النار ! فلم يحققوا شيئا كذلك . فقال الانجليز : العرب متمردون !  
يريدون اثاره المذابح الطائفية . . . وهذا ليس صحيحا ! هكذا  
قال فلاحو عين كريم . . . وهم ايضا وقفوا مع العمال بقوة !  
عندئذ اطلق الانجليز النار عليهم ايضا . وهب عمال السكك  
الحديدية من حيفا لمساعدة العمال والفلاحين . . . وهنا اطلق  
الانجليز النار ايضا . . . كان القتلى كثيرون فى كل مكان . . .  
رايت ذلك بعينى . . . فليعاقبنى الله اذا كنت اكذب . . .  
فقال «المعلم» معتذرا :

- اعذرني يا اخ فايق ، اعذرني ! لم اتبين على الفور ما  
كنت تريد ان ترويه لنا . لقد سمعت بالطبع عن الحوادث الفظيعة  
التي وقعت فى عيد النبي موسى . . . سمعت . . . نعم هذا صحيح  
يا جماعة ! الاخ فايق يقول الحقيقة الخالصة . الانجليز يؤيدون  
بقوة الاقطاعيين العرب والاغنياء اليهود ، ويقبضون ذهبا من هؤلاء  
واولئك . . . ذهبا كثيرا ! كثيرا جدا يا إخوة ! العميان وحدهم لا  
يرون ذلك . . . اما العمال فآن الاوان لكى يدركوا ان الجوع  
يصيب معدة العربى ، كما يصيب معدة اليهودى ! وآن الاوان  
ايضا ليدركوا انه من الافضل لهؤلاء واولئك ان يساندا بعضهما  
البعض ، وان يمنعا الشيطان معا من سرقة خبزنا ! . . . ومن يحمل  
على كتفيه رأسا ، لا قرعة ، يفهم هذا . نعم ، يفهم !  
بدأ حاييم يدرك لماذا اغلقوا ابواب المدرسة فى وجه المعلم  
السابق . . . وتأمله ، ثم تفحص الآخرين : كان الحمالون يصغون  
اليه بانتباه ويهزون رؤوسهم موافقين .

ثم انتقل الحديث من المتاعب المعيشية الى مواضيع دينية من التوراة . فقد تجادل فايق وجار حاييم حول من هم الذين كان يعنيه الرب - اليهود ام العرب - عندما قال لابراهيم : «لنسلك اعطى هذه الارض من نهر مصر الى نهر الفرات الكبير» ؟

وفهم حاييم ان مثل هذه الموضوعات تعتبر موضوعات دائمة في هذه الانحاء ، ومن الصعب ان تحدد مَنْ المحق . ويبدو ان المعلم العربى كان من نفس الراى . فقد راح يهدى حماس المتجادلين بطريقة لبقة حذرة ، حتى لا يغضب اى طرف . وراح يستميلهم الى الصلح بالمزاح تارة ، وبالكلمة الحكيمة تارة اخرى . وذكرهم بان التوراة والقرآن ذكرتا انه كان لابراهيم ولدان : اسماعيل ، الذى ولدته هاجر ، ومنه جاء نسل العرب الشماليين ، واسحق ، الذى ولدته سارا . ومنه جاء نسل بنى اسرائيل . فانفعل جار حاييم ، الحمال دافيدكا وقال :

- اسمها هاجر عندكم بالعربية . اما في التوراة والتلمود فاسمها آجر ! وهى مصرية ، وتعتبر زوجة طارئة لابراهيم . . . . وذلك فقط لانه لم يكن له ولد من سارا . وكانت سارا زوجته ، وهى التى قالت لابراهيم ان يعاشر الجارية المصرية . . . . فصاح فايق بلوعة :

- لا ! لست محقا يا دافيدكا ، لست محقا ! هاجر هى الزوجة الاولى لابينا ابراهيم . الاولى ! وليكن اسمها آجر ، وليكن انها كانت جارية . . . . ولكنها الاولى ! زوجته الاولى ! . . . واسحق ابنه الثانى ! الثانى ! كانت سارا في التسعين من عمرها عندما ولد اسحق . . . في التسعين ! وكان اسماعيل في السادسة والثلاثين . . .

وتدخل المعلم في الحديث من جديد :

- لماذا تتجادلان ؟ ما الداعى لهذا ايها الناس الطيبون ؟ نحن لسنا قوما متوحشين . . . والعقلاء يعتبرون ان الرب عندما قال : «لنسلك اعطى هذه الارض» فقد كان يقصد كل نسل ابراهيم . وابونا ابراهيم كما نسميه نحن المسلمين هو نفسه ابرام كما تسمونه انتم اليهود ! ويبدو انه كان يهوى المزاح . . .

ولهذا ينشب الجدل الآن . لقد عاشر زوجته سارا كما يحلو له ،  
ثم عاشر اخرى ، هي هاجر ، ثم عاد من جديد الى سارا ، وربما  
لهذا اصبح ابا لشعوب كثيرة ؟ اما هم ، هؤلاء البلهاء فما زالوا ،  
ومنذ آلاف السنين ، لا يعرفون ايهم ولد من اية زوجة . وهذا  
الخلط قديم يا اخوتى فلم نتجادل الآن ؟ اليس لدينا مصائب  
اخرى ؟

ابتسم الحمالون بتحفظ وهم يترددون امام بعضهم في تاييد  
المعلم بصراحة . لكن واحدا منهم سأل بنبرة سذاجة مصطنعة :  
- كما تقول ايها المعلم الذكى ، اصبح ابراهيم ابا لشعوب  
كثيرة لانه كان مزواجا ولم يعد يعرف اى ابن من ابنائه ولد من  
اية زوجة ؟

فاجاب المعلم متخذاً مظهر السذاجة :  
- واه ! ألا تعرف ايها الرجل الطيب ماذا قال الحكيم ؟  
واه ! لقد قال : كثرة الزوجات لا تجعل الزوج ذكيا ، ولكنها في  
المقابل تعطيه حشداً من القبائل ! . . .

وتوالى التعليقات اللاذعة على القديسين الكبار والصغار ،  
ثم انطلق الجميع في ضحك عام . ولم يبق متجهما الا فايق . راح  
يصوب نظرات استياء تارة الى هذا وتارة الى ذلك ، وعندما سمع  
ما يقوله المعلم هز رأسه باستنكار وتمتم بشيء ما .  
وتظاهر المعلم انه لم يلاحظ ذلك وقال :

- منذ الف سنة كتب اخونا الطيب ، الشاعر العربى ابو  
العلاء المعرى ، كلمات حكيمة تستحق الذكر . قال : «اثنان اهل  
الارض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له» !  
وعند ذاك استدار فايق بحزم متحولاً عن الجمع وجلس على  
ركبتيه وتمتم بالصلاة وهو يتمايل الى الامام والى الخلف . وصمت  
المعلم ، وسكت الآخرون . . .

وجلس حاييم قليلاً ، ثم نهض بحذر ، محاولاً الا يعكر  
السكون الذى ساد احتراماً للعربى المصلى ، واتجه نحو حنفية الماء .  
وتناهت الى سمعه ضجة غريبة من ناحية المحطة . وركض الى  
هناك مندفعاً ، ولم يخطئ ظنه . لقد كان عدة اشخاص يشترتون

شحنة عند خزنة المحطة . وخف حاييم لمساعدة واحد منهم جاء  
ليدفع اجر نقل اسمدة كيماوية .

وعندما شحن السمد في عربة بعجلتين يجرها زوج من  
البغال العجفاء ، دفع المالك لحاييم اجره ، وربما لانه لاحظ  
مثابرته ، فقد عرض عليه ان يعمل في مزرعته .  
وقال له بود :

- اذا اعجبك الحال ابق ، واذا لم يعجبك نفترق ، ولن  
يخسر اى منا .

وافق حاييم دون تردد . وحمل الى اويًا على الفور النقود التي  
كسبها . كان المالك الذى التحق حاييم بالعمل عنده من اصل بلغارى  
ويدعى شيمون زيسمان . ومنذ اكثر من عشرين عاما جاء مع  
اوائل المهاجرين واستقر هنا . استأجر قطعة ارض كانت عائلته  
كلها تعمل فيها : هو شيمون ، وزوجته تسيبورا وابنته التي  
تبلغ الرابعة عشرة . وكان لدى زيسمان عاملة ، امرأة وحيدة ،  
ما زالت في شبابها ، جاءت من مصر ، وكانت سوداء كالقار ،  
ممتلئة كالكعك المنتفخ . وكانوا قد اعتادوا ان ينادوها «فرنكا»  
رغم انه كان لها بالطبع اسم ولقب . وكانت بمثابرتها في العمل  
تذكر حاييم بكبير الوكلاء دافيد كنوخ ، لكنها خلافا عنه كانت  
شريفة الى اقصى الحدود ، وثرثارة بصورة غير معقولة ، وطيبة  
القلب ومتطيرة .

وصاحت بالعاملة المياومة العربية :

- لماذا تحديقين في ضرع البقرة ؟ ضعى في عينك عودا ،  
هيا ، بسرعة ! والا حسدت البقرة لا قدر الله !

همت بالزواج عدة مرات وفي كل مرة كانت الزيجة تفشل :  
فتارة يتضح ان العريس صعب الاقناع ، وتارة اخرى ترفض هي  
قبول شروطه . وعندما تمت الخطبة اخيرا ، وحطمت بعض الاطباق  
تفاؤلا ، هرب العريس بعد ان اخذ جزءا من اموال العروسنة  
المخصصة للباننة «مقدما» ، بحجة افتتاح دكان بقالة . وانتظرته  
«فرنكا» طويلا وسكبت دموعا كثيرة ، وكانت ترد على النصائح  
الملحة بابلاغ الشرطة للبحث عنه او توكيل محام قائلة : «ما دام

ليس هناك سعادة ، فلماذا انفق فوق ذلك على المحامي ؟ واذا وجدوه فما حاجتى اليه ، كما انى لن استرد اموالى ! فهو ايضا سيوكل محاميا . . . . . تعب على الفاضى» .

ومنذ ذلك الحين اخذت توفر النقود للشيوخوخة ، وهى تعمل دون كلل وكان مزرعة آل زيسمان هى مزرعتها الخاصة . كان من العسير ان تحدد متى يبدأ ومتى ينتهى يوم العمل هنا . فشيمون مثلا كان يستيقظ بعد منتصف الليل ، ويلتقط المصباح ويركض الى الحظيرة ليتفقدتها ويطمئن الى ان البقر لم يترك دون علف ، ولم يصبه مكروه . وهكذا يبقى فى خارج البيت ، فليس من المعقول ان يعود لينام . خاصة وانه كان يجد دائما ما يفعله . وبعد فترة قصيرة تخرج تسيبورا المنزعجة فى اثره ، وتأخذ فى مساعدته .

وكان حايمم يستيقظ فى الفجر على قعقعة الاوعية والدلاء وصرير طللبة المياه والصيحات ، فيقفز من فراشه ويرتدى ثيابه بسرعة ويركض الى الفناء وهو يفكر بقلق انه لا يغتفر للعامل ان ينام بينما السيد مستيقظ .

ويلقاه شيمون هاتفا :

- الى اين تهرع ؟ هلا نمت . . . . . فالوقت مبكر . . . . . سيكون لديك ما يكفى من العمل طول النهار ، لا تقلق !

وفى تلك الاثناء يكون الماء قد غلى فى قدر كبير فوق موقد ضخم بينما تستحث «فرنكا» شخصا ما :

- ياللا ، بسرعة ، جاءتك داهية !

وتأكد حايمم ان رب العائلة بل والمزرعة ايضا ليس هو شيمون بقدر ما هى زوجته تسيبورا . كانت هذه المرأة النشيطة الحكيمة تسمى نفسها عن حق «رجلا فى جونلة» وزوجها «امرأة فى سروال» .

وكان شيمون بالفعل ضعيف الشخصية . كان يعمل بامانة ولا يفكر الا فى ان يؤدى فى الموعد المحدد اقساط سلفة «البنك الانجليزى الفلسطينى» ، ويدفع الايجار بانتظام ، ويقدم بضاعته فى احسن صورة ، والا . . . . .

كان يقول لحايمم :

- وإلا تسوء سمعتي وعندئذ يحل بي الخراب لا محالة ان هذا النير ، مهما فعلنا ، معلق في رقابنا وسيظل معلقا . . . ولم يكن يحلم بان يصبح مليونيرا ، فقد كان يعلم ان ذلك مستحيل مهما عمل ومهما تحايل ، ولكنه كان يعتبر انه كان ينبغي ان يصبح ميسورا منذ امد بعيد .

وخلافا عنه لم تكن تسيبورا تخشى المصاعب التي كانت تواجههم كثيرا في العمل ، وكانت حتما تجد منها مخرجا فقط بفضل حصافتها ومثابرتها .

وكانت تقول لحاييم :

- يوجد اشخاص مفيدون وينبغي ان تكون علاقتك بهم طيبة ، رغم ان الكثيرين منهم لا يستحقون الا الاحتقار فقط بل واللعنة ايضا !

والى الاشخاص «المفيدين» كانت تسيبورا تنسب في المقام الاول متسلمى المحصول الذين لا هم لهم الا التمكك بان المحصول غير ناضج بعد او انه نضج منذ مدة طويلة . . . وتقول تسيبورا بغضب :

- ولا يمكن ان تثبت لهم خطاهم . وعلاوة على ذلك فان هذه الاشكال تجهد ان تخدعك الكيل والميزان وتغالطك في الحساب وتربكك . يسلخون جلدك ثلاث مرات ، ولكن لو حاولت ان تمس مصلحة الشركة فلن يعود عليك هذا الا بالشقاء . . . فهم يتقاضون عمولة من الشركة ! وكيف كنت تظن ؟

سثم حاييم سماع هذا كله . وعموما لم يكن صدفة ان تكره تسيبورا متسلمى المحصول . اذ اتضح ان آل زيسمان كانوا يبيعون محصولهم الشحيح من الحمضيات الى شركة «اوفير» . ولكن في العام الماضي رفضت الشركة استلام المحصول كله باعتباره فاسدا . وقالت تسيبورا ان ذلك بسبب التغليف السيئ . ولكن يبدو انه كانت هناك اسباب اخرى فضلت ألا تذكرها . ولذلك اضطر آل زيسمان الى تحويل قسم من المحصول الى معجون وعصارة خالصة وتحويل جزء آخر الى كحول . وقالت تسيبورا :

- وعموما فالمسألة لا تستحق كل هذا التعب . . . لم  
نتمكن الا من بيع جزء يسير لشركة «هيراكولا» وهى ايضا شركة  
امريكية . ولكن زوجى شيمون لا يريد ان يتعامل معهم . انهم  
بالطبع يدفعون اقل بكثير . فليكن . ولكنهم يتماحكون اقل !  
وماذا ؟ هل اصنع من هذا المحصول مربى ؟ او اعلف به البهائم ؟  
كلا . لن يرى متسلمو المحصول مثل هذا اليوم ابدا . . .  
وقال شيمون معترفا لحاييم :

- زوجتى كنز ثمين . لديها رأس وزير ، فليهبها الله  
الصحة والعمر الطويل !

واجابت تسيبورا بتواضع : - ينبغي ان ندبر امورنا باى حال !  
لم تكن تلوم زوجها ابدا على سلبيته وعدم قدرته على الخروج  
من المآزق . كانت تقدر فيه تلك الصفات التى لم تكن لديها  
بالقدر الكافى لكى تزدهر المزرعة . لقد شغف شيمون بالزراعة  
بكل قلبه ، وعمل بتربية الاشجار والخضروات والمواشى عن عميق  
معرفة ، وكان مجدا وصبورا على العمل بصورة مدهشة .

وكانت «فرنكا» تناسب اصحاب العمل . لم تكن تجلس دقيقة  
واحدة بلا عمل ، فتغسل اوعية الحليب والقشدة ، وتجلو جيدا  
الاغطية المعدنية واجزاء الفرازة ، وتقوم بكل شىء بانتظام وبلا  
كلل كآلة .

وكانت تتطلب نفس الشىء من العاملة المصرية المياومة  
وتصبح فى حاييم :

- ينبغي ان تحمل العلف للابقار ! وتضخ الماء . . . عما  
قريب يعين وقت الحلب !

وكان حاييم لا يرفض طلبا ، وينفذ كل ما يأمره به اسياده  
الجدد ، فيحمل العلف للابقار التى بدت له لا تشبع ، وكان يسقى  
البغال ويطعمها وينظفها بعناية خاصة وعطف اذ كان يشفق عليها  
لان احدا لا يوليها انتباها . وكان يضخ الماء عشرات المرات فى  
اليوم ، ويدير الفرازات حتى يكاد يغمى عليه ، ويعزق اشجار  
الليمون والبرتقال فى المزرعة الصغيرة . هكذا كل يوم حتى حلول

الظلام . وكان يحدث احيانا ان تاتى الناقلات فى الليل ، وعندئذ يضطر الجميع للعمل حتى نصف الليل تقريبا . وكانت تسيبورا تقول :

- لا يصح اعادة السيارات فارغة ما دامت قد وصلت ! فلنشحنها باى شكل ، ولنستيقظ متأخرين قليلا غدا .

ولكن فى الغد كان كل شىء يتكرر من جديد . ومر اسبوعان ثم ادرك حايم انه لا يستطيع ان يواصل العمل لدى آل زيسمان ، فلا حول له على ذلك . وفكر باسى : «سينقطع حيلى ما فى ذلك شك ، وعندئذ ماذا افعل ؟ واويا ؟ ان لها طبعا يجعلها تكدح الى درجة انها لا تلاحظ كيف ستخور قواها . . . كما انه ليس معروفا كيف سينظر اليها اصحاب العمل عندما يعرفون انها خرساء ، وعلاوة على ذلك يونانية ! . . » .

وفى الجمعة التالية ، قبيل المساء ، استعد حايم للرحيل . وقد بدأ حديثه مع ارباب العمل بالشكر على معاملتهم الطيبة له وانهاه برجاء ان يخلوا سبيله .

وقال حايم :

- ارجو الا تغضبوا ، ولكنى لن استطيع ان اتحمل هنا . . . اعذرونى من فضلكم . . .

واسف شيمون وتسيبورا زيسمان بصدق لقرار حايم لا لانهما كانا يريدانه كعامل مخلص فحسب ، ولكن لانهما كانا يعرفان كم سيكون صعبا عليه ان يجد عملا ويطعم زوجته وطفله القادم . وعند الوداع اصرت تسيبورا على حايم ان ياخذ لزوجته قليلا من الزبد وعلبة قشدة وعلبة كبيرة من مربى العام الماضى المتجمدة . . . اما «فرنكا» البدينة والكثيرة الصياح ، والبخيلة ، كما خيل لعايم ، فقد اقتربت منه وهى تتلفت بنجل حتى كادت تلتصق به ، وهمست بصوت غامض دون ان تتطلع اليه :

- سمعت ان زوجتك حامل . . . خذ هذا منى لطفلك عندما يولد ان شاء الله . . .

قالت ذلك ودست يدها بحركة سريعة فى جيب صدره بورقة جديدة من فئة العشرة جنيهات . وارتبك حايم وحاول ان يعيد



اليها الورقة ، ولكن بلا فائدة . فقد ركضت مبتعدة . ولكن حاييم اقنع ربة البيت ان تأخذ النقود وتعيدها «لفرنكا» مع جزيل شكره . ولم يخرج حاييم من البيت يومين كاملين . كان يستيقظ ، ويطوف بنظراته على مسكنه ، ويبتسم لاويا ، ثم ينام من جديد . وتمكنت اويا بعد لآى من ايقاظه وانهاضه وجعله يتناول الطعام . فجلس الى الطاولة وهو يتأوه من الالم فى عظام مفاصله وظهره ، بينما فزعت اويا من منظر وجهه الضامر والظلال الزرقاء الثقيلة تحت عينيه .

ومع ذلك فقد مضى حاييم فى الصباح المبكر يوم الاثنين للبحث عن عمل . وتوجه من جديد الى يافا طبعا ، الى محطة البضائع . وفى هذه المرة كان من بين اول من حضر فتمكن من كسب بعض المال . وعند الظهر انتهى من العمل فذهب مع زميله الذى عمل معه فى الصباح الى الحى الاعلى فى يافا ، الى محطة الاتوبيسات . ولاحظ الحمالون المتجمعون هنا من بعيد حاييم وزميله المسرعين ، فاسرعوا الى لقائهم بالسخرية البريئة :

- اسرعا يا اشكنازى اسرعا ، العمل هنا كثير !
- اسقف الاتوبيسات تتطبق من كثرة الحقايب !
- وليس من احد يحملها الى الفندق !
- المعلم طيب والصندوق كبير والبشيش جيد ، اسرعا ! .. وربما يبدو للنظرة العابرة انه لا يوجد ما يشغل بال هؤلاء الناس ، وانهم بلا هموم كالأطفال ، ولذلك يمزحون ويضحكون بلا حدود . اما الواقع فكان ابعد عن ذلك بكثير . كان الاهتمام بلقمة العيش للاقرباء ينشب مخالفه الحادة فى قلوبهم . ولذلك كانت المزحة ، والكلمة اللاذعة ، والخشونة الودود احيانا التى يرافقها ضحك جماعى ، الفرصة الوحيدة امامهم ربما للتخلص ولو لفترة قصيرة من الافكار المرهقة . وكان حاييم يدرك ذلك ، ولذلك لم يغضب بل ابتسم بجرح .
- ولكن ها هو المزاح والضحك قد خفتا ، فقد وصلت سيارة ركاب متهالكة بسرعة كبيرة وتوقفت بحددة ، مثيرة حولها سحابة من الغبار .

واندفع الناس الى السيارة . ولكن لم تمر بضع ثوان حتى انطلقت السيارة بحدة ايضا ولم تاخذ معها سوى حمال واحد .  
واثار مجيء السيارة جدالا حيا طويلا بين الحمالين المرهقين من البطالة .

وقال احدهم بنبرة لا تخلو من حسد :  
- ما اشطر هؤلاء الناس ! هذا السائق كان يتسكع هنا بيننا ، كان حمالا ، والآن انظروا ، اصبح له سيارة خاصة . . .  
من اين ، وكيف ؟ يا له من محتال !  
فقال آخر :

- ماذا تقول ! لولا ان العاهرة الحمراء الشعر التي كانت تجلس بجانبه الآن قد آوته لظل طوال حياته يلهث كما نلهث نحن الآن .  
ذات مرة كان يريد ان يصبح حاخاما . . . وعندما لم يفلح جاء الينا ، وجرجر الحقائق ، فلاحظته العاهرة . كانت تتكسب غير بعيد عن الميناء آنذاك . اما الآن «فيعملان» معا ، ويقتسمان النقود . . . هو يبحث لها عن زبائن وينقلهم من يافا او تل ابيب الى حيفا . وفي طريق العودة «يلتقط» لها زبونا آخر . . . لديها سيارة ، ارأيت ؟ بها ستائر كأنما للوقاية من الشمس ، ولكنها في الحقيقة لحجب «الركاب» عن الاعين . . . ومع ذلك يعتبرون انفسهم بشرا . ولم لا ولديهم سيارة خاصة ! . . .

وقال حمال عربي وهو يبصق بغضب :  
- ولكني افضل ان احمل اكياس الروث واجوع عن ان اقبل عملا كهذا ! فلتشهد السماء علي اني اقول الحق . ستكون يداي اطهر ، وبالي اهدا ، وضميري نقي كقطرة الدمع ، اي والله !  
ايشاي سيدق عنقه ، وتذكروا كلامي . . .

فعارضه حمال كهل قائلا :  
- كلا يا ابا عبود . لن يدق ايشاي هذا عنقه . فراس ايشاي غير رأسك ورأسى . انها كبيرة ، تتسع لمكر كثير . ولهذا اصبح لديه حصان حديدي ، ولهذا يعيش عيشة السادة !  
وقاطع العجوز ذلك الحمال المعروف لحاييم ، ذو العمامة البيضاء ، والذي كان معلما من قبل وجاء الى هنا هو ايضا :

- انت يا اخى الكادح ابلت اسنانا كثيرة في حياتك الطويلة ومع ذلك لا تدرك ان حصان ايشاي هذا غير متين . هناك من هم اشطر منه ومع ذلك سقطوا من السرج وهم يركضون باقصى سرعة . الطمع يجلب البلايا .

فاجاب العجوز وهو يهز رأسه بعناد :

- ها ، يا معلم ! الحصان الحديدى لا يمكن ان يلقى بسيده من السرج ! ايشاي الآن يدوس على النقود كما يدوس الجمل على رمال الصحراء . وعندما يكون لديك فضة وذهب فلا يهيك شىء ! فاذا كنت محتالا ستقول الشرطة نفسها انك اشرف انسان فى العالم . واذا كنت خبيثا مثل ايشاي فستنال الاحترام بدلا من اللعنات . . . . انك شخص ذكى ، وكنت معلما ، وتعرف الكثير ، وخبرت الكثير فى حياتك ، ولكنك لا تدرك ان الدنيا كسفينة محملة من جانب واحد ، لا تمضى الى حيث يجب ان تمضى ! . . . السعادة تهرب من الشرفاء كما يطير الدخان امام الريح . . . ربما كانت هذه مشيئة الله ؟

وقال حمال يدعى «الدب» بصوت غليظ :

- انا لا اعرف مشيئة من هذه ، ولكنى اعرف انهم قوادون وسيظلون قوادين . وماذا تنتظر منهم ؟ لقد كان رفيقنا جابوتينسكى محقا عندما قال ان الشعب الذكى الكبير ينبغى ان يكون لديه جنرالاته وقوادوه ، مومساته وعلماؤه ، خونتاه وسجانوه ! . . . وهل نحن اسوا من الآخرين ؟ اليوم ممرض وغدا طبيب ، اليوم خفير وغدا وزير ، وانا اليوم حمال ، وغدا . . . .

- وغدا سجان ! - قاطع الحمال المعلم الدب وقهقهه بتلذذ - ليس هذا بغريب عليك ، اليس كذلك ؟ لقد عملت شرطيا ، وكما كنت غير نظيف اليد فقد ظللت كذلك . لا تغضب ، فانا كالبغاء اردد فقط ما يقوله الناس . . . اسأل اى واحد من هؤلاء الواقفين !

- صحيح ، لقد خدمت فى الشرطة ، وماذا فى ذلك ؟ واستطيع ان اكون غدا سجانا ، لكى ابقى فى الحبس طويلا المتمردين امثالك . . . فلا تغضب انت ايضا . صحيح اننى لست ببغاء ،

ولا اتحدث بكلام الآخرين . . . فنحن يا معلم معارف قدامى ، اظن انك تذكر ؟

فصاح المعلم السابق :

- واه ، واه ! كيف لا اذكر ! وهل يمكن ان ينسى المرء شيئا كهذا ؟ كنا نقضى الايام تحت سقف واحد ، ولكنى كنت فى ذلك المنزل اجلس وراء القضبان ، ويضربونى ثلاث مرات فى اليوم بالهراوات المطاطية ، ويبقون على اياما فى الماء البارد حتى الركبة ، اما انت فكنت حارسا ، تتقاضى مرتبا من الذين امروا بتعذيبنا . . . اننا معارف قدامى ، كيف لا !

احاط الحمالون بهما حلقة محكمة ، وتهامسوا وهم ينظرون شزرا الى السجن السابق ويهزون رؤوسهم باستنكار .

- وقد القوا بى خلف القضبان لانى ، كما قال الآن «صديقى» القديم «الدب» ، كنت اتحدث بكلام الآخرين . . . كنت آنذاك معلما فى مدرسة ، وكانوا يجبرونى على ان امجد ملك بريطانيا فى قرية عربية . وكنت طبعا امجده واشرح للاطفال ان الملك رغم بطشه وجبروته لا يعرف اللغة العربية ولا يريد ان يعرفها ، ولا يفهم بنى قومنا ولا يريد ان يفهمهم ، وباختصار فهو غريب عنا . وقلت للاطفال ايضا ان الملك يجلس على عرش من الذهب مرصع بالاحجار الكريمة ، ولكن اصغر مسمار فى هذا العرش اغلى من الحاكم المتربع عليه . . . فهل انا كذبت يا ناس ؟

فابتسم الحمالون ، وقال احدهم :

- مضبوط طبعا . . .

- انت قلت الحق يا معلم . . .

- ولهذا السبب ، كما ترون ، قبضوا على . اخذونى الى عكا ، والقوا بى هناك فى السجن . . . عند «صديقى» القديم «الدب» . . . وقبل ذلك بفترة قصيرة سافرت الى بلد بعيد وكبير جدا . . .

وقال واحد من الجمع :

- يقولون الى موسكو ؟ هل هذا صحيح ؟  
- لن اخفى عنكم يا اخوان . صحيح . سافرت الى هناك ،

وتحدثت مع اشخاص طيبين عن حياة الفلسطينيين القاسية . . . .  
ودفعت ثمن ذلك ايضا سجنا . . . . و«صديقي» القديم يعرف  
هذا . . . . ولكن ما زال في الدنيا اناس شرفاء . وهم موجودون بين  
العرب واليهود ايضا . وهم الذين ساعدوني واخرجوني . اما «الدب»  
فسرعان ما ركلوه في مؤخرته . لم يقتسم الرشوة مع رؤسائه ،  
فطردوه من مكانه المريح ! والآن اصبح «صديقنا» !  
وبصق «الدب» بغضب ، وانتحى جانبا مشيعا بضحكات  
الحمالين الجماعية .

ودوت صفارة حادة من احد الحمالين تنذر اخوانه بوصول  
اتوبيس خط حيفا الى المحطة . واندفع الجميع الى محطة الاتوبيس  
يصرخون كسرب من الغربان الجائعة . كان يبدو من كثرة الحقائق  
فوق سطح الاتوبيس ان ركابه ليسوا قليلين . ورغم ان بعض  
الركاب كانوا سيواصلون الرحلة ، فقد خرج الجميع من صالون  
الاتوبيس الملتهب كالفرن . اندفع بعضهم الى المقهى ليبل زوره ،  
وبعضهم الى المطعم . وعلى الفور ظهر تجمع حول السيارة : كان  
هنا اقرباء ومعارف الركاب ، والسماصرة والوسطاء والعاشرات  
الباحثات عن زبائن ، ومندوبو الادارة الانجليزية العربية اليهودية  
والحراس الذين جعلتهم مقتضيات المهنة يستبدلون ببرنسهم  
البوليسى حلا مدنية ، وكذلك مجرد الفضوليين .

وتابع حاييم بأسى كيف اصبح الحمالون ، الذين كانوا منذ  
لحظات يتحدثون في سلام ومودة ، يتخاطفون الحقائق بغيظ من  
بعضهم البعض ، ويلقون الغنيمة على اكتافهم بصعوبة ويتبعون  
اصحاب المتاع وهم يختنقون ويتفصدون عرقا .

لم يرغب حاييم ولم يشعر انه قادر بدنيا على الدخول فيما  
يشبه المعركة مع الحمالين ذوى الخبرة ، فخرج من الحشد ، ومضى  
الى البيت مهموما دون ان يتلفت حواليه . ومع ذلك ظل عدة ايام  
ياتى الى محطة الاتوبيس ، ويتسكع هنا ساعات بدون عمل على  
امل التكبسب .

كان المكان هنا صاحبا يعج بالحركة . وكان باعة الشطائر  
والعلويات الجائلون وصبية المقاهى وموزعو الصحف ، وماسحو

الاحذية ، والسباكون والسمكزية والسماسرة وشتى انواع الوسطاء  
يهرولون هنا من الفجر حتى هبوط الظلام ومعهم اكشاك ضخمة  
واباريق طويلة او غلايات شاي كبيرة واكواب صغيرة ، وصناديق  
وسلال او اكياس مدلاة من الكتف بها معدات ، ويمدحون بضاعتهم  
باصوات منغمة ويجهد كل منهم ان يعلو صوته على اصوات  
الآخرين :

- الحق الطازة ، الحق اللذيذ ، الحق المحمر ! . . .
- كل العجوة ، العجوة الرخيصة ! . . .
- احسن تنظيف ، احسن تلميع ، ترجع مثل الجديدة !
- الحق الهريسة ، الذهريسة ، آخر قطعة !

وكان حاييم يزدرد لعابه في كل مرة يسمع الصيحة القصيرة  
الناقبة :

- اليكتريكو ! اليكتريكو !

ولم يكن يعرف ما هي العلاقة بين كلمة «اليكتريكو» وبين  
الشطائر المحشوة بالحمص المطبوخ مع الشبث . ولم يكن احد  
يعرف اسم بائعها . وخلافا عن بقية الباعة الجائلين كان هذا العجوز  
الاكثع يأتى بقفصه المعلق بسير في كتفه بعد مضي نصف ساعة  
بالضبط من رحيل الاتوبيس . ففى هذا الوقت يكون الحمالون  
قد وضعوا في جيوبهم القروش الاولى .

وتناهت اصوات مختلفة من المقهى المجاور لشباك التذاكر  
بمحطة الاتوبيس . فتحت شريط ضيق من المشمع القذر المشدود  
كسقيفة كان الرواد يجلسون الى طاولات مستديرة رصت بازدهام  
ولا يكفون عن الصخب . ويناور الجرسونات بمهارة بين الطاولات  
وهم يرفعون عاليا الصوانى ويرتدون سترات قصيرة كانت فى زمن  
ما بيضاء وهم يبلغون الطلبات بصوت عال الى المطبخ على  
الماشى :

- واحد قهوة ثقيلة !

- اثنان قهوة تركى !

- ثلاث اكواب ماء . . .

ومن الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل كانت

اصوات احجار الضامة تدوى عاليا . وحول اللاعبين يجتمع هواة  
الفرجة والالفاظ اللاذعة والمراهنة على هذا اللاعب او ذاك ،  
والتعليقات الحماسية والحدة والشجار . وكان مشجعو لاعبي النرد  
يتسمرون لحظة قبل لقاء الزهر ، وينقطع الضحك والجدال العاد .  
وعلى الفور يتفجر الصمت الواهي بصيحات الاعجاب الصاخبة  
واللعنات والسباب .

وكانت اصوات باعة الصحف الصبيان الرنانة تقتحم هذا  
الهرج والضجيج مرتين في اليوم : في الصباح وقبيل المساء . ومع  
ظهورهم تندلع في المقهى من جديد التكهنات ومناقشة شتى  
الاحداث وخاصة الحرب في اوربا بالطبع . وكان الخبر المثير  
الدورى الذى سمعه حاييم من صيحات باعة الصحف هو اتفاق  
الزعماء العرب مع القادة الصهاينة على وقف المنازعات ومساعدة  
الانجليز في الحرب ضد دول المحور .

تذكر حاييم كل ما امكنه سماعه ومعرفته ، خلال فترة عمله  
القصيرة عند سيمون سلمونزون ، عن «الاهداف والاغراض  
الحقيقية لزعماء «أكسيونس كوميتى» ، وعن الاساليب التى لجؤوا  
اليها لبلوغ مراميهم . وقد افضت به تأملاته الى قناعة بأن الاتفاقية  
التى عقدها الصهاينة ليست سوى حلقة فى سلسلة الخداع .  
غير انه لم يجرؤ على مكاشفة الحمالين بذلك . فقد كان النظر الى  
اعين هؤلاء الرجال البسطاء يشعره بالخجل ، ولذا تسلل من  
الزحام على مهل . وناداه السائق الذى كان يعمل على اصلاح  
الاتوبيس ، وطلب منه المساعدة على رفع العجلة الاحتياطية  
لوضعها على سقف الاتوبيس ، وفجأة عرض عليه ان يعمل  
مساعد له .

- لكن بلا أجر . . . بالاكراميات وحدها ، وهى مجزية  
احيانا ، وتافهة احيانا اخرى . ولا بأس بالاعتاب عن نقل وتوصيل  
الرسائل . ما رأيك فى هذا العرض ؟

كان الاتوبيس الذى عمل عليه حاييم فولديتير مساعدا للسائق مجرد شاحنة عادية ادخلت عليها بعض التعديلات . اما الهيكل المصنوع من الخشب الحلبى المتين والمكسو بالصفيح فلم يكن يتسع لاكثر من عشرين راكبا .

لم تكن مهام حاييم تتطلب مهارة فائقة ، لكنها ايضا لم تكن بالسهلة . فقد كان من واجبه ان يضع الامتعة فوق السقف المعدنى المحاط بسيياج ، وان يربط الامتعة بحبال تكفل لها السلامة ولا تحدث بها تلفا . وكان ذلك محفوقا بمخاطر لا يستهان بها . وقد دفع سلف حاييم حياته ثمنا لاهماله . فبعد يوم مضى غلبه النعاس فى الرحلة الليلية الاخيرة فنام ، كعادته ، على السقف . وبالقرب من القدس ، قبيل مرتفع حاد ذى انعطافة شديدة عند الاخدود الكبير هدا السائق السرعة . وكان هذا ما يأمله المهاجمون المختبثون وراء سواتر صخرية على حافتى الطريق . فقد تمكن احدهم من التشبث بالسلم المعلق على الجدار الخلفى للاتوبيس ثم صعد الى السقف والقى بالامتعة ومساعد السائق النائم . ومن بعدها ركب السلم على جانب الاتوبيس .

كان حاييم يشعر بالخجل والارتباك كلما مد يده لتناول الاكرامية فى نهاية كل رحلة . كان يحدث احيانا ان يحصل على اكرامية مجزية ، لكن الركاب كانوا فى معظم الاحوال يستغلون عدم الحاحه و«ينسون» شكره على خدماته وصيانيته للامتعة .

ومن بين الحمالين الذين يتزاحمون عند محطات الاتوبيس ، ظهر كثيرون ممن يبدون اطيب التمنيات لحاييم ويحاولون استرضاءه بثتى السبل . وقد عرض بعضهم عليه ان يقاسمهم اجورهم على ان يفضلهم على الآخرين عند انزال الامتعة من فوق سقف الاتوبيس . لكن حاييم كان يابى ان يقاسم الحمالين اجورهم . كذلك فقد كان يرفض تعاطى الهدايا . ولذلك كان البعض يكن له الامتنان الصادق ، بينما كان الآخرون يعتبرونه مغفلا .

كان حاييم يخلص فى تنظيف الاتوبيس ، وكنسه ، وپرش



ارضيته بالماء لترطيب الصالون ، ويكثر من صب الماء في الردياتير المثقوب ويحتفظ بصفيحة ماء احتياطية . ولشد ما كانت تضايقه حالات تثقيب اطارات الاتوبيس . بالطبع كانت هناك عدة اطارات احتياطية . بدونها لا يقوم الاتوبيس برحلته ، لكنها جميعها كانت جد مستهلكة . وبعد كل تغيير للعجلة كان الامر يتطلب الاعداد الفوري لغيرها . وبمشقة كبيرة كان يجرى ادخال الطوق الحديدي في اطار «جوديار» صلب الحواف . وكان نفخ العجلة من العمليات الشاقة المضمنة .

كان صاحب الاتوبيس ، الذي رآه حاييم مرة واحدة ، لا يتعجل شراء اطارات جديدة . وكان يصر على تحميل الاتوبيس بركاب اكثر مما ينبغي ، وذلك بوضع مقاعد متحركة في الممر الفاصل بين الأرائك . ولطالما نبه متبرما الى الغلو الفاحش في اسعار اطارات «جوديار» شاكيا من الضنك الذي يعانیه ، حتى بات لا يدري ما الذي يتأتى عليه ان يدفعه اولا رسوم استخدام الطريق ، ام أجر السائق ، ام الضرائب المستحقة عن ملكية الاتوبيس . وهكذا لم يكن قادرا على شراء اطارات خارجية او داخلية جديدة . كان صاحب الاتوبيس يتشكى ويدخر ليجمع من المال ما يشتري به اتوبيسا جديدا احدث واكثر اتساعا ، بينما كان على السائق ومساعدته ان يلهثا في نفخ الاطارات القديمة لانه من المستحيل بتاتا تأجيل رحلة الاتوبيس .

في العادة ، كانت الرحلة الاولى الصباحية تتم براحة نسبية مما يتيح لحاييم فرصة الاستمتاع بالاسترخاء بين اكوام الامتعة . كان الاتوبيس يتأرجح ويهتز عند المطبات ، وهو يتحرك على الطريق الضيق ، الذي لم يكتو بعد بلهيب الشمس ، والذي تمتد على جانبيه احراج الموالح والكروم ومزارع البطيخ وحقول الخضروات .

كانت الرحلة الاولى تبدأ مع بزوغ الفجر ، حين يكون الهواء مشبعا بالعطر الفواح لاشجار البرتقال ، التي ازهر بعضها ، والتي يتمايل بعضها الآخر تحت ثقل الثمار الذهبية . وكان ذلك دائما يفتن حاييم رغم معرفته بأن انواع البرتقال المختلفة تزهر وتثمر

في اوقات مختلفة . وعلى نحو فريد من الجمال كانت تبدو نباتات الصبار الكثيفة التي تحجب الطريق في بعض الاماكن باسوار في ارتفاع قامه الانسان .

كل ذلك كان يذكر حاييم ببلاده ، حيث تمتد في شرائط متساوية على جانبي الطريق اشجار السنط ، ومن ورائها تصطف شجيرات الكروم ، ومن بعيد تتراءى بحيرة يالبوج المزدانة بالعديد من اشرة قوارب صيد الاسماك . وعندئذ تترد افكاره الى بيته وابيه واخته . لقد تلقى منذ امد غير بعيد رسالة مطولة من والده يسأله فيها بلوم صريح وليس بالتلميحات كما في السابق عم اذا كان قد نسي ارسال الدعوة الموعودة .

عندما تذكر حاييم ذلك أحس برجفة تنتابه ، فما الذي يستطيع ان يرد به على أبيه ؟ أحدثه عم هو فيه من تعاسة ؟ عن انه هو ذاته يعيش على الماء والخبز دون ان يدري ما يحمله له الغد ؟

كان حاييم يشفق على ابيه . فقد قضى الرجل عمره كله يمسك حسابات صغار التجار لقاء أجر تافه وها هو في مغيب العمر لا يملك شيئاً . زوجته تحت الثرى وابنه هائم على وجهه بحثاً عن السعادة . ومن حسن الحظ ان بقيت معه الابنة ميلكا . وقد ادرك حاييم من كتاباتها ان نضجها بعد رحيله قد صار يحسب بالايام لا بالاعوام . فلم تكن الخطابات تتضمن اية ايماءة الى لهو الطفولة . ورغم انها لم تكن تشكو ، الا انه كان واضحاً ان الحياة في الوطن اصبحت لا تطاق . ولقد كان هذا المعنى الدفين لرسائل الأخت يؤرق حاييم اكثر من اللوم الصريح لابيه . فكلما أمعن هتلر في عدوانه ازدادت وقاحة اعضاء «الحرس الحديدي» الفاشي . هذا ايضا يتضح من كتابات ميلكا . . . وما نهاية ذلك كله ؟ ما مصير الأب والأخت ؟ كيف يمكن مساعدتهما وجيبه خال تماماً من النقود ! ثم ان أويًا تنأهب للوضع بعد شهر او شهر ونصف . وما اكثر ما سوف يحتاجان اليه . . الاكراميات وحدها لا تكفى وليس في الافق مخرج يلوح له . . .

اعتقد حاييم ان ما يمنعه من تركيز الفكر بحثاً عن مخرج

هو مرأى المزارع الزاهرة ، ونباتات الصبار الساحرة ، التى حلت محل التلال التى الهبتها الشمس والتى تشبه محاجر مهجورة من مئات الاعوام وقد تكومت فيها احجار بيضاء ناصعة وصفراء مغبرة . . . . .  
رقد حايم على ظهره واخذ ينظر الى السماء اللازوردية اللامحدودة كالمحيط والنائية واللامبالية بكل ما هو ارضى ، بما فى ذلك مصيبة حايم . لم تكن حياة حايم ابدا صافية كهذه السماء بل كانت صفحتها دائما داكنة لكثرة ما تكتنفها من غيوم ، واثى له بريح تبددها !

وقد تذكر المهلة التى منحتها له الحاخامية . وبات عليه ان يرد فى خلال عدة ايام عم اذا كان يوافق على تطلق زوجته اويًا ، والا . . . . . تنهد حايم متمللا من انه لا يجرؤ على استئذان السائق بالذهاب الى الحاخامية ، فلا بد من تسوية الامر على اى حال ، والا تعرض لأذى . . . . . من يدري !؟

ابطأ السائق السرعة ، واخذت السيارة تصعد المرتفع بصعوبة . فقد كان الطريق هنا يمر عبر تلال حادة الميل ، تلوح من ورائها على مسافة بعيدة قمم جبال يهوذا .

قبل الوصول الى الاخدود الضيق اوقف السائق السيارة . نزل حايم من السقف على عجل . . . امسك بخرقه وراح يفتح غطاء الردياتير ، الذى كان يتسرب منه البخار بصفير . وعند اللفة الاخيرة لم يقدر حايم على مواصلة القبض بيده على الغطاء ، الذى اطاح به بخار الماء المضغوط . واحضر حايم صفيحة الماء بسعة العشرين لترا ، وصب الماء فى الردياتير ، بينما كان السائق يقيس منسوب الزيت ويتأكد من سلامة الاطارات .

غادر الركاب الاتوبيس لاستنشاق الهواء الطازج ، وللمشى قليلا والتدخين . وقد هل عليهم اطفال وصبيان من اهالى القرية المجاورة . وكان كل منهم يحمل سطل ماء ، وكان الاتوبيس لا يحمل عشرين راكبا بل يحمل على الاقل قطيعا من الاغنام . وقد تنافس الاطفال على تقديم الماء للركاب فى مقابل علب الكبريت وبطاقات المعايدة الزاهية الالوان ، وطالبوا بشيء من العملات المعدنية او الماكولات .

وكان من الصعب مقاومة اغراء اطفاء الظما بالماء البارد الصافي الذي يتدفق من ينابيع الابخدود العميق ، لكن الرائحة النفاذة للبن المعاز الرائب ، التي تفوح من الاقداح الفخارية التي يغرفون بها الماء من الاسطال ، بل ومن الاسطال ذاتها ، كانت تضيق كل المتعة المنشودة من تحقيق هذا المطلب الملح . ولذلك فعند محاسبة السقائين كان الركاب يعلنون تأفهم الذي اثار لدى الاطفال ردود فعل متباينة فمنهم من قطب جبينه ، واسدل رموشه الطويلة السوداء كالسنج ، وانزوى في ركن من الاركان ، ومنهم من ، على العكس من ذلك ، جادل ببشاشة ، وتقبل عن طيب خاطر ما ذكر من مأخذ على رائحة الماء ، وراح يقص تلقائيا بعض الاساطير التي تناقلتها عبر القرون السن الناس من جيل الى جيل ، ومنها ان المسيح صام الصيام خلال اربعين يوما وليلة في هذا الابخدود الذي جلب منه الاطفال الماء ، ومنها ان ما وراء هذا التل العالى قد شهد كيف تاتى لداوود الذي كان في قامة الاقزام ان يقتل بمقلعه العملاق الفلسطيني جولياث .

كان اولئك الشطار الصغار ، الذين لا يعرفون ديانة من يحادثونهم ، يحرصون في قصصهم الماثورة على استرضاء اليهود والمسيحيين على حد سواء .

وها هو السائق قد أطلق نفير السيارة منبها الى مواصلة الرحلة ، فسارع الركاب الى احتلال مقاعدهم ، وصب السقاؤون الماء في الصفيحة الاحتياطية وسلموها للسائق ، ثم تخلصوا كالعادة من الماء المتبقى برشه على اطارات السيارة وهم يهللون :

- طريق السلامة !

- رحلة سعيدة !

انطلق الاتوبيس بسرعة متزايدة . كان المرتفع حادا مما جعل المحرك يزمر حتى بدا احيانا وكأنه يوشك ان يتناثر قطعاً قطعاً . مر الاتوبيس باطلال غريبة لمبان حجرية لدير او قلعة . وظهرت في الافق ضواحي القدس فتوقف الاتوبيس من جديد ، لا لشيء في هذه المرة سوى ان يهبط حايم من فوق سقف السيارة ليجلس بجوار السائق . اذ كان الانجليز في القدس يحظرون

الركوب فوق سقف الاتوبيس . وكان على رجال الشرطة إيقاف السيارة المخالفة للتعليمات والزام السائق بدفع غرامة .

من بعيد تبدو عاصمة فلسطين كمقبرة غاصة بالتماثيل المقامة فوق القبور باحجام واشكال شتى . ما اكثر الكنائس والأديرة ، وقباب المساجد والمعابد ، والابراج والمنائر ، وهي كلها من الحجر ، حتى ليخيل للمرء ان المدينة كانت في الاصل صخرة كبرى نحتت منها كل هذه البنايات العجيبة . ومع الاقتراب من المدينة تتضح اكثر من قبل الوانها ومن بينها اللون الابيض الناصع والرمادي المسود الذي تكتنفه الشقوق وبقع الطحلب الخضراء .

وبالقرب من وسط الحى الجديد للمدينة توجد بعض البنايات الحديثة . الشوارع مزدحمة : ثمة مارة يسرون على مهل في ثياب بيضاء ، ورهبان وبدو يتشحون بالسواد من اعلى الراس حتى اخمص القدمين ، وسيدات عربيات محجبات . ومما يستوقف النظر منظر الراهبات الكاثوليكيات بقلنسواتهن البيضاء العريضة المنشأة .

تحرك الباص بحذر في شارع يافا الرحيب ، ثم انعطف الى بوليفار الملك جورج الخامس ، وتوقف على مقربة من فندق «بالانتين» .

بسرعة تسلق حاييم الى سقف الاتوبيس . وتكرر كل شيء ولكنه في الاتجاه العكسى : فك الجبال ، توزيع الامتعة ، صب الماء في الردياتير ، تكملة زيت المحرك ، تنظيف صالون العربة . . . بمجرد الانتهاء من تجهيز الاتوبيس لرحلة العودة ، ودون الارتياح ولو لدقيقة واحدة ، توجه حاييم لتنفيذ المهام المكلف بها ، وهي توصيل الرسائل والمستندات والطرود التى تسلمها فى تل ابيب . ولقد كان تحقيق هذه المهام بمثابة المورد الاساسى للرزق الذى يقاسمه فيه السائق الذى كان مسئولاً عن سلامة وصول الامانات لاصحابها ، امام زبائن «البريد المهرب» وسلطات الانتداب البريطانى ، والادارة الثلاثية التى تطارد القائمين بهذه العمليات غير المشروعة . ورغم ما يتهددهم من غرامات فادحة

وغيرها من المتاعب ، كان سائقو الاتوبيس المحتاجون لدخول اضافى ، والتجار الحريصون على سرعة توصيل الطرود بل والمبالغ النقدية الكبرى التى يتم احيانا ارسالها بنفقات تقل كثيرا عن الرسوم البريدية التى تدفع نظير توصيل الحوالات المالية ، كان السائقون والتجار قد برعوا فى خداع المفتشين وتجاهلوا مصالح الخزينة العامة على ما فى ذلك من اخطار جسيمة . وقد ازدهرت هنا عمليات «البريد المهرب» .

فى ذاك اليوم كان طريق حايميم يمر تقريبا عبر المدينة كلها . فالرسالة التى تسلمها مساء الامس فى حيفا كان ينبغى توصيلها الى فرع شركة «لندن اكسبوك» القائم فى شمال المدينة بالقرب من كتدرائية القديس جيورجى ، ورسالة اخرى ينبغى توصيلها الى مستشفى روتشيلد القديمة الواقعة فى الناحية المضادة من المدينة العتيقة . وفى مقابل سرعة توصيل هاتين الرسالتين وطرد مرسل الى ادارة «جمعية الشبان المسيحيين» \* كان اجر حايميم مضاعفا . هذا ما جاء على مظاريف الرسالتين والطرود وان كانت هناك ايضا اشارة الى وقت التوصيل المطلوب . اما بقية الرسائل فقد كان على اصحابها ان يأتوا بانفسهم لتسلمها فى فندق «الملك داوود» ، ولذا كان اجر التوصيل عاديا .

كان حايميم فى عجلة من أمره . وحرصا على الوقت الثمين فانه عقب توصيل الرسالة الاولى الى شركة «لندن اكسبوك» شق طريقه عبر الحى المسيحى ثم الحى الاسلامى ، برغم الضيق الذى كان يشعر به لمجرد تذكر مروره بهذه الاماكن من العاصمة الفلسطينية . فقد سار مرارا فى متاهة الشوارع الضيقة الملتوية التى تتشابه فيما بينها كالتوائم . وقد كان مرور احدى عربات الكارو كافيا لارغام من يسير فى مواجهتها على دخول بوابة اقرب بيت ريشما تمر العربىة . الارصفة المبلطة تتناثر عليها الاحجار المخلوغة واكوام القمامة . والرطوبة والروائح الكريهة تهب من تحت البوابات القاتمة المفضية الى افنية حافلة بشتى المهملات . والبيوت

\* جمعية امريكية .

واجباتها مشقة رثة ، واسقفها متداعية ، ونوافذها مغطاة بسواتر  
او الواح خشبية مسمرة حتى وكأنها بيوت مهجورة خاوية .  
كان حاييم كلما مر بحوارى وشوارع الحى يلاحظ دوما  
مظاهر جديدة غريبة لهذا الجانب من المدينة التى تعتبر مقدسة عند  
المسيحيين واليهود والمسلمين على حد سواء . لم يكن ازدحام  
«بيت المقدس» بكل هذا العدد من المعابد والاديرة والكنائس  
والمجامع والمساجد والهيكل يدل على التسامح الدينى المتبادل بين  
ذوى الديانات المختلفة الذين يعيشون فى المدينة العتيقة كما  
يعيشون فى المدينة الجديدة . كان حاييم ، على العكس ، يزداد  
اعتقادا بعد كل زيارة لعاصمة فلسطين بان الصراعات الدينية هى  
محور الحياة الروحية لاهالى البلاد .

وقد زار اكثر من مرة «حائط المبكى» الذى ظل على امتداد  
قرون عديدة ملتقى للمتدينين . وقد جرت العادة فى ايام الاعياد  
وما قبلها ان يتوافد المصلون من الرجال والنساء اللاتى يخصص  
لهن مكان مسور بجوار الحائط حتى «لا يعرضن الرجال  
للغواية . . .» . هنا يتجمهر رجال الدين اليهودى على اختلاف  
وظائفهم الكهنوتية . وفى اوج الصلاة قبل ان يصدح صوت  
«الزمارة» يقبلون جميعا ، بصدق او بادعاء الحماس الدينى ، على  
ضرب انفسهم لكلمات متواصلة وهم يبكون بحرقة .

كان الجزء السفلى من الحائط عند مستوى قامة الانسان مليئا  
بالثقوب والشقوق والفجوات التى يضع فيها المصلون رسائل  
الضراعة التى يؤمنون بان ملاك الرحمة سوف يهبط ليلا لينقلها الى  
الرب . . . ويظل المصلون يتلون الايات حتى تبح اصواتهم على امل  
ان تسمعهم السماء .

وبجوار حائط المبكى يقف طابور طويل من العميان والعجزة  
المتسولين الذين يمدون ايديهم وهم يستقبلون ويودعون المصلين  
بالرجاء :

- صدقة يا فاعلى الخير !

كلهم يثيرون الشفقة والاسى . لكن ما ان يحصل احدهم على

عملة ما حتى يشب آخرون بالعشرات ، لا ليتوسلوا بل ليطالبوا في الحاح ، ثم يمطرون فاعل الخير بالشتائم ويشيعونه باللعنات .  
وعند رؤيتهم يتذكر حايم ايامه الاولى في «بنى بيراك» وكيف كان نوتسى يوناس يقول له :

«لا تحسب يا حايم ان جمع الاموال لشراء السلاح سوف يكون عسيرا . . . يكفي ان يمد الرفاق من «الوكالة اليهودية» يدهم حتى يهرع اليهود من كل انحاء العالم للتبرع . . .»

قال حايم في سره : «فعلا ! الا توجد لدى اسر يهودية عديدة في الدياسبورا حصالات معدنية زرقاء يتوجب على كل افراد الاسرة ان يضعوا فيها تبرعاتهم . . . وبصفة دورية يأتى الى هذه الاسرة ممثلو «كيرين-كايميت» \* ليأخذوا «الحصالات» الممتلئة بالنقود ويعطوا بدلا منها حصالات جديدة مختومة ومغلقة باقفال . . . افلا يمكن تخصيص جزء ولو ضئيل من هذه التبرعات الطائلة لهؤلاء الناس الذين جردهم العوز واليأس من آدميتهم ؟ !»

وبالمناسبة ، فقد كان الصهاينة يهزون «الحصالات» الزرقاء المرسومة عليها النجمة السداسية لجمع التبرعات عند حائط المبكى ايضا . وكانوا عادة ما يفعلون ذلك وقت تأجير امكنة الصلاة التى تخصص للمؤمنين لمدة سنة . ويتم تأجير المكان عن طريق المزايدة بان يقف رئيس الهيكل وهو يدق بمطرقته الخشبية مرددا المبالغ التى يعرضها المصلون . ويصل اجر الامكنة الممتازة ارقاما عالية للغاية .

وكانت تنتشر هنا اساطير متناقضة حول حدوث معجزات منذ زمن طويل . وانتقلت من جيل الى جيل . ويذكر الكثيرون انه قد جرت مناقشات حادة حول هذه الاساطير بين المسيحيين والمسلمين ، وبين اليهود والمسيحيين وبين المسلمين واليهود . وفي تلك المرة اتيح لحايم ان يشهد جدلا حول صحة اسطورة شائعة في تلك المنطقة .

\* مؤسسة مالية لجمع التبرعات للصهاينة .



بالقرب من دير الراهبات اليونانيات كانت تقع ادارة شركة «جروساليم الكتريك آند بابليك سرفيس» ، حيث سلم حاييم رسالة من حيفا ، ثم كالعادة دخل الى مطعم متواضع يشتهر بارغفة الخبز الساخن الذى يخرج من الفرن امام اعين الرواد . وفي فناء هذا المبنى الرضيع ، الذى يلجأ اليه الغرباء ، يعج المكان تحت السقيفة بالمارة والضوضاء والحركة . ودائما ما يوجد باعة متجولون وفلاحون من القرى المجاورة وحرفيون ورهبان جوالون مطرودون من الكنيسة او فارون من الاديرة . وهنا بالذات استمع حاييم الى احد الرهبان الجوالين . وهو يروى لجمع من الحجاج كيف اصيب بالخزي ، على زمان خضوع فلسطين للامبراطورية العثمانية ، رجل تركى رفيع المقام لانه تشكك علنا في معجزات يسوع المسيح .

فلما علم بذلك بطريك القدس استشاط غضبا وبعث للتركي برسالة قال فيها ان ابن الرب يسوع المسيح لم يكن يأتى بالمعجزات فى الماضى فقط وهو يمشى بين الناس بلحمه ودمه ، لكنه لا يزال للآن يبهر العالم بمعجزاته . ولم يقنع هذا القول الوجيه التركى . عندئذ دعاه البطريرك ليؤدى صلاة العشاء فى الكنيسة حيث يوجد قبر المسيح حتى يتأكد بنفسه من القدرة الربانية ليسوع المسيح .

لبى التركى الدعوة . وصحبه البطريرك الى المعبد . وكان البطريرك يقيم الصلاة بخشوع بينما تربع التركى فى احد الاركان وجعل ينتظر مبتسما بمكر ما يؤكد صحة ادعاء البطريرك .

وفى وقت متأخر من الليل حدث انفجار مفاجئ ، ودوت قرقرة عنيفة واندلعت السنة لهب من تحت اللوح المرمرى الذى يغطى قبر المسيح .

سقط البطريرك والتركى والتصقا برأسيهما بالارض ، الاول فى خشوع واذعان ، والثانى فى فزع ورهبة . . . وفى الصباح رأى الاثنان ان اللوح المرمرى انشق نصفين . . .

ويختتم الراهب الجوال حكايته بزهو المنتصر :

- وفى نفس اليوم آمن الوجيه التركى بالقدرة الربانية

ليسوع المسيح فتبنى المسيحية وسار على طريق الرهبنة حتى مرتبة الاسقف !

وبعد بضع دقائق من سماع تلك الحكاية ، بينما هو يلتمهم ارغفة الخبز بنهم اتيح له ان يسمع كيف ينفى العرب هذه الاسطورة . فقد كان احد الشيوخ يروي ، وهو يغالب الضحك ، كيف المت بهذا الوجيه التركي مصيبة ، اذ ماتت اجمل زوجاته واحبهن اليه . ولما كان التركي صاحب نفوذ عظيم في القدس ، فقد اراد ان ينزع اللوح المرمرى من فوق قبر المسيح ليصنع منه تمثالا لزوجته المتوفية . فلما علم بذلك الرهبان اليونانيون سارعوا في الليل الى تحطيم اللوح المرمرى حتى لا ينتقل الى مقابر المسلمين . . . .

كان حاييم يصغى لهذه الاساطير بشغف . لكنه لا يؤمن بصدقها ولا بالمعجزات اساسا ، وان اعتقد انها مبنية على بعض الوقائع في التاريخ القديم لفلسطين وهذا الشعب المبتلى . اكل حاييم الخبز حتى الشبع وعندما تاهب للانصراف لفت انتباهه راهب طويل القامة احمر اللحية يتحدث الى صاحبه باللغة الروسية . وكان حاييم يتقن الروسية بما لا يقل عن اليديش وما يزيد بالتاكيد عن العبرية . فمنذ كانت بيساراييا جزءا من الامبراطورية الروسية ، وكان والده جنديا في الجيش القيصري ، وافراد الاسرة يتحدثون كثيرا باللغة الروسية .

تقدم حاييم من الراهب ، وتكلم معه بالروسية ، فعلم منه ان بالقدس عددا كبيرا من الرهبان الروس وان لهم ديرا وكنيسة شديدة الثراء تنعم لسنوات طويلة بهدايا ثمينة من روسيا . وعلاوة على ذلك فان لهم عدة دساكر تعتبر مثل الكنيسة من الاملاك الخاصة لروسيا . كان ذلك كله جديدا على حاييم ، وقد ود لو يطيل الحديث مع الراهب ، لولا ان الاخير كان يتعجل الانصراف . وفي لحظة الوداع دعاه الراهب لزيارته في الدير الروسى والسؤال هناك عنه باسم الآب فيكنتى اسماعيلسكى .

ارتعد حاييم لسماع هذا اللقب وتساءل :

- اتقول ان لقبك اسماعيلسكى ؟ الست بالمصادفة من مدينة اسماعيل ؟ اننى من مواليد بولجراد القريبة منها . . .  
قال الراهب بفرحة :  
- وانا من ماتروسكا التى لا تبعد عن بلدتك اكثر من خمسين فرسخا . . .  
- لقد زرت مرارا ماتروسكا . انها بالقرب تماما من مدينة اسماعيل .  
- وانا ايضا زرت بولجراد . - ابتسم الراهب . - ما دمنا ابناء مقاطعة واحدة ، فلا بد ياخى ان تزورنى فى الدير عند سنوح الفرصة . . . مرحبا بك فى ضيافتى !

١٦

صاح نوتسى وهو يغادر المائدة :  
- اسمع يا حاييم ! انتظر . الى اين تتعجل الذهاب ؟  
توقف حاييم ، وحياء . والى المائدة كانت تجلس زوجة نوتسى وحماته التى سمع حاييم صوتها الرفيع وهو عند باب السور . وكان من عادة آل يوناس ان يطيلوا جلساتهم المسائية لتناول العشاء تحت شجرة فى الفناء ، حيث مد نوتسى سلكا كهربائيا ينتهى بلعبة ضعيفة الضوء . ولهذا السبب كان حاييم واويا يضطران كثيرا الى البقاء على مضض فى حجرتهما الصغيرة الخائقة متخرجين من الخروج الى الهواء الطلق .  
اقتاد نوتسى حاييم الى ركن ما واخذ يربت على كتفه متسائلا :  
- اننا لا نراك ولا نسمعك ! اين اختفيت ؟ ماذا فعلت ؟  
عموما . . كيف حالك ؟  
اجاب حاييم غير مكترث :  
- انى اعمل . . . ما الذى يمكن ان يشغلنى غير العمل ؟  
علق نوتسى على ذلك بقوله وهو يشير الى ما يحمله حاييم :  
- واضح انك تعمل ولا تلهو . . . المشتروات تدل على انك وجدت عملا مجزيا .

- لا بأس .

وكان حايميم ، حقا ، قد حصل في هذا اليوم على اجر عال ساعده على شراء بعض احتياجات المولود المقبل : نصف دستة من اللفات وغطاء من قماش البيكة .

كذا ! عظيم . . . ليتنى انا ايضا ارحل الى مكان ما . . .  
فالحياة صارت مملة . . . لكن خشية البدء من جديد تجعلنى ارضى بالواقع .

كان نوتسى يتحایل . وقد تحاشت عيناه الداكنتان اللقاء المباشر مع نظرات حايميم الذى شعر بذلك وتوجس شرا ، فما كان له ان ينتظر خيرا من نوتسى يوناس .

ثم استطرد نوتسى :

- آه . . . نسيت اخبارك بان سلمونزون يستعد لترميم هذا البيت ! اظنك سمعت بذلك .

هز حايميم كتفيه قائلا :

- لا ابدا .

- كيف لا ؟ انهم على وشك احضار مواد البناء ، الا تعرف اين يزمعون تخزينها ؟ فى الجناح الذى تسكنه ! يالها من متاعب .  
وبالمناسبة شننا ام ايينا سوف يتحتم علينا نحن ايضا الانتقال . . .  
تصور ! من المرجح ان ننتقل الى تل ابيب . . . وهكذا فلتستعد انت واويّا ايضا . . .

قاطع حايميم :

- يا نوتسى ، فهمت . . . فهمت كل شىء . لا تقلق ! لن نتباطأ فى اخلاء المسكن . ابلغ بذلك ، اذا تفضلت ، الرفيق سيمون . فليست له هموم الا انا .

شعر نوتسى بخيبة الامل لان حايميم تلقى الخبر بهدوء وكان المسألة تتعلق بامر تافه . وكان اخلاء البيت مسألة ملحة حتى قبل ان يخبره بذلك نوتسى ، فقد كان حايميم لا يكف عن التفكير فى الانتقال الى بيت آخر بعد ان علم الجيران كلهم بان اويا ليست يهودية وبان الحاخامية تلح عليها فى دخول الديانة اليهودية بينما هى وزوجها الاشقر يرفضان ! . . . وكان ذلك كافيا لتهب مجموعة من

الصبيان والبنات الى انتهاز كل فرصة لمضايقة اويًا . فقد اخذوا يتعقبونها ، ويخرجون لها السننهم ، وينوحون في وجهها كالغربان ، ويتحرشون بها بالسباب والوعيد . كان على رأس هذه العصابة الصبى ذو الشعر الاسود الذى سبق ان تسبب في انتحار ابن موليا ، ومع ذلك فلا يزال هذا التلميذ المقبل للمدرسة الدينية - بحجة التعصب لدينه والمحافظة على وصايا الاسلاف - يتفنن في ابتكار الاساليب لا يذء اويًا .

في قيظ الظهيرة الذى لا يطاق حين كانت اويًا تسدل ستائر الشباك لترطيب جو الحجرة ثم تخلد الى الراحة ، كان الأولاد بزعامه هذا الصبى المصاب بالهوس الدينى يتسلقون سقف الكوخ فيجرون فوقه ويدقون الافزيز المعدنى بالهراوات ويرفعون احد اللواح ليقدفوا الى داخل الحجرة بالحجارة والزجاجات الفارغة التى ترتطم بالبلاط فتنفجر مدوية وتتطاير الشظايا فى كل الانحاء .

كانت اويًا عندئذ تظل تبكى مرتجفة من الفزع حتى يعود حاييم من عمله . لكنها لم تكن تحاول ان تقص عليه ما يحدث هنا فى غيبته . . . لا لانها لم تكن غير قادرة على ذلك وانما ، ببساطة ، لانها لم تكن تود ان تحزنه وان تعطيه فرصة اخرى ليفكر فى انها هى بالذات السبب فى كل ما يصيبهما من تعاسة ، مع ادراكها التام بانها صارت عبئا ثقيلا على حاييم .

الا ان حاييم كان يعرف بما يحدث فى غيبته دون ايضاح او شكوى من اويًا . اخبره الجيران بما يجرى لكنه لم يكن يجد من يستمع لشكواه .

وذات مرة ، بينما كانت اويًا راقدة بعد فترة الغداء ، تسلل الصبى الاسمر الى الكوخ على رأس عصابته وشدوا على الباب حبلا ثم صعدوا الى السقف ، ونزعوا قرميدا ثم القوا على سرير اويًا قطة ميتة . وفى تلك الاثناء اشعل الصبية بأمر من زعيمهم نارا بالقرب من نافذة الكوخ للايهام بحدوث حريق . وتدخل الجيران فاطفأوا النار ، وفكوا الحبل ، ودخلوا الى الحجرة فوجدوا اويًا غائبة عن الوعى وعلى الفور استدعوا عربة الاسعاف .

فى حالة يائسة ، جد حاييم فى البحث عن مسكن . وقد استأذن

من السائق أكثر من مرة ليقضى اليوم كله متنقلا من بيت الى بيت في شتى انحاء المدينة باحثا دون جدوى عن حجرة للايجار . وفي حالة العثور على حجرة خالية كان اصحابها يطالبون بدفع مقدم الايجار عن ثلاثة أشهر . وعندما كانوا يعرفون بان الاسرة تنتظر طفلا ، كانوا يطالبون بزيادة مقدم الايجار عن سنة كاملة .

جاء تحذير نوتسى بمثابة حافز جديد لحاييم . صحيح ان مواد البناء لم تأت بعد وربما لن تأتى ابدا . لكن آل يوناس كانوا يعتزمون الرحيل حقا . فقد نزعوا الستائر من النوافذ ، وباعت العجوز لجاراتها الخزانة والبوفيه القديمين .

في صباح السبت فجأة نزل على حاييم ضيفان شابان ، كانت معرفته بأحدهما ترجع الى أيام «الاكشارا» . ما كاد حاييم يفرح لهذه الزيارة حتى علم أنها لا ترجع الى الرغبة في رؤية زميل قديم بل ترجع الى نقل تعليمات مشددة من قائد الفوج السابق «يوسف ترومبلدور» الى حاييم وزوجته بالحضور الفوري الى الكيبوتس .

ما ان غادر عتبة البيت مبعوثا الكيبوتس حتى جاء الديان ذو لحية من الحاخامية وهو يرغى ويزبد كأنه في نوبة صرع ، مهددا حاييم ، وهو يطرق المائدة بعصا .

حدث ذلك كله في حضور أويا التي رأى حاييم وجهها الشاحب الممتقع وعينيها المفتوحتين عن آخرهما والطافحتين بالذعر .  
تضرع حاييم الى ديان الحاخامية :

- نسألك الرحمة بحق الرب . أمهلنا قليلا . فهى في الشهر الثامن من الحمل ! ما وجه العجلة . . . هل أنتم مجردون من الانسانية . . .

بصق العجوز باستياء وغادر الكوخ ساحبا الباب وراءه في عنف .

مهما حاول حاييم ان يظهر مرتاحا ، فقد غالبته الافكار المزعجة التي تفضى الى استنتاج وحيد : ان كل ما يعاينيه ليس مجرد أحداث مؤسفة تجرى عفوا . لا ! فالطرد من المسكن الحقيق ، والضغط من جانب الحاخامية والمطالبة الصارمة بوصوله هو وزوجته الى الكيبوتس . . . كل ذلك من تدبير نوتسى يوناس ومن يقفون

وراءه . وسرعان ما اقتنع تماما بصحة ذلك الاستنتاج . ففي صباح  
الاحد ذهب الى العمل كعادته . ولما كان يعرف عن السائق طبيته  
ورقته فقد افضى اليه بما يؤرقه . ولا غرابة في ان الانسان احوج  
الى ان يبث همومه الى احد حينما تمزقه الآلام . اصغى السائق  
وهو يطرق راسه في اسي ، ويتحاشى النظر الى حايم . وفي النهاية  
قال له :

- مفهوم كل شيء . انى افهم متاعبك واشفق عليك ، لكن ما  
الذى فى وسعى ان اساعدك به ؟ ماذا تستطيع ان افعل لك ! انا  
لست بانسان حر ويجب على ان انفذ الاوامر ومع اننى فى غاية  
الضيق اذ ازيد متاعبك ، لكننى مضطر . . . صدقنى . . . اننى  
مضطر للاستغناء عنك ولا تسألنى عن السبب . بودى ان اقوله  
لك ، لكننى لا استطيع . . . رأيت !! لا املك الا ان اقول لك :  
عليهم اللعنة اجمعين ! هل فهمتنى ؟ هكذا . . .

من جديد رجع حايم الى بيته عاطلا . وحين جاءه فى اليوم  
نفسه مندوبا الكيبوتس كان على استعداد للرحيل الى آخر العالم ،  
المهم الا يقابل نوتسى يوناس او الديان من الحاخامية او الولد  
المتعصب الشرير ، والا يسمع شيئا عن سيمون سلمونزون .

نقل حايم فولديتير وزوجته ، ليس الى المستوطنة التى يوجد  
بها فوج «يوسف ترومبيلدور» بل الى مستوطنة أخرى تقع على جبل  
تحيط به وديان صخرية . ذلك ان اولئك الذين اهتموا بتهجيرهما قد  
خافوا فى اللحظة الاخيرة ان يجد حايم من يتعاطف معه فى الفوج  
الذى كان عضوا فيه من قبل . . . وبالطبع فقد كان لهذا التغيير  
المفاجىء وقعه السىء على نفسية حايم ، لكنه توصل فى آخر الامر  
الى ان ذلك قد يكون أفضل .

وفى الكيبوتس منح الوافدان الجديان حجرة مشرقة ذات  
ارضية وسقف عاديين واثاث لا بأس به اطلاقا . كما تسلما  
المفروشات والمناشف بل والصابون . كل ذلك قد اثار الدهشة  
المبهجة لدى الاثنىين ، ولا سيما اويا ، التى اقلقها الرحيل المفاجىء

الذى لم تعرف اسبابه او آفاه . وارتاح حاييم لهذه الراحة السكنية رغم ما ساوره من تصورات عن المتاعب التى سيلاقيها هو واويسا خلال العمل بالكيوتس . ومع ذلك لم يكن يعتزم البقاء هنا طويلا ، ولذا راح يفكر فى نفسه : «فلنصبر بعض الوقت . . . ولننتظر ما تتكشف عنه الايام . . . فقد تهدأ الاحوال بعد فترة» .

وبالفعل كانت الاحوال هادئة فى الايام الاولى . لكنهما صارا منسيين ، فلا أحد يسألها عن شىء ، ولا يذكرهما أحد بشىء مجرد حديث قصير حول ضرورة تسجيل الزواج .

قال مدير الكيوتس (المستوطنة) :

- فلنقم لكما حفل عرس . وما المانع اذا اعتنقت زوجتك اليهودية . نحن بحاجة الى افراد !

قال حاييم فى حرج :

- لا داعى لاي عرس .

كانت اويا فى حالة ما قبل الولادة بالضبط ، ولذا رأى الجميع انه لا ضرورة الآن لازعاجها . لكن حاييم لاحظ ان اويا قلقة قلقا من نوع غريب ، وانها تلقى على حاييم ذاته نظرات قلقة تنم عن انتظار ما لا يسر وتخلو من الرقة والحنان المعتادين .

ما لبث حاييم ان عرف الحقيقة . كانت زوجة مدير الكيوتس ايجول مائير هى تسيليا ابنة الحاخام بن صهيون هاجرا المحببة . فذات مرة سارت تسيليا بجوار البيت الذى نزل به حاييم فولديتير ، فعرفتها اويا . ومن يومها انتابها القلق . الا ان تسيليا التى لم تقل لأحد عن سابق معرفتها بحاييم واويا ، سافرت لزيارة بعض الاقرباء . وكما أكد الجيران فقد كانت مثل هذه الزيارات غير نادرة ، فابنة الحاخام على ما يبدو لم تكن على علاقة طيبة بزوجها .

مع ذلك لم يتخلص حاييم من القلق . لدى ذهابه الى العمل كان دائما يقبل اويا بحنان ، ويمعن النظر الى عينيها الواسعتين الحزینتين ، ويبتسم على أمل ان يظفر منها ببسمة تجاوب . . . لكن بلا جدوى . كانت اويا تطأىء رأسها مخفية الدموع الوشيككة فتغطى وجنتيها بضميرتها الكثيفتين المنسدلتين على كتفيها . ما



كان احوجه لان يبقى في البيت ليهذا روع زوجته لكن الحياة في  
الكيبوتس لم تكن تسمح بالاستراحة .  
عندما توجه حايمم للعمل شيعه المدير ايجول مائير بقوله :  
- كل وافد على الكيبوتس يعمل في تخصصه : السائق يعمل  
على عربة ، والطبيب يعمل بالمستشفى ، والموسيقي يلتحق  
بالاوركسترا ، والبناء يشيد المباني . المستقبل عندنا رحيب !  
والمشروعات ضخمة . قد تقول لي انه توجد بطالة . نعم لدينا  
بطالة . ولكن ، ما العمل اذا كان احد الوافدين من صناعات الجسور ؟  
ليست لدينا اناهار وليس من المتوقع وجودها في المستقبل القريب .  
وان كنت اؤكد لك بانها سوف توجد في المستقبل المنظور ! وغير  
الانهار ايضا . . . اما الآن ، فلا مفر من تعلم مهن جديدة . العمل  
عندنا ينبوع السعادة . هذا ما يتوجب عليك ادراكه وتذكره دواما !  
فاذا كنت تريد ان تنعم بالسعادة عليك ان تشمر عن ساعديك عن  
آخريهما . . . ولتعلم ايضا يا فتى ، ان العمل هنا على الدوام في  
المقام الاول ، اما الأسرة والزوجة والاطفال وصحتهم وما الى ذلك  
فهو في المقام الثاني وليس الاول . . . ولنعتبر اننا وجدنا صيغة  
التفاهم المناسبة واننا متفقان تماما على مستوى عال . هل لديك  
اعتراض ما ؟

وشمر حايمم عن ساعديه . فقد الحق بعربة نقل كان يسافر  
بها الى المدينة لاحضار العلف بوصفه مندوب استلام وحمالا ومساعد  
سائق . وفي الايام النادرة التي لم تكن فيها سفريات كان يعمل في  
مستودع الاعلاف وفي الحظائر .  
كان ايجول مائير يذكر دائما :

- لا يعق لأحد كان ، ان يبقى في المزرعة بلا عمل . على  
الناس ان يكدحوا ، والدواب ان تنتج ، والمحركات ان تدور ، والضوء  
ان يشرق ، والماء ان ينسال ! الساعة هي الساعة لأنها تبين الوقت  
بدقة . ومزرعتنا قائمة لكي تعطى ما هو مطلوب منها ان تعطيه .  
لم تكن غريبة على حايمم قواعد الحياة في الكيبوتس كما في  
الثكنات العسكرية ، او اجواء التعصب القومي والديني السائدة .  
وقد كان يبدو لحايمم ان أعضاء المستوطنة الزراعية في معظمهم من

بسطاء الناس . فبعضهم قد جاء الى هنا ، كما جاء هو نفسه ، بحكم  
الاضطرار ، والآخرون ساقهم اعتقادهم الراسخ بأن انشاء وازدهار  
الكيبوتسات هو الطريق الوحيد السليم لجمع شمل ابناء الديانة  
الواحدة المتشتتين في انحاء العالم ، ولاقامة الدولة اليهودية . ولذا  
كانوا يؤكدون بحماسة ان المسألة الاساسية في الكيبوتس ليست  
المال ولا اللباس ولا الطعام بل العمل الذي تتجسد فيه كل سعادتهم  
والمساواة الحقبة بينهم ، والأخوة العظيمة . كانت الحياة في الكيبوتس  
تسير على النمط العسكري . الطعام من اناء واحد ، والزى موحد :  
حلة للعمل وأخرى للعيد ، والمساكن عامة ، والنقود لشراء الدخان  
او غيره من الاحتياجات البسيطة .

«اربايت ماخت جليكليخ !» \* - تذكر حايمم اللافتة المعلقة  
عند مدخل العنبر التي استقر به المتطوعون . ومن قبيل تداعى  
الأفكار تذكر اللافتة التي كانت معلقة على مدخل المعتقل النازي  
لليهود وعندئذ اصيب حايمم بغشيان : «اربايت ماخت قراى !» \*  
كان ايجول مائير يسافر مرة في الشهر الى تل ابيب حيث  
يشارك في اجتماعات وجلسات ما ، وما ان يعود الى الكيبوتس في  
وقت متأخر من الليل حتى يجمع الناس ويلقى عليهم خطابا .  
كانت مثل هذه الاجتماعات تعقد في الكيبوتس بصفة دورية  
ولم يكن يحق لأحد ان يتخلف عن حضورها . فلم يكن يستثنى من  
ذلك غير المشرف الاول على التدريب العسكري وبعض الاشخاص  
الذين ينتمون شكليا الى الكيبوتس ويحضرون بسياراتهم الخاصة  
او الرسمية مرة او مرتين في الشهر لممارسة العمل ساعات مقررة .  
وفي العادة كان هؤلاء يتبواون مراكز مرموقة في المدينة ، لكنهم في  
الكيبوتس يعملون على قدم المساواة مع الآخرين ، وبالطبع فقد كانوا  
يؤدون اعمالا أقل مشقة مما يؤديه الأعضاء المقيمون في الكيبوتس .  
وفي هذه المرة أيضا عقد ايجول مائير اجتماعا على أثر  
عودته من تل ابيب . جلس حايمم في الحجرة المكتومة التي تشع

• والعمل يجلب السعادة ا  
•• والعمل يجلب التحرر ا

بالكاد للعاملين في الكيبوتس . ولما كان الناس متعبين من عناء العمل طوال اليوم ، فقد غالب بعضهم النعاس وهم يسمعون للمرة المائة تعليمات المدير المملة . علاوة على ذلك فقد تفتق ذهن المدير عن اجراء مثل هذه «الاحاديث» حتى اثناء «التدريبات العسكرية» التي التحق بها حاييم فور وصوله الى الكيبوتس .  
كان ايجول مائير يهوى ترديد القول :

- كل عضو في الكيبوتس ، متطوع ، بغض النظر عن كونه رجلا او امرأة ، ملزم بأن يتقن تماما استخدام ما في حوزته من معدات ابتداء بالمحراث والجمل وانتهاء بالتراكتور او المدفع الرشاش . و فقط بمقدرتنا على استخدام ذلك كله نستطيع ان نظهر للعالم طبيعتنا ! . .

كان ايجول مائير يحرص في محادثته للناس على الظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور : يزر عينه اليسرى ، ويهز رأسه يمينا نحو كتفه ، ويلوى شفثيه المبللتين بابتسامة سخرية . ولم يكن ايجول مائير يطيق اعتراضات المرؤوسين ، او يشنى على من يبدي رأيه الخاص . ولطالما ردد عبارته المأثورة : «لا تعطونى نصائح ، من فضلكم ، فأنا نفسى اجيد الوقوع فى اخطاء» .

كان الجميع يعرف أن مدير الكيبوتس يبدي صرامة خاصة ازاء المهاجرين من آسيا وافريقيا . فهؤلاء الناس الذين قضوا العمر كله فى حياة بانسة لم يتقبلوا جديا قط لا بقلوبهم ولا بعقولهم مطالبة ايجول مائير بالتزام النظام والنظافة وفى كل الأمور . والآن أخذ ايجول مائير يوبخهم وهو يضيق عينه اليسرى وكأنه يقبض على البندقية ويصوبها نحو الهدف :

- نحن فى حاجة الى أفراد . هذا صحيح ! نحن فى حاجة الى ايد عاملة . لكن ، أفيدونى اذا تكرمتم ، ما الفائدة من كثرة عدد الأفراد فى الأسر المهاجرة من آسيا وافريقيا ؟ انهم يأكلون مثل فئران الحقول ، ويتوالدون مثل الصراصير . . . الأسرة الواحدة مكونة من عشرة اطفال ، أو اربعة عشر طفلا ! صغارهم اوباش ، وكبارهم جشعون ! لكن لا تقلقوا عليهم . . . فهم يحصلون على كل ما يحتاجونه بالصياح والصفاقة ، وما اكثر ما يشاغبون ويتشاجرون

بالمطاوى . . . اما البنات . . . فهن لا يكدن يبلغن الخامسة عشرة حتى يتزوجن وهن تاخذن الأمور بنفاد صبر ! فعندما يكون موسم العمل في ذروته تجدهن منتفخات البطون . . . متاهبات للولادة . . . وهكذا بلا نهاية ! ولكن العمل . . . وانى لاتساءل : من الذى يجب ان يعمل . . . هذا لا يعنيهن فى شىء . . . ولكنهن يخطئن كثيرا . . . . . ايجول مائير ليس بالرجل العاطفى . هذا اولاً ! وثانياً ايجول مائير لن يسير ابداً فى ركابهن . وثالثاً ، ماذا تحسبون ؟ ثالثاً اما ان يعملن على قدم المساواة مع الآخرين واما انهن لن يحصلن على الاكل .

وكان الاسيوى عزرا ، الذى زامل حاييم فولديتير فى انزال حمولات العلف من الشاحنة ، يتناول حصته من التوبيخات . فمهما حاول المحافظة على نظافة الحظيرة كان ايجول مائير يفلح دائماً فى تصيد هفوة ما لكى يوبخ عزرا بقسوة . وكان هذا الجبار الذى تبلغ قامته المترين يرتجف من الخوف ويلوذ بالصمت .

كان عزرا من مواليد اليمن ، وقد عمل هناك منذ صغره ، عند احد الأثرياء الانجليز فى دبغ الجلود وتحضير الأصباغ الكاوية . وبحكم اعتياده على مذلة العبودية ، كان يتقبل الاساءة والمهانة باذعان واستسلام كان ذلك من طبائع الأمور . ولم يحدث قط ان تصور لنفسه مصيراً آخر . هكذا عاش اجداده الأبعدون ، وعاش ابوه ، وقد كان من مشيئة الرب أن يعيش هو الآخر .

لكنه حدث فى احد الأيام أن أخذ المبشرون الصهاينة يدعون يهود بلاده باسم الله للعودة الى «ارض الاجداد» حيث يجدون الشهد جبالا ، والحليب أنهارا ، والمهلبية ضفافا . وقد تمتع الصهاينة بتأييد الحاخامات من رؤساء الطائفة ذوى النفوذ الواسع بين اليهود اليمنيين .

استجاب عزرا «لنداء الرب» فركع تحت أقدام سيده متوسلاً أن يسمح له بالرحيل الى «أرض الميعاد» .

رفض الانجليزى مجرد الاصغاء . وعندما نزع بعنف قدمه من يدى العبد الراكع تركت مقدمة الحذاء أثراً دامياً على جبين عزرا . مع أن عزرا هذا هو بالذات الذى أنقذ سيده منذ بضع سنوات من الموت

المحقق غرقا . لكن الانجليزى بعد اسبوع استدعى عزرا . لعل ضميره استيقظ ، ولعله لاحظ في سلوك العبد الذليل والخانع على الدوام امارات التمرد . المهم انه تركه يمضى لحال سبيله في امان بل اهداه ساعة جيب مستديرة . وقد اصبحت الساعة بالاضافة الى الجرح المندمل فوق حاجبه الايسر تذكرا انه الآن بالوطن البعيد . في فلسطين ارسل عزرا مباشرة الى الكمبيوتر وهو يعتقد تماما بانه سوف يجد هناك جنة الله في ارضه كما صورها المبشرون الصهاينة ولذلك فبمجرد وصوله الى الموقع راح يسأل افراد الكمبيوتر القدامى عن انهار اللبن التي تسرى بين الشطآن المهلبية .

وقد اتخذه افراد الكمبيوتر مادة للسخرية من سذاجة الأطفال التي تهيمن عليه . واذ شعر عزرا بالخديعة واليأس والمهانة الشديدة فقد اعتزل الناس وتوقع داخل ذاته . وفي ايام السبت والاعياد كان يلوذ بمكان هادى\* ، ويفتح العلبة التي يحفظ بداخلها الساعة ، ويستغرق في تأمل حركة عقرب الثوانى النطاط .

وبعد ان شاعت عنه هذه المسألة كان الساخرون لا يكفون عن سؤاله عن الوقت . وهنا يلتقط عزرا العلبة من جيبه بكل جدية وتأن ثم يفتحها ليخرج الساعة وبشغف يتأمل هو اولا حركة العقرب النطاط ثم يدير ميناء الساعة تجاه من يسأله . ويعود بتأن وعناية لوضع الساعة في العلبة . ولم يكن يخطر بباله ان السائلين يسخرون منه ، فقد كان يخيل اليه ان كل شخص يشعر بمتعة عظيمة حين يشهد من جديد هذه الماكينة الحادة الذكاء . كانت الساعة بالنسبة له بمثابة الفرحة الوحيدة والثروة الوحيدة .

في اليوم الاول لعمل حاييم فولديتير مع عزرا في الحظيرة مر عليهما ايجول مائير وبصحبته اريه خيرسون الذى يحظى بمكانة خاصة لدى المدير . كان اريه الربعة ، القصير القامة ، العريض المنكبين ، ذو الوجه الحليق الناعم كالبيضة ، والشعر الكثيف المدهون بالبرلياننتين ، يشغل من الناحية الرسمية منصب رئيس النادي ، اما في حقيقة الامر فهو المشرف الاول على التدريب العسكرى مع انه لا يمت للشئون العسكرى بأية صلة .

قبل وصول ايجول مائير وأريه خيرسون الى الحظيرة كان  
حاييم وعزرا قد قضيا بضع ساعات من العمل المتواصل في نقل  
العلف السيلوى بالمذراة من المخزن الى الحظيرة . ولما اضناهما  
العمل جلسا طلبا للراحة . لكأن المدير كان ينتظر هذه اللحظة ؛  
فقد ظهر عند العتبة ايجول مائير وأريه خيرسون . ضيق ايجول  
مائير عينه اليسرى وأمال رأسه الى كتفه صائحا :

- يا كسلان أنت وهو ! بمناسبة أى عيد ترتاحان . .

اندس فى الباب بجانبه وتفحص ما اذا كانت المعالف مليئة بالعلف  
أم لا . ولما كانت مكتظة عن آخرها فقد اطمأن مائير لكنه ما ان  
لمح على الارض بقايا التبن ، التى لم يتمكن الرجلان بعد من كنسها ،  
حتى صاح من جديد :

- ما هذا ؟ لماذا يتبعثر العلف على الأرض ؟ أتعرفون الثمن  
الذى ندفعه عن كل قشة تبن ؟ أتعرفون من أين نحصل على  
العلف ؟ !

وقف عزرا وهو يكاد يموت خوفا من المدير .

اما المشرف الاول على التدريب العسكرى أريه خيرسون فقد  
اقترب من حاييم وأخذ بطريقة تعليمية يدق بعصاه على ساقه  
السمينة الكثيفة الشعر البارزة من بنطلونه القصير وهو يقول  
بصوت اخن :

- هذا غير جائز ، يا فتى ! هذا السلوك لا يجوز هنا . .  
ابدا . . ابدا ! أنا لا أدري أين تعلمت ممارسة العمل من قبل ،  
لكننى أنبهك بكل جدية الى ضرورة التمسك هنا فى كل الأمور ،  
كبيرها وصغيرها ، بالدقة والجدية والاهتمام القلبي بكل ما يجرى  
فى الكيبوتس . . . وليكن فى علمك أنك ما لم تتحل بهذه الصفات ،  
فلا يمكن ان تأمل بأن تصبح متطوعا . وهذا شرف عظيم عندنا !  
انك لا تزال فى باكورة الشباب ! . .

بنبرة هادئة أجاب حاييم بأنه يعتبر نفسه متطوعا منذ أكثر  
من عام .

- بالنسبة لى هذا لا يقدم ولا يؤخر . . .  
وابتسم بسخرية . كان يشعر بالقرف من هذا الرجل المتائق

المتعجرف ذى الوجه المنعم والشعر المدهون بالبريليانتين والساقين السميتين . وقد كان اكثر ما يضايقه فيه غروره وتعاليه على امثال حايم وعزرا وكانهم اقرب الى الدواب منهم الى البشر .

اذ لاحظ اريه خيرسون سخريه حايم منه احمر وجهه غاضبا وقبضت يده على العصا بحركة تشنجية ترتجف ، وتذكر اريه انه سبق ان سمع شيئا ما عن هذا الوافد الجديد . . . لقد سمع قصة مثيرة عن زوجة حايم لكنه لم يستطع بل ولم يود تذكرها . ما له هو بهذا الفتى الذى حكمت عليه الاقدار بأن يتعامل مع روث البهائم . باى حق يجلس ويبتسم بينما الرؤساء يتحدثون معه ! وراى ان هذا الفتى الذى استطاع ان يخفى لفترة طويلة حقيقة اعتناق زوجته لديانة اخرى يستطيع بنفس القدر من النجاح اختلاق اية وقائع فى حياته . واذ اعتقد بأن رايه حقيقة لا تقبل الجدل عزم على توبيخ حايم . واذ تصور حايم الوضع المزرى الذى وضع نفسه فيه هذا المتأنق المتعجرف ، انفجر فى الضحك .

وصف اريه خيرسون حايم بالوقح والمدعى الكاذب . وما ان سمع ايجول مائير صياح مساعده حتى اعتقد بأن حايم لا بد قد اظهر شيئا من الاستهزاء بالمشرف الاول على التدريب العسكرى . وعلى ذلك فقد أخذ ايجول مائير بدوره يهاجم الفتى :

- لماذا تتناول ؟ نسيت أنك متطوع !؟ وأنت لست مجرد متطوع عادى ، بل تدرب فى فوج «يوسف ترومبلدور» الشهير ، وهو شرف لا يحظى به كل شخص . . . وتتصرف كصبي غر بدلا من اعطاء القدوة للآخرين . . . تهزأ برئيس النادى . لا سيما وهو ايضا المشرف الاول على التدريب العسكرى ! ما الذى جرى بينكما ؟ - لا شىء يستحق الذكر . كل ما هناك اننى قلت للرفيق خيرسون عن نفسى ما ذكرته أنت ولا أدري لماذا وصف سلوكى بالوقاحة والادعاء الكاذب . . .

نظر اريه خيرسون بارتباك الى المدير . وحاول المحافظة على هيئته بقوله :

- لم اكن اعرف عنه الا أنه ادعى ان زوجته يونانية يهودية . ولذلك فقد تصورت بالطبع . . .

ولكن المدير انصرف فلم يسمح له بالاستطراد .  
وهنا صاح حايم حتى يسمعه المدير .

- ايها الرفيق المدير مائير . التبن المبعثر الذي وبخت عليه  
عزرا ، انا الذي بعثته ولم اتمكن من جمعه قبل مجيئكم . ارجوكم  
المعذرة !

التفت ايجول مائير ، وكعادته ضيق عينه اليسرى وامال  
رأسه الى كتفه وهم بأن يقول شيئا ما ، لكنه هز يده بضجر ، ثم  
استدار بحدة وأسرع ليلحق بخيرسون .  
كان لهذا المشهد أعمق التأثير في نفس عزرا . ف لأول مرة يجد  
انسانا يدافع عنه .

يوما بعد يوم ازداد عزرا احتراما لحايم ، وثقة به ، وهو يرى  
ان ساكن الكيبوتس هذا والذي ادى «اكشارا» ما في الفوج الشهير  
يعمل على قدم المساواة معه هو «الفرنك» عزرا حتى يتصبب عرقا  
دون أن يخدش كرامته الانسانية ولو مرة واحدة بكلمة نابية . بل  
لقد حدث مرارا ان اخرج حايم أفراد الكيبوتس الذين يهزأون  
بعزرا وجعلهم يخجلون من أنفسهم ، كما كان يفرق الأولاد الذين  
يتخذون هذا العملاق الصامت الساذج الطيب مادة للهو الصبياني .

أكثر فأكثر أيقن عزرا أن حايم رغم كونه متطوعا بل وليس  
«بمتطوع عادى» ، كما قال المدير آنذاك ، فهو مثل عزرا يعتزل  
الناس . ولعل ذلك هو السبب في توثق اواصر الصداقة بينهما . على  
ان عزرا لم يقدر على التخلص من الخنوع الذليل والخجل والانطوائية ،  
وقد دأب أن يرد على دعوة حايم له بزيارته مساء في مسكنه  
بالوعد بأن يقوم بهذه الزيارة في فرصة أخرى . وذات مرة رأى  
حايم وزوجته أويًا فتصنع أنه لم يلحهما ، وحث خطاه ، وانعطف  
في اتجاه آخر . وحينما أسر اليه حايم بشعوره الذي تمتزج فيه  
الفرحة بالقلق لانتظاره مولودا ، أشرق وجه عزرا لأول مرة منذ  
تعارفهما ، ولاحت من بين الشفاه أسنانه البيضاء ، وارتسمت  
السعادة على محياه ، وكأنه هو ، عزرا ، الذي يوشك أن يصبح  
أبا .

واصيب عزرا بأسى بالغ حين علم بأن حايم ضمن وحدة



عسكرية يجب أن يسافر الى مكان ما لبضعة ايام . كان الاستعداد للمهمة يجرى من فترة طويلة لكنه ظل طي الكتمان . لم يتطرق الحديث الى ذلك الا يوم أن وصلت الى الكيبوتس ثلاث شاحنات محملة بالكامل بشيء ما وبأفراد من مزارع أخرى . وقد انضم كل هؤلاء الى الوحدة العسكرية للكيبوتس المحلي وانخرطوا تحت قيادة المشرف الاول على التدريب العسكري أريه خيرسون .

من الصباح الى المساء كان أعضاء الوحدة العسكرية ومن بينهم حايم يقومون بتحميل الشاحنات . كانت المحارث ومعدات البذار ، والمطبخ المتنقل وصناديق المؤن ، والخيام والمراتب ، وأدوات اللحام الكهربائي ، وأنايب الاوكسجين ، وبراميل الزيت والسولار ومياه الشرب ، كانت كل هذه الشحنات وما شابهها لا تسمح لحايم وغيره من المتطوعين الجدد بادراك الطابع الحقيقي للمهمة المقبلة .

في نهاية يوم العمل انصرف أفراد الوحدة العسكرية من أعضاء الكيبوتس الى بيوتهم وقد أضناهم التعب . وكان حايم يود لو يطلب اذنا بالبقاء في الكيبوتس بسبب سوء حالة زوجته ، لكنه عدل عن ذلك . اذ كان واثقا من أن أريه خيرسون ، بل وايجول مائير سوف يسيثان تفسير طلبه ويرفضان السماح له بالبقاء ، رغم أن أويًا كانت في حاجة الى وجوده بجوارها أكثر من أي وقت مضى .

وصل حايم الى مسكنه ، وما ان اغتسل وتناول طعام العشاء واراد الخروج مع اويًا للتنزه بعض الوقت الى جوار المنزل ، حتى وصل رسول يحمل امرا بارتداء الزي الرسمي الذي تسلمه اليوم في المخزن والتوجه فورا الى مكان التجمع على استعداد تام للرحيل . والى مخزن العلف الذي تجمع عنده متطوعو الوحدة العسكرية ، وصلت شاحنة ديزل ليتضح على الفور وجود مخزن اسلحة تحت هذا التل الهائل من العلف . وراح أعضاء الوحدة العسكرية يتسلمون بنادق جديدة ورشاشين خفيفين وصناديق ذخيرة وأدوات للحفر ومعدات عسكرية اخرى .

وهنا فقط ، ادرك حايم السر الذي كان يكمن وراء زيارات اريه خيرسون وايجول مائير الدائمة لمخزن العلف . . .

وفي حلقة الظلام انطلقت خمس شاحنات محملة بالكامل اضافة الى خمسين متطوعا يرأسهم اريه خيرسون تاركة اراضى الكمبيوتر. ولم يستطع حاييم تحديد اتجاه الحركة وماهية هذه الرحلة ، ولكنه كان يدرك ان كل ذلك لا علاقة له بمشروع تدريبي ، وليس صدفة على الاطلاق ان يكون محاطا بالسرية التامة .

وعند منتصف الليل تقريبا انعطفت الشاحنات الى طريق زراعي ، ثم سارت بدون طرق عبر اراض تلفها الظلمة ، راحت تبحث فيها عن موقع ما . وفي صمت تام كان البعض لم يعرف بعضا جلس المتطوعون يحتضن كل منهم بندقيته ، بينما الرشاشان في وضع استعداد . ذلك لان اريه خيرسون المشرف الاول على التدريب العسكري حظر عليهم جميعا الحديث ، وكذلك مبارحة الشاحنة اثناء توقفاتها القصيرة ، وعدم اشعال ثقاب وعدم التدخين باى حال من الاحوال . وهكذا كان الحال مثيرا للحذر والقلق كما هو قبيل المعركة .

واخيرا توقفت الشاحنات ، ليصدر المشرف الاول اوامره بتفريغ الشاحنات على الفور وحفر الخنادق في الاتجاهات التى اشار اليها ونصب الرشاشين على مرتفع .

وراح المتطوعون وهم يتصببون عرقا يعملون في عجلة شديدة كما لو ان احدا يلاحقهم ، الى ان فرغوا عند الفجر من حفر الخنادق . وشرعوا جميعا ، عدا اربع فتيات مشغولات باعداد الطعام ، يدقون في حمية اسياخ الحديد ويثبتون بها الاسلاك الشائكة . وفي منتصف القطاع عند التل الذى تمركز به طاقم الرشاش ، قامت مجموعة من المتطوعين بتركيب برج للمراقبة كان قد تم اعداده من قبل . وما ان انتصب البرج فى مكانه حتى اعتلاه مراقب يحمل منظارا مكبرا . وعند شروق الشمس كانت الاسلاك الشائكة تحيط بمساحة من الارض تبلغ بضع عشرات الدونمات من الجهة المجاورة للقرية العربية ، وشرعت شاحنتا الديزل تحرثان الارض بمحراثين ملحقين بهما .

وراح المشرف الاول يطوف بمجموعات المتطوعين ويحثهم قائلا :

- يجب ان يكون كل شيء على ما يرام ! يجب العمل باقصى جهد يا رفاق ! والا فسوف تفشل عملياتنا . . . ارجو ان تسرعوا في مد الاسلاك الشائكة ، فذلك اهم شيء !  
وتذكر حايميم ما ذكره سلمونزون اثناء تفريغ احدى السفن الاوسترالية التي كانت تحمل اسلحة ، ليلا :  
«يجب ان يكون كل شيء على ما يرام . ان هذه هي الوصية الاولى في عملنا . . . والا فلن نحقق ما نصبوا اليه . . .»  
ويتضح ان اريه خيرسون ايضا يعتبر «العمل على ما يرام» وصية اولى . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت ثمة «وصية اولى» اخرى لديه ، حيث كان يهوى في كل مناسبة الاشارة الى ان التخاذل والتساهل او الشفقة بالآخرين الذين يعرقلون تنفيذ امر القيادة ليست سوى مظهر من مظاهر الضعف . ولقد كان ذلك هو السبب ، على ما يبدو ، في ظهور لافتة «التساهل علامة الضعف !» على اعلى برج المراقبة .

كانت الشمس قد بزغت حين اعلن المتطوع الموجود على اعلى برج المراقبة عن تحرك جرارين في اتجاه القطاع . وهرول اريه خيرسون ليعتلى البرج تغمره سعادة جارفة .  
وعندما عبر الجراران حدود قطاع الارض المحددة بالاوئاد الصغيرة والتي يحتلها المتطوعون اصدر اريه خيرسون اوامره ليرفرف على البرج العلم الابيض ذو النجمة السداسية الزرقاء . وما ان شاهد المتطوعون هذه العلامة حتى ترك كل منهم عمله ليصطفوا جميعا صفا واحدا . واخرج احدهم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، من جيبه كتاب صلوات صغيرا وراح يتلو صلاة قصيرة ، صلاة تقديس الارض . وقام المتطوعون بعد ذلك وهم واقفون انتباه بترديد النشيد «اثيركفا» .

وانطلقت في نفس اللحظة تقريبا الشاحنتان في اتجاه العودة ، بينما قام عمال الجرارات بعد ان ثبتوا المحارث باستئناف حث الارض في همة ونشاط . وعاد المتطوعون يمارس كل منهم عمله في غبطة . وذكر احد المتطوعين والذي كان يعمل برفقة حايميم تراوده مشاعر الدهشة والسرور :

- هكذا تظهر مستوطناتنا الزراعية . يبدو اننا لا نستطيع اقامة دولتنا على نحو آخر . . .

ولم يرد عليه هاييم ؛ فقد تذكر الفلاحين الرومانيين البؤساء الذين انتزع منهم متطوعو فوج يوسف ترومبلدور مرتباتهم ولقمة عيشهم ؛ لكن ذلك ولحسن الحظ كان لبعض الوقت . بيد ان المتطوعين هنا في ارض الميعاد ، يفعلون نفس الشيء مع الفلاحين العرب لا لبعض الوقت ، بل الى الابد !

وقام المتطوعون بتناول طعام افطارهم بالتناوب حتى لا يتوقف العمل . ووصلت ثلاث شاحنات تحمل اسلاكاً شائكة تناولها المتطوعون ليحيطوا بها على عجل الاراضي التي احتلوها ، ورحلت الشاحنات من جديد .

وكان العمل في ذروته ، حين اعلن برج المراقبة عن ظهور مجموعة كبيرة من الفلاحين فيما وراء التل تحمل عصيا ومذار . . . وصدر الامر ليترك المتطوعون العمل فوراً ويتخذوا اماكنهم في الخنادق . كما توقفت الجرارات عن العمل ، الا انها استأنفت حث الارض تنفيذاً لامر صدر عن اريه خيرسون .

وعندما وصل الفلاحون الى مقربة من الاراضي المحاطة باسلاك شائكة اطلق المتطوعون النار دفعة واحدة في الهواء بناء على امر اريه خيرسون . واحكم هاييم قبضته على البندقية في تشنج وراح يطلب من الله ان يعود هؤلاء البؤساء الى قريتهم باسرع ما يمكن . فقد كان يرى ضمن هذا الحشد القادم شيوخاً ، بل ونسوة يحملن اطفالاً .

ونكص الفلاحون في خوف ، والقوا بعصيتهم ومذاريتهم ليهروا بعيداً الى ما وراء التل . وتنفس هاييم الصعداء ، الا انه شعر في ذات اللحظة بنفسه فاقد القوى تماماً ، وجلس على الارض والتي بنظرة ناحية التل وقرر فيما بين نفسه انه اذا ما ظهر من هناك اولئك الفلاحون البؤساء مرة اخرى فلن يطلق عليهم النار باي حال من الاحوال .

وذكر رفيق هاييم كما لو كان يبحث لنفسه عن ذريعة :  
- ان الامر ليس بيدنا . اننا هنا نطلق النار في الهواء ،

بينما في مكان آخر يطلقونها على مواطنينا . . . غير ان الدماء كان من الممكن ان تنسفك هنا لو واصل هؤلاء الفلاحون مسيرتهم نحونا ولم يخافوا . . . هذه سمات العصر . . . من يردى الاخر؟ وبوجه عام ليست هذه هي المرة الاولى ولن تكون ، للاسف ، الاخيرة . . .  
وحقا ، لم تكن هذه الارض ، اول قطعة يشتريها تروست «كيرين - هايسود» من كبار الملاك العرب . كانت اجيال الفلاحين تستأجر هذه الارض لقاء ايجارات موسمية . بيد ان مالك الارض لم يهتم بكون ان هؤلاء الناس لا يملكون مصدرا اخر للعيش سوى هذه الارض التابعة له . لقد كان في حاجة الى المال ، فباع الارض وليذهب الفلاحون الى حيثما تسوقهم اقدارهم .

وهذا ما حدث . فقد رحل كثير من الفلاحين بعد عدة ايام بعيدا عن تلك الاماكن التي استوطنوها سنين طويلة . واذ علم اريه خيرسون بذلك ، بعث مجموعة من المتطوعين الى القرية لنشر اشاعة فحواها ان الارض قد تم شراؤها من المالك بعلم الانجليز الذين يرغبون اليهود على بناء مستوطنة لهم فيها .

ولم يعر الفلاحون اى اهتمام لظهور المتطوعين الذين تظاهروا بزيارتهم للقرية بمحض الصدفة . وقد تجلى رد الفعل الوحيد لدى هؤلاء في اخفاء النسوة لوجوههن تحت الحجاب ، وسوق الماعز والخرفان الهزيلة الى الحظائر ، ليرحن يواصلن تصريف شئونهن عند الافران الواقعة بعيدا عن الاكواخ الحقيبة التي تشقت جدرانها وتداعت لدرجة بدت معها آيلة للسقوط . ولم يبق بالقرية اكثر من عشر عائلات رفضت مبارحتها .

وحاول المتطوعون تجاذب اطراف الحديث مع الرجال الذين تربعوا الى جوار اكواخهم . واستجاب الفلاحون عن طيب خاطر وراحوا يلغنون المالك الذى كان يقطع منهم بعد جمع المحصول اربعة مكيات بدلا من ثلاثة . . . اما الان فأخذ منهم الارض . . . فما العمل ، وما السبيل؟ الامر هين بالنسبة لذوى العائلات الصغيرة ، حيث كان سهلا عليهم الرحيل الى حيث تقودهم اقدامهم ، لكنه خلاف ذلك بالنسبة لذوى العائلات الكبيرة . بل هو اكثر سوءا للعائلات

التي بها المسنون غير القادرين صحيا على الرحيل بعيدا . . . فليس  
ثمة من ينتظرهم ، ما عدا المصائب . . .

وعرض المتطوعون على الفلاحين دخانا ، تناولوه في نشاط  
وراحوا يحشون به غلايينهم . وقام هؤلاء بدورهم بتقديم الارغفة  
الطازجة ولبن الماعز الى المتطوعين . بيد انهم لم يتفوهوا  
بجديد . . . فللمصيبة طعم واحد لا يتغير ، وقد الفوا ان يدوقوه  
كثيرا .

وبعد ان جاب رجال اريه خيرسون القرية المقفرة ، وتعادثوا  
بما فيه الكفاية مع الفلاحين دون ان يجدوا ثمة ما يدعو الى القلق  
عادوا الى مواقعهم .

واذ استمع المشرف الاول على التدريب العسكري اريه  
خيرسون الى اقوال العائدين ، قال بلهجة احتفالية :

- التساهل علامة الضعف ! ان ذلك يؤكد صحة مواقف  
رجالنا . . . وهنا تلعثم اريه خيرسون ، وتململ المتطوعون ، فقد  
تعالى صوت انفجار قوى غير بعيد عنهم ، تبعه بعد عدة ثوان  
انفجاران اخران .

اعلنت «حالة الطوارئ» في الاراضي المحيطة ؛ فلم تكن  
الانفجارات تنبئ بشئ طيب . وراحت الظلمة تسدل ستائرهما . وفي  
هذا الوقت لاحظوا من برج المراقبة شخصا يجوب الطريق وحيدا .  
وخرجت لاستقباله مجموعة مسلحة من المتطوعين عرفت فيه  
سائق احدى الشاحنات الثلاث التي كانت تنقل محطة الكهرباء  
المتنقلة والمحرك . لقد فجرت الشاحنات الثلاث بالالغام واطلق  
العرب النار عليها واحرقوها . ولم يدل السائق باية معلومات عن  
السائقين الاخرين .

وابتسم حاييم في سخريّة لاذعة ، حيث وردت الى خاطره  
عبارة «التساهل علامة الضعف !»

وكان على المتطوعين الانتظار حتى اليوم التالي ليعودوا ادراجهم  
الى الكيبوتس . ذلك لان استصلاح هذه المنطقة وتعميرها كان من  
مهام مجموعات اخرى .

وقضى المتطوعون تلك الليلة كما لو كانوا يقضونها في

معسكر محاصر ، فقد كانوا جميعا يترقبون هجوما جديدا . ولم  
ينمض لاربه خيرسون جفن طوال الليل ، فقد كان يرى في اى صوت  
او حفيف ان العرب يتسللون تحت كنف الليل . . . كما بدا الهدوء  
الرنان ، سكينه تنذر بالسوء .

## ١٧

وجد حايم عند عودته الى منزله اويا في حالة نفسية غاية في  
التوتر ، ادرك على التو سرها . . . فقد عادت تسيليا الى  
الكيوتس ، حيث ما كاد نظر اويا يقع عليها في المطعم حتى هرولت  
خارجة دون تناول الطعام عائدة ادراجها الى المنزل .

هذا علاوة على ان تسيليا نفسها حاولت جاهدة تحاشي مقابلة  
اويا وحايم ، ليس بالطبع لتخوفها من التعرض لاهانات من جانبيهما .  
كل ما في الامر ان قدوم هذه الاسرة الى الكيوتس اثار معاناتها  
الروحية التي كانت تتصور انها تخلصت منها الى الابد . فقد بعثت  
في الذاكرة ذلك اليوم الذي شهد اعدادها لاول مرة للموليمة ثم  
محاولاتها لتبدو على اكمل وجه ، دون ان تشك لحظة واحدة في ان  
خطبتها سوف تتم في هذا اليوم بالذات الى ذلك الشاب وان كان غير  
جميل الا انه ذكى ومرح وعلى العموم فهو على قدر من الوسامة .  
عادت مشاعرها تتأجج كما لو كان ذلك بالامس ، فراودها شعور  
الخبيل والاهانة الذي راودها انذاك هي الحسناء الثرية ابنة الحاخام  
التي رفضها المتطوع ذو الشعر الاحمر مفضلا عليها الكافرة والفقيرة  
التي لا حسب او نسب لها والتي لا اقارب لها ولا بيت ، ناهيك عن  
انها بكماء صماء .

وراحت تسيليا تراقب في حرص حايم واويا ، وتحاول الا  
تبدى اية بادرة توحى باهتمامها بهما ، بينما احاطها ابوها وزوجها  
علما بكل جوانب حياتهما . وتأكدت من انه رغمها عن كل المحن  
والمصائب التي صبها على راسيهما الحاخام ذو الطول والحول والذي  
تملكته مشاعر الانتقام ، فقد كانا يعيشان في سعادة مرجعها حب

كل منهما للاخر . اما هي . . . تلك التي لم يكن ينقصها شيء . . .  
اي شيء . . . فكانت تفتقر الى السعادة .

نعم ، لم يسفر زواجها عن سعادة . فلم يكن ايجول مايز  
يشبه تلك الصورة التي رسمها خيال تسيليا طوال سنوات عذريتها  
الطويلة ، لا من حيث المظهر او الذكاء او الطباع . وغدت هي  
صاحبة المزاج المتقلب ، الانانية الطباع التي تعودت ان تكون محط  
انظار الجميع ، مجرد خادمة لزوجها .

فقد كان ايجول احد اولئك الذين يعتقدون ان المرأة لم تخلق  
سوى من اجل ممارسة شؤون المنزل وتربية الاطفال والعناية  
بزوجها ، اما هو فكزوج ورب منزل ، مسؤول عن توفير كل ما  
يحتاجه منزله واسرته . ولذا فقد حظيت شؤون الكيبوتس بجعل  
اهتمامه ، واقتصر تعامله مع قرينته على تلك الفترة القصيرة التي  
كان يجلس معها فيها حول المائدة في صمت . اما في المساء وحيانا  
ليلا فقد كانا يتبادلان الشتائم التي كانت تنتهي غالبا بهروب  
تسيليا من الكيبوتس لتلجأ تارة الى ابيها الذي انتقل مع أسرته  
الى ناتانيا واخرى الى اقاربها في حيفا . فقد كانت تظن ان فترات  
الهجر هذه يمكن ان تعيد زوجها الى صوابه ، وان توقظ فيه مشاعر  
الغيرة والخوف من فقدانها . الا ان الامر كان على العكس من ذلك  
تماما . فقد كان ايجول يظل كما هو باردا لا يعيرها اهتماما ، ولا  
يجد جديد الا بواعث السخط على بعضهما البعض . ولوم الزوج  
للزوجة على هجرها للمنزل . لقد كان يصيح :

- لست ادري الى اين ترحلين . . . والى من ؟ والاهم من  
ذلك . . . لماذا ؟ ابحت عنها عند الاب ، فيقال انها عند الاقارب ،  
في مدينة اخرى . . . وهناك . . . يقولون انها رحلت «منذ لحظات»  
في طريقها الى ابيها ! اليس هناك ما افعله سوى ممارسة هذا البحث  
الاخرق . . . والناس ؟ اتظنينهم لا يرون ؟ ولكنك لا تعيرين ذلك  
اهتماما . . . بالطبع . . . يالك من زوجة !

واخيرا صعد هذا السخط وعدم الرضى المتبادل الذي تقاوم في  
خفية منذ فترة طويلة الى السطح كالدمل .  
وكان سكان الكيبوتس يستعدون لاحتفال عيد الحصاد ،



ويزينون غرفهم بالزهور والاغصان . وفي المطعم الذي اكتسى بالخضرة من الداخل ومن الخارج ، كانوا يقدمون الاطعمة المصنوعة من الحليب فقط . هذا وقد كان ذلك العيد في الكيبوتس مكرسا لحصاد القمح . وكان سكان الكيبوتس في ذلك اليوم ، طبقا للتقاليد السائدة ، يستطيعون زيارة ضريح داوود ، الذي كان يوما ميلاده ووفاته ، حسبما تقول الاساطير ، يوافقان يوم ذلك العيد . وكان تسجيل الراغبين في هذه الزيارة يتم عند مدخل المطعم الذي اكتسى بالزهور .

كانت الظلمة قد راحت تلف المكان حين صدحت الاغانى وبدا الناس يتراقصون بجوار المطعم حيث توافد الشباب تجتاحه مشاعر الرضى والراحة نتيجة لعدم وجود ايجول مائير وقرينته . فقد كان الجميع يدركون ان المدير عدو سافر لمثل هذه الامسيات المرحية ، اذ كان يعتقد انها تتناقض مع تعليمات التوراة والتلمود ، علاوة على ان هذا العيد حل في يوم سبت ، وفي هذا اليوم طبقا للتقاليد يحظر ارتياد دور السينما والمسارح واقامة الحفلات الراقصة . وكان هناك بعض من سكان الكيبوتس وخاصة الشباب منهم يتمسك بوجهات نظر عصرية ، لا يعير سخط مائير انتباها ، ويقيم الامسيات في مثل هذه الايام . كما ان الكيبوتس لم يكن يشهد اية احتفالات اخرى .

وحاول حاييم اقناع اويا بالذهاب لمشاهدة هذا الحفل ولو من بعيد ، الا انها رفضت رفضا باتا . ولم يغضب حاييم ، فقد كان يدرك سر عدم مبارحتها الغرفة وتطلعها من النافذة في خوف عند حلول الظلام . تعالت اغنية «شيبوليت باساديه» («السنبلة في الحقل») من ناحية المطعم ، ترددها اصوات اطفال الكيبوتس الرنانة . ثم راحت جوقة الصبية تغنى اغنية «الماساد» العسكرية المكرسة تكريما لابطال العصور القديمة . وحين تعالت اغنية «مائيم - مائيم» («الماء - الماء») التي كانت تحكى قصة الفرحة الهائلة التي عمت كادحي الارض الذين وجدوا الماء بعد موسم جفاف ، مر اريه خيرسون تجتاحه مشاعر القلق ، الى جوار نافذة مسكن حاييم واويا المفتوحة ، وحيثما كانا يقفان . كان يسير

بخطوات سريعة يقصد المطعم . وادرك حاييم ان المشرف الاول غير راض عن ترديد سكان الكيبوتس لاغنيات غير مناسبة من وجهة نظره . وحقا ، كان الامر كذلك ، فقد انقطعت الاغنية فجأة ، ليتعالى صوت المشرف الاول الجمهورى الاخن يردد تحت وقع الاوكرديون :

ال تيرا افدى ياكوف ! . . . \*

وحين سمع حاييم هذه الاغنية تذكر لاراديا ، اعضاء الحرس الحديدى الفاشى الرومانى الذين كانوا يرددون ليلا اغنية فلتستيقظ ايها الرومانى من سبات القرون ! . . . »

واجتاحت الذكريات حاييم حول بولجراد وابيه واخته واصدقائه الذين تركهم بعيدا عنه فى وطنه . ولم تجد هذه الافكار فى التخفيف عن روحه التى اثقلتها مشاعر القلق والهموم . واهم ما فى الامر انه لم يكن يرى ثمة مخرجا او املا فى مستقبل افضل ، فقد تكاثفت الغيوم ايذانا بالخطر .

هذا بينما كان منزل مدير الكيبوتس يشهد مشادة حامية كالعادة . فقد كانت تسيليا على ثقة من ان المتطوع ذا الشعر الاحمر وزوجته الحقيرة موجودان عند المطعم يستمعان الى الاغاني ، يمرحان ، بل وربما يمارسان الرقص مع الشباب هناك . وكانت تعلم جيد العلم ان ظهورها سوف يفسد عليهما بهجتتهما ، وهذا ما كانت تبتغيه . نعم ، فليريا مدى الاحترام الذى تناله لدى سكان الكيبوتس ، ومدى اعجاب الرجال بها ، ومدى جمالها وحسن ملبسها . لقد كانت تدرك انها ما ان تظهر فى المطعم حتى يغرقها الحاضرون بنظراتهم النهمة . . .

فلير الآخرون ، على اقل تقدير ، مدى سعادتها ورضاها ، ما دامت هى لا تشعر بذلك . فلير المتطوع ذو الشعر الاحمر ذلك . ولتراوده مشاعر الحسد . . . ولم تكن ، بطبيعة الحال ، قادرة حتى على التلميح لزوجها بذلك . فقد كانت تسيليا تصاب بحرقة بالغة حين تراودها فكرة امكانية ان يعرف ايجول كيف تجاهلها فى

\* تشجع يا ياكوف ! (حرفيا : لا تخف احدا ، يا عبدى يا ياكوف !)

حينه حاييم فولديتير ، ذلك المتطوع الهزيل . فلم يكن زوجها بالطبع ، ليهدر هذه الفرصة لاهانتها والتنديد بها . وكانت تسيليا تتخيله جيدا حين يعلو صوته الاخن مرددا : «ليس كل ما يبرق ذهباً» ، ويغمز بعينه اليسرى في دهاء . فقد كان يهوى تكرار هذه الجملة تلميحا الى «هيئتها الجذابة الخادعة التي تخفى طباعها السخيفة والمشاكسة» .

واذ كان ايجول مائير يلوم على هذا النحو زوجته ، فقد كان يقصد عقوقها وعدم احترامها لزوجها ، وحبها المتناهي للملذات وتكاسلها واخيرا تدينها غير الكافي : فلم تكن تهوى اتباع كافة تعليمات التلمود .

وفي ذلك المساء ، ما كاد ايجول يخطو عتبة المسكن حتى راحت تسيليا تستعطفه ، ثم تطلب في الحاح ان يرافقها لحضور حفل سكان الكيبوتس . بيد انه لم يستجب على الاطلاق ، واذا فقد السيطرة على نفسه صاح يقول :

- اننى فى هذه المسألة على حق ، مهما كان الامر . اننى اولا ، يهودى متدين وصيهونى حقيقى ، ثم فيما بعد زوج بل ورجل . . . واذا ما قلت «لا» فانها سوف تظل «لا» مهما كان سخطك .

هذا بينما اخذت اصوات المرح التي كانت تتعالى من عند المطعم تخفت بشكل واضح ، مما جعل تسيليا تدرك ان الجمع بدأ ينفض . واجتاحها مشاعر الغضب الجياشة ، مما دفعها لان تلقى على المائدة بطبق لم تفرغ من غسيله بعد ومنشفة مطبخ ، وتخلع المريلة وتندفع فى حسم الى الباب وهى تصفف شعرها ، وتقول فى غضب :

- فلتذهب الى الشيطان ! يمكنك ان تلزم مكانك هنا وتؤدى التعليمات الدينية ، اما انا فذاهبة الى هناك ، مهما كان الامر !  
- بل اننى لن اسمح بان تجدف ابنة الحاخام وزوجة مدير الكيبوتس على الله سوية مع «الفرنكيين» وامثالهم ! عار عليك ! انت مجنونة ؟

وبهذه الكلمات لحق بتسيليا عند الباب وجذبها من يدها في  
عنف ، مما جعلها من فرط المفاجأة ، تتعثر وتسقط على  
الارض . . .

وتدفقت الافكار والمشاعر تثير في نفسها اضطرابا بالغا ،  
متمثلة في غضب مرير وحقد بلا حول على زوجها ، واسى وحزن  
لفقدانها فرصة تكدير حياة الزوجين المحبين البغيضين ، واخيرا  
الاحساس بانه بينما تعاني من الالهانة والاذلال ، يرفل حايم واويا  
في النعيم . وراحت تبكي في مرارة وهي تنوح وتنشج .

وحاول ايجول تهدئة تسيليا ومساعدتها على النهوض ، الا  
انها دفعته بعيدا لتواصل البكاء . وفي نهاية الامر سمحت له بانهاضها  
واجلاسها على الفراش . هدا روع تسيليا واستند رأسها الى كتف  
زوجها وهمست فيما بين تنهداتها على نحو مشير للشفقة :

- لماذا . . . لماذا نعيش على هذا النحو يا ايجول ؟ لماذا ؟  
انظر كيف يعيش الآخرون ، وينعمون بالحياة . . . اما  
نحن . . .

ولم يشر ايجول ، كعادته ، الى صفات زوجته التي يرى انها  
سبب كل هذه الخلافات العائلية ، خوفاً من تجدد دموعها .  
فاحتضنها وراح يمسح على رأسها وكتفها في رقة ، قائلا :

- هذه هي الحقيقة يا تسيليا ! فليهدأ روعك ، وسوف  
يكون كل شيء على ما يرام . . . وليساعدنا الله !

ولما كان ايجول انسانا شحيح الحنان والكلمة الرقيقة ،  
وغارقا في العمل على الدوام ، فقد تصورت تسيليا هذه الرقة  
انتصارا باهرا لكليهما . وامسكت بيديها الدافئتين رأس ايجول  
واقتربت بوجهها الذي بللته الدموع الى وجهه ، وركزت عليه  
عينيها اللتين كانتا تعبران عن الفرحة والحنان . وهمست اليه وهي  
ما تزال تنهد بصعوبة :

- ايجول . . . يا حبيبي ! اننى اعدك ، ولتعدنى بدورك ،  
بالانتخاض مستقبلا . قبلنى يا ايجول . . .

- حسنا . . . حسنا يا تسيليا ! اننى اعدك . . . هدنى  
من روعك . . . - واذعن ايجول لرغبتها وقبلها كما يقبلون الطفل

الذى لا يبكى من الالم بقدر بكائه من الخوف بعد السقوط - اتودين  
ان اقبلك مرة اخرى ؟

ولم يكن هناك ما يراود ذهن ايجول سوى الرغبة في تهدئة  
زوجته . فقد كان يشك في قرارة نفسه في مدى صحة اقتراجه من  
زوجته عشية يوم السبت ، مهما اصابتها من هستيرية . الا ان  
تسيليا لم تكن متدينة لدرجة كبيرة ، بل وكانت قد نسيت في تلك  
اللحظات ان يوم السبت قد حل ولم تعد تذكر تعليمات التلمود  
فيما يخص مبادئ السلوك .

- مرة اخرى يا ايجول . . . مرة اخرى . . .

هذا ما همست به تسيليا وهي تحتضن زوجها وتقبله ،

واستطردت تقول :

- هكذا ! . . . والان فلتقبلنى ! هيا !

وشرع ايجول في التخلص في حرص من احضان زوجته .

- تسيليا ! كيف يمكن ذلك ؟ هل نسيت ان يوم السبت

قد حل ؟ اتركينى . . .

وشعرت تسيليا بهذا التحذير كما لو ان سوطا قد نزل بها .

- لا ! كفى ! لن اتركك ! . . .

- انه تجديف على الله ! افيقنى يا تسيليا ! هل

تسمعيننى ؟ اتركينى ! اننى مؤمن قبل كل شىء ، اما . . .

ولم يستطع ايجول تكلمة حديثه ، فقد فقدت تسيليا السيطرة

على نفسها ، وتعلقت برقبته ، لينوء هو تحت ثقل جسدها المدملج

وينقلب على ظهره . وراحت تسيليا تصيح وهي تسد فم زوجها

بيديها :

- اسكت يا معذبنى ! اسكت يا صاحب السبت اللعين . . .

اسكت !

ولم يكن ايجول ذو القوام القصير يتميز بقوة جسدية كبيرة ،

فقد كان يشعر كثيرا بالضعف وبتزايد خفقان قلبه ، الا انه لم يكن

يعير ذلك اهتماما . وشعر بضيق تنفس فراح يجاهد في محاولة

للتخلص من قبضات تسيليا وقد اجتاحتها مشاعر الخوف والتشنج .

- لا . . . يا معذبنى ! لن اتركك . . .

وحين شعرت تسيليا في النهاية بان ايجول كف عن المقاومة ،  
نظرت الى وجهه الذي كسته الزرقية ، ونكصت خائفة الى الوراء ،  
بعيدا عن جسد ايجول مائير الذي فارقتة الحياة وهي تصيح :  
- ايجول ! ماذا بك ؟ هيه . . . ايجول ؟

اندفعت تهرول لتنبى\* الناس بالمصيبة وهي مذهولة بما جرى .  
وما ان تخطت عتبة الباب حتى واجهتها سماء صافية تزينها النجوم ،  
وهدهوء وقفر تام . ولم يكن ثمة ضوء ينبعث من النوافذ . واندفعت  
تجرى في اتجاه ثم في اتجاه اخر ، وتوقفت في نهاية الامر . فقد اوحى  
اليها عقلها الانتظار حتى الصباح وعدم ايقاظ الناس ليلا .  
وما ان اعلن الصباح عن نفسه حتى اندفعت تسيليا حافية ،  
نصف عارية الى الشارع تصيح وهي تدق نافذة مسكن اريه  
خيرسون :

- اسرعوا ! انه يرقد كما لو كان غير حي ! اننى لا  
ادرك . . . العون !

وحين توافد سكان الكيبوتس الى منزل المدير ، شاهدوه  
متمددا على الفراش المتجدد ويدها مفرودتان ، ورأسه يتدلى عند  
طرف الوسادة ، وقد ازرق وجهه ، بينما كانت عيناه تنظران الى  
اسفل عند اقدام الحشد . وراحت تسيليا تقول وهي تتردد بين  
سكان الكيبوتس المتجمعين :

- فلتقولوا لى ايها الناس ؟ هل ما يزال حيا ؟  
والتزم سكان الكيبوتس الصمت . كما لم ينبس اريه  
خيرسون ببنت شفة . ونظرت تسيليا الى اريه خيرسون تخاطبه  
في توسل :

- هيه يا رفيق اريه ، لماذا تلتزم الصمت ؟ ! قل لى  
اخيرا ! هل ما يزال حيا ؟  
واغرورقت عينا المشرف الاول بالدموع ، وقال فى ارتباك :  
- حتى الآن . . . لا .

تسلم اريه خيرسون المشرف الاول على التدريب العسكرى  
مقاليد سلطة ادارة الكيبوتس موقتا . وقد اعلن عن ذلك ، حين

جمع سكان الكيبوتس ليعلن لهم ان «خالد الذكر ايجول بن ليفى مائير توفى فجأة نتيجة لسكتة قلبية اصابته وهو في عنفوان شبابه وارج موهبته الفائقة في مجال الادارة» .

وتوافد لحضور مراسم الدفن كبار القوم بمن فيهم بن صهيون هاجرا حمو المرحوم . وكأحسن مؤد للصلاة قام بنفسه بصلاة الرحمة عند القبر الحديث ذى الطين الاصفر وفي هذه الاثناء استطاع ان يندف دمة بمهارة في اوج اداء الصلاة .

ووقفت الارملة الحزينة ترتدى ملابس الحداد ، يغطي وجهها شال من الدنتلا . وبدت تسيليا وقد حطمتها الكارثة لدرجة لم يجرؤ معها احد على ان يسألها لليوم الثالث عن ظروف رحيل ايجول مائير الفجائي .

وراحت والدة ايجول التي وصلت تندب وهى تمزق شعر رأسها وتنوح :

- ان ابني لم يشك ابدا من قلبه . من اين له هذا المرض ؟ من اين ؟ اننى كنت دائما اخاف من ان يصاب ، لا قدر الله ، بنزلة برد ، لكن بسكتة قلبية ؟ هذا ما لا استطيع ادراك كنهه باى حال من الاحوال ، وما من احد يستطيع ان يشرح لى ذلك !

ولم يكن ثمة من لا يدرك فى نواحيها العنيد اللوم المرير الموجه الى زوجة المرحوم . ربما يكون الحاخام بن صهيون هاجرا قد ادرك ذلك اكثر من تسيليا نفسها . وراح يقول مقلدا نبرة ام المرحوم :

- نعم ، انه لم يشك ابدا من قلبه . انه لم يكن يشكو لانه كرس نفسه وجل حياته بتفان لقضيتنا العامة . . . انكم تعلمون كيف كان يعمل كثيرا ، كيف كان يعانى كل كبيرة وصغيرة فى الكيبوتس ، كيف كان يثور عند وقوع اية هفوة . انكم تعلمون حجم الانجازات الضخمة التى حققها الكيبوتس تحت اشرافه ! ان قلب ابنك الفياض يعيش وسوف يعيش فيما حققه من انجازات !  
وصدق اريه خيرسون على ذلك قائلا :  
- فلتصدقونى . . . انه يعيش ايضا فى قلوبنا .

ومنذ لحظة وفاة المدير لم يستطع اريه نسيان مبلغ الاثنى عشر الف جنيه استرليني الذى منحه الحاخام لايجول مائير «الخالد الذكر» يوم زواجه من تسيليا ، والذى ظل كما هو لم يمس . واستطرد يقول :

- لقد كان يعنى بحياة كل منا ، يمنحه جزءا من قلبه . . . ياله من شخصية ! لقد كان يردد دائما انه قبل كل شىء يهودى مؤمن وصهيونى حقيقى . فهل من الممكن نسيان مثل هذا الشخص ؟ وراحت تسيليا ، وهى تغطى وجهها بالشال ، تصغى فى تمنع لما يقوله ابوها والمشرف الاول على التدريب العسكرى . واثناء بكائها اخذت تذكر نظرات اريه خيرسون النهمة التى كثيرا ما ضبطتها متركرة على جسدها ، ليتوقف قلبها عن الخفقان فى غبطة . وبعد انتهاء مراسم دفن المدير الراحل شرع اريه خيرسون فى تنظيم المينين \* . وفى همة ونشاط راح يصدر تعليماته الى جميع رجال الكيبوتس للتجمع فى غرفة الصلاة لاداء الصلاة حسبما تقضى التعاليم الدينية ، بينما يرمى الى تسيليا من آن لآخر بنظراته الحزينة .

ولم يستطع حايم المشاركة فى الصلاة ، حيث شعرت اويا بوعكة صحية شديدة .

وقالت الممرضة بنبرات يكسوها الخوف :

- من المحتمل ان يكون ذلك بداية المخاض . ولست ادري ما يجب عمله فى مثل هذه الاحوال . . . ومن الواجب نقلها الى المستشفى .

وهرولت الممرضة الى اريه خيرسون ، الوحيد الذى يملك حق التصريح باستخدام السيارة . بيد انه كان من المحظور دخول النسوة الى الغرفة التى يمارس فيها الرجال الطقوس الدينية . ولزمت الممرضة مكانها الى جوار باب الغرفة على امل ان يخرج احد

\* مينين تعنى حرفيا العدد الشرعى ، وهى عبارة عن طقوس تجرى فى منزل الراحل ويشارك فيها ما لا يقل عن عشرة رجال بلغوا الثالثة عشرة من العمر .



لتطلب منه استدعاء المشرف الاول . الا انه لم يخرج احد ، ولم يلتفت اليها اى من الحاضرين وهى تدق باب الغرفة فى وجل .  
وعادت ادراجها لتبلغ حاييم وهى تبكى :

- ما يزال المشرف الاول يؤدى المينين . فما العمل ؟  
وهول حاييم بنفسه الى غرفة الصلاة بالكيبوتس ، الا انه اتضح له ان اريه خيرسون يؤدى الصلاة فى منزل المرحوم . ولم يجرؤ على الذهاب الى هناك ، حيث توجد تسيليا وابوها الحاخام بن صهيون هاجرا . واضطر الى ان يقصد حظيرة خيول الكيبوتس ، الا ان الحارس لم يستطع ان يصرف له حصانا دون اذن من المدير قائلا :

- تلك امور مثبتة عند المدير السابق . الا ان هذا المشرف العسكرى ليس افضل حالا . انه يحبنا نحن «الفرنكيين» ايضا لدرجة انه لن تكون مصيبة كبرى اذا ما رحل هو الاخر الى الجنة . . . .  
بيد انه ما دام حيا فاننا غير راغب فى اثاره خلافات معه . . . .  
فليصدر اذنا ، ولاصرف لك ان شئت كل خيول الكيبوتس . . . .  
وجرى حاييم دون ان يستمع الى بقية حديث الحارس . . . .  
ووقع نظر عزرا الذى فرغ من ورديته فى حظيرة الابقار ، على حاييم وهو يجرى ، فراح يناديه دون ان يجد صدى لذلك . وهنا ادرك عزرا ان ثمة شيئا غير طبيعى قد حدث ، وانطلق فى اثره . وتجاسر هذه المرة على ان يعرج الى المنزل ، حيث ادرك الامر ، وقرر حمل اويبا الى الطريق حيث يمكن نقلها الى المستشفى فى سيارة عابرة .  
كانت اويبا تن من الالم تكسو وجهها امارات تعكس معاناتها .  
واخذها عزرا بلا تردد بعناية مدثرا اياها بالملاءة التى كانت ترقد عليها . وراح يخطو الى الطريق فى خفة كما لو كان يحمل طفلا ، بينما حاييم والمرضة يلاحقانه بالكاد .

كان عزرا يعرف اقصر الطرق ، مما جعلهم يصلون الى الطريق فى اقل وقت ممكن . وراحوا جميعا ينتظرون . الا انه لم تكن هناك سيارات ، بينما راح المساء يخيم ، لتبدو اولى النجوم . واخيرا تراءت لهم اشعة مصابيح سيارة قادمة عن بعد .  
كانت تلك شاحنة عسكرية يقودها انجليزى لم يدرك على

التو ماذا يطلبون منه . وما ان ادرك الامر حتى فرقع باصابعه على نحو يعنى مطالبته بالاجر .

وفي ارتباك راح كل منهم ينظر للاخر ، حيث لا احد يملك قرشا واحدا . واذ لاحظ السائق حالتهم هذه تمتم بكلمات غير مفهومة واغلق باب الكابينة في عنف معتزما الرحيل . بيد ان عزرا قفز الى سلم الشاحنة ومد يده الى داخلها تحمل ساعته المستديرة الكبيرة .

. . . . وبعد ساعة وصلت اويًا الى اول مستشفى ، حيث وضعت في مساء اليوم التالي صبيا بعد آلام عصبية .

ومنذ تلك اللحظة كانت بداية الايام السعيدة التي شهدتها حاييم فولديتير . فقد توارت الامة واحزانه التي كان يظن استحالة نسيانها طيلة عمره ، ليشعر بنفسه كما لو كان قد ولد من جديد . وقرر حاييم تسمية ابنه عزرا تكريما وعرفانا بجميل صديقه ، واعلنه بذلك في لهجة احتفالية قائلا :

- سوف يكون لدينا اثنان عزرا : احدهما كبير اسمر ، والاخر صغير اشقر ! . . .

ومن فرط المفاجأة والسعادة زر عزرا عينيه وتحركت شفثاه الغليظتان لتتمتم بالصلوات .

بيد ان اويًا كانت اسعد الجميع . فقد اكد الاطباء لها ان الصبي سوف يستطيع الكلام ، ولم يذكروا لها شيئا عن تخوفاتهم فيما يخص صحته ، فلم تكن هذه الولادة العسرة لتمر دون ان تترك اثرا .

وكان حاييم يزور زوجته مساء كل يوم . وقد تكرم اريه خيرسون بالسماح له بالتغيب ، بل واصدر اوامره بصرف بعض المال تعويضا له عن نفقات السفر يوميا .

وبعد بضعة ايام تحسنت صحة اويًا لدرجة انها خرجت لاستقبال زوجها في فناء المستشفى مما اضفى عليه قدرا كبيرا من السعادة . كانت عيناها تبرقان فرحا حين ذكرت له ان ابنتها سوف يكون قادرا على الحديث مثل كل الناس ، ومثل حاييم . كانت تومى براسها تجاه نوافذ المستشفى كما لو كانت تحاول

اقتناعه بان هذا هو ما ذكره لها الاطباء ، الناس الطيبون ، الذين يعيشون في ذلك المبنى الكبير العامر بالضوء . وعندما انصرفت اويًا بعد ان ودعت زوجها ، قامت امرأة ترتدى رداء ابيض بمناداته ، طالبة منه الحضور الى مكتب الطبيب .

واستقبله طبيب متقدم في السن ذو لحية مدببة تبدو على وجهه امارات النعمة ، وطلب اليه في تأدب ، الجلوس . وراح الطبيب يسأله عن اصله وعن محل عمله ووظيفته ، ثم اشار تلميحا ، الى ان المستشفى الذى نزلت به زوجته ليس مجانيا . وقال وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه :

- اننا لا نستقبل حوامل في الحالات المماثلة ، بيد انك حسن الحظ . لقد جنث بزوجتك على متن سيارة عسكرية انجليزية ، في الوقت الذى كان يقوم فيه بالمناوبة لاول مرة طبيب مهاجر ، ليس لديه خبرة ولا يعرف القواعد المعمول بها . ولذا فقد قرر انه ما دامت السيارة انجليزية علاوة على انها عسكرية ، فان من الواجب عليه استقبال زوجتك . . . . والآن هل ادركتم كيف حدث ذلك ؟ - وابتسم الطبيب من جديد وواصل حديثه :

- الا اننى اعتقد ان زميلى لن يدفع تكاليف الولادة من ماله الخاص نظير خطأ ارتكبه عن غير قصد . واننى آمل ان يسدد الكمبيوتر القيمة المطلوبة . . . اليس ذلك صحيحا ؟ وهذا ما ارجو ان تبلغوه لمديركم . . . .

وهنا دس الطبيب بورقة ما في يد حايم بلا اكرات ، واستطرد يقول :

- لكن الامر ليس بطبيعة الحال ، في موضوع دفع النفقات ، فذلك سوف يتم تسديده حسبما اعتقد . لقد دعوتكم لمخاطبتكم في امور اخرى . . . اعتقد ، انكم علمتم بان الصبى سوف يكون قادرا على الكلام . حقا ، سوف يكون كل شىء في هذا الشأن على ما يرام . . . . نعم . . . على ما يرام ! اما فيما يخص القلب فتلك هى القضية . . . لقد كنا نعتقد في البداية ان ثمة علة قلبية بسيطة حدثت في ظل هذه الولادة العسرة ، الا انه اتضح لنا فيما بعد ان الزرقة التى اصابت الصبى قد تضاعفت ، وهذا يعنى

لامعاوضة قلبية . . ويصعب التنبؤ بما سوف تسفر عنه  
مستقبلا . لكننا سوف نبذل كل ما في وسعنا ، واؤكد لكم ذلك .  
واجد لزاما على ان ابلغك ، كاب للطفل ، بان حالة الطفل  
ليست على ما يرام . وسوف نظل على امل في نهاية  
افضل ، الا اننا جميعا ، كما تعلمون رهن مشيئة الله ، ويجب  
علينا ان نتقبل قضاءه وحكمه . . . .

وبارح حايميم المستشفى وهو يمسك دموعه بالكاد ، يفكر  
في حزن : «ليس ثمة ما يجرى على ما يرام . اننى لم اجن شيئا في  
حق احد بينما تنهال على الكوارث ، الواحدة تلو الاخرى . قلب  
الطفل ليس على ما يرام ، «لامعاوضة» ما . . . اننى لست ادري  
ماذا يعنى ذلك !» .

وفي اليوم التالى قضى حايميم الليل باكماله بالمستشفى . ولم  
تخرج آنذاك اويًا لاستقباله ، كما لم يكن هناك من يذكر شيئا ،  
اي شىء عن حالة الطفل . وكان كل ما سمعه هو ضرورة الانتظار  
حتى يستدعيه الطبيب ، وراح ينتظر على مضض ، تارة يحذوه  
امل ، واخرى يسيطر عليه اليأس .

ولم يدعوه الى غرفة الطبيب الا عند الصباح ، وظل يجلس  
فيها وحيدا فترة طويلة يغالب فيها هواجسه الداخلية ، الى ان  
دخل طبيب آخر لا يعرفه . وبدأ على الفور يقول له ان الصبى ولد  
مصابا بتشوّه في القلب . واثابت حايميم حالة غير طبيعية ودار  
رأسه ، كما لو كان يمتطى ارجوحة دوارة . ونظر الى الطبيب دون  
ان ينبس ببنت شفة ، وراح ينصت في توتر اليه وهو ينطق  
مصطلحات طبية لا يعرف معناها ، وينتظر سماع ولو كلمة واحدة  
تعيد اليه الامل .

واختتم الطبيب حديثه مشوحا بيديه :

- ان الطب ، وللأسف الشديد ، عاجز حتى الآن في مثل  
هذه الحالات . - وسكت الطبيب ، بينما اخذ حايميم يواصل النظر  
اليه ، يحذوه امل ، ويتجمد رعبا من الا يكون هناك ما يمكن  
التعلق به ، ومن انه يجب عليه مبارحة مقعده ، الا انه كان فاقده

القوى غير قادر على النهوض . لا . لا . لا . يجب ان يكافح . .  
يجب ان يفعل شيئا .  
وقال حاييم :

- معذرة يا دكتور . . اننى لم افهم مما يعانى ابنى . ثم  
اليس من الممكن مساعدته ؟  
ومط الطبيب رقبته الطويلة لتبدو من معطفه الابيض  
المنشى ، وقال فى دهشة :

- الم تفهم ؟ ان زوجتك تعلم كل شىء . . . . اننا لم نستطع  
ان نفعل شيئا على الاطلاق . وليس الامر بيدنا . ولكن صدقنى  
انكما ستنتجيان اطفالا ايضا ، فما زلتما فى ريعان الشباب .  
وقضى حاييم طوال يومه ، كما لو كان يعانى من كابوس ،  
يتردد ما بين المستشفى والكيوتس والحاخامية ، يذرف  
الدمع طلبا من الديان ، ثم من الحاخام نفسه ، السماح بدفن ابنه  
فى المقابر .

واخذ ذوو اللحي والسوالف القصيرة والطويلة الذين  
يرتدون الارواب الطويلة العريضة او السترات السوداء القصيرة  
ينظرون الى حاييم الذى ادركه التعب وحطمته الكارثة ، كما لو  
كان يطلب منهم الحصول على لبن العصفور .

وشرع الديان الاحمر الوجنتين يقول بلهجة ابوية تقريبا :  
- انك ما تزال شابا ، الا انه من المفروض ان تعلم ان  
التاريخ اليهودى لم يشهد ابدا دفن صبى يعتنق ديانة اخرى فى  
المقابر التى تضم رفات اليهود الاتقياء الذين ولدوا من اب وام  
يهوديين . انك تود ان تفعل ما لم يحدث ابدا ، واؤكد لك ان  
ذلك لن يحدث باى حال من الاحوال ! ولتقل لى باى حق ، يجب  
ان يدفن ابنك الذى ولدته ام تعتنق ديانة اخرى ، ناهيك عن انه  
لم يجر ختانه ، فى غير المكان الذى يجب ان يدفن فيه ؟ ارجو  
الا تغضب ، لكن اى يهودى هو ؟ هل سترد بانك ابوه ، وانت  
يهودى . فلتسمح لى بان اقول ان هذه الحجة غير مقنعة ! اسمح  
ل ان اسالك الدليل على انك انت الاب الحقيقى . هناك كثير من  
الحالات التى كان يعتقد فيها الوالد بانه ابو الطفل ، بينما اثبت

الواقع ان الاب شخص آخر لا علاقة له باليهودية ولا بولادة  
الط . . .

وهنا قفز حاييم من مكانه ، ليقطع حديث الراعى ، ويمطرهم  
بوابل من الشتائم :

- انكم لستم يهودا ، بل حشرات بق ننتة ! انكم تمتصون  
دماء الشعب اليهودى . . عليكم اللعنة !

ولم يفق الحاخام والديان ورعاة الهيكل الآخرون من فرط  
الدهشة الا بعد ان تساقط الجص الذى كان يحيط باطار الباب  
في ضجيج .

. . . وقام حاييم واويًا برفقة عزرا الذى وصل من  
الكيبوتس بدفن ابنتهما في حفرة صغيرة عميقة جدا ، حفروها الى  
الناحية الاخرى من السور الذى يحيط بمقابر تل ابيب وسط  
مجموعة اخرى من مقابر الموتى الذين لم تعتبرهم الحاخامية يهودا.  
وفي الكيبوتس وبناء على تعليمات الحاخامية احيط حاييم  
فولد يتير علما بوجود جلوسه «شيفيه» \* يوما واحدا ليس الا .  
وذكر اريه خرسون يخاطب حاييم في صرامة :

- ان ابنك ، ابن غير شرعى . وارجو الا تغضب ، لكنه  
يعتبر «مامزير» \* \* . . هل تعرف ماذا يعنى ذلك ؟  
لم ينبس حاييم ببنت شفة .  
واستطرد خيرسون يقول :

- هذا اولاً . . او بالاصح ثانيا . اما اولاً فهو انه قد ولد  
من ابوين احدهما فقط هو الذى ينتمى الى امتنا . ولذا عليك ان  
تخرج الى العمل بعد غد . وسوف نعاود الحديث عن ذلك بعد  
اسبوع . وذلك ثالثاً . اذ اننا عندئذ سوف نقرر موضوع ، لست  
ادرى كيف اسميها . . على اى حال تلك التى تعيش معك . لا  
يجوز ان تستمر الحالة هكذا . أليس كذلك ؟ ان الحيوانات وحدها

\* طقوس دينية ، من تعاليم التلمود ، تقضى بان يجلس اقارب  
المتوفى اسبوعاً باكملة على الارض يرتدون الجوارب وبلا احذية ، تعبيراً  
عن حزنهم .

\* \* مولود من ام تعتنق ديانة اخرى (دليل على الاحتقار) .

تتعاش مع بعضها كيفما اتفق . انك رغما عن كل شيء متطوع  
يهودى ، ولا يصح لك الاستمرار فى مثل هذا الوضع غير  
الطبيعى . اننا نبني دولة عصرية ذات شعب مثقف متنور ، سامية  
اخلاقياتة يحترم تقاليدنا الثرية القديمة قدم الزمان ، وهذا بينما  
تدوسها انت عن قصد او غير قصد . . . . يجب الكف عن ذلك .  
وقد استمع حاييم بلا مبالاة ايضا الى احد قدامى سكان  
الكيوتس ، وهو عجوز يقوم بمهمة الشماس فى غرفة الصلاة ، والذي  
اعلن بشكل قاطع ان حاييم يستطيع ان يلبس السواد ويمتنع عن  
الحلاقة اسبوعا واحدا بدلا من شهر كامل كما تقضى الطقوس  
الدينية .

ولم يكن حاييم يفكر فى الحداد او فى الحلاقة او فى العادات ،  
بل وحتى فى حياته ، فقد هزته فاجعة موت ابنه ودفنه ككلب  
ضال . . . لا حق ولا عدالة فى هذا العالم . . . لقد سماه احد  
الحكام ، ولست ادري على اى اساس ، «العالم الوضاء» ! وتذكر  
حاييم موليا و آخر كلمات تفوهت بها : «أهذه هى ارض الميعاد .  
لقد لعنتها اجيال باكملها على مدى قرون طويلة . . هذه الارض  
الملعونة !» .

لقد تغيرت أويًا على نحو رهيب . كانت تجلس اياما  
باكملها بلا حراك . . لا تطلب شيئا ، لا تقرب الطعام ، ولا  
تفعل شيئا سوى النظر الى حاييم بعينيها الكبيرتين السوداوين  
سواد الليل واللتين تنطقان حزنا . فماذا كانت تود قوله وماذا  
كانت تود ان تسأله ؟ ولم يستطع حاييم مقاومة هذه النظرات  
الغريبة ، فقد كانت تمتلا مآقيه بالدموع ليشيح بوجهه ، او  
يسرع بمغادرة الغرفة .

هكذا كان الامر لعدة ايام . حاول حاييم والممرضة وجارتهما  
التي كانت تعود أويًا تهدئة روعها وصرف افكارها بعيدا عن  
الكارثة . ولكن عبثا . وغرق حاييم فى بحار من اليأس ، حتى  
استيقظ ذات يوم ليرى أويًا تحمل دلو ماء ، تسير بجوار الشباك  
فى الصباح الباكر . وقد سعد بهذا الحادث ، ليس فقط لانه يعنى  
بادرة تحول فى حياتها نحو الافضل ، بل ولسبب آخر . فقد حدث

ايام كانا يعيشان في جناح سلمونزون ان قامت حماة فوتسى يوناس حين عرفت بان اويًا يونانية الاصل ، باشاعة انها يمكن ان تدنس المياه في حنفية عامة اذا ما واصلت اخذ الماء منها . وادركت اويًا آنذاك الامر وكفت عن التردد على الحنفية . كما انها ، تحاشيا لمواقف محرجة اخرى ، لم تقترب من البئر اثناء معيشتهمما في الكيبوتس . لكنها الآن تجاسرت وتجاوزت خوفها على حين غرة . . . . . وقد فرح حايمم ايضا ، لان اويًا ظهرت في ذلك الصباح على نحو اجمل ، فقد مشطت شعرها وجدلت ضفيرتيها الطويلتين ، وارتدت بلوزة جديدة وحذاء كان قد تم شراؤها ايام كان حايمم يعمل في مكتب التصدير والاستيراد .

وتنفس حايمم الصعداء لاول مرة منذ حلول هذه الايام الكئيبة . وقبل انصرافه الى عمله تقدم من اويًا وقبلها ، فامسكت براحتيها رأسه طويلا محدقة في وجهه كما لو كانت تود ان تذكره طول العمر .

وفي تلك اللحظة دق عزرا النافذة يستعجل حايمم حتى لا يتأخرا عن العمل . وهنا فقط تهاوت يدا اويًا في وهن . وغادر حايمم المكان ، ثم التفت فرأى اويًا تقف عند النافذة تلوح له وداعا ، فرد عليها وهو يبتسم .

وعند المخزن كان يجري تفريغ الشاحنة التي وصلت بالامس تحمل الاعلاف . وفي المزرعة تعالت اصوات الفرازات وضجيج المحركات التي كانت تضخ المياه ، وخوار الابقار ، كما علت بعيدا اصوات جرار واحاديث وضحكات سكان الكيبوتس . واخذ حايمم يعمل بشكل آلي وهو يفكر في اويًا ويعتريه القلق . ماذا حل بها ؟ لقد ودعته صباح اليوم على نحو غير مألوف . . . . . كانت نظرتها غريبة ، كما لو كانت تودعه الى الابد . واذ غرق حايمم في هذه الافكار المزعجة لم يسمع الصراخ الهستيرى الذى تعالى :

- الى هنا ، يا رفاق . . الى هنا !
- لقد القت امرأة بنفسها في البئر !
- البكماء ! لقد انتحرت البكماء غرقا !



لقى نوتسى يوناس بالتحية على حايم ، كواحد من افضل  
اصدقائه ، وعانقه واجلسه ، وراح يسأله عن صحته وعن احوال  
العمل فى الكيبوتس . ولم يرد حايم بشىء ، الا انه من آن لآخر  
كان ينظر الى محدثه فى برودة . وراحت امارات الألم والمعاناة  
تكسو سحنة نوتسى البدينة وهو يقول :

- اننى افهمك يا عزيزى حايم ، ادرك موقفك تماما . لقد  
سمعت عن ذلك . لقد اصابتك مصيبة كبرى . . لكن من كان يفترض  
ذلك ؟

وهز حايم كتفيه وابتسم فى مرارة ، فقد كان يعرف قيمة  
هذه المشاطرة «الودية» ! بيد ان نوتسى تظاهر بانه لم يلحظ او  
يفهم شيئا واستطرد يقول وهو يواصل النظر فى اسى الى حايم :  
- لقد انقضى الامر . انك ما زلت يا عزيزى حايم شابا فى  
مقتبل العمر ، ويجب عليك ان تفكر لا فى الماضى ، بل فى المستقبل .  
هذا علاوة على ان والدك العجوز واختك فى حاجة الى عونك ، ولا  
يجوز ان تنساهما . اذ انهما اقرب اقاربك على اى حال . اليس  
الامر كذلك ؟ اعتقد انه من الضرورى السعى من اجل دعوتهما الى  
هنا . وماذا فى ذلك ؟ اننى لا امزح ، فالآفاق امامك عريضة والحمد  
لله ، فقد زالت الاسباب التى دعت آنذاك الى اقاتك من مكتب  
التصدير والاستيراد ؛ واننى اعلم ان رفاقنا ، وانا اولهم ، سوف  
يرحبون جدا بعودتك . ارجو ان تصدقنى . اننى اخلص لك ،  
بالرغم من انك تعلم انه ليس هناك من لا يمكن الاستعاضة عنه .  
وهذا ما استطيع ان اؤكدك لك . ان السبب الوحيد الذى ترجع اليه  
مشاعرى الطيبة نحوك هو اننا جميعا من فوج واحد . هذا علاوة على  
انك قضيت فترة «الاكشارا» الخاصة بك ، وكذلك بسيمون ايضا .  
انه يعنى بالنسبة لنا جميعا الكثير . . . واقول لك ، اضافة الى  
كل ما سبق ، وبمنتهى الاخلاص ، اننى لا اود دعوة موظف جديد  
لادرجه واحيطه علما بكل امورنا ويحدونى امل فى ان تفهمنى . فعلى  
اى حال فقد كنت تعلم خبايا عملنا ، وتدرك كل جوانبه . . .

وبالرغم من ان نوتسى يوناس كان يؤكد اخلاصه لحاييم ، فقد كان يكذب فى هذه المرة ايضا . ذلك لانه كان يود ان يعود حاييم الى مكتب التصدير والاستيراد لاسباب اخرى تماما : فمن الطبيعى ان يكون فقدان المساعد الشريف الساذج امرا غير مستحب ، لكن الاهم من ذلك هو امكانية فقدان ثقة وميل قيادة هيئة «ارجون تسفاى ليومى» .

وكان يوناس يشكو لسيمون فى تلك الايام قائلا :  
- من اين كان لى ان اعلم ان زوجة هذا المعتوه يونانية الاصل . هل انا جهاز اشعة ؟ !

لم يبق يوناس فى منصبه الا بفضل سيمون . بيد ان الرفاق القادة لم يكفوا عن لوم ليس فقط يوناس ، بل وسيمون سلمونزون ايضا . وبالرغم من ان شتيرن واصحابه كانوا يخضعون لسلطان سيمون ماليا ، فقد كانوا يضمرون له الشر ، ويتصدون لرغبته فى توسيع نفوذه فى «ارجون تسفاى ليومى» . وهذا هو ما دفع نوتسى يوناس ، حالما علم بانتحار أويًا ، لان يسرع لزيارة سيمون ليلا ، تجيش نفسه سعادة وهو يعلنه : «مهما كان الامر فثمة عدالة تسود العالم ، اى والله ! . . لقد رحلت البكماء ، امرأة هذا المعتوه !» .  
بيد ان ما ذكره نوتسى لم يؤثر على اى نحو على سيمون سلمونزون . فلم يكن يهمه على الاطلاق مصير زوجة المتطوع فولديتير . الا ان ذلك لم يربك نوتسى يوناس ، الذى راح يصيح :  
- لماذا نترك الورقة الرابعة لكنوخ وشتيرن ، كما لو كنا قد اخطانا فى حق المتطوع فولديتير حين استدعيناه للعمل فى الميناء . انهما يستغلان هذه الحالة فى كل فرصة تحين لهما ! هذا بينما المتطوع فولديتير صالح لشغلنا من كافة الجوانب . فقد قضى فترة «الاكشارا» بدلا منك ، ومع ذلك لم يتفاخر ابدا بذلك . كما انه عمل فى الميناء على نحو رائع نال به مديح كنوخ نفسه ، علاوة على انه يعلم خبايا امورنا وحتى بظروف مقتل مايكل ، ولم ينبس ببنت شفة . لقد توالى عليه الكوارث الواحدة تلو الاخرى ، ومع ذلك يواصل صمته . اننا فى حاجة الى مثل هؤلاء بالذات ، ولسنا نريد الثرثارين . لقد وظفنا الكثيرين دون ادنى مراجعة ، ثم رحنا

نتساءل عن مصدر المعلومات التي وصلت الى الانجليز والعرب ،  
بينما كنا نظن ان الله وحده هو الذي يعرفها . اما عن كون زوجة  
فولديتير يونانية الاصل ، فذلك امور لا طاقة لنا حيالها . كما انها  
قد رحلت اليوم عن عالمنا . فماذا يمنعنا اليوم من استدعائه للعمل  
لتخرس حاسديك .

وبدت هذه الحجة مقنعة دامغة لسيمون . فقد تأكد مرارا من  
ان كنوخ يشاطر شتيرن الراى ويؤيده ويعتمد عليه . وكان ذلك  
يشير سخطه ، حيث ان كنوخ يعمل تحت رئاسته ، ويتلقى منه المال  
ومع ذلك يلحق اقدام هذا الهستيري شتيرن . يا له من زعيم !  
اعلن سيمون سلمونزون موافقته على اقتراح يوناس حول  
دعوة حايم فولديتير للعمل ثانية فى مكتب التصدير والاستيراد فى  
وظيفة ثانوية الى حين . و اشار الى ذلك قائلا :

- من يعيش ير . بعد حين نعيده ثانية الى كنوخ . وهذا  
يكفى كبداية .

وهكذا وبمباركة سيمون سلمونزون ، وصل نوتسى يوناس  
الى الكيبوتس ، بحجة مرافقة عربتى نقل تحملان السلاح . ولم يعلم  
حايم بطبيعة الحال ، بذلك ، لكنه كان يخمن السر الذى دعا يوناس  
وخيرسون الى الجلوس طويلا فى مخزن الاعلاف ، حيث كان المدخل  
الذى يفضى الى مخزن الاسلحة والمموه بشكل جيد .

وبعد ان استمع حايم الى يوناس ، اعلن عن رفضه للعودة  
ثانية الى مكتب التصدير والاستيراد .

وهنا ذكر يوناس وكان مظهره ينم عن الاستياء :

- ما هذا التكبر . افى وعيك انت يا حايم ؟ ايمكن ان يكون  
وضعك هنا بالافضل ؟ ماذا كسبت ؟ - وهنا وخز سترته القديمة  
التي يرتديها - أهكذا سوف تظل تكدح طوال حياتك ؟ انه ليس  
ثمة مستقبل لك فى الكيبوتس ! هل انت قادر على فهم ذلك على  
الاقبل ؟

- نعم . . . قادر . . .

- فى مثل هذه الحالة ، لست افهم شيئا ! حقا . . هل يمكنك  
ان تشرح لى كنه هذا الموقف .

ولم يرد حايبم ، ليواصل يوناس حديثه في هذه المرة عن  
المسئولية حيال العصر الذي يعيشونه ، وعن المهام الهائلة التي  
تواجههم هم المتطوعين . واذ رأى يوناس ان حديثه لم يسفر عن  
اية نتائج قرر القاء الورقة الاخيرة ، فراح يقول وهو يستطلع رد  
الفعل على وجه حايبم :

- هل تعلم يا حايبم اننا انتقلنا منذ زمن بعيد الى تل ابيب ؟  
لدينا هناك شقة سوف يدور رأسك حين تراها . فيها حمام ومياه  
ساخنة وباردة في الصباح وفي المساء ، وتليفون ! هناك بمدخل  
المنزل الانوار تضيئها لتنطقاً بعد دقيقة واحدة تماما بعد الدخول  
او الخروج . . . تلقائيا . عظيم . . . هيه ؟ وبالمناسبة ، فسوف  
تعيش بدورك في المدينة . حقا اقول ، اعدك بشرفي يا حايبم !  
واجاب حايبم في حسم :

- لا . لست راغبا في شيء على الاطلاق . . . بتاتا .  
واصاب الذهول يوناس ، الذي كان على ثقة بانه ما ان يلمح  
اليه بامكانية العودة الى عمله السابق ، حتى يتشبث بها دون ان  
يدع فرصة لفقدانها . لكن ها هو الامر ، حيث لا يجدى معه حتى  
الاغراء بسكن جيد في تل ابيب ! نعم لم يكن يوناس يتوقع مثل رد  
الفعل هذا من المتطوع الخجول . ورغما عن ذلك فقد استطرده  
يقول :

- هيه . . . لا يا حايبم . . . انك تمزح . . . كما اننى ادرك  
حالتك هذه وعزوفك عن الحياة عموما . لقد عانيت هذه الحالة .  
لكنها عرضية ، ستزول كما يزول كل شيء في هذه الحياة . انك لن  
تنتحر بالطبع حزنا على أويًا !  
وهنا قاطعه حايبم في حدة :

- لا داعى للحديث عن ذلك . كفى ، ارجوك !  
فرد يوناس يقول في ذهول :  
- وماذا قلت يا حايبم ! اعتقد انك تعلم كم كنت اقدرها !  
فلتقل لي من سواى آواكما ، واصطحبكما من «مركز التجمع ؟» ام  
تكون قد نسيت ان . . .  
وقاطعه حايبم ثانية :

- ارجوك ان تكف عن الحديث ! ان هذا اشبه بمن يقطع رأس انسان ثم يروح يذرف الدمع على شعره بعد ذلك .  
وتظاهر يوناس بانه لم يدرك مغزى ما ذكره حاييم وواصل حديثه :

- اننى ادرك حالتك . هل تظن عكس ذلك ؟ اننى افهمك بالشرف . انك حزين . موافق . . هذا حقك . فلتعمل بعض الوقت فى الكيبوتس الى ان تتحسن نفسيتك . اما انا فسوف ازورك بعد فترة لنتجاذب اطراف الحديث .

وأوماً حاييم برأسه علامة عدم الموافقة وقال بحدة :  
- لا داعى لان نتحدث !

واجاب يوناس فى اصرار وهو يرتب كتفيه :

- انا سوف نتحدث . وحتما سيكون ذلك .

ثم اضاف على نحو حاد :

- انك متطوع فى فوج يوسف ترومبلدور ، ولا يجوز اغفال ذلك ، يا عزيزى . . . اما الآن فودعا .

اسفرت زيارة يوناس للكيبوتس عن تغيير اريه خيرسون المدير الجديد لمعاملته نحو حاييم فولديتير لتغدو على النقيض . فقد اقترح عليه الانتقال الى عمل اسهل وافضل ، واعفاه من المناوبة فى حظيرة الابقار ليلا ، وسمح له بالتغيب عن الكيبوتس اذا ما اقتضت الضرورة ذلك . . . الا ان حاييم رفض كل هذه الصدقات وواصل عمله كما يعمل بقية سكان الكيبوتس . وكان طلبه الوحيد من اريه خيرسون هو الاذن له بزيارة مقبرتى أويًا وابنه فى وقت فراغه .  
- هذا طبيعى ، طبيعى ! لا مانع يا عزيزى حاييم ! ان هذا من حقاك !

وطلب حاييم فى نفس اليوم الاذن بالانتقال للسكنى مع عزرا فى غرفة واحدة . وكان الشئ الوحيد الذى اخذه معه هو منديل أويًا واحتفظ به فى حرص كما كان يحتفظ عزرا بساعته الكبيرة . وراح مثل عزرا يجلس وحيدا ، يقلب طويلا منديل زوجته وهو يتذكر حياته القصيرة معها .

وتابع سكان الكيبوتس في دهشة واحترام سلوك حايم ،  
واعلنوا عن مواساتهم له الا انه لم يتقارب مع اى منهم ، عدا موسى  
او كما يسمونه موشى . وكان موسى هذا يعمل سائق عربة نقل ،  
ويسافر برفقة حايم كثيرا الى تل ابيب والقدس . وقد ولد موسى  
في اوديسا واتسم كما يتسم ابناء هذه المدينة بحبه للمعاشرة  
وبسرعة البديهة . وراح دون كلل يمطر حايم بوابل من النكات  
والاقاصيص عن حياته ، لتدب فيه الحياة وينصرف عن الافكار  
السوداء التى تقض مضاجعه ويتذكر وطنه - بيساراييا ووالده ،  
وصديقه ايليا توموف الذى استحوذ على جزء كبير من تفكيره .  
وكانت تعيش فى القدس عمه موسى التى كان يعرج اليها  
كثيرا بعد تسليمه لمنتجات الالبان الى مصنع الجبن .

وكانت عمته دورا امرأة عجوز ولكنها ما تزال خفيفة الروح  
تخاطبه عادة باللغة الروسية :

- موشى . . عليك ان تتناول اللحم والبطاطس من صنع  
يدى . . . اننى لن اكون عمتك ان لم تأكله كله . هل تسمعنى يا  
موشى ؟ ثم لك ان تأخذ هذه اللفة . اننى اعلم ان الفلوندين \*  
كثير جدا عندكم فى الكيبوتس . لكنك سوف تأخذ اللفة رغما عن  
ذلك .

وكثيرا ما كان يزور موسى حايم وعزرا فى ذات المساء يحمل  
هدية عمته ، يتجاوزون ثلاثتهم ، اطراف الحديث حول قـدح من  
الشاي ، ليحوله موسى تدريجيا من كافة اشكال النكات والنوادر الى  
امور جدية .

- يحفل العالم باشكال من الظلم ، بالقدر الذى تحويه اكوام  
القمامة من بكتيريا . واذا ما استكننا فى خنوع لذلك فسوف نتحول  
الى قمامة . ومن هو المستفيد من ذلك ؟ انهم اولئك الذين يملكون  
اكياس النقود .

وانصت حايم فى احتراس الى مثل هذه الاحكام التى يدلى بها  
السائق موسى . فقد بدت غريبة حين تند عن ابن اوديسا المهذار .

\* بسكويت محشو بالعلسل المطبوخ الممزوج بالمكسرات .

وقد اتضح لحاييم ان ثمة ما لا يستطيع موسى الحديث عنه حتى النهاية ، لكنه لم يكن يدري السبب . ربما يكون غير واثق منه ، خائفا من ان يمنحه اسراره ، ام يكون يحاول دفعه الى الحديث بصراحة . «لكن من يدري ؟ . . . فربما يكون من عصابة يوناث وشتيرن واضرا بهما» .

بيد ان مخاوف حاييم كانت في غير محلها ، فسرعان ما اقتنع بذلك . اصيب ذات مرة بوعكة العامل الذي رافق حاييم في رحلاته مما دفعه للتوجه الى اريه خيرسون يطلب منه تعيين عزرا بدلا منه . واجابه اريه بحماس مصطنع :

- ان طلبك مجاب يا عزيزي حاييم ! لا تهدده ، ولتدعه يعمل بدلا منك ، فلن يصيبه شيء . كما اننا سوف نغفيه من التدريب العسكرى . فليس هناك امل فيه على اى حال . اننا لا نستطيع ان نسلمه سلاحا . فلربما يستخدمه ضد اناسنا ، نتيجة لغبائه .

وهكذا راح عزرا يذهب الى المدينة برفقة حاييم وموسى . وذات رحلة اقنع موسى كلا من حاييم وعزرا بالعروج لمدة ساعة واحدة ، الى عمته التي كانت تعيش غير بعيد عن فندق «الملك داوود» ، وتبيع المياه الغازية على مقربة من هناك ايضا . لم تكن عمته بالبيت لكنها كانت قد تركت المفتاح في المكان المعهود . وفتح موسى الباب ليقود رفيقيه عبر ردهة ضيقة مظلمة الى حجرة صغيرة متخمة بالاثاث القديم . ثم اعتذر قائلا :

- فلتبقيا هنا ، وسوف اغيب عنكما لحظات ليس الا . لكن اذا ما وصلت في غيابي عمتي دورا ، فيمكن ان تكونا واثقين من انها لن تخافكما ، فليست هذه هي المرة الاولى التي تستقبل فيها ضيوفا . ولما كنت انت يا حاييم تتكلم الروسية ، فسوف يضىف عليها ذلك قدرا كبيرا من السعادة ، اكثر مما لو هبط اليها الله من السماء . هذا حق . . . ولتصدقاني . اننا اوديسيا الاصل . ولذا لكما ان تاخذا راحتكما كما لو كنتما في بيتكما . . .

وما ان غادر موسى المسكن حتى وصلت بالفعل العمه دورا . ولم تندش فعلا من وجودهما ، بل على العكس راحت وهى ما تزال

عند عتبة الغرفة تحدثهما كما لو كانت قد تركتهما منذ لحظات ، تقول  
بالروسية التي تطفئ عليها اللهجة الاوكرانية :  
- اننى اعلم انه يوجد هنا رفيق من روسيا . اليس ذلك

صحيحا ؟

وانحنى حاييم مؤكدا انه قدم فعلا من بيسارايبيا .  
- لقد شاهدت شاحنة تقف امام مسكنى ، قبل ان يعرج الى  
موشى يخبرنى بوجودكما . ولذا فقد اغلقت على التو «تجارة القطاعى» .  
فليذهب مثل هؤلاء الزبائن الى الشيطان ! ان رحى ابيع العصير  
يطلبون مياه غازية ، وان رحى ابيع المياه الغازية ، يطلبون  
العصير . نيتهم يصابون بمرض ، وعندئذ يكفون عن طلب العصير .  
اما زلتما واقفين ؟ اليسى اقدمكما ملككما ؟ على اى حال . .  
سواء وقفتما ام جلستما . . فلا وجود للحقيقة \* . ولذا فلم لا  
تجلسان ؟ اننى سوف اذهب لتجهيز شىء على الطريقة المنزلية ،  
لم تذوقا مثله فى الكيبوتس . ولكما ان تصدقانى .  
وتبادلت العجوز بعض الكلمات مع عزرا ، تسأله عن موطنه ،  
وما اذا كان قد وصل الى فلسطين منذ زمن بعيد . وعندما عرفت  
انه من اليمن تساءلت فى دهشة عن كونه فارغ القامة قوى البنية ،  
بينما اليمينيون قصار ضعفاء . ثم راحت تصب على حاييم وابلا من  
الاسئلة فى نهم واضح حول بيسارايبيا ومعيشة اهلها وعما اذا كان  
قد زار اوديسا . واستطردت تقول :

- ان موشى ، ابن اخى ، فقد امه ولم يبلغ من العمر بعد  
التاسعة او العاشرة . اما اياه فقد قتله افراد عصابة «القطعة السوداء» ،  
ولذا فقد توليت تربيته منذ الصغر . اما شقيقتى الكبرى فقد كانت  
تعيش فى القدس ، على قدر متوسط من اليسر . فيما مضى ، كانت  
تملك حانة فى اوديسا ، اما هنا فاصبحت تملك مقهى . فانتما  
تدركان انه ليس هناك فى فلسطين عربجية يشربون حتى  
الشمالة ! . . ولذا فلم يحالفها التوفيق فى حياتها هنا . ولو لم تكن  
شقيقتى ، رحمها الله ، لما كنا قد وصلنا نحن الى هنا باى حال من  
الاحتمال . يقصد هنا المثل الروسى القائل حرفيا «لا وجود للحقيقة فى

الاقدام ا . .



الاحوال . ولكننا واصلنا العيش في شارع مولدوفانكا كما كنا نعيش ، ولكننا واصلت ممارسة التجارة في السوق كما كنت افعل . فلتقول لي ماذا كان ينقصنا هناك ! الامراض ؟ آه . . . لقد اصابتنا هنا بما فيه الكفاية . وكانت حياتنا في اوديسا غير ما هي عليه هنا . هل لكما ، ان تتصورا ولو للحظة واحدة حجم سوق اوديسا ؟ انه بالشرف ، يعادل نصف مساحة فلسطين ، لا اقل من ذلك باى حال من الاحوال ! فقد كان المولدافيون من تراسبول والاوكرانيون من جميرينكا ما يكاد يطلع النهار حتى يكونوا ببضائعهم في السوق ، لتعلو ضوضاء تستيقظ عليها المدينة بأسرها . فما السر في ذلك ؟ ذلك لاننا كنا نشترى منهم كل ما يحملونه جملة . آه . . . كم كان هناك من اشياء ! واية رائحة عبقرة كانت تملأ المكان ، فلم تكن احسن الروائح في احسن صالونات الحلالة لتصمد امامها . واية خضرة !! اما الفلفل او «الامريكية» الباكورة !! هل تعلمون ماذا تعنى . . . انها بطاطس وردية اللون مستطيلة . عن الطماطم اقول انها افضل مذاقا الف مرة من البرتقال غير اللذيذ الذى ينمو هنا . لكن ما الذوق في ذلك . . . هذا ما لا اعلمه . ولذا اقول . . . لقد كانت هناك طماطم بالسوق ، اذا ما وقعت احدى ثمارها ، لا قدر الله ، على قدمك ، فمن الممكن ان تظل اعرج طوال حياتك . والسلك هناك . . . هل سمعتم في يوم من الايام عن الاسقمري او البورى . ناهيكما عن اننى لا اتحدث عن البيتشكى . لقد كانت تفرقش في الفم ، عندما كنت اشويها في مقلاة اكبر من هذا الطست على موقد البريموس . . . لقد كانت حياة رائعة !

كان حاييم يستمع الى العمة دورا ، بينما يختلس النظر من آن لآخر الى عزرا الذى وان لم يكن يفهمها ، الا انه كان من الواضح انه ينصت في سعادة الى لهجتها الطيبة الرقيقة . اما هى التى كان قد غلبها الحنين الى اللغة الروسية والى مدينتها الحبيبة فقد راحت تواصل حديثها :

- وهل من الممكن ان تجد رصييفا في العالم مثل رصييف شارع ريشيليه آه . . . لو نظرتما حين يرشون الارصفة في الصباح ، بينما تتعالى اصوات اولى عربات الحنطور ! ان المرء

يمكن ان يعشق هذه المدينة بمجرد سماع اصوات حدوات الخيول  
وهي تدق ارض الشوارع . اننى لن اكون آسفة ان منحت نصف  
عمرى لقاء نظرة واحدة على حدائقها المطلقة على البحر . وانسى  
لاسألكما بعد كل ذلك ، ماذا جاء بنا الى هنا ؟ ولماذا ولاى هدف ؟  
شقيقتى . نعم ، انها شقيقتى الكبرى . لقد جاءت الى فلسطين قبل  
الحرب العالمية . لقد كانت تظن انه يوجد هنا «عربجية» . انهم طبعا  
موجودون ، لكنهم ليسوا «عربجية» اوديسا الذين يغدقون الاموال  
ويشربون لدرجة انهم كانوا يقولون فى السوق عنهم انه لو كانت  
مياه البحر الاسود من فودكا لكانوا قد شربوه حتى النهاية . انهم  
ناس ممتازون ! كانت التجارة معهم تجارة حقيقية ، وليست بيع  
العصير والمياه الغازية . انها اوديسا . . وكفى ! لقد راحت شقيقتى  
تكتب كى اسافر اليها لنبدأ مشروعنا تجاريا ضخما . راحت تكتب  
وتكتب الى حتى اذعنت للامر وكان معى آنذاك رأس مال طيب وذهب  
والماس . . فالعمة دورا تفهم فى هذه القضايا ايضا الى حد ما .  
لكن كيف نقلت ذلك الى هنا ، تلك امور لا يعلمها الا الله ! لقد  
نقلتها رغما عن كل شىء . لقد دفسته فى الصابون الذى وضعته فى  
السلة الى جانب اسمالى ، وحملت موسى الصغير على يديّ وقلت :  
«السلام يا اهل اوديسا !» لنصل الى القدس . . . يالنا من اسعد اهل  
الارض . . . ولا تسألانى . . .

وحين سمعت العمة دورا ان ابا حاييم عاش وعمل بائعا لبعض  
الوقت فى اوديسا وان المدينة كانت تحوز اعجابه ، صاحت تقول :  
- اننا لا يمكن ان نرى اوديسا اليوم سوى فى احلامنا . . .  
يا لها من مدينة ! اننى لو استطيع الوصول اليها سيرا على الاقدام ،  
لكنت بدأت رحلتى فى هذه اللحظة ! انها ليست مدينة بل عالم  
بأكمله .

وصفق الباب الخارجى ، لتنصت العمة دورا اليه ، ثم تواصل  
حديثها :

- وها هو موسى قد وصل ، فليباركه الله . انه شاب  
طيب ، الا ان السعادة ليست فى صفه . كما انه عازف عن الزواج !  
لقد ملك الكيبوتس جل حياته ، بينما لا يملك مليما واحدا ، رغما

عن ان السنين تمر . . . كما سيارة الاجرة تقريبا ، ما تكاد تتحرك حتى يبدأ العداد يعد بالقروش ، ثم بعد قليل بالشماعات ، اما عندما تصل الى مقصدك ، فعليك ان تدفع جنيها ! وهكذا حالي معكم . . . اردت ان اعد لكم شيئا تتناولونه ، الا اننا ضيعنا الوقت في الحديث ، لكننى رغما عن ذلك سوف اقوم الآن باعداد . . .

وطلب حاييم من العمه دورا الا تشغل نفسها بشيء . فقد بدا له ان التعب قد اصابها ، بعد ان تحدثت بما فيه الكفاية وبدا عليها الحزن ولذا فسوف تلتزم الصمت . لكن ما كاد موسى يخرج الى الردهة كى يغسل يديه حتى راحت تثرثر بصوت طيب رقيق :

- هل تعلمان اية اغنية يرددنها المهاجرون عن الكيبوتس ؟  
الا تعرفانها ؟ اننى سوف اقول لكما كلماتها :

ايتها المستوطنة الذهبية ذات الجدران الحجرية . . .  
كان من الافضل ان تلتهمك النار ،  
من قبل ان تقع عليك عيناي .

وغرق حاييم وعزرا في الضحك ، بينما قامت العمه دورا وقد داخلها الارتياح لتسلية ضيفيها باعداد شيء على الطريقة المنزلية . ودخل موسى ليضع على المائدة امام حاييم ورقة صغيرة تسجل نصا مكتوبا بخط دقيق . وادرك حاييم على التو ، وقبل ان يطالع هذه الورقة ، انه حيال نشرة سرية : ورقة صغيرة متخمة بنص كبير ، ذلك ما اعاد الى اذهانه على الفور المنشورات البلشفية التى وجدوها ايام سنوات الدراسة فى علية المنزل فى بولجراد ، والتى ساعدت قراءتها واعادة طبعها وتوزيعها على تقاربه مع ايليا توموف بشكل اقوى مما فعلته سنوات الدراسة المشتركة .

وتساءل موسى بعد لحظة انتظار :

- ماذا تقول فى ذلك يا رفيق فولديتير ؟ انك اليوم تستطيع ان تكون مطمئنا على مصير ابيك وشقيقتك . انك هنا تكذ وتضنى نفسك كى تستطيع العيش على نحو ما ودعوتهما الى هنا ، بينما هما وبدون «دعوتك» موجودان فى حقيقة الامر فى ارض الميعاد !

ولم يرفع حاييم بصره عن موسى وقال بلهجة تنم عن غضب :

- ماذا تهنى ؟ هل هذا مادة للضحك ؟ الفاشية في بيسارابيا . . هل تدرك معنى ذلك ؟

- اوه . . انك ، كما ارى تستطيع ان تغضب !! بيد انه لا مجال هنا للمزاح . عليك ان تقرا ما هو مكتوب ولا تكتفى بالحلقة في الورقة كما الخروف الذى يتمعن النظر في البوابة الجديدة . فلتقرا ! لقد دخل الحمر الى بيسارابيا ! هل فهمت ؟ لقد قضى هناك على الفاشية . لكنه ليست ثمة انهار من اللبن تجرى اليوم ، لكنها حتما سوف تجرى لكافة البسطاء ، وليس كما الحال عندنا - للاغنياء فقط !

وامعن حاييم النظر فى الجريدة وراح يطالع ، وامارات القلق تبدو عليه ، وصف استقبال اهل بيسارابيا لمحريهم ، واخوانهم القائمين فى ضفة دنيستر الشرقية الذين ابعدوا عنهم قسرا منذ اثنين وعشرين عاما . وعندما بلغ الاسطر التى تحكى عن تخلص الشيوعيين الذين كانوا حبيسى سجن كيشينيوف ، غص حلقه وامتلأت مآقيه بدموع الفرح .

اخذ حاييم يعيد قراءة هذه الاسطر مرات ومرات . وحملته الذكريات الى وطنه الحبيب ، الى تلك الفترة التى اختار فيها هو وايليا توموف طريق الثورة . الا انه انعطف فيما بعد عن هذا الطريق ، ليجد نفسه على حافة الحياة . اما ايليا ، احسن اصدقائه ، فقد بقى وفيا مخلصا لمبادئه ، يسير فى ثبات فى طريق النضال . انه انسان حقيقى . اما حاييم فقد غدا شريكا لاراديا ، فى جرائم الصهاينة الذين وجهوا الضربة اليه فى نهاية الامر على نحو وحشى حين اهلكوا اسرته .

واصاب الخجل حاييم الى اقصى الحدود لما عليه من ضعف فى الارادة واستكانة وعدم مقدرة على التصدى لضربات الصهاينة . وماذا عليه ان يفعل اليوم حين تحاول هذه العصاة مرة اخرى توريطه مثل الحيوان الاعجم ، ولم يفعل شيئا سوى ان هز كتفيه فى صمت . وقطع موسى عليه افكاره :

- لماذا لا تتكلم يا حاييم ؟ هل يروق لك رجوع الشيوعيين

الى بيسارابيا ؟

ورفع حاييم نظره عن الجريدة وراح يتمعن في عيني السائق

قائلا :

- انه لا تكفى كلمة «تروق» . . . انها فرحة كبيرة لكل كادح  
بيسارابي ! لقد كان الناس يحلمون بذلك طوال سنوات السلطة  
السوفييتية في روسيا ! وتسألني عما اذا كان ذلك يعجبني  
ام لا !

- اننى وللحقيقة ، لم اكن انتظر اجابة اخرى منك غير هذه يا  
حاييم ! وهل لنا ان نفرح من اجل سكان بيسارابيا ومنتظر دون ان  
نعمل شيئا ، الى ان يأتى من يخلصنا من كافة انصار سلمونزون  
وشتيرن ؟ أهكذا الامر يا حاييم ؟

- اننى افهم ما تعنيه . افهم ماذا تقصد . وللحقيقة اقول  
لك اننى كنت اود محادثتك في ذلك . انك بالطبع محق مائة في  
المائة ! فمن المستحيل الانتظار الى ان تاتى الرياح بما تستهى  
السفن . يجب التصدى لكل هؤلاء الاوغاد ! لكن كيف ؟ ومع من ؟  
- اوه . . . ان هذه كلمات رجل حقيقى . انه يمكن الاعتماد  
عليك ، حيث جربت بنفسك احسان هؤلاء الصهاينة . لكن اذا ما كان  
الامر كذلك فسوف اقوم بتعريفك باحد رفاقنا لتتفق معه . هل  
انت موافق ؟

ورد حاييم في حسم :

- موافق ، اننى على استعداد . ولاكف عن ان اكون خرقة  
بالية . . . لقد سأمت هذا الحال !

لم يكن عزرا يفهم الروسية ، لكنه استطاع ادراك جدية الامر  
من لهجة الحديث ومن تعبيرات وجه حاييم . وقد اكد صمت حاييم  
هذا التخمين . وفي طريق العودة الى الكيبوتس سأل عزرا حاييم  
عما كان مكتوبا في تلك الورقة التى استغرق في قراءتها وقتا طويلا ،  
تبعته مناقشته مع السائق . لكن حاييم واجه صعوبة في الاجابة  
على السؤال ، وليس بالطبع لانه لا يثق في عزرا ، بل لان الاجابة  
لم تكن بالشىء السهل . ذلك لان عزرا لا يعرف شيئا عن روسيا  
السوفييتية ، وعن السلطة السوفييتية وعن الشيوعيين . الا انه

وجد لزاما عليه ان يجيبه ، ولذا راح يشرح له الامر في صبر .  
وراودته سعادة بالغة حين سمع صديقه الجاهل البائس المخلص  
الشريف يقول :

- ان عزرا لا يصدق انه يمكن ان يكون عالمنا حافلا بمثل  
هذه الاشياء . لكن ما دام حايميم يؤكد ذلك ، فانى اصدق . آمل  
بانهم اناس طيبون . لكن السيء انهم بعيدون عنا .

وقام حايميم وعزرا بتفريغ الشاحنة في الكيبوتس ، وتناولوا طعام  
العشاء وانصرفا للراحة . ولم يغمض لحايميم جفن ، كما كان الحال  
عقب وفاة اويآ ، لكن في هذه المرة ليس بسبب الكارثة التى حاقت  
به ، بل لانه بدأ يشعر بنفسه كأنما حمل على كاهله ثقلا كبيرا  
فترة طويلة وآن الأوان ليتخلص منه ، ويقف منتصب القامة  
ويتنهد بارتياح . نعم ، انه اليوم يستطيع ان يقول ويفعل ما كان  
يفكر فيه . لقد ذهب الى الابد ازدواج الشخصية الذى كان يقض  
مضاجعه . ذهب شعوره باليأس الذى كان يعانيه اثناء فترة  
«الاكشارا» ، وفي آخر ايامه بمكتب التصدير والاستيراد ، حيث  
كان يعمل تحت رئاسة سيمون سلمونزون .

لقد شعر حايميم بنفسه انسانا آخر تماما ، كما لو كانت قد  
واتته قوة لا يستطيع اى خوف حيالها ان ينال منه . حقا . . . ان  
هذه العصابة من الصهاينة قضت على زوجته ، وابنه ، وسعادته  
ونقصت حياته . . . هل بعد ذلك كله يمكن الخوف منها ؟ لقد  
شعر بنفسه اكثر ثقة عندما اجاب على موسى بالموافقة على  
الاشتراك في هذا النضال الصعب والخطير والشريف ، وفي العمل الذى  
يخوضه بتفان الشيوعيون في الظروف السرية . وراح يخاطب فيما  
بين نفسه ، صديقه توموف البعيد : «هيه يا ايليا ، انى اود ان  
اسير معك مرة اخرى جنبا الى جنب ! حقا . . . لست ادري كيف يمكننى  
ان افعل ذلك هنا . بيد انه يجب الا يساورك الشك في انه ما من  
قوة سوف تستطيع ان تحيد بى عن هذا الطريق . لقد جربت مذاق  
هذه الجنة التى يحكون عنها هنا !»

كان ثمة ما يجعل حايميم على ثقة في ان ايليا توموف ما يزال  
يعيش في مدينته ، وحاول تخيل ما يفعله هناك . من المؤكد أن

يكون الأمر فيها قد غدا على النقيض تماما . ولربما يكون قد حل محل افراد «عصبة الدفاع عن المسيحيين» الذين كانوا يذرعون طرقات المدينة وشارة الصليب المعقوف على بزاتهم ، الكادحون الشرفاء يحملون الرايات الحمراء ويرددون الأغاني الثورية . ومن المؤكد ، ان يكون رجال الشرطة قد اختفوا الى الأبد . ولربما تكون قد اختفت أيضا اللافتات المكتوب عليها «تحدث فقط بالرومانية ، او بالألمانية !» والتي كانت تخز الأعين عند النظر اليها . لقد حاول هاييم تخيل مشاعر ابيه وشقيقته حيال هذه التغيرات ، وكيف يعيشان وماذا يعملان . وأخذ يفكر : «ان موسى ، بطبيعة الحال ، على حق . فلن تجرى الأنهار حليبا ما بين يوم وليلة . اعتقد ان حياتهما غير سهلة بعد . لكنه لا داعي رغما من كل شئ لدعوتهما . فتلك أمور واضحة وضوح الشمس . فلن يكون بانتظارهما هنا سوى الإهانات والسخرية ، بينما هما هناك بشر يعيشان معيشة البشر . . . فهناك السلطة السوفييتية ، على كل حال !»

ولأول مرة منذ فترة طويلة يدرك الناس هاييم وهو هادئ الجنان ، لا تقض مضجعه الأحزان والأفكار السوداء . ولكن في اليوم التالي حدث ما يمكن أن يبدو للوهلة الأولى بسيطا ، وما لم يستطع هاييم ادراك عواقبه في حينه . فقد عرج نوتسى يوناس الى الكمبيوتر في طريق عودته من المزرعة المجاورة ، واستدعى هاييم الى المدير . وعند مجيء هاييم قال خيرسون :

- هذا هو متطوعنا هاييم فولديتير . أما أنا فبعد اذنك يا رفيق يوناس فسوف انصرف لتصريف بعض الأمور العاجلة . وانصرف أريه خيرسون ، تاركا يوناس يجلس على انفراد مع هاييم :

- شد حيلك ، يا هاييم !

- مرحبا .

وأصابت الدهشة يوناس حيث لم يجبه هاييم بالجملة التقليدية «شد حيلك» ، لكنه تظاهر بأنه لم يلحظ ذلك .  
- لدى متسع من الوقت لا يزيد عن عشر دقائق . وبالأدق فقد بقي لدى خمس دقائق . هكذا الأمر ! هل فكرت في عرضي ؟

- نعم ، لقد فكرت .  
- هيه ما هو ردك ؟ انك موافق بالطبع على العودة الى عملك السابق ؟

- لا ، اننى لست موافقا بالطبع .  
ونطق يوناس من بين أسنانه :  
- هيه . . . هيه ! فلتسمح لى ايها المتطوع فولديتير ان أسألك عما لا يعجب سعادتك فى مكتب التصدير والاستيراد ؟ ماذا بالتحديد يحول بينك وبين العمل على الأجر ، ذى المستقبل والذى يشرف بكل تأكيد كل يهودى مؤمن ؟  
ولم يجرؤ حايم على ذكر السبب ، واكتفى ، كالعادة ، بهز كتفيه فى صمت . وتساءل نوتسى مرة أخرى :  
- اننى أسألك يا حايم . فلتجبنى من فضلك ! اننا كبار لا نلعب الاستغماية !

وسعل حايم وحملق فى عينى يوناس واندفع يقول :  
- ان كل ما عندكم لا يعجبنى . . كله بلا استثناء .  
- لكن ، الا تستطيع أن تكون أكثر تحديدا ؟  
- اننى لا أود الاشتراك فى شؤون التهريب ولا فى اعمال التنكيل الدموى . . . اننى لم أقض فترة «الاكشارا» الشاقة من أجل ذلك ، كما أننى وصلت الى هنا ، وكنت افقد حياتى ، ليس من أجل ذلك . كفى عذابا ! وان أردت أن تعلم فاننى لست قادرا على الابتسام لأناس اهلكوا زوجتى وابنى ! وبوجه عام يمكننى ان أقول لك الكثير ، ولكننى لا أود ذلك . لا داعى . .  
وأصاب الدهول نوتسى يوناس للحظة ، فلم يكن يتوقع أبدا مثل هذا الرد الحاد الصريح من ذلك المتطوع الذى كان يعتبره هادئا خجولا ريفيا شديد الحياء . لم يكن يتوقع أن يعلن هذا الاحمر عداءه ليس فقط لأولئك الذين كان يعتبرهم يوناس أولياء نعمته ، بل ولكل ما يفعله هؤلاء المحسنون .

- آه . . أهكذا تتحدث أخيرا ؟ هيه . . يا حايم بن اسرائيل فولديتير ، متطوع فوج يوسف ترومبلدور ! . . يالك من انسان . . لكن . . عليك الا تلوم الا نفسك . فليس لدى



وقت او رغبة في الحديث معك . لكن عليك ان تراعى انك تعلم الكثير ، وما تفعله الآن يعد خيانة . خيانة حقيقية لمثل الصهيونية ! وتلك امور لا تبقى بلا عقاب ، كما قد تتصور . ولتذكر ذلك جيدا !

وقفز يوناس من مكانه وخرج دون ان يودع حايم . لم يدرك حايم على التو التهديد الذي تشير اليه آخر كلمات نوتسى يوناس ؛ وكان مبعث ارتياحه انه تحدث مع نوتسى لأول مرة في حياته حديث الند للند ، وذكر له بصراحة ماذا كان يدور بخاطره حول نشاط مكتب التصدير والاستيراد ، وحول اولئك الذين كان يوناس يتملقهم ويداهنهم ويدور في فلهم . لكن حايم ما كاد يتخلص من هيجان مشاعره حتى راح يفكر فيما ذكره يوناس : «انك تعلم الكثير جدا . . ان ما تفعله خيانة !» . وتذكر كيف انتقم في وحشية كنوخ . وشتيرن وكل اعضاء العصابة من كل من لم يعلن انصياعه ، وكل من فضح اسرارهم عن قصد او غير قصد . وتخيل حايم كيف انتقمت كل هذه العصابة من مايكل . «نعم لقد كان مايكل شخصية ذات وزن . اما انا فمن اكون ؟» . وهز حايم كتفيه «اننى لا أعنى شيئا ! بيد ان يوناس لم يقل بمحض الصدفة انه مثل هذه الامور لا تبقى بلا عقاب . . .»

واذ سيطرت هذه الأفكار على حايم ، راح يبحث عن موسى الى ان وجده وقص عليه ما جرى في لقائه مع يوناس . واتفق موسى مع وجهة نظر حايم القائلة ان يوناس يعنى ما يقول . فما قاله هو تهديد . وحاول تهدئة روع صديقه قائلا :

- فلتكن على يقين من انه سوف يوجد من يبذل كل ما هو ممكن لمساعدتك . لكننى لا اعلم بعد أى نوع من المساعدة ، وكيف سيتم ذلك . لكننى اعلم أنك لن تكون متروكا . بيد انه من الواجب عليك ايضا ان تكون حذرا . وعلى عزرا الا يتركك وحيدا . فالتهاون مع عصابة شتيرن امر خطير !

وعندما عاد حايم الى حظيرة الابقار استقبله عزرا بنظرات تحمل معنى التساؤل . فقد اقلقه استدعاء المدير فجأة لرفيقه . وبعد ان قام حايم وعزرا بالقاء العلف الى الابقار ، قص حايم

على عزرا كل ما جرى ، وكانت تكسو وجهه امارات التوتر والغضب  
كما عند الطفل . وبعد صمت طويل سأل عزرا :  
- وماذا في وسعهم ان يفعلوه ؟ انهم لن يقتلوك . اليس  
هكذا ؟

فاجابه حاييم بنبرات اسي :

- لست ادرى . ان هؤلاء اناس اشرار قادرون على كل شيء .  
- لا . . ان عزرا لن يسمح بذلك فهو رفيق جيد لن يسمح  
بالاساءة الى حاييم . وان كلفه ذلك حياته . انه سوف يلزم حاييم  
كظله ولن يتركه لحظة .

وقضى حاييم وعزرا اليوم بأكمله في قلق ينتظران عودة موسى  
من رحلته . وعاد موسى ليزورهما في وقت متأخر من الليل .

- هناك من على استعداد لمساعدتك . لكنك لست على حق  
يا حاييم في أنك فقدت أعصابك مع ذلك الشخص ، فأنت تعلم  
حقيقة هؤلاء «الرفاق» ، وتعلم ضرورة التزام الحذر حيالهم . لكن ما  
العمل ؟ لقد نفذ السهم وقضى الأمر . ان المهم هو الصمود حتى  
الرحلة التالية التي تعلم أنها لن تكون قبل بعد غد . ان هؤلاء  
الأشرار قادرون على اتيان الكثير في مدى يوم واحد .  
وتساءل حاييم :

- وماذا يمكن لرجالك تقديمه لي ؟ هل سوف يقومون بتدبير  
هروبي ؟ والى أين ؟

- اننا لن نقوم بالتخمين . ربما كان الأمر كذلك . . .  
وهنا تساءل عزرا الذي كان يجلس الى جوار حاييم في صمت  
لا يرفع نظره عنه :

- وأنا ؟ ان المدير الجديد سوف يكدر حياة عزرا حتى  
الموت . ان عزرا سوف يذهب الى حيثما يذهب حاييم .

وهنا ربت موسى في حنان على كتف عزرا وقال :

- لا داعي للاضطراب . فلننتظر ما سوف يحمله لنا الغد .

وعندما ابتعدوا عن المنزل ، ضحك موسى في مرارة وقال :

- يالكما من ساذجين ! هل من الممكن اخفاء انسان ببساطة ؟

انه ليس ابرة على اي حال . علاوة على أنكما اثنان . ام أنك تظن

اننا لا نستطيع أن نجد لعزرا عملا هنا ؟ اننا لن نتركه في مهبط  
الأقدار ! اننى سوف أظل في الكيبوتس . . . واذا ما تحدثنا بصراحة  
فاننى أقول لك أنك ابدت عجلة في الحديث مع يوناس هذا . لقد  
كان يمكن الاستفادة من عملك في مكتب التصدير والاستيراد .

وأصابت الدهشة حايميم ، ليشحذ انتباهه متسائلا :

- عملى فى مكتب التصدير والاستيراد ؟ وماذا يجدى هذا

العمل ؟

- اننى كنت اعتقد أنك تدرك الأمر . اننا يجب أن نعلم ماذا  
يفعل هؤلاء المجرمون الصهاينة ، والأهم من ذلك ، ماذا يعتزمون  
عمله . انها معركة حياة أو موت بيننا وبينهم . أو ربما تعتقد  
اننى أعمل هنا بالكيبوتس بمحض ارادتى ؟

وتوقف موسى عن مواصلة حديثه ونظر الى حايميم ، ثم استطرده

يقول :

- اننا سوف نعود للحديث عن هذا الموضوع فيما بعد . أما

الآن فهيا بنا الى النوم . . .

ولم يغمض لحايميم جفن طوال الليل ، اذ راح يفكر فيما  
تحدث عنه مع موسى وأخذ يزن حججه ، ويضرب أخماسا في  
أسداس .

في اليوم التالى أخذ يعيش حالة من التوتر فى انتظار شىء  
رهيب ، يرى أنه واقع ، آت لا ريب ، اذ ان سلمونزون وأتباعه ،  
لن يتورعوا بطبيعة الحال عن التخلص منه ، وهو الشاهد ليس فقط  
على عملياتهم المحرمة المتعلقة بالاسلحة بل وعلى اغتيالهم  
لمايكل على نحو دنى .

وبينما كان حايميم على هذا الحال من التوتر ، قابل مدير  
الكيبوتس وهو فى طريقه الى المطعم . واذا نظر أريه خيرسون الى  
حايميم الذى بدا وجهه شاحبا تعلوه أمارات الارهاق ، قال :

- ماذا يا رفيق فولديتير ؟ هل تنوى الرحيل بعيدا عنا ؟  
وتوقف حايميم من فرط المفاجأة كما لو كان قد اصطدم بحائط .  
واستطرده أريه يقول ، مفسرا ارتباك حايميم بشكل غير  
صحيح :

- اننى أعلم كافة اسرارك . لقد ذكر لى يوناى ذلك . لقد كنت للحقيقة سعيدا حين علمت أنك لا تود الرحيل عن الكيبوتس ، الا ان يوناى ذكر لى أنهم رغما عن رغبتك ، سوف ياخذونك . ولذا فلك أن تعتبر نفسك فى تل ابيب ، تشغل منصبا مرموقا فى مكتب التصدير والاستيراد .

واطمأن قلب حايم . ان هذا يعنى ان يوناى عازم على «اخذة» من هنا ، بصرف النظر عن أى شىء . وقد أكد ذلك مرة اخرى ، ان «المحسنين» القدامى لن يتورعوا عن أشد الاجراءات تطرفا .

عاد موسى من رحلته مبكرا عن مواعده المعتاد ، وقال لعايم : - ان كل شىء على ما يرام . غدا نغادر هذا المكان قبل طلوع الفجر ، وربما الى الأبد . . . .

وتساءل حايم فى قلق :

- وماذا عن عزرا ؟

وابتسم موسى فى أسى :

- لقد أعلن الرفاق استعدادهم لمساعدته . رغم انه من الأفضل ان يبقى هنا . انك سوف تعود الى وطنك ، حيث ولدت وترعرعت وتلقيت تعليمك ، حيث أبوك وشقيقتك وأصدقائك . اما هو فلا يعرف اللغة ولا يعرف الناس . ولك أن تفكر ! لكن عزرا طلب عدم التفريق بينه وبين حايم ، أقرب الناس اليه .

وفى الصباح الباكر انطلقوا فى رحلتهم ، كالعادة ، الى مصنع الجبن . واخذ حايم يتطلع الى جانبى الطريق ، يراوده حين . . . فهذا هو المنزل الذى عاش فيه مع أويًا . أحقا يراه للمرة الأخيرة ؟ أحقا هذه هى المرة الأخيرة التى يقطع فيها هذا الطريق ، تاركا وراءه ذكريات عزيزة لديه ، وآماله ، وسعادته القصيرة التى احتوتها الى الأبد مقبرتان وحيدتان وتظلهما شجرة ، تاركا زوجته وابنه . . . .

وتحسس حايم منديل أويًا فى جيبه ، ومسح عليه فى رقة . ومست الذكريات قلبه لتنزل دموعه على خديه دون أن يلحظ ذلك .

كان موسى يقود عربته في هذه المرة بسرعة أكبر من المعتاد ،  
فقد كان من المفروض أن يصل الى القدس في أسرع وقت ممكن حتى  
يتمكن من تسليم منتجات الالبان الى المصنع قبل الآخرين .  
وصاح ، حين رأى عن بعد عدم وجود أية عربات تنتظر عند

البوابة :

- آه . . كم أحب الرحابة !

وأخذ حاييم وعزرا يفرغان العربة في صمت . وحين فرغا من  
ذلك صاح موسى عن قصد يقول في اثر الموظف الذي تسلم منه  
حمولته :

- والآن هيا بنا يا شباب الى مخزن الدقيق لاحضار العلف .  
بيد أن موسى عرج بالعربة الى أول زقاق صادفهم ليسير في  
الاتجاه المعاكس لمخزن الدقيق ، مما أثار دهشة حاييم وعزرا .  
وسرعان ما وصلوا الى شارع باتى هابوخاريم ليتوقفوا عند المنزل  
الذي كانت تقطن فيه العمة دورا .

- عليكم الانتظار عند عمتى ، وسوف أعود حالا .  
وحقا ، لم يرغب موسى طويلا ، فقد عاد يرافقه شخص ذو وجه  
قمحى وشعر غزير وخطه بعض الشيب ، عيناه داكنتان عرف فيهما  
حاييم مهندس البناء جوردون الذى استقبل شيللى بيكر يوم وصول  
«ترانس اطلانطيك» الى حيفا . وعندما تبسط الجميع فى الحديث  
أخرج حاييم من حافظته مظروفا كان قد احتفظ به مكتوبا عليه  
عنوان المهندس ، كانت شيللى قد أعطته اياه ، وذكره بظروف  
اللقاء فى ميناء حيفا .

وعلت امارات الدهشة وجه جوردون وهو ينظر الى المظروف :  
- حقا . . انه خطى . نعم ، لقد كنا نعيش آنذاك فى يافا . .  
كل ذلك صحيح . لكننى أراك وقد تغيرت ملامحك . هذا طبيعى . فلم  
تكن تطلق لحيتك فى تلك الأيام .

وتحدث جوردون باختصار عن ان شيللى قضت فترة طويلة  
بالمستشفى ، وتعيش الآن مع الصبى فى كنفه فى القدس ، لكنها لا  
تشاطر أحدا الحديث ، حتى ابنها . وقال بلهجة تنم عن مواساة :  
- لقد سمعت عن احزانك . اننى افهم موقفك . . لكنها

الحياة ، ويجب الصمود . . فلن نبعث الاموات . بيد أنه من الواجب  
ايضا عدم الاستكانة للأسباب والظروف التي تجلب الشقاء للناس .  
ولقد كنت سعيدا حين عرفت أنك ايضا توصلت الى هذا  
الاستنتاج .

واكد حايم وهو ينظر في عيني المهندس :

- نعم . . ان الأمر كذلك . اننى لا أستطيع الوقوف مكتوف  
الأيدي . كفى ، فقد وقفت طويلا .

وسرعان ما تأكد حايم بشكل لا يرقى اليه الشك من ان  
المهندس جوردون شيوعى ورجل على قدر كبير من الجسارة . واتضح  
من مجرى الحديث أن جوردون كان يعلم بتهريب مكتب التصدير  
والاستيراد للسلاح ، وكان يعلم بانتقام كنوخ وعصابة شتيرن  
من كل من كان يبدو لهم غير أمين على أسرارهم . كما وصلتته  
اشاعات مختلفة ، لم تتعد حد كونها اشاعات . بيد أنه لم يكن يعلم  
ما قصه عليه حايم حول الاجتماعات السرية للصهاينة ، وخاصة  
الجلسة التي كانت تجرى في مكتب سلمونزون والتي كانوا  
يتحدثون فيها بصراحة دنيئة عن الاتصالات بين زعماء الصهاينة  
وحكام «الرايخ الثالث» النازيين ، وأخيرا عن مقتل مايكل ، مبعوث  
واشنطن ، في مكتب سلمونزون ؛ وتلك معلومات أصابت بالذهول  
جوردون الذي راح يحملق في عيني حايم وهو يقول له :

- حاول أن تتذكر كل التفاصيل . ان هذا هام للغاية . .  
ولتصدقنى !

وأخذ حايم يحكى دون أن يخفى شيئا . فقد كان يثق  
في هذا الشخص ، ليس فقط لأن موسى هو الذى أحضره ، بل ولأنه  
كان قد شاهد بنفسه كارثة «ترانس أطلانطيك» . وكان حايم يدرك  
أن هذه المعلومات حول نشاط عصابة سلمونزون لا تهم جوردون  
وحده ، بل وأصدقائه ، الشيوعيين في نضالهم ضد الصهاينة لفضح  
جرائمهم على الملأ .

وهذا ما ذكره جوردون لحايم :

- انك تدرك أن بقاءك في فلسطين بعد ذلك امر مستحيل .  
ان عصابة شتيرن سوف تعلم بسهولة مصدرنا الذى استقيننا منه

هذه المعلومات ، وسوف تقرر التخلص منك . ولذا فلن تعود الى الكمبيوتر ، فليس من المستبعد أن يزوره ان لم يكن اليوم ، ففى الغد ، شريك سلمونزون ، ولكن ليس من أجل اقناعك فى هذه المرة . ان السفينة التى يمكن أن تسافر على متنها أنت وصديقك سوف تبخر بعد غد الى رومانيا . ومثل هذه الفرصة لا تتاح لنا كثيرا . كما أنه ليست لدينا أية فرصة أخرى . بيد أننى اعتقد انه يمكنك من هناك السفر الى بيسارابيا السوفيتية .

وذكر جوردون لحاييم أن موسى سوف يرافقهما الى ميناء تل ابيب فى يوم ابحار السفينة ، ويقوم بتعريفهما بالرفيق أحمد . - ان أحمد سوف يرافقكما الى الرصيف ليسلمكما الى بحار . وبالمناسبة فان الباخرة رومانية . ويمكنكما الاعتماد على طاقم السفينة حيث ليس من المستبعد أن يساعد كما فى الوصول الى بيسارابيا . هذا هو كل ما اود أن أقوله ، على ما أعتقد . وسوف يعنى الرفيق موسى ببعض اجراءات الأمان . كما أنه سوف يمدكما ببعض المال . وللأسف فان امكانياتنا فى هذا المجال محدود للغاية . والآن أتمنى لكما رحلة طيبة .

وخرج جوردون بعد أن طلب من موسى الحضور الى المكان المتفق عليه بعد اعداد حاييم وعزرا للسفر . وشرع موسى على الفور فى العمل . فقد أخرج من جيبه مبلغا صغيرا من المال كان ملفوفا فى ورقة من أوراق الصحف ، وسلمه الى حاييم قائلا : - يوجد مقصف بالباخرة لركاب الدرجة الثالثة . يمكنك أن تقيم الولايم حين تصل الى بيتك ، أما هذه النقود فيجب أن تكفيك حتى ميناء الوصول . . اما بعد فيجب شد الأحزمة على البطون ! وأجابه حاييم فى مرح :

- لا بأس . . سوف نتمكن من العيش ! فالعالم ما يزال حافلا بالناس الطيبين . أليس كذلك يا عزرا ؟ - ان عزرا يملك يدين . . وسوف يستطيع كسب الخبز لحاييم وعزرا !

وذكر حاييم : - ان كل ما تقوله يا موسى أمور غير ذات شأن . يقلقنى

امر آخر ، حيث ان اريه خيرسون سوف يشير ضجة في الكمبيوتر بحثا عن العربة وعنا .

- لا تقلق يا حاييم . . ان كل شيء معد اعدادا جيدا . فسوف ادبر تعطيل العربة النقل ثم اجرها الى الورشة ، وابلغ المدير بذلك وسيتم التصليح ليس على الفور . اننى على ثقة من ذلك . اما عنك أنت وعزرا فسوف أقول أنكما سافرتما الى الكمبيوتر فى الأوتوبيس . ولن يبحث عنكما أحد بالليل ، بل ولن يكتشف أحد فى الصباح غيابكما الا بعد فترة من الوقت . وعلى كل حال فسوف يرسل اريه خيرسون احدا الى الورشة لمعرفة سر غيابكما . ومن أين لى أن أعرف ؟ لقد استقليتما الأوتوبيس وسافرتما . . هذا كل ما أعرفه وحسب . أما الآن فسوف أذهب ، ولكما الا تنتظرانى فى القريب العاجل ، الا أننى سوف أعود لقضاء الليل معكما . ولتبلغا عمتى بذلك .

وعند المساء وصلت العمه دورا ، وكانت قد عرفت بان ضيوفا سوف يقضون الليل عندها .

- والآن فسوف أطعمكما وأفرش لكما شيئا لتنامان عليه . أما عن نفسى فسوف أذهب الى احدى معارفى كى أبيت عندها . انها أيضا من أوديسا ! ولكما أن تتخيلاننا . نشرثر كيفما يحلو لنا . فلدينا ، والحمد لله ، ما يمكن تذكره .

وبعد أن قدمت العمه دورا لهما طعام العشاء ، وفرشت لهما لينا ، قالت لحاييم :

- بلغ موسى بأنه يوجد بالردهة وعاء به لحم . . فهو يجبه . أما الآن فانى ذاهبة .

وخرجت العمه بعد أن صفقت الباب الذى أغلقه حاييم من الداخل ليخيم الهدوء على المكان . وكانت الأنوار مطفأة ، ولذا بدأ الرعب كما لو كان قد زحف ، كمخلوق رهيب ، الى المكان مع الظلام .

ودقت الساعة الحادية عشرة .  
وخيم الهدوء على الشارع ، بينما تعالت دقات ساعة الحائط القديمة ، وطنين ذبابة ترتطم بزجاج النافذة .



ودقت الثانية عشرة !

وغلب النعاس عزرا بينما كان لا يزال جالسا على مقعده . لقد حان ميعاد النوم ، الا أن موسى ما يزال بالخارج . «فماذا حدث له ، ومتى سيعود ، ان كان سيعود ؟ وماذا لو كانوا قد قبضوا عليه ؟ ماذا يمكن ان يفعلاه هما الجالسان في هذه الغرفة ، كالفار في المصيدة ؟ علاوة على ان احمد سوف ينتظرهما في الميناء بعد غد ، فكيف لهما ان يعرفاه ؟ - هكذا كان يفكر حاييم .

ودقت الواحدة .

- عزرا ، عليك أن تنام . يجب النوم .

- عزيزى حاييم ينام ، عزرا أيضا ينام . عزيزى حاييم لا

ينام . . عزرا سوف ينتظر .

وهنا تأكد حاييم من أن ظروفًا طارئة حالت دون عودة موسى .

لكن أية ظروف ؟

وأخيرا خلد حاييم للنوم ، ارضاء لعزرا الذي كاد يسقط من على الكرسي حين غلبه النعاس . بيد أن حاييم لم يستطع النوم ، فقد تسللت الى خاطره أفكار مزعجة : «أين موسى ؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟ وماذا لو لم يحضر في الصباح ؟ وعند الظهر ؟ لا . . ان هذا مستحيل . وماذا لو حدث ذلك فعلا ؟ عندئذ سوف يأتي ، على ما أعتقد ، المهندس جوردون . . لكن ما العمل ان لم يحضر ؟ ماذا يمكن عمله في مثل هذه الحالة ؟ هل لنا أن نعود الى الكمبيوتر ؟»

وفي وقت مبكر من الصباح دق الباب ، ليهرع حاييم يفتحه . . لقد كانت العمدة دورا التي لم يقلقها غياب ابن أخيها .

- الا يعلم في أى قصر أعيش ؟ لقد قضى ليلته في مكان

آخر . ماذا ورد بخاطركما ؟ طبعا . . انه لم يود أزعاجكما . انه

انسان ذو نفس من الجوهر ! ان الجميع يحبونه بدون استثناء . لا

يوجد انسان في العالم ، الا ونال اعجابه ! لكن ماذا لقي هو جزاء

ذلك . . لكما أن تسالاه . . ليس سوى قميصه وسرواله . فلتحاولا

ان تشرحا له معنى الحياة وكيفية ممارستها ! حفظكما الله !

راحت العمه دورا تثرثر طويلا ، الاّ انها لم تستطع انتظار ابن  
اخيها لتنصرف قائلة وهي تبتسم في سخرية تتسم بالحزن :  
- سوف اذهب لامارس «التجارة» ! فلتذهب الى الشيطان ،  
فقد سئمتها ! وارجو ابلاغ موسى عندما يعود بضرورة تناول اللحم  
الموجود في الردهة والافسوف يفسد ، فلست املك ثلاجة !  
لكن ما كادت العمه دورا تنصرف ، حتى عادت بعد ربع ساعة  
تقول في قلق :

- جاءنى الآن شاب يركب دراجة ، ابلغنى بانهم قبضوا على  
موشى مساء الامس . كيف يروق لكما ذلك ؟  
لم يدرك حايبم على التو ما تقوله العمه دورا . واراد ان  
يسألها ، الاّ انها واصلت ثرثرتها تقول :

- ان هذا الشاب لم اراه طول حياتى ولا اعرف عنه شيئا  
على الاطلاق . بينما يعلم ان موشى ابن اخى . وكنت اود السؤال  
عن مصدر كل هذه المعلومات الاّ انه قفز يمتطى دراجته وانصرف .  
ما العمل ؟ لقد كنت اود التوجه الى الشرطة حيث اعرف هناك  
وغدا طيبا يمكن ان يبيع اقرب الناس اليه لقاء المال ، لكننى فكرت  
في انه من المحتمل ان يكونوا قد قبضوا على موشى لأسباب لا تتعلق  
بالعربة . ولما كان الامر كذلك ، كيف لى ان أقف هكذا  
كالبلهاء العجوز ؟! فان رفيقيه يقبعان في عقر دارى ! . .

وقام حايبم وعزرا بمعاونة العمه دورا في نقل بعض رزم الجرائد  
والمنشورات السرية باللغتين العبرية والعربية الى أعلى الجمالون ،  
وفي تغطيتها بكافة النفايات . وذكرت العجوز لحايبم مودعة اياه ،  
عنوان شخص «سوف يقوم باللازم» على حد قولها . وقالت وهي  
تنفض الغبار عن مريلتها :

- انه بجوار الدير اليونانى خلف المحطة . فلتسألا عن شارع  
جيثات هانانيا . وسوف تجدان على الناصية صيدلية صغيرة الى  
جوارها محل لبيع الخبز . هناك في ذلك المنزل يعيش هذا الشخص  
ويدعى جوردون ويعمل مهندسا . هل تستطيعان تذكر ذلك ؟ اما  
عن كونهم قد القوا القبض على موشى فسوف يندرفون الدمع ندما .

انهم سوف يعرفون من تكون العمة دورا ! سوف أنقص عليهم حياتهم . . .

بيد أن الوضع كان أكثر تعقيدا ، مما كانت تتصور العجوز دورا . فقد قامت الشرطة مساء أمس بتفتيش منزل جوردون واقتياده الى مركزها . وقد ذكر ذلك ، العجوز الذي سأله حاييم عن منزل جوردون .

وقرر حاييم العودة الى العمة دورا وابلغها بالقبض على جوردون وطلب عنوان آخر . لكنه ما كاد وعزرا يقتربان من المنزل حتى شاهدا أمام مدخله عربة شرطة راح رجالها يلقون فيها برزم الجرائد والمنشورات التي بذل حاييم والعمة دورا جهدهما في اخفائها صباح ذلك اليوم . ودلف حاييم وعزرا على الفور الى مدخل المنزل الواقع على ناصية الشارع . فقد تأكدا من انه يجرى تفتيش منزل العجوز ، ومن انهما سلما من القبض عليهما باعجوبة . وسرعان ما اقتاد رجال الشرطة الى الشارع العمة دورا التي راحت تصيح ، وتدفعهم بعيدا وتطلب مواساة جيرانها الذين تجمعوا فضولا يشاهدون ما يجرى . وما كاد يلقي رجال الشرطة بالعمة دورا في عربتهم ، حتى وصلت الى هناك عربة ركوب عرف فيها حاييم على التو سيارة سلمونزون . ونزل منها نوتسى يوناس واريه خيرسون . «ان ذلك يعنى انهم ابلغوا الكيبوتس امس بالقبض على موسى .» - هذا ما ورد بخاطر حاييم .

كان يجب مبارحة حى بوخاريم على وجه السرعة . لكن الى أين ؟ لم يكن حاييم يشك في ان يوناس وخيرسون يبحثان عنه وعن عزرا ، وسوف يلجآن الى الشرطة ان لم يجداهما عند العمة دورا . أين لهما قضاء الليل حتى صباح اليوم التالى ؟

راح عزرا الفارع القامة يسير في اثر حاييم الضعيف البنية كما الجمل الذى يتبع الحمار الصغير . وشرعا لبضع ساعات يجولان شوارع الضاحية المتربة تحت اشعة الشمس الحارقة ، يجفلان من كل ما يبدو لهما مبعث شك . وكثيرا ما كانا يندفعان في عجلة الى اقرب فناء وهما يحبسان أنفاسهما ، حين كانا يصادفان في طريقهما الشرطة .

وفي آخر النهار عندما وصلا الى مقربة من دير نوتردام دي فرانس ، تذكر هاييم احد الرهبان من مدينة اسماعيل الذي تعرف عليه في مطعم صغير ، ورحب به جدا عندما عرف انه من بيسارابيا ، ودعا الى زيارته في الدسكرة التابعة للكنيسة الروسية .

واسرع هاييم الخطى ، ليعبر وعزرا بوابة حيفا في المدينة القديمة ، ويتجاوزا البطريركية اللاتينية ويصلا الى معبد البعث ، حيث كما كان يعتقد هاييم ، توجد تلك الدسكرة . بيد انه كان قد أخطأ العنوان . وبعد ان سأل هاييم بعض عابري الطريق ، اتضح له ضرورة عودتهما الى بوابة القدس القديمة العالية الحجرية ، والسير قليلا في طريق يافا ، ثم الانعطاف الى ضاحية مجراش خاروسيم .

واخيرا وصلا بالكاد الى الابنية الروسية . لكنهما ضلا الطريق ايضا وسط مباني الكنائس والمؤسسات الدنيوية . واضطرا الى السير بين بنايات الرهبان ، ثم الى الدار «الرسمية» ، والى المدرسة ، واخيرا الى الورش حتى استطاع أحد الرهبان ، ردا على سؤال هاييم حول مكان كاهن من اسماعيل ، ان يخمن ان فيكينتي اسماعيلسكي هو المقصود .

وما ان سمع هاييم هذا الاسم الذي كان يعرفه ونسيه حتى صاح في فرح :

- هو . . نعم هو . . فيكينتي اسماعيلسكي !  
واقتراد الراهب القادمين الى جناح الرجال وذهب ليبلغ الراهب اسماعيلسكي بوجودهما . وعرف هاييم على الفور فيكينتي اسماعيلسكي حين خرج من منزله . ذكره هاييم بحديثهما في المطعم الصغير ، فتهلل وجه الراهب وقال :

- حقا ! ابن بلدي ! يبدو انني نسيت . لقد اطلقت لحيثك كما ارى . . . وهذا هو ما جعلني لا أستطيع معرفتك من الوهلة الاولى . عفوا ومعذرة . . . انني يجب ان اترككما لبعض الوقت . فسوف تبدأ الآن صلوات المساء .

وقاد فيكينتي ضيفيه الى الحديقة ، حيث طلب منهما الانتظار . وقد كان هاييم سعيدا لانه وجد فرصة للتفكير في حديثه مع رجل

الدين . وهل كان من الممكن ان يقصا عليه ما حدث لهما ؟ من المشكوك فيه ان يبارك فيكيثنتى علاقتهما بالشيوعيين المحبوسين ، علاوة على رغبتهما في الهروب ، وخاصة الى بيسارابيا السوفيتية . كما كان من الضروري ايضا التفكير في حجة دامغة لاضطرارهما الى طلب قضاء الليل عنده .

الا ان حاييم لم يتوصل الى قرار حتى وصل فيكيثنتى وطلب منهما ان يتبعاه . ودخل ثلاثتهم الى قاعة استقبال قديمة ذات سقف مقبب وأرضية حجرية . وقد زاد من كآبة المكان الذى يشبهه الضريح الاراتك الثقيلة ذات الارجل المصنوعة على شكل صليب ، والمساند العالية ، والمائدة الضيقة الطويلة الموضوع عليها انجيل ضخم ، والنقش البارز على الحائط الذى يمثل المسيح المصلوب ، وصورة العذراء فى الركن تبدو فى ضوء المصباح الخافت .

وأجلس فيكيثنتى ضيفيه دون ان يسألها عن سبب هذه الزيارة ، بالرغم من انه كان يعلم انها لم يأتيا من باب حب الاستطلاع . وكان الدليل على ذلك امارات الانهاك والقلق التى علت وجهيهما ، ولاسيما وجه حاييم . كما ان الوقت لم يكن مناسباً للتزاور . وتوجه الراهب الى حاييم يقول له :

- هكذا الامر يا ابن بلدى ! ليست الامور فى بلدنا على ما يرام ! لقد كان الرومانيون يتحكمون فى بيسارابيا ، بينما ، ولعلكما سمعتما بذلك ، وصل البلاشفة الملحدون اليوم الى هناك . يبدو انه محكوم على بقضاء حياتى فى الصلاة الى جوار التابوت الالهى ، ومعاناة الحنين الابدى لأرضنا الحبيبة .

وبعد فترة من الصمت قصيرة ، ذكر حاييم فى وجل :  
- وحتى هذا غير ميسور لنا ، لا يمكن لنا التفكير فى العودة الى الوطن ، كما انه من المستحيل ايضا البقاء هنا . لقد رحلنا عن الكيبوتس . هربنا ! انها اشغال شاقة هناك ، وليست حياة على الاطلاق ! لقد كنا غرباء وسط ذويتنا . لم يكونوا يعتبرونا بشرا ، يعاملوننا كعبيد . لم نستطع الصبر ، واختلفنا مع رؤسائنا هناك . ولذا قررنا الهرب الى حيثما تقودنا اقدامنا . فأى مصير ينتظرنا ؟ تلك امور تبعث على الرعب .

وأعلن فيكينتى استحسانه لهروب ضيفيه من الكيبوتس ولجوئهما الى دير الله . بيد ان حايمم ادرك من الحديث ان الراهب يرغب فى الاستفادة من وضعهما الحرج ، لاقتناعهما بالبقاء فى الدير الى الابد وباعتناق المسيحية . وشعر بالحرج وراح يفكر : «نفس الصورة التى شهدناها فى الحاخامية ، ان الارض تميد تحت اقدامنا بينما هو لا يهتم الا بما يود التوصل اليه . . .»

أخذ حايمم يستمع الى الراهب فى صمت بينما يفكر : «فليظن انه يبذر بذوره فى أرض صالحة ، ما دام سوف يوفر لنا فرصة قضاء الليل عنده . اما فى الغد فسوف نقول له «شكرا» ، ونطلق اقدامنا للريح . . .»

وقطع فيكينتى حديثه عن حياة الراهبة المباركة ليقول :  
- لكن يجب ان تتناولوا طعامكما فى البداية . هذا هو قانون الدير . . . لا حديث مع الضيف الا بعد تقديم الطعام له .  
ورافق حايمم وعزرا الى حجرة الطعام ، بينما راح يحدثهما عن تاريخ تلك المباني الشهيرة التى كانوا يمرون بها . كان يتحدث بفخر عن اهمية كنيسة الثالوث المقدس ذات القباب الخمس ، والمبنى الذى كان يعيش فيه فيما مضى القنصل العام للامبراطورية الروسية .

وكان الظلام قد خيم حين وصل ثلاثتهم الى المطعم ، وهو عبارة عن يناية طويلة كثيفة ذات نوافذ كثيرة غير كبيرة مثل نوافذ السجون .

- وهذا هو مطعم جناح الرجال . تفضلا لتناول طعام العشاء .  
ولست اتفاخر حين اقول ان اخوتنا فى المسيح مضيافون بالقدر نفسه سواء حيال رعيتهم والحجاج ام حيال ابناء الديانات الاخرى الذين يزوروننا بسلام وحب . . .

واثناء تناول طعام العشاء عاد الراهب فيكينتى ، على نحو اكثر صراحة ليعرض على ضيفيه البقاء فى الدير ، والانضمام الى صلواتهم التى ، كما يقول «تحمى الانسان من السقوط وتحرر روحه بقوة عجيبة من آلام ومعاناة الدنيا» .  
وأجابه حايمم فى هذه المرة :

- اننى اصدقك . . . ان اناسكم يعيشون على نحو جيد ويتناولون طعاما جيد المذاق . جيد جدا ! واقسم على ذلك ! لكن المرء لا يستطيع الموافقة هكذا سريعا على تلك الامور التى تتحدث عنها . يجب التفكير اولا ، حتى لا يكون هناك مجال للندم فيما بعد .

- هذا شئ طبيعى . فلا داعى للعجلة فى كافة الامور ! فلتعيشا بيننا ، وتشاهدا على الطبيعة مجريات الامور ، ثم لكما فيما بعد ان تقررا . . انها قضية جدية !

- هذا طبيعى . . يجب التفكير . ويجب ان احكى لرفيقى عن كل شئ ، وان افطنه ، اذ انه لا يعرف الروسية ولا يفهم عما نتحدث .

وقال فيكيينتى بموافقة :

- ان هذا صحيح . فكرا فى الامر ، وتشاورا فيما بينكما ، ثم ان الامر سيجد حلا له من كل بد . . .

وبعد عشاء حافل ، رافق فيكيينتى ضيفيه الى جناح الرجال ، بينما لم يتوقف لحظة عن الحديث حول حياة الاخوة الروس الوديعه البارة فى الدير . وقبل انصرافه صار يذكر :

- وكما يقول المتنورون فان للصبح عيوننا . فلتناما نوما هادئا ولتناالا قسطكما من الراحة ، ولتشاهدا كيف يعيش اخواننا فى الدير ، ومن ثم نتحدث . ولدينا متسع من الوقت ، ولا داعى للعجلة . وصدق المثل القائل : فى التانى السلامة وفى العجلة الندامة .

وفى اليوم التالى ، ما كاد فيكيينتى يفرغ من اداء صلاة الصباح ، حتى استدعى لمقابلة حاييم وعزرا اللذين كانا يقفان عند مدخل المعبد . وذكر حاييم على الفور انهما قررا السفر الى حيفا ، حيث من المحتمل ان يجدا عملا على متن احدى السفن .

- سوف نذهب للعمل كوقاديين او حمالين ، او للالتحاق باية وظيفة اخرى تكفل لنا الرحيل عن «ارض الميعاد» هذه . شكرا لكم على انكم قدمتم لنا الطعام والمأوى . شكرا لرغبتكم فى ضمنا اليكم ، الا ان القدر لا يحتم ذلك . ان اعداءنا سوف يعرفون ان اجلا

او عاجلا مكاننا ، وعندئذ لن يكون هناك مجال لتلافي الكارثة . بل  
ويمكن حينئذ ان تلوموا انفسكم على انكم اقنعتونا بالبقاء . هذا  
رغما عن اننا ، ونقسم على ذلك ، لم نرتكب اثما .

عقدت الدهشة لسان فيكينتى نتيجة لتطور الاوضاع على  
هذا النحو . اما حاييم وقد كان يود التعجيل بشرح حيثيات قراره ،  
ما ان لاحظ التأثير الذى تركته كلماته على ابن بلده الراهب ، حتى  
تجرا على ان يطلب منه بعضا من المال ، ولو ما يكفى لتغطية  
نفقات سفرهما بالسكة الحديد .

وما كاد الحديث يتطرق الى المال حتى عاد الراهب الى وعيه  
ليقول :

- لقد استقبلكما هذا الدير وآواكما دون ان تدفعا لقاء ذلك  
اى مبلغ من المال . هذه هى العادة . ويمكن ان نمنحكما فرصة  
السفر الى يافا فى احدى عرباتنا التى تسافر الى هناك . بيد اننى ،  
عبد الله ، لا املك مالا ، كما الحال عند اخوانكم البؤساء فى  
الكيوتس الذين يكدحون ليل نهار . ويشهد الله على اننى لا املك  
مليما واحدا !

وعلق حاييم على ذلك قائلا :

- ما العمل اذن ، ما دام الامر كذلك فلنذهب سيرا على  
الاقدام ، والمهم ان نبارح هذا المكان على وجه السرعة . نشكركم  
مرة اخرى ووداعا .

واجابه الراهب وقد خاب امله ورسم علامة الصليب على  
كل منهما ثلاث مرات :

- مع السلامة . لربما من الافضل ان يكون المرء ندا بين  
الغرباء ، عن ان يكون غريبا بين ذويه فى ارض الميعاد . كل شئ  
ممكن فى هذا العصر . وان ضاق بكم الحال ، لكما ان تعودا فابوابنا  
مفتوحة لكما مثلها مثل قلوبنا التى تستقبل كل بائس طريد .

وفى الطريق الى تل ابيب اخذ حاييم يفكر والالم يعتصر قلبه  
فى كيفية مقابلة احمد الذى لم يره طوال حياته . بيد ان الامر  
كان أبسط مما كان يتصور . فقد لاحظ حاييم عند مدخل الميناء  
وسط الحمالين شخصا يرتدى عقالا عرف فيه ذلك العربى الذى



كان كثيرا ما يقابله ايام كان يعمل مساعدا لسائق الاوتوبيس .  
كان الجمالون ينادونه «بالمعلم» احتراماً له ، او باسمه «أحمد» .  
والتقط حاييم انفاسه فقد كان على يقين ان هذا الشخص هو احمد  
الذى ينتظرهما . وكان أحمد بدوره ، بعد ان علم بالقبض على  
موسى ، يراقب في تمنع حاييم وعزرا اللذين كانا يسيران نحوه في  
وجل . وسارع يستقبلهما ، حتى يتبين جلية الموقف بعيدا عن  
الانظار . ولم يتطلب الامر شرحا على اى حال . فقد عرف أحمد  
حاييم وفي محاولة للتأكد من انهما هما اللذان كان يجب على موسى  
مرافقتهما ، سأله :

- واين صاحبكما ؟

- السائق ؟

- نعم . سائق عربة النقل . هل اصابته وعكة ؟

وأجاب حاييم بنبرة تتسم بالحزن :

- نعم . . . ويبدو أنها وعكة عصبية !

- حقا ، لقد وقعت كارثة . . . لكن . . . لا بأس ! عليكما

ان تتبعاى . . . لقد كنت أنتظركما منذ وقت طويل ، وراودنى

تفكير فى انه ربما انتما ايضا قد تعرضتما لمثل هذا الموقف .

وقاد أحمد الهاربين الى الرصيف ، بينما كانت السفينة قد

أرست مراسيها بعيدا عن الرصيف . وسرعان ما وصل زورق

بخارى ، توجه أحمد ناحيته ليتبادل بعض الكلمات مع أحد بحارته ،

ثم أشار الى حاييم وعزرا . ونظر البحار الى حاييم ونصحه بحلاقة

ذقنه حتى لا يكون متميزا بين الركاب . وكان هناك صالون حلاقة

على مقربة من المكان ، كما كان هناك متسع من الوقت . اما هو

فذكر انه سوف يتوجه الى الجمارك لتنفيذ مهمة اوكلها اليه

القبطان .

وأعطى أحمد حاييم قرشا وأشار اليه ان يذهب لحلاقة

ذقنه ، بينما وقف ينتظره مع عزرا .

وأخذ حاييم ، وهو جالس على كرسى الحلاقة ، يفكر

بارتياح : «بعد نصف ساعة سوف نكون على متن السفينة لننطلق

بعيدا عن الاهوال والمصائب» . ولم يود التفكير فيما ينتظرهما فى

الميناء الرومانى ، فقد كان المهم هو الرحيل بعيدا عن هنا . وحين نظر الى المرأة ، لم يعرف نفسه حيث بدا وجهه هزيلا يغطيه النمى ، وأذناه طويلتين بشكل يدعو الى الضحك . وتذكر رغما عنه آخر مرة حلق فيها ذقنه حين ذهب يعود اويا بالمستشفى ، وحين خرجت اليه لأول مرة بعد الولادة ، تبدو عليها امارات السعادة والفرحة التى ارتسمت فى عينيها . تذكرها حين اندفع اليها وضمها الى صدره وراح يمسح طويلا على رأسها الذى سندته الى كتفه . وتخيل حاييم اويا الحبيبة صغيرة هزيلة لا حول لها ولا قوة ، تذكرها هى حبيبته الوحيدة . وها هو اليوم يسافر بعيدا عن مقبرتها .

وظلت الذكريات الحزينة تسيطر على حاييم ، الذى دفع حساب الحلاق ، دون ان يعير انتباها لتلك الاصوات المنبعثة من ناحية الميناء ، ولمغادرة الحلاقين الآخرين للصالون . وجمد حاييم فى مكانه حين غادر الصالون ووقع نظره على عزرا الذى يركض ويلحقه اريه خيرسون وشبان يرتدون قمصانا زرقاء ، ولم يدر ماذا عليه ان يفعل . واذ سمع نداء أحمد ، اندفع حاييم اليه لا يلوى على شىء فى اتجاه الرصيف حيث قفز الى الزورق البخارى الذى كان ينتظره . وقام البحارة الذين اصابهم الرعب حيال كل ما يجرى ، «بوضعه» فى قاع الزورق وتغطيته بالمشمع .

وتوقف عزرا فجأة والتفت الى مطارديه وهوى بقبضته ليطيح باول من تعرض له منهم ، لدرجة ان بقية ذوى القمصان الزرقاء لم يتجاسروا على الاقتراب منه ، ووقفوا يشكلون نصف دائرة وهم يلهثون كما قطيع الكلاب الذى احاط بفريسته .  
وصاح خيرسون يهيب بالواقفين للامساك به ، وراح اولهم يتقدم اليه قائلا :

- اياك يا عزرا . اياك ! سوف يكون جزاءك اشد . . .  
بيد ان عزرا تقدم فى خفة الى اريه خيرسون ووجه اليه ضربة طرحته ارضا ، ثم اندفع يجرى الى المرسى . وحين شاهد الزورق يبتعد عن الشاطئ متجها الى السفينة ،لقى بنفسه فى البحر .  
وأصابت الحيرة مطارديه . فما العمل ؟ هل يحاولون اللحاق

بعزرا سباحة ، بعد ان غدا بعيدا عن الشاطئ ، ام يقدمون العون الى اريه خيرسون الذى يرقد فاقد الوعي . وفي تلك اللحظة غادر الرصيف زورق حراسة انجليزى ظن ربانه ان هناك مجرما هاربا من العدالة يحاول الفرار .

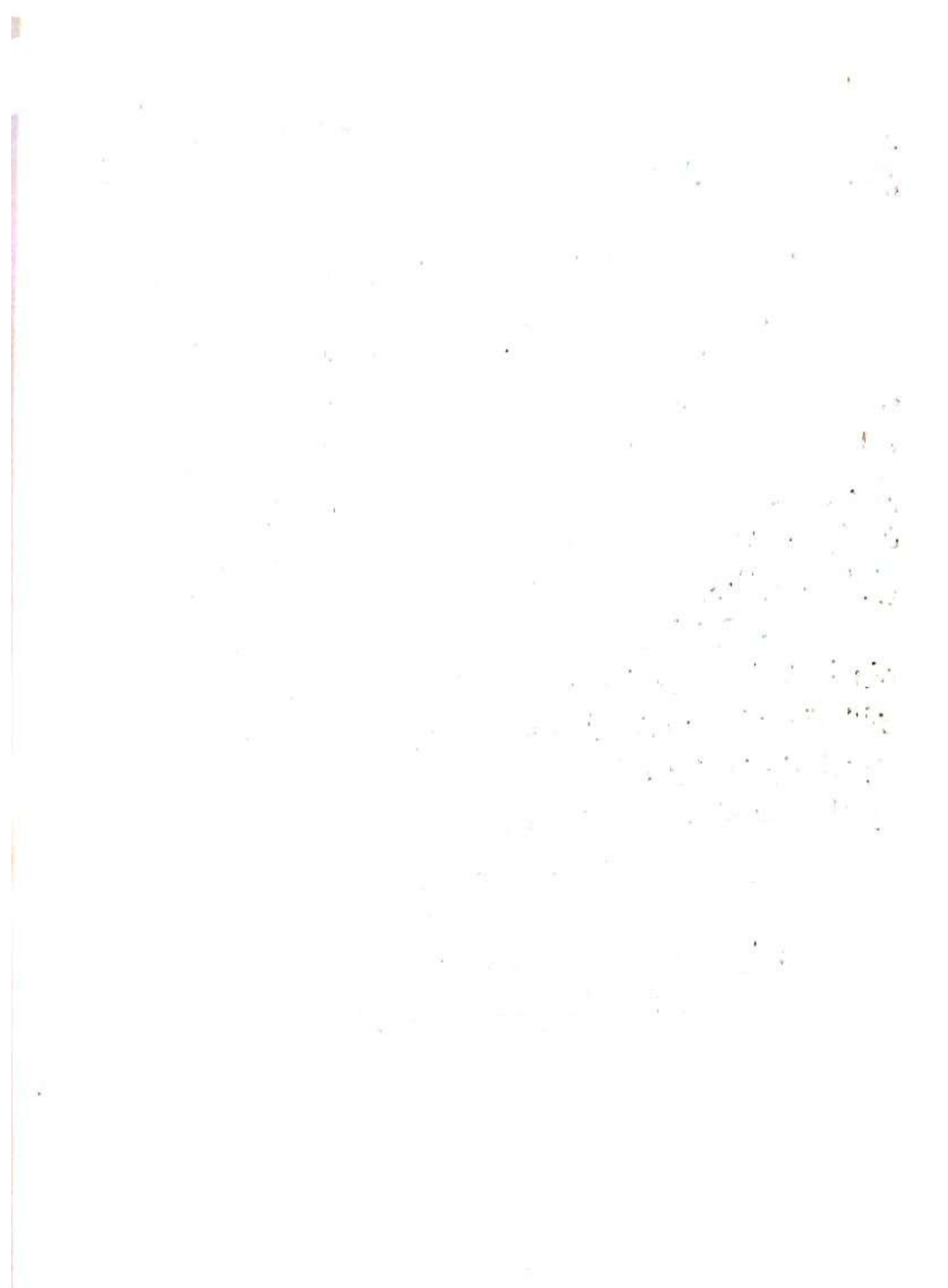
لم يكد الزورق البخارى يقترب من السفينة الرومانية حينما اندفع زورق الحراسة بسرعة متزايدة نحو الرجل السابع . بيد ان الامسـاك به كان امرا صعبا ، فقد كان عزرا سباحا ماهرا . فما أن شاهد الزورق يقترب منه حتى غطس تحت الماء واختفى بعيدا عن مطارديه . وعندما بدا راسه الاسود بعيدا ، تحول الزورق اليه ، الا انه غطس ثانية وراح يسبح فى اتجاه لم يتوقعه مطاردوه . وظل عزرا يناضل هكذا ، حتى شاهدتهم يرفعون الزورق الذى كان يحمل حايم الى متن السفينة الرومانية . ولوح بيده تحية للسفينة الرومانية الراحلة ثم غطس ليغرق .

وقف حايم طويلا عند الكوة المستديرة بجانب السفينة وقد جفت مآقيه كمدا ، ينظر الى البحر الهادى الرقيق ، والى الزورق الذى يدور كالصقر بين الرصيف والسفينة الرومانية ، والى اضواء المدينة الخافتة التى تتألق ضعيفة فى الغسق ، والى السماء الحافلة بالنجوم الكبيرة . لقد ترك هناك «أرض الميعاد» .

وابتسم حايم فى مرارة :

- «اي ميعاد !» ، «ولمن ؟» وتذكر كلمات موليا :

- «بلد النجوم الكبيرة ، والدموع المريرة !»



## الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم  
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل  
عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .  
العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧  
موسكو - الاتحاد السوفييتى

# دار التقدم

## يعاد للطبع

### نمط الحياة السوفييتي

ما هو نمط الحياة السوفييتي ؟ فيم تتجلى عناية الدولة السوفييتية المتواصلة بمواطنيها ؟ يجيب الكتاب على هذين السؤالين وكثير غيرهما. وهو يتحدث عن الحياة التي ولدها النظام الاشتراكي الجديد .

يضم الكتاب بحوثا وتحقيقات صحفية ومقالات اجتماعية بقلم قسطنطين سيمونوف ورسول حمزاتوف وانا تولى اغرانوفسكى ويفغيني كريغير وغيرهم من الكتاب والصحفيين الذين يتحدثون عن مصائر المواطنين السوفييت ويطلعون القراء على اعمالهم وافكارهم وآمالهم .  
الكتاب مزود بصور .

# دار التقدم

## يعهد للطبع

دزاسوخوف . في سبيل التضامن ضد الامبريالية

ظهرت منظمة تضامن شعوب آسيا وافريقيا في  
اواخر الخمسينات ، في فترة تصاعد النشاط الاجتماعي  
والسياسي والموجة العارمة من ثورات التحرر الوطني  
في بلدان هاتين القارتين .

يتضمن هذا الكتاب استعراضا تاريخيا لتطور  
حركة التضامن ، ويكشف عن دور هذه المنظمة في رص  
صفوف اوسع التيارات التحررية الوطنية في بلدان  
القارتين .

# دار التقدم

## صدر

### الطبقة العاملة لبلاد السوفييتات

(سلسلة

«التقدم . كتب عن الاتحاد السوفييتي»)

تتكون هذه المجموعة من ثلاثة ابواب مكرسة  
لاكثر القضايا الحاحا في حياة العامل السوفييتي في  
السبعينات .

يتناول باب «القوة القائدة للمجتمع السوفييتي»  
مراحل تطور الطبقة العاملة والتغيرات الجارية في بنيتها  
بتأثير الثورة العلمية التكنيكية .

ويتحدث الباب الثاني عن عناية المجتمع بالمرأة  
الكادحة في الاتحاد السوفييتي .

ويكرس الباب الثالث لقضية الخلف العمالي  
واشكال وطرق التعليم المهني وتربية الشباب .



